مواهب الجليل في شرح دعاء كميل

الشيخ فاضل الصفار

الجزء الأول

دار المحجة البيضاء

شبكة الفكر
alfeker.net

مواهب الليل في شرح دعاء كميل

الجزء الأول

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت لبنان

الرويس، مفرق محفوظ ستورز، بناية رمّال

00961 1 552847 14/5479

00961 1 541211 / 00961 3 287179

daralmahaja almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

9786144801277

مواهب الجليل
في شرح
دعاء كميل

الجزء الأول

الشيخ فاضل الصفار

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴾ سورة إبراهيم: الآية ٤٠

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ سورة البقرة: الآية ١٨٦

في ثواب الأعمال قال رسول الله ﷺ: **﴿ألّا أدلّكم على سلاح ينجيكم من عدّوكم، ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: بلى. قال: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإن سلاح المؤمن الدعاء﴾**[(١)].

وقال الصادق عليه السلام: **﴿وعليكم بالدعاء فإن المسلمين لم يدركوا نجاح الحوائج عند ربهم بأفضل من الدعاء والرغبة إليه، والتضرّع إلى الله والمسألة له، فارغبوا فيما رغّبكم الله فيه، وأجيبوا الله على ما دعاكم إليه لتفلحوا وتنجوا من عذاب الله﴾**[(٢)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٦٨، ح٣؛ ثواب الأعمال: ص٢٧.
والعدو يشمل هوى النفس والشيطان والمال والحرام والولد العاق والسلطان الجائر وكل ما يوجب السوء والشر على العبد، وبالدعاء ينجو منه.

(٢) الكافي: ج٨، ص٤، ح١؛ البحار: ج٧٥، ص٢١٢، ح٩٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اللهم بحق يَس والقرآن الحكيم، وبحق طه والقرآن العظيم. يا من يقدر على حوائج السائلين، ويعلم ما في الضمير، يا منفّس عن المكروبين، يا مفرّج عن المغمومين، يا راحم الشيخ الكبير، يا رازق الطفل الصغير، يا من لا يحتاج إلى التفسير صلّ على محمد وآل محمد﴾[1]. اجعلنا مشغولين بأمرك، آمنين بوعدك، آيسين من خلقك، آنسين بك، مستوحشين من غيرك، راضين بقضائك، صابرين على بلائك، شاكريك على نعمائك، متلذذين بذكرك، فرحين بكتابك، مناجين بك آناء الليل والنهار، مستعدين للموت، مشتاقين إلى لقائك، مبتغضين للدنيا، محبين للآخرة، وآتنا ما وعدتنا على رسلك، ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد[2].

---

(١) الدعوات (للراوندي): ص٥٤، ح١٣٨؛ البحار: ج٩٢، ص١٩٦، ح٢٩؛ الدعاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: ﴿ضمنّي والدي عليه السلام إلى صدره يوم قتل والدماء تغلي وهو يقول: يا بني، احفظ عنّي دعاء علمَتنيه فاطمة صلوات الله عليها، وعلمها رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلّمه جبرائيل في الحاجة والمهم والغم والنازلة إذا نزلت، والأمر العظيم الفادح﴾.

(٢) جامع الأخبار: ١٥٤؛ البحار: ج٩٢، ص٣٦١، ح١٦، من دعاء النبي صلى الله عليه وآله.

كلمات في البدء

الكلمة الأولى: لدى الخوض في أي بحث ينبغي معرفة موضوعه ودواعيه وآثاره، ولا يختلف في ذلك البحث التأليف الذي يقرر فيه الباحث موضوعه وخطته وأدواته للوصول إلى نتائجه عن البحث التعليقي الذي يختار الباحث فيه متناً يتكفل بشرحه والتعليق عليه ببيان معانيه وآثاره ونتائجه.

وربما تسهل هذه المهمة على الباحثين إذا تعلق بحثهم بالمتون التي يضعها العلماء وأهل الاختصاص كما هو متداول في الكتب العلمية، وأما إذا كان المتن صادراً عن معصوم منطقه وحي ومنبعه خزائن السماوات والأرض كالقرآن والسنّة فإنّ المهمة تكون في غاية الصعوبة؛ لوجوب أن يكون الشارح مستوعباً لما يشرحه، محيطاً بأسراره ومعانيه، وهذا ما تعجز عنه عقول الشارحين وملكاتهم العلمية لأن علمه لا محدود ومقاصده أوسع من حدود اللغة وكلماتها، ولا يمكن للمحدود في علمه ولسانه وبيانه أن يشرح أو يعلق على كلام هو فوق العقول والعلوم، ولا يملك الشارح مهما بلغ من العلم في مقابل كلام المعصوم إلّا الإقرار بأمرين:

الأول: العجز عن الإحاطة بعمق كلامه وبلوغ تمام أسراره ومعانيه.

والثاني: أنه يدرك بعضه بحدود ما تفيده اللغة من دلالات، وبمقدار ما تدركه العقول من مفاهيم وحقائق.

فلذا لا يمكن أن يكون شرح كلام المعصوم تاماً كاملاً من كل جوانبه، وما يمكن هو كشفه عن بعض الجوانب، والمعرفة الإجمالية في مثله تعد إنجازاً كبيراً بها يصل الإنسان إلى درجات عالية من المعرفة والإدراك.

بهذه النظرة سعينا أن يكون شرحنا لدعاء كميل الذي هو من أرقى الأدعية وأعلاها شأناً به ناجى أمير المؤمنين عليه السلام ربّه، وأظهر فيه جماله وجلاله، وكشف أسرار العبودية والربوبية التي هي غاية ما يطلبه الأنبياء والأولياء.

علّنا نوفق لها وننال شرف المعرفة وشرف التقّرب منه عليه السلام، وبعد ذلك شرف الخدمة لأهل البحث وطالبي المعرفة والإيمان.

فقد تضمّن الدعاء الشريف الكثير من المعارف والأسرار الربانية والقواعد التربوية العظيمة في أدب العبودية وتهذيب النفس وتربية الإنسان وإيصاله إلى سعادته الروحية في حياته الدنيوية والأخروية لو جعلت محوراً للدراسات في المعاهد والجامعات واتخذتها الإنسانية منهجاً لبلغت القمة في علم صناعة الإنسان وتنميته عقلاً وعملاً.

الكلمة الثانية: إنّ خير ما ينشغل به المؤمن -لاسيّما أهل العلم- هو التفقه في القرآن والسنّة، فإنّهما النهج الرباني الكامل الذي يصيّر العالم عارفاً بنفسه وبربّه، ويرتقي به إلى مقام العبودية الذي هو أرقى سمة ينالها الإنسان تضيء عقله، وتزكي قلبه، وتهذّب سجاياه وطبائعه، وتقوّم سلوكه، وفي عين الحال تخلّصه من أوهام الأفكار ووساوس الشياطين وظنون الباحثين وآرائهم، كما أنّها الطريق الوحيد الذي يضمن به الإنسان

سلامته وسعادته في الدينا والآخرة، ومن أثرى منابع العلوم والمعارف الإلهية الأدعية والمناجاة الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، فإنّها بحق نهج للعبادة، وسلّم للارتقاء، وخزين للعلم والحكمة، ومدرسة عظيمة للتربية الروحية.

بل وثروة معنوية هائلة؛ لأنّها كلام صادر من المعصوم بمستواه العالي ومقامه الرفيع إلى من هو مثله كما في الزيارة، أو هو أعظم كما في الدعاء والمناجاة، فهو خال من دواعي التقية الخوفية أو التحبيبيّة التي يراعى فيها عقول الناس ومستوياتهم، كما أنّه كاشف عن الحقائق الواقعية والشهادة لها بالثبوت، فلا يساوره احتمال الخطأ أو الخلل في المفهوم أو التطبيق.

وهذا يوجب تكليفين:

أحدهما: على العلماء وأهل الفضل في شتّى صنوف المعارف الإلهية أن يعتنوا بما ورد في الأدعية والزيارات من مضامين، ويعكفوا على دراستها واستخراج الحقائق المودعة فيها، فإنّها أوفق بالغرض العلمي من المبالغة في الاعتناء بأقوال أهل النظر التي تقع في أحسن الفروض في دائرة ما يحتمل الصحة والخطأ، فلو بذل المعنيون بالأبحاث المعرفية مقدار ما يبذلونه في دراسة كتب الكلام والحكمة والفقه وغيرها لحققوا فتوحات عظيمة في هذه الحقول، وأنقذوا المعارف من شراك الأوهام والظنون والآراء المختلفة التي في الغالب تتيه بالباحث، وتبعده عن الحقيقة، فشتّان بين الاعتكاف على دراسة كلمات المعصومين المفعمة بنور الوحي والعلم الإلهي وبين دراسة كلمات أهل النظر المشوبة في الغالب بالظنون والاحتمالات.

ولا يخفى أن ما ذكرناه لا نريد أن ننفي به أهمية دراسة الكتب المنهجية في هذه العلوم، ولا نلغي أثرها ومكانتها، لكنها ينبغي أن تحتل مقام المقدمات الموصلة، ويكون لها من الاهتمام ما تستحقه المقدمات من الاهتمام، وأما جل الاهتمام فينبغي أن يصب على من قوله وحي، ومعانيه حقائق، وحقائقه ربانيّة علمّها شديد القوى؛ لأنه المقصود أولاً وذو المقدمة.

ثانيهما: على عموم الناس أن لا يكتفوا في قراءة الأدعية والزيارات على القرب وتحصيل الثواب، وأن يسعوا للتأمل والتدبر في المضامين العالية فيها؛ ليرتقوا بمستواهم المعرفي إلى درجات عالية، فإنّ بها ينالون محبوبية وقربات أكثر وثوابات أعظم.

الكلمة الثالثة: يمكن تصنيف الأدعية الكثيرة الواردة عنهم عليهم السلام إلى أصناف عديدة عمدتها أربعة، ولكل صنف منها مراتب ودرجات:

الأول: أدعية الطلب التي يتوجه بها العبد إلى ربّه سعياً منه لحوائجه المعيشية مثل أدعية الرزق، وشفاء الأمراض، ودفع شرور الأعداء ونحوها، وأهلها طالبون.

الثاني: الأدعية العامة التي لا تختص ببعد واحد من أبعاد الحياة الإنسانية، وتقرأ لعموم الحالات مثل التعقيبات العامة، وأهلها طامعون آملون.

الثالث: أدعية العبودية، وتقرأ لا لأجل الحاجات الدنيوية المادية، بل لتهذيب النفوس وتكميل نواقصها وتحصيل الأجر والثواب، مثل دعاء مكارم الأخلاق، وأهلها عابدون متقون.

الرابع: أدعية المناجاة، وهي أدعية الخواص التي بها يتهجّدون ويناجون ربّهم بأسمائه وعظيم صفاته وجمال آياته. يريدون بها القرب والوصال والتشبّه بجماله وجلاله، وتشتمل على الإقرار بضعفهم وعجزهم وقصورهم، وإظهار ذل العبودية والإذعان لعزّ الربوبية وغناها وعلو شأنها وكمالها، وتتميز بأنّها:

أولاً: ترد بلسان رفيع البيان، عميق المعنى والمضمون لا يدركه إلّا من سما في المعرفة والانقطاع، ونال شرف الاتصال.

وثانياً: مشحونة بالمعارف الإلهية التي تفتح منافذ العقول والقلوب لترى الحقائق بعين المشاهدة.

وثالثاً: تزيل الحجب بين العبد وربّه، وتمنح الداعي خلوة عظيمة بربّه يناجيه بها، ويصارحه بمشاعره وأحاسيسه، ويستأنس بقربه، ويستعذب حنانه ورحمته، ويتلذذ بهمسه وحنوه، وأهلها عاشقون عارفون كمّلون.

ورابعاً: تشتمل على مزايا جميع الأدعية والعبادات، فلذا يستفيد منها عموم شرائح الداعين على اختلاف مراتبهم.

ومنطوق الأدعية المناجاتية شاهد على أنّها لا تصدر إلّا عن نفوس نورية، وألسنة ملكوتية تقصر كلمات البشر وعلومهم عن الإتيان بمثلها.

وفيها عيون الأدعية، كلماتها ومضامينها شاهدة على أنّها صدرت في حالة بلغ فيها قائلها غاية القرب، وزالت فيها الحجب، فرأى قلبه الحقائق، واتصلت روحه بعالم النور، وانبهرت بجماله وجلاله، وانجذبت إليه،

وتنوّرت ظهراً وبطناً وقشراً ولباً حتى سرى النور على لسانها فكان وحياً صادقاً لا يشوبه خطأ أو زلل.

فما صدر عن المعصومين عليهم السلام من أدعية ومناجاة من السنّة القولية التي ترفد المجتمع الإنساني بالمعارف والأحكام والتعاليم التربوية، وترتقي به إلى القمم الروحية العالية، مثل دعاء أبي حمزة الثمالي، والمناجاة الشعبانية، ودعاء عرفة، ودعاء البهاء، ومن أشهرها وأكثرها حضوراً دعاء كميل الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّه من الأدعية العظيمة التي قلّ نظيرها في جمال بيانه، وعمق مضمونه، وسعة دلالته، وأثره الروحي على النفوس والقلوب.

وقد ورد استحباب قراءته في الأوقات الشريفة مثل ليلة القدر وليلة الجمعة وسائر الأيام والأوقات، لاسيّما على القول بأن الأزمنة المنصوصة في المستحبات ظروفاً لا قيوداً، فتفيد مزيد الاستحباب في الظرف المخصوص، ولا تنفيه عن الأوقات الأخرى.

وقد ألهمنا الله سبحانه الفكرة في شرحه وبيان بعض ما ورد في كلماته القدسية تقريباً لمعانيه العميقة إلى الأذهان في ظروف كانت عصيبة مرت في العام ١٤١٧ الموافق (١٩٩٥-١٩٩٦) ميلاديين لم يكن بين يدي مصدر أو كتاب أستعين به، فاعتمدت على دلالات ألفاظه وظلالها المعنوية وما أفاض به عليّ اللطيف الخبير، ثم لما تيسّرت الأحوال وانقشعت بعض حوالك الظروف عززناها بالآيات والروايات وبعض ما يلزم لتقويم المعنى والاستدلال، ولذا مرّ تصنيف هذا الشرح في فترات متفاوتة وأزمنة

متباعدة كنّا نهتم بمراجعته بين آونه وأخرى حتى اكتمل بهذه الصورة التي هي في مرأى القارئ الكريم، وقد حفزّني على شرح هذا الدعاء العظيم توفره على خصائص كثيرة:

الأولى: اشتماله على رصيد معنوي كبير يُعلّم العباد آداب المناجاة والمؤانسة مع الله سبحانه، ويشدهم إليه، ويرشدهم إلى ما يجب أن يؤملهم وما يقلقهم في مسيرة حياتهم.

الثانية: هيمنته على الأرواح والنفوس بما يحفز فيها كوامن التهذيب والتربية الإنسانية العالية.

الثالثة: ما يحتويه من خزين علمي ومعرفي عظيم يفتح للطالبين نوافذ العقول والقلوب، ويرتقي بهم إلى مصاف العارفين بالله، التائقين إلى حبه، والممسوسين في ذاته.

الرابعة: ما له من آثار وبركات كثيرة تغمر حياة الناس مادياً ومعنوياً. أسأل الله سبحانه أن تعم جميع العباد.

الكلمة الرابعة: الملحوظ أن شعوب الأرض مسلمين كانوا أم غيرهم تهتم بالنشيد الوطني، فلكل بلد وشعب نشيد خاص به يحبه ويفتخر به؛ لأنه يمثل سيادته وتأريخه وطموحاته، ويهدف إلى أمرين - في الغالب- :

أحدهما: تربية الأجيال على حب الوطن وترسيخ مكانته في قلوب أبنائه.

ثانيهما: التعريف بأمجاد البلد وتراثه وطموحاته بين البلدان وشعوبها.

وهذا أمر حسن في نفسه من حيث المبدأ والغاية، إلّا أن الأمر المغفول

عنه – عادة – هو أن النشيد الوطني قد يشد الناس إلى وطنهم، ويذكرهم بأمجادهم، وليس بالضرورة يصنع المواطن الصالح الذي هو الهدف الأكبر لكل عَلَم ودولة، وهو الروح السارية في النشيد الوطني؛ لأنّه يستند إلى قيم مهمة في الحياة وليست هي الأهم، فإنّ الوطن تراب وحدود جغرافية وشعب، ولا يعد الوطن كريماً عزيزاً إلّا إذا كان أهله يعيشون العزة والكرامة، ويحنون إلى تأريخهم، ويعشقون ثقافته وسيادته، فما فائدة الأرض إذا ساد الظلم أهلها، وشاع الفساد بينهم، وتحسّروا على لقمة العيش فلم يجدوا فيها خيراً ولا كرامة.

ومن هنا ينبغي الالتفات إلى الرمز الذي يحيي عقل الإنسان، وينور قلبه، ويهذب سلوكه، فإن الإنسان هو الهدف الأعظم في الوجود الإمكاني، وهو محور الأرض وكل ما فيها وعليها من حقائق ووقائع وأحداث.

وإذا اكتمل الإنسان وارتقى ارتقى معه كل شيء، وترسخت كل القيم العظيمة في روحه ووجدانه، فالإنسان الصالح هو المواطن الصالح الذي يحب الوطن، ويعمل لكرامته وسيادته، ويضحي لأجله.

وهذه الحقيقة العظمى لا تصنعها الأناشيد الوطنية، ولا الأعلام المرفرفة فوق الدوائر والمدارس والجامعات، أو خلف مقاعد المسؤولين.

والتأريخ شاهد على أنّ ذلك كله لم يكن يوماً مانعاً من فساد المسؤولين أو خيانتهم، أو تسليم البلاد للمستعمر؛ لأنّ الأثر الحقيقي ليس للعَلَم ولا للنشيد الوطني، بل لمن يقف وراء ذلك، كما أنّ الانتصارات لا يحققها السلاح في الحروب والمعارك بل من يحمله ويقاتل به.

ولذا عدّ الباري الواحد من المؤمنين الصابرين بعشرة من غيرهم، وعلل ذلك بالفقاهة أي المعرفة والإيمان. قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِنكُم مِئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[1]

وإنما يصنعها فكر الإنسان وتهذيبه وفقاهته في الدين والحياة وهذا ما يصنعه الدعاء، فلو احتوت الأناشيد الوطنية على قيم الدعاء واشتملت على بعض كلماته لشدت الناس إلى الحقيقة المطلقة ذات القوة والقدرة الواسعة، والعلم الكامل والنهج العادل الرحيم بالخلق الرازق لهم، وهو الله سبحانه، والاقتداء بأشرف البشر وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، وربت الأجيال على هذه العقيدة والمعرفة.

وبهذا تضمن بلاد الأرض شعباً مؤمناً واعياً ومواطنين صالحين يحبون أوطانهم، ويدافعون عنها بدمائهم، ويكونون شهداء لأجلها، وهذا ما تهدفه الأناشيد الوطنية، وتتطلع إليه الشعوب، والذي يستطلع ما يقال في الأناشيد الوطنية قد يجد أنها لا تعدو عن إثارة مكامن المحبة للأوطان والاعتزاز بماضيها وحاضرها وما تتطلع إليه شعوبها، وهذا أمر رائع مطلوب لكنه بعض الحقيقة لا كلها، والجزء الأهم بل الأصل الذي إليه تعود كل المشاعر والآمال هو المواطن نفسه في سموّ فكره، وعلو همّته، ونزاهة ضميره، وارتقاء أسلوبه، وارتفاع غاياته.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٥.

وباختصار: إيمانه بربّه والاستعانة به في سلامة الفكر وطهارة الأخلاق وإتقان العمل.

وهذا لا يصنعه النشيد الوطني وإنّما الدعاء بما يحتويه من دلائل معرفية راقية، فلو جعل الدعاء نصاً أو مضموناً أنشودة الأوطان والشعوب فازت شعوب الأرض بالقيم الإنسانية، وارتقت في أفكارها، وتجاوزت الحدود الضيقة التي تصنعها القومية والحدود الجغرافية أو التميّز الصناعي والتجاري، وصار الجميع أسرة واحدة متنوعة في ألوانها وأشكالها، متحدة في قلوبها واتجاهاتها،

ورجعت إلى ما أراد لها بارئها؛ إذ قال سبحانه: **﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾**[1] وقال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[2].

الكلمة الخامسة: هناك صيغ كثيرة يمكن أن تجعل في ضمن ما يردده المجتمع كل صباح ومساء، ويتخذه رمزاً وشعاراً يومياً إما بالنص أو يشتق منه المضمون، وينظم في كلمات شعرية أو نثرية موزونة:

منها: ما ورد في دعاء مكارم الأخلاق عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: ﴿اللهم صلّ على محمد وآله، وسدّدني لأن أعارض من غشني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، واكافئ من قطعني

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة، واغضي عن السيئة﴾[١] ومثل هذه الكلمات تخترق القلوب والنفوس، وتنتج مواطنين صالحين في نواياهم وأخلاقهم، وبالمحصلة تثمر مجتمعاً صالحاً تسوده المحبة والسلامة بأصنافها.

ومنها: هذه الكلمات في السياسة الداخلية للأفراد حاكمين ومحكومين: ﴿اللهم صلّ على محمد وآله، ولا أظلمِنّ وأنت مطيق للدفع عني، ولا أظلمنّ وأنت القادر على القبض منّي وحلني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين في بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة، وضم أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين... وخفض الجناح، وحسن السيرة، وسكون الريح، وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة... والقول بالحق وإن عزّ...﴾[٢] وأي مجتمع أكثر تطوراً وارتقاءً من مجتمع ينتفي فيه الظلم، ويسوده الأمن والتعايش السلمي وارتفاع كلمة الحق والدفاع عن أهله.

ومنها: ما ورد في تربية الفرد حاكماً ومحكوماً عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿اللهمّ عظُم سلطانك، وعلا مكانك، وخفي مكرك، وظهر أمرك، وغلب قهرك، وجرت قدرتك، ولا يمكن الفرار من حكومتك﴾[٣] ولو ترسخت هذه القيمة في نفوس الأفراد على اختلاف مستوياتهم لا يمكن أن يكون

---

(١) الصحيفة السجادية: ص١١١.

(٢) الصحيفة السجادية: ص١١٢-١١٣، (بتصرف).

(٣) المصباح: ص٥٥٦.

الحاكم فاسداً، والمسؤول متخلياً عن وظائفه ومهامه، كما لا يكون أفراد الشعب إلّا متحابين مسالمين ومتواضعين.

ومنها: ما ورد عن إمام الزمان وحجته صلوات الله عليه وهو يدعو لصناعة الإنسان والمجتمع الصالح. يقول: ﴿اللهمّ ارزقنا توفيق الطاعة وبعد المعصية... واملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة... واكفف أيدينا عن الظلم والسرقة، وتفضّل على علمائنا بالزهد والنصيحة، وعلى المتعلّمين بالجهد والرغبة... وعلى الشباب بالإنابة والتوبة، وعلى النساء بالحياء والعفة... وعلى الأمراء بالعدل والشفقة، وعلى الرعية بالإنصاف وحسن السيرة﴾[١] وبهذا لخص أهم المبادئ والمنطلقات التي تقوم عليها الدول والحضارات الراقية، وهي:

أولاً: أن يكون الإنسان فاعلاً للمحاسن، مطيعاً لربّه، متجنباً للمعاصي والقبائح في أي صعيد كان.

وثانياً: أن يتطلع إلى العلم والمعرفة ويسعى لتحصيلهما.

وثالثاً: أن يعمل بالعدل فلا يظلم ولا يسرق ولا يخون.

ورابعاً: أن يسعى لأن يكون العلم في خدمة الإنسان فتسوده السلامة البدنية والروحية والاجتماعية في جميع أطواره ومراحله.

وخامساً: أن يعمل لتنال كل شريحة من شرائح المجتمع حقوقها، وتتصف بالصفات التي تؤهلها للسعادة والقيادة، فالعلماء زاهدون

---

(١) المصباح: ص٢٨٠.

ناصحون، والمتعلمون جاهدون راغبون، والشباب مشغولون ببناء مستقبلهم بلا وقوع في أخطاء المفاسد والضلالات، والنساء متميزات تؤدين مهامهن الحياتية بالمسؤولية والعفة؛ ليصن العائلة ويربين النشأ الصالح، ولا يتخذن وسيلة للفساد والإفساد، والأمراء عادلون مشفقون على الناس يقومون بمهامهم بأمانة لا يأكلون حقوق الناس ولا يظلمونهم، والرعية منصفة فيما بينها، ملتزمة بواجباتها، ومنتظمة بالقانون العادل في البلد.

وهذه القيم العالية لا يمكن أن تحدث صدفة، أو تنزل من السماء، أو يرسخها الإعلام، بل يجب أن يتنفسها الإنسان مع الهواء منذ نعومة أظفاره، ويتغذاها في المدارس، وتكبر معه لتكون جزءاً من فكره وتكوينه، فأي نشيد وطني أو شعار قومي يمكن أن يعطي هذه التعاليم لبناء الإنسان، وإنارة طريقه كما يبنيها الدعاء؟ وأي قوة يمكن أن يستند إليها شعب أو دولة حاكمة أقوى وأعظم من قوة الله وسلطانه؟ وأي رقيب أدق وأعدل من رقابة الله والضمير على المصالح العامة؟

فلو التفت المعنيون لهذه الحقيقة وتمسكوا بها وجعلوها الضوء الذي يستنيرون به في أيامهم والأنشودة التي لا تفارق ألسنتهم في المدارس والجامعات والمعامل والبيوت والشوارع ورفعت على أبواب كل دولة ومدينة لوصلوا إلى ما يطلبه العالم كله بكل أجهزته وأبحاثه، ودراساته وهو صناعة الإنسان الصالح، والمجتمع الإنساني السعيد بالعدل والسلام.

هذه قضية ربما لا يستهويها البعض، أو يعدها غير ذات بال إلّا أنّها في جوهرها في غاية الأهمية كأهمية الإنسان وكرامته والبلد الذي يعيش فيه،

وتطبيقها لا يكلّف أكثر من قرار من المعنيين يرجعون فيه إلى خالقهم وضميرهم ورضا شعبهم، والحال أن آثارها تنعكس على المجتمع الإنساني في داخل البلد وفي البلدان المجاورة، بل وفي جميع العالم، فتكرم الإنسان، وتعظّم قيمه، وتوطد العلاقات، وتنزع فتيل الحروب، وتنشر المحبة والسلام؛ لأنها تصنع الإنسان المؤمن بربّه، المتوثب لرضاه وطاعته، الكادح لبناء حاضره ومستقبله، المحب للخير والسعادة للجميع.

الكلمة السادسة: اشتمل الشرح على فصل تمهيدي بثلاثة مباحث:

أولها: يتعلق بترجمة مستفيضة لكميل بن زياد عرفاناً بالفضل، وشكراً للجميل الذي أسداه للبشرية بنقله لهذا الدعاء العظيم. استعرضنا فيها ولادته ونسبه وشيئاً من تأريخه وسيرته في الدفاع عن الحق ومجاهدة الظلم والطغيان حتى شهادته ومدفنه.

وثانيها: في حقيقة الدعاء وأهميته وآثاره.

وثالثها: في آدابه وما ينبغي للداعي أن يتصف به للوصول إلى أغراضه.

ثم تناولنا بالشرح البسملة التي هي مفتتح كل أمر ذي بال، وبعدها وقفنا على فقرات الدعاء على التوالي بحثنا فيها دلالاتها اللغوية والنتائج المعرفية والأخلاقية المستفادة منها معزّزة بالآيات وما قرّره العلماء في كل حقل ومجال.

وأسميناه ب (مواهب الليل) للظروف الخاصة التي كتب فيها.

فأشكر الله تعالى وأولياءه الطاهرين على التوفيق لإتمامه، وأسأله عزّ وجل أن يتقبل منّا هذا الجهد المتواضع، وأن يتجاوز عن زلاّتنا فيه،

ويبعث ثوابه إلى وليّه الأعظم بطاقة حب وإذعان وتسليم، وهي بقدري لا بقدره الرباني العالي.

ولا يفوتني أن أتقدّم بالشكر الجزيل والثناء الجميل لجميع الذين ساعدوني في إتمامه بأي نحو من أنحاء المساعدة، وأخص بالذكر منهم الأستاذ العزيز ناظم شاكر محمود دام عزه لمراجعته للكتاب وضبط مصادره ونصوصه، شاكراً وداعياً له بالصحة والسلامة ودوام التوفيق بمحمد وآله الطاهرين.

كربلاء المقدسة

فاضل الصفّار

٨ شوال ١٤٤٠

الفَصلُ التَّمهِيديّ

وفيه مباحث:

المبحث الأول: كميل بن زياد الصحابي الجليل

المبحث الثاني: حقيقة الدعاء وأهميته وآثاره

المبحث الثالث: في آداب الدعاء

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:
كُمَيْلُ بِنْ زِيَادِ
الصَّحَابِيُّ الجَلِيْلُ

وفيه:

اسمه الشريف

نسبه

لقبه

علمه وبعض ما جاء من أسئلته للإمام عليه السلام

وثاقته رضوان الله تعالى عليه

إنه كان ممن سيّرهم عثمان إلى الشام فسمّوا بـ(المسيّرين)

بعض ما كان بينه وبين سرايا معاوية

نصرته لأمير المؤمنين عليه السلام وثباته

من روى عنهم ومن روى عنه

بعض وصايا وإرشادات أمير المؤمنين عليه السلام له (رضوان الله تعالى عليه)

استشهاده رضوان الله تعالى عليه

مكان قبره ومزاره

دعاؤه سنداً ومتناً

اسمه الشريف

هو كميل بن زياد النخعي الكوفي[1] وفي مجمع البحرين: كميل بن زياد مصغراً جاء في الحديث، وهو من أعظم أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وأصحاب سرّهِ، وكان عامله على (هيت) قتله الحجاج، وكان أخبره بذلك[2].

وقد اتفق المؤرخون على اسمه، بينما اختلفت بعض الروايات في اسم أبيه، فقد جاء في تهذيب التهذيب عما جاء في النسائي: كميل بن زياد .. وقيل كميل بن عبد الله، وقيل ابن عبد الرحمن[3]....، وفي الإصابة في تمييز الصحابة: كميل بن زياد بن نهيك، ويقال ابن عبد الله النخعي[4]....، وفي كتاب الجرح والتعديل: كميل بن زياد ... غير أنه يقول كميل بن عبد الرحمن[5]....، وذكر ابن حبان: كميل بن زياد النخعي الكوفي .... وقال العباس بن ذريح: كميل بن عبد الله[6]....، وفي الأنساب للسمعاني: كميل بن زياد النخعي هو الذي يقال له كميل بن عبد الله[7].... هذا ما ذكرته

---

(١) رجال البرقي: ص٦؛ رجال الطوسي: ص٨٠؛ كتاب الرجال (لابن داود): ص١٥٦، الرقم ١٢٤٨؛ التاريخ الكبير: ج٧، ص٢٤٣، الرقم ١٠٣٦؛ كتاب الثقات: ج٥، ص٣٤١؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٥٠، ص٢٤٨-٢٤٩.

(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص٤٦٦، (ك م ل)؛ انظر تقريب التهذيب: ج٢، ص٤٥، الرقم ٥٦٨٣.

(٣) تهذيب التهذيب: ج٨، ص٤٠٢، الرقم ٨١٣.

(٤) الإصابة: ج٥، ص٤٨٥، الرقم ٧٥١٦.

(٥) الجرح والتعديل: ج٧، ص١٧٤، الرقم ٩٩٥.

(٦) الثقات: ج٥، ص٣٤١.

(٧) الأنساب: ج٥، ص٤٧٥.

بعض المصادر، ولكن المعروف المشهور لدى أغلب المؤرخين وما جاءت به أكثر المصادر أنه كميل بن زياد.

أما (كميل) في لفظه فذكر المامقاني: كميل بن زياد النخعي. الضبط: كميل بضم الكاف وفتح الميم وسكون الياء المثنّاة بعدها اللام[(١)]، أما تاريخ ولادته ووفاته فقد ذكر خير الدين الزركلي: كميل بن زياد ١٢-٨٢هـ، ٦٣٣-٧٠١م[(٢)]، وجاء في كتاب الغارات للثقفي: قتله الحجاج في هذه السنة (سنة٨٢)، قتله صبراً بين يديه[(٣)].

نسبه

أما نسبه رضوان الله تعالى عليه الكامل فهو كما جاء في جمهرة أنساب العرب: هو كميل بن زياد بن نهيك بن هيثم بن سعد بن مالك بن الحارث ابن صُهبان بن سعد بن مالك بن النخع[(٤)]، ومثله ورد في تهذيب التهذيب[(٥)]، وطبقات ابن سعد[(٦)]، وشرح نهج البلاغة[(٧)].

---

(١) تنقيح المقال: ج٢، الرقم ٩٩٣٨.

(٢) الأعلام: ج٥، ص٢٣٤.

(٣) الغارات: ج٢، ص٩٤٤.

(٤) جمهرة أنساب العرب: ص٤١٥.

(٥) تهذيب التهذيب: ج٨، ص٤٠٢، الرقم ٨١٣.

(٦) الطبقات الكبرى: ج٦، ص١٧٩.

(٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج١٧، ص١٤٩.

لقبه

هو (النخعي)، والنخعي بفتح النون والخاء المعجمة وكسر العين المهملة ثم الياء نسبة إلى النخع قبيلة باليمن. ذكر ذلك المامقاني[١]، وفي الأنساب: النخعي بفتح النون والخاء المعجمة بعدها العين المهملة. هذه النسبة إلى النخع وهي قبيلة من العرب نزلت الكوفة، ومنها انتشر ذكرهم، وهو جَسر -بالفتح- ابن عمرو بن عَلَةَ بن جلد بن مالك بن أُدد سمي النخع لأنه ذهب عن قومه[٢].

وجاء في نهاية الأرب: (بنو النخع): هي في كهلان من القحطانية غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم النخع، وهم بنو النخع، واسمه جَسر بن عمرو بن عَلَة بن جلد بن مالك بن أُدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان.

قال أبو عبيدة: وسمي النخع لأنه انتخع عن قومه أي بَعُدَ، وكان له من الولد مالك وعوف وهو المشر سمّي بذلك لأنه كان أحمر، ومنه الأسود بن يزيد بن قيس النخعي أدرك النبي صلى الله عليه وآله[٣].

و(كهلان): هو كهلان بن سبأ أبو قبيلة من حمير، وسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن

---

(١) تنقيح المقال: ج١، ح٢٣٤، ضمن ترجمة إبراهيم بن يزيد النخعي.

(٢) الأنساب: ج٥، ص٤٧٣، في باب النون والخاء.

(٣) نهاية الأرب (للقلقشندي): ص٧٩، الرقم ١٨٥.

نوح[1] ...؛ (بنو صهبان) بطن من النخع من القحطانية، وهم بنو صهبان بن سعد بن مالك بن النخع .. ومنهم كميل بن زياد الذي قتله الحجاج[2].

وفي الكنى والألقاب: النخعي نسبة إلى النخع بفتح النون والخاء المعجمة وبعدها عين مهملة، وهي قبيلة كبيرة من مذحج باليمن، خرج منهم خلق كثير، وممن ينسب إلى النخع الأشتر النخعي رضوان الله تعالى عليه، ومنهم: كميل بن زياد النخعي[3].

علمه وبعض ما جاء من أسئلته للإمام عليه السلام

في نهاية الأرب: كميل بن زياد تابعي معروف له مقام كبير في الزهد والعلم والعرفان، ومن أصحاب الإمام علي عليه السلام، وإليه ينسب دعاء الإمام عليه السلام[4]. وهو من أجلاء علماء وقته وعقلاء زمانه ونسّاك عصره وفضلاء أوانه[5]... كان صاحب سر أمير المؤمنين عليه السلام وحقائقه ومكاشفاته بلا واسطة، فلا حاجة إلى شرح حاله، فهو كامل مكمّل، ولعل من المناسب أن نتيمن بذكر بعض ما جاء من أسئلته لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام وأجوبته (صلوات الله وسلامه عليه) جاء في روضات الجنات:

---

(١) نهاية الأرب (للقلقشندي): ص٣٦٦، الرقم ١٥٠١.

(٢) نهاية الأرب (للقلقشندي): ص٢٩٠، الرقم ١١٤٧.

(٣) الكنى والألقاب: ج٣، ص٢٤٤.

(٤) نهاية الأرب (للقلقشندي): ص٢٩٠، الرقم ١١٤٧، الهامش.

(٥) روضات الجنات: ج٦، ص٦١-٦٧، الرقم ٥٦٢.

وفي حديث كميل بن زياد العارف من كمّل أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وقصة سؤاله إياه عن الحقيقة وجوابه عليه السلام له بما لا يدركه إلّا المنشرح صدره بالإيمان.

وسأل كميل عن الحقيقة فقال عليه السلام: ﴿مالَكَ والحقيقة؟﴾ قال: أو لست صاحب سّرك؟ قال: ﴿بلى ولكن يترشح عليك ما يطفح منّي﴾. قال: أو مثلك يخيب سائلاً!؟ فقال: ﴿الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة﴾ قال: زدني بياناً، فقال: ﴿محو الموهوم مع صحو المعلوم﴾ قال: زدني بياناً، فقال: ﴿جذب الأحديّة لصفة التوحيد﴾ قال: زدني بياناً، فقال: ﴿هتك الستر لغلبة السر﴾. قال: زدني بياناً، فقال: ﴿نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره﴾ قال زدني بياناً، فقال: ﴿أطفئ السراج فقد طلع الصبح﴾[(١)].

وفي البحار: عن كميل قال: سألت مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: أريد أن تعرفني نفسي؟ قال: ﴿يا كميل أي نفس تريد؟﴾ قلت: يا مولاي هل هي إلّا نفس واحدة؟ فقال: ﴿يا كميل، إنما هي أربع: النامية النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقية القدسية، والكلمة الإلهية، ولكل واحدة من هذه خمس قوى وخاصتان، فالنامية النباتية لها خمس قوى ماسكة وجاذبة وهاضمة ودافعة ومربية، ولها خاصتان: الزيادة والنقصان، وانبعاثها من الكبد، وهي أشبه الأشياء بنفس الحيوان.

---

(١) روضات الجنات: ج٣، ص١٣٢ وص٢٣٧.

والحيوانية الحسيّة ولها خمس قوى سمع وبصر وشم وذوق ولمس، ولها خاصتان: الرضا والغضب، وانبعاثها من الكبد، وهي أشبه الأشياء بنفس الملائكة ولها خاصتان النزاهة والحكمة.

والكلمة والإلهية: وبها خمس قوى بقاء في فناء ونعيم في شفاء وعزّ في ذل وفقر في غنى وصبر في بلاء، ولها خاصتان: الحلم والكرم، وهذه التي مبدؤها من الله وإليه تعود لقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[1]، وأما عوده فلقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2] والعقل وسط الكل لكيلا يقول أحدكم شيئاً من الخير والشر إلّا لقياس معقول» انتهى[3].

وهذه بعض أحاديث الحكمة التي قلّما يوجد نظيرها في شيء من كتب الحديث، ويدل على كون الرجل ذا معرفة كاملة ومنزلة كابرة وشأن رفيع وقدر منيع.

وفي تحف العقول: قال كميل بن زياد: سألت أمير المؤمنين عليه السلام عن قواعد الإسلام ما هي؟ فقال: «قواعد الإسلام سبع، فأولها العقل وعليه بني الصبر، والثانية صون العرض وصدق اللهجة، والثالثة تلاوة القرآن على جهته، والرابعة الحب في الله والبغض في الله، والخامسة حق آل محمد

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

(٢) سورة الفجر: الآيات ٢٧-٢٨.

(٣)البحار: ج٥٨، ص٨٥، أقوال؛ وانظر روضات الجنات: ج٦، ص٦١-٦٧، الرقم ٥٦٢.

ومعرفة ولايتهم، والسادسة حق الإخوان والمحاماة عليهم، والسابعة مجاورة الناس بالحسنى﴾.

قلت: يا أمير المؤمنين، العبد يصيب الذنب فيستغفر الله منه فما حدُّ الاستغفار؟ قال: ﴿يا ابن زياد، التوبة﴾ قلت: بس؟ قال: ﴿لا﴾ قلت: فكيف؟ قال: ﴿إن العبد إذا أصاب ذنباً يقول: أستغفر الله بالتحريك﴾ قلت: وما التحريك؟ قال: ﴿الشفتان واللسان يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة﴾ قلت: وما الحقيقة؟ قال: ﴿تصديق في القلب، وإضمار أن لا يعود إلى الذنب الذي استغفر منه﴾ قال كميل: فإذا فعلت ذلك فأنا من المستغفرين؟ قال: ﴿لا﴾ قال كميل: فكيف ذاك؟ قال: ﴿لأنك لم تبلغ إلى الأصل بعدُ﴾ قال كميل: فأصل الاستغفار ما هو؟ قال: ﴿الرجوع إلى التوبة من الذنب الذي استغفرت منه، وهي أول درجة العابدين، وترك الذنب، والاستغفار اسم واقع لمعان ستة: أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود أبداً، والثالث أن تؤدي حقوق المخلوقين التي بينك وبينهم، والرابع أن تؤدي حق الله في كل فرض، والخامس أن تذيب اللحم الذي نبت على السحت والحرام حتى يرجع الجلد إلى عظمه ثم تنشئ فيما بينهما لحماً جديداً، والسادس أن تذيق البدن ألم الطاعات كما أذقته لذّات المعاصي﴾[1].

---

(١) تحف العقول: ص١٩٦-١٩٧، (بتصرف)؛ انظر البحار: ج٦٥، ص٣٨١، ح٣١.

وثاقته رضوان الله تعالى عليه

اتفق علماء الرجال من الخاصة والعامة على وثاقته وعلو درجته، فقد ذكره ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب فقال: وقال ابن سعد: شهد مع علي صفين، وكان شريفاً مطاعاً في قومه، قتله الحجاج، وكان ثقة قليل الحديث، وقال إسحاق بن منصور عن ابن معين ثقة، وقال العجلي كوفي تابعي ثقة، وقال ابن عمار رافضي وهو ثقة من أصحاب علي، وقال في موضع آخر كان من رؤساء الشيعة، وذكره ابن حبان في الثقات، وذكره المدائني في عبّاد أهل الكوفة[(١)].

وفي الإصابة فقال: كميل بن زياد بن نهيك .... النخعي التابعي الشهير له إدراك... زاد ابن أبي خيثمة وهو ابن سبعين سنة بتقديم السين، فيكون قد أدرك من الحياة النبوية ثماني عشرة سنة[(٢)] ... قال وفي معجم رجال الحديث.

قال السيد الخوئي قدس سره: عدّه الشيخ في أصحاب علي عليه السلام وفي أصحاب الحسن عليه السلام، وعدّه البرقي من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام من اليمن، وعدّه الشيخ المفيد في الاختصاص من السابقين المقربيّن من أمير المؤمنين عليه السلام عند ذكر السابقين المقرّبين، وتقدّم في الأصبغ بن نباته عدّه من ثقات أمير المؤمنين عليه السلام. قال ابن داود (١٢٢٦) كميل بن زياد النخعي (ي) (ن) (جخ) من خواصهما (انتهى)[(٣)].

---

(١) تهذيب التهذيب: ج٨، ص٤٠٢، الرقم ٨١٣.

(٢) الإصابة: ج٥، ص٤٨٥، الرقم ٧٥١٦.

(٣) معجم رجال الحديث: ج١٥، ص١٣٢، الرقم ٩٧٧٦.

وذكرهُ الأردبيلي الغروي الحائري في جامع الرواة[١]، وابن حبان في كتاب الثقات[٢]، وجاء في تنقيح المقال في علم الرجال للمامقاني: كميل هذا هو المنسوب إليه الدعاء المشهور، قتله الحجاج، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد أخبره بأنه سيقتله، وهو من أعظم خواصّه. إن عدالة كميل بن زياد مما تتحدث به المخدرات في حجالهن، واعترف بذلك المؤالف والمخالف.

قال الذهبي كميل بن زياد بن نهيك بن هيثم النخعي حدّث عن علي عليه السلام وغيره، شهد صفين مع علي عليه السلام، وكان شريفاً مطاعاً ثقة عابداً على تشيّعه، قليل الحديث، قتله الحجاج[٣].

أنظر إلى المخالف مع اعترافه بتشيعه الذي يعدونه من موجبات القدح قد اعترف بوثاقته، هذا قلّما يحصل منهم، وإن اعتذر الفاضل المجلسي رضي الله عنه بأنه لم يقف من الشيعة على توثيق فيه من علماء الرجال لقلنا إن جعل أمير المؤمنين عليه السلام إياه عاملاً على هيت كما تسمعه من ابن أبي الحديد وفي النهج أيضاً أعظم برهان على عدالته؛ لعدم تعقل تسليطه عليه السلام غير الثقة العدل الأمين الضابط على أنفس المسلمين وأعراضهم وأموالهم وفروعهم الشرعية ومرافعاتهم وسياساتهم، ولو أغمضنا عن ذلك أيضاً لقلنا أفلا يقوم توثيق أمير المؤمنين عليه السلام شخصاً مقام توثيق علماء الرجال؛ فهلا تفحص حتى يقف على سند الكليني الطويل الذي نقلناه سابقاً تحت عنوان

(١) جامع الرواة: ج٢، ص٣١.

(٢) الثقات: ج٥، ص٣٤١.

(٣) تنقيح المقال: ج٢، ص٤٢، الرقم ٩٩٣٨؛ تاريخ الإسلام (الذهبي): ج٦، ص١٧٧.

ثقات أمير المؤمنين عليه السلام المتضمن لأمره عليه السلام كاتبه عبيد الله بن أبي رافع بأن يدخل عليه عشرة من ثقاته، فقال عبيد الله: سمّهم لي يا أمير المؤمنين، فسمّى جمعاً أحدهم كميل بن زياد، فالتأمل في وثاقة كميل مما لا ينبغي صدوره ممن يحيط بالأخبار من أعلام أصحابنا[(١)].

وذكره أيضاً ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب: ثقة رمي بالتشيع من الطبقة الثانية[(٢)]، وأيضاً في معرفة الثقات للعجلي: كميل بن زياد كوفي تابعي ثقة، وجاء أيضاً في الهامش[(٣)] في كتاب الجرح والتعديل لابن المنذر التميمي الرازي: ثقة[(٤)]، وورد ذكره في الكنى والألقاب للشيخ عباس القمي: صاحب الدعاء المشهور كان من أعاظم خواص أمير المؤمنين عليه السلام وأصحاب سرّه[(٥)].

وفي روضات الجنات: كميل بن زياد بن نهيك النخعي اليماني المنسوب إليه الدعاء المشهور الخضري المرتضوي كان من كبار أصحاب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وولده السبط المجتبى الحسن الزكي (عليهما صلوات الله الملك الغني) ومن أجلاّء علماء وقته وعقلاء زمانه ونسّاك عصره وفضلاء أوانه. ذكره سميّنا العلامة البهبهاني في تعليقاته فقال: وهو المنسوب إليه الدعاء

---

(١) انظر منتهى المقال: ج٥، ص٢٥٩؛ طرائف المقال: ج٢، ص٧١.

(٢) تقريب التهذيب: ج٢، ص٤٥، الرقم ٥٦٨٣.

(٣) معرفة الثقات: ص٢٢٩، الرقم ١٥٥٨.

(٤) الجرح والتعديل: ج٧، ص١٧٤، الرقم ٩٩٥.

(٥) الكنى والألقاب: ج٣ ص٢٤٥.

المشهور، قتله الحجاج، وكان عليه السلام أخبره بذلك، وهو من أعاظم أصحابه، والعجب من خالي أنه قال: أنه موثق أو حسن[(١)].

قال السيد محمد النور بخش: إن كميل بن زياد رضي الله عنه كان صاحب سر أمير المؤمنين عليه السلام وحقايقه ومكاشفته بلا واسطة، فلا حاجة إلى شرح حاله، فهو كامل مكمّل وسلسلة خرقتنا وفتوتنا تتصل به وتستند إليه، وقال السيد حيدر الآملي رضي الله عنه في جامع الأسرار كان تلميذ علي عليه السلام.

وورد في ميزان الاعتدال للذهبي: كميل بن زياد النخعي صاحب علي عليه السلام .. قال ابن حبان كان من المفرطين في علي ممن يروي عنه المعضلات[(٢)].

إنه كان ممن سيّرهم عثمان إلى الشام فسمّوا بـ(المسيّرين)

جاء في تاريخ الطبري عن الشعبي قال: قدم سعيد بن العاص الكوفة -بعثه عثمان إلى الكوفة أميراً عليها- فجعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه ويسمرون عنده، وإنه سمر عنده ليلة وجوه أهل الكوفة منهم مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان، وفيهم مالك الأشتر في رجال، فقال سعيد: إنما هذا السواد بستان لقريش، فقال

---

(١) روضات الجنات: ج٦، ص٦١-٦٣، الرقم ٥٦٢.

(٢) ميزان الاعتدال: ج٣، ص٤١٥، الرقم ٦٩٧٨؛ انظر الأنساب: ج٥، ص٤٧٥، باب النون والخاء.

الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا لك ولقومك؟ والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلّا أن يكون كأحدنا، وتكلم معه القوم. قال: فقال عبد الرحمن الأسدي – وكان على شرطة سعيد–: أتردّون على الأمير مقالته؟ وأغلظ لهم، فقال الأشتر: من ههنا! لا يفوتنكم الرجل، فوثبوا عليه فوطؤوه وطأً شديداً حتى غشي عليه، ثم جُرّ برجل فألقِيَ فنُضِحَ بماء فأفاق، فقال له سعيد: أبك حياة؟ فقال: قتلني مَنْ انتخبت –زعمت– للإسلام، فقال: والله لا يسمر منهم عندي أحد أبداً، فجعلوا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم يشتمون عثمان وسعيداً، واجتمع الناس إليهم حتى كثر من يختلف إليهم، فكتب سعيد إلى عثمان يخبره بذلك، ويقول: إن رهطاً من أهل الكوفة – سمّاهم له عشرة – يؤلّبون ويجتمعون على عيبك وعيبي والطعن في ديننا، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا، فكتب عثمان إلى سعيد: أنْ سيّرهم إلى معاوية –ومعاوية يومئذ على الشام– فسيّرهم –وهم تسعة نفر– فيهم مالك الأشتر وثابت بن قيس بن منقع، وكميل بن زياد النخعي، وصعصعة بن صوحان ...

إن معاوية لما عاد إليهم من القابلة وذكّرهم –ودار حديث بينهم وبين معاوية انتهى إلى نزاع– ثم كتب إلى عثمان: فإنك بعثت إليَّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُمْلون عليهم، ويأتون الناس –زعموا– من قِبَلِ القرآن، فيشبّهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة، ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رُقى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم

من أهل الكوفة، ولستُ آمن إنْ أقاموا وسط أهل الشام أن يغرّوهم بسحرهم وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم والسلام.

فكتب إليه عثمان يأمره أن يردّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة فردّهم إليه، فلم يكونوا إلّا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا، وكتب سعيد إلى عثمان يضجّ منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيرّهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان أميراً على حمص، وكتب إلى الأشتر وأصحابه أما بعد، فإني قد سيرّتكم إلى حمص، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها[(١)].

بعض ما كان بينه وبين سرايا معاوية

ذكرت المصادر التأريخية أن الإمام علياً عليه السلام جعل كميلاً عاملاً له على منطقة تسمى (هيت) وقد ذكر ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، وأيضاً في رجال الشيخ الطوسي: وهي منطقة واقعة بين العراق وسوريا، فكانت هذه المنطقة في تماس دائماً مع جيش معاوية وسراياه، فقد ذكر ابن الأثير في الكامل في التاريخ[(٢)]:

وجّه معاوية في هذه السنة[(*)] أيضاً سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل وأَمَرَهُ أن يأتي هيت فيقطعها، ثم يأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها، فأتى

---

(١) تاريخ الطبري: ج٣، ص٣٦٥-٣٦٧.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٣، ص٣٧٦.

(*) سنة تسع وثلاثين.

هيت فلم يجد بها أحداً، ثم أتى الأنبار وفيها مسلحة لعليّ عليه السلام تكون خمسمائة رجل وقد تفرّقوا ولم يبق منهم إلّا مائتا رجل، وكان سبب تفرّقهم أنه كان عليهم كميل بن زياد فبلغه أن قوماً بقرقيسيا يريدون الغارة على هيت، فسار إليهم بغير أمر عليّ عليه السلام، فأتى أصحاب سفيان وكميل غائب عنها، فأغضب ذلك علياً عليه السلام على كميل، فكتب إليه ينكر ذلك عليه، وطمع سفيان في أصحاب علي عليه السلام لِقلّتهم فقاتلهم، فصبر أصحاب علي عليه السلام، ثم قتل صاحبهم، وهو أشرس بن حسان البكري وثلاثون رجلاً، واحتملوا ما في الأنبار من أموال أهلها ورجعوا إلى معاوية، وبلغ الخبر علياً عليه السلام فأرسل في طلبهم فلم يُدْرَكوا.

وأورد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة الكتاب الذي أرسله أمير المؤمنين عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعي حيث جاء:

ومن كتاب له عليه السلام إلى كميلِ بنِ زياد النخعي وهو عامله على هيت ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به جيش العدو طالباً للغارة:

﴿أما بعد، فإنَّ تضييعَ المرءِ ما وُلِّيَ وتكلُّفَهُ ما كُفِيَ لَعَجْزٌ حاضرٌ، ورأيٌ مُتبر، وإنَّ تعاطيك الغارة على أهل قرقيسيا وتعطيلك مسالحك التي وليّناك -ليس بها من يمنعها، ولا يَرُدُّ الجيشَ عنها- لَرَأيٌ شعاعٌ، فقد صِرتَ جسراً لمن أراد الغارة من أعدائِكَ على أوليائك، غيرَ شديدِ المَنكِب، ولا مهيبَ الجانب، ولا سادَّ ثغرَةً، ولا كاسرٍ لعدوٍّ شوكة، ولا مُغنٍ عن أهل مِصرهِ، ولا مجز عن أميرهِ﴾.

قال ابن أبي الحديد في شرح هذا الكتاب: كان كميل بن زياد عامل عليﷺ على هيت، وكان ضعيفاً تمرّ عليه سرايا معاوية تنهب أطراف العراق ولا يردّها، ويحاول أن يجبر ما عنده من الضعف بأن يغير على أطراف أعمال معاوية مثل قرقيسيا وما يجري مجراها من القرى التي على الفرات، فأنكرﷺ ذلك من فعله وقال: ﴿إن من العجز الحاضر أن يهمل الوالي ما وليه ويتكلف ما ليس من تكليفه﴾[(١)].

وذكر ابن الأثير في الكامل في التأريخ تحت عنوان (ذكر غارة أهل الشام على أهل الجزيرة) يقول: وفيها -في سنة تسع وثلاثين- سيَّرَ معاويةُ عبدَ الرحمن بن قَباث بن أشيم إلى بلاد الجزيرة وفيها شبيب بن عامر جدّ الكرماني الذي كان بخراسان، وكان شبيب بنصِّيبين، فكتب إلى كميل بن زياد وهو بهيت يُعْلمه خبرهم، فسار كميل إليه نجدة له في ستمائة فارس، فأدركوا عبدَ الرحمن ومعه معن بن يزيد السُّلَمي فقاتلهما كميل وهزمهما، فغلب على عسكرهما، وأكثر القتل في أهل الشام، وأمر أن لا يُتبع مُدْبر ولا يُجْهَز على جريح، وقُتل من أصحاب كميل رجلان، وكتب إلى عليﷺ بالفتح فجزاه خيراً، وأجابه جواباً حسناً، ورضي عنه، وكان ساخطاً عليه لما تقدّم ذكره، وأقبل شبيب بن عامر من نصِّيبين فرأى كميلاً قد أوقع بالقوم فهنأه بالظفر، وأتبع الشاميين فلم يلحقهم، فعبر الفرات، وبثَّ خيله فأغارت على أهل الشام حتى بلغ بعلبك[(٢)].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج١٧، ص١٤٩؛ نهج البلاغة: ص٤٤١، الكتاب ٦١.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٣، ص٣٧٩.

نصرته لأمير المؤمنين عليه السلام وثباته

جاء في هامش نهاية الأرب للقلشقندي: شهد وقعة صفين مع الإمام صلوات الله عليه وأبلى بها بلاءً حسناً[1].

وفي البداية والنهاية: وشهد مع علي عليه السلام صفين وكان شجاعاً فاتكاً، وزاهداً عابداً، قتله الحجاج في هذه السنة (٨٢هـ) وقد عاش مائة سنة، قتلهُ صبراً بين يديه، وإنما نَقِمَ عليه لأنه طلب من عثمان بن عفان القصاص من لطمة لطمها إياه، فلما أمكنه عثمان من نفسه عفا عنه، فقال له الحجاج: أو مثلك يسأل من أمير المؤمنين القصاص؟ ثم أمر فضربت عنقه.

قالوا: وذكر الحجاج علياً في غبون ذلك فنال منه وصلّى عليه كميل، فقال له الحجاج: والله لأبعثنَّ إليك من يبغض علياً أكثر مما تحبه أنت، فأرسل إليه ابن أدهم وكان من أهل حمص، ويقال: أبا الجهم بن كنانة فضرب عنقه، وقد ذُكِرَ في وقعة دير الجماجم وهي واقعة حدثت بين الحجاج وابن الأشعث حيث جاء ابن الأشعث بجيوش بصرية وكوفية حتى نزل دير الجماجم ومعه جنود كثيرة، وفيهم القرّاء وخلق من الصالحين وعلى القرّاء جبلة بن زحر بن قيس الجعفي، وكان فيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبد الرحمن بن أبي ليلى وكميل بن زياد وكان شجاعاً فاتكاً على كبر سنه[2].

---

(١) نهاية الأرب: ص٢٩٠.

(٢) البداية والنهاية: ج٩: ص٥٠، ص٥٢، ص٥٧.

وجاء ذكر هذا أيضاً في الكامل لابن الأثير في ذكر معركة دير الجماجم، يقول: فلما كان اليوم الذي قتل فيه جبلة بن زحر بن قيس وكانت كتيبته تُدْعى القرّاء تحمل عليهم فلا يبرحون، وكانوا قد عُرفوا بذلك، وكان فيهم كميل بن زياد، وكان رجلاً ركيناً، فخرجوا ذات يوم كما كانوا يخرجون وعبّأ الحجاج صفوفه وعبّأ عبد الرحمن أصحابه وعبّأ الحجاج لكتيبة القرّاء ثلاث كتائب وبعث عليها الخرّاج بن عبد الله الحكمي، فأقبلوا نحوهم، فحملوا على القراء ثلاث حملات كل كتيبة تحمل حملة فلم يبرحوا وصبروا[1].

من روى عنهم ومن روى عنه

روى كميل بن زياد رضي الله عنه ورُوي عنه كما جاء في معاجم الرجال وكتب الحديث، فقد روى عن علي عليه السلام وعن الحسن عليه السلام، فقد عدّه القهبائي في مجمع الرجال من رجال علي عليه السلام ومن رجال الحسن عليه السلام، أي ممّن روى عنهما عليهما السلام[2]، وقد ورد ذكر هذا في كثير من المعاجم والسير، فقد ذكر شيخ الطائفة الطوسي رضي الله عنه في رجاله في باب أسماء من روى عن أمير المؤمنين عليه السلام، وورد ذكره في الهامش أيضاً في نفس الصفحة حيث قال: ... حَدَّثَ عن علي عليه السلام وغيره، وجاء ذكره أيضاً في المصدر ذاته في باب

---

(١) الكامل في التاريخ: ج٤، ص٤٧٢.

(٢) مجمع الرجال: ج٥، ص٧٥.

أصحاب أبي محمد الحسن بن علي عليهما السلام، فهو ممن روى عن الحسن أيضاً[١]، وذكره الحسيني التفريشي في نقد الرجال[٢]، وفي كتاب الرجال لابن داود، فقد روى عن علي عليه السلام والحسن عليه السلام[٣]، وذكره الزركلي في الأعلام بقوله: إنه كان من أصحاب علي عليه السلام[٤]، وجاء أيضاً في معجم رجال الحديث للسيد الخوئي[٥].

وروى عن عمر وعثمان وغيرهما كما جاء في بعض كتب الرجال والتأريخ، فمثلاً جاء في تهذيب التهذيب: ... روى عن عمر وعلي وعثمان وابن مسعود وابي مسعود وأبي هريرة، وروى عنه أبو إسحاق السبيعي والعباس بن دريح وعبد الله بن يزيد الصهباني وعبد الرحمن بن عابس والأعمش وغيرهم[٦].

---

(١) رجال الطوسي: ص٨٠ وص٩٥.

(٢) نقد الرجال: ج٤، ص٧٢.

(٣) الرجال (لابن داود): ص١٥٦، الرقم ١٢٤٨.

(٤) الأعلام: ج٥، ص٢٣٤.

(٥) معجم رجال الحديث: ج١٥، ص١٣٢، الرقم ٩٧٧٦.

(٦) تهذيب التهذيب: ج٨، ص٤٠٢، الرقم ٨١٣؛ انظر الإصابة: ج٥، ص٤٨٦؛ البداية والنهاية: ج٩، ص٥٧؛ الثقات: ج٥، ص٣٤١؛ ميزان الاعتدال: ج٣، ص٤١٥، الرقم ٦٩٧٨؛ بإضافة عبد الرحمن بن زياد عمن روى عنه؛ الأنساب: ج٥، ص٤٧٥؛ الجرح والتعديل: ج٧، ص١٧٤، الرقم ٩٩٥؛ المؤتلف والمختلف: ج٤، ص١٩٨١.

بعض وصايا وإرشادات أمير المؤمنين عليه السلام له (رضوان الله تعالى عليه)

إنَّ كميلَ بن زيادٍ ذلك الصحابي الجليل له المكانة الرفيعة الشريفة لدى أمير المؤمنين عليه السلام حتى كان رضي الله عنه صاحب سرّه كما جاء في كثير من الروايات التي يذكرها الطرفان، وإنَّ هذه المكانة العالية التي كان يتمتع بها ذلك الصحابي لهي درجةٌ لا يمكن لشخص عادي الوصول إليها، فقد وصلها هذا العابد الناسك بفضل إخلاص عرفه الله تعالى في نيته، وصفاء في سريرته، فقد جاءت كثير من الروايات توضح بأنه كان تابعياً مخلصاً، وشيعياً متعبداً، فقد لازم أمير المؤمنين عليه السلام فكان من خواصّه وخواص الحسن عليه السلام، حتى أراد بعض من الذين لم يوفقهم الله لولاية أمير المؤمنين عليه السلام وللهداية لهذا النهج الإلهي الرفيع الطعن بشخصية هذا الصحابي العارف.

فقد نقل الذهبي في ميزان الاعتدال يصف كميلاً: ... قال ابن حبان كان من المفرطين في علي ممن يروي عنه المعضلات، منكر الحديث جداً، نتقي روايته ولا يحتج به[(١)]. إن كميلاً رضي الله عنه لقربه من الأمير صلوات الله وسلامه عليه وكونه من كبار أصحابه واختصاصه به كان عالماً فاضلاً يؤخذ عنه العلم، وقد جاءنا منقولاً عن كميل عن أمير المؤمنين عليه السلام ما بقي خالداً ويبقى حتى تقوم الساعة[(٢)].

---

(١) ميزان الاعتدال: ج٣، ص٤١٥، الرقم ٦٩٧٨.

(٢) معجم رجال الحديث: ج١٥، ص١٣٢، الرقم ٩٧٧٦.

ونقل في كتاب البداية والنهاية: وقد روى عن كميل جماعة كثيرة من التابعين، وله الأثر المشهور عن علي بن أبي طالب الذي أوله (القلوب أوعية فخيرها أوعاها، وهو طويل)[(١)].

وجاء أيضاً في روضات الجنات: كميل بن زياد بن نهيك النخعي اليماني المنسوب إليه الدعاء المشهور الخضري المرتضوي، وهو الدعاء المعروف بدعاء كميل بن زياد، وهو دعاء دعا به الخضر عليه السلام[(٢)]، وذكره أيضاً في نهاية الأرب للقلقشندي: وإليه ينسب دعاء الإمام[(٣)]، وقد ذكر ذلك الشيخ الطوسي في رجاله: ودعاء كميل مشروح بعدة شروح مطبوعة وغير مطبوعة[(٤)].

ويتحصل من مجموع ما ذكر: اتفاق الكلمة على أن كميل بن زياد هو صاحب الدعاء المشهور، وهو من خواص أمير المؤمنين عليه السلام وأصحاب سره، وأقر المخالفون لجلالته ووثاقته وخصّه أمير المؤمنين عليه السلام بوصاياه، نورد بعضها:

جاء في نهج البلاغة: قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبّان، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال: ﴿يا كميل بن زياد إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج

---

(١) البداية والنهاية: ج٩، ص٥٧.

(٢) روضات الجنان: ج٦، ص٦١-٦٧، الرقم ٥٦٢.

(٣) نهاية الأرب: ص٢٩٠، ح١١٤٧، الهامش.

(٤) رجال الطوسي: ص٨٠، الهامش.

رعاع أتباع كُلِّ ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق.

يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الانفاق، وصنيع المال يزول بزواله.

يا كميل بن زياد، معرفة العلم دين يُدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

يا كميل بن زياد هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. ها، إنَّ ههنا لعلماً جمَّاً -وأشار إلى صدره- لو أصبتُ له حَمَلَةً! بلى أُصبتُ لَقِناً غير مأمون عليه، مستعملاً آلةَ الدِّين للدنيا، ومستظهراً بنَعِم الله على عباده، وبحُججهِ على أوليائه، أو منقاداً لِحَمَلَةِ الحقِّ لا بصيرةَ له في أَحَنائِه، يَنقدحُ الشك في قلبه لأوَّل عارض من شبهةٍ.

ألا لا ذَا ولا ذاكَ، أو منهوماً باللَّذَّةِ سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادِّخارِ، ليسا من رعاة الدِّين في شيء، أقرب شيء شبَهاً بهما الأنعام السائمة! كذلك يموت العلم بموت حامليه.

اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجةٍ إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيّناتُهُ.

وكم ذا وأين أولئك؟ أولئك -والله- الأقلّون عدداً، والأعظمون قدراً، يحفَظُ الله بهم حججه وبيّناتِهِ حتى يودعوها نُظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هَجَمَ بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روحَ

اليقين، واستلانوا ما استوعرهُ المترفون، وأَنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصَحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالمحلِّ الأعلى، أَولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاةُ إلى دينه. آه آه شوقاً إلى رؤيتهم! انصرف إذا شئت»[1].

وجاء في كتاب بشارة المصطفى: عن سعيد بن زيد بن أرطأة قال: لقيت كميل بن زياد وسألته عن فضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: ألا أخبرك بوصية أوصاني بها يوماً هي خير لك من الدنيا بما فيها؟ فقلت: بلى. قال: قال لي علي عليه السلام: «يا كميل بن زياد، سمِّ كل يوم باسم الله ولا حول ولا قوة إلّا بالله، وتوكل على الله، واذكرنا وسمِّ بأسمائنا، وصلّ علينا، واستعذ بالله ربنا، وادرأ بذلك عن نفسك وما تحوطه عنايتك تكف شر ذلك اليوم.

يا كميل، إن رسول الله صلى الله عليه وآله أدبه الله عزّ وجل وهو أدبني، وأنا أؤدب المؤمنين، وأورث الأدب المكرمين.

يا كميل، ما من علم إلّا وأنا أفتحه، وما من سرّ إلّا والقائم عليه السلام يختمه.

يا كميل، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم.

يا كميل، لا تأخذ إلّا عنّا تكن منّا.

يا كميل، ما من حركة إلّا وأنت محتاجٌ إلى معونةٍ فيها إلى معرفة.

يا كميل، إذا أكلت الطعام فسمِّ باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء، وهو الشفاء من جميع الأسواء.

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٣٥، الرقم ١٤٧.

يا كميل، إذا أكلت الطعام فواكل به ولا تبخل به فإنك لم ترزق الناس شيئاً، والله يجزل لك الثواب بذلك.

يا كميل، أحسن خلقك، وابسط إلى جليسك، ولا تنهرنَّ خادمك.

يا كميل، إذا أكلت فطول أكلك يستوف من معك، ويرزق منه غيرك.

يا كميل، إذا استوفيت طعامك فاحمد الله على ما رزقك، وارفع بذلك صوتك ليحمده سواك، فيعظم بذلك أجرك.

يا كميل، لا توقرن معدتك طعاماً، ودع فيها للماء موضعاً، وللريح مجالاً.

يا كميل، لا تنفذ طعامك، فإن رسول الله ﷺ لم ينفذه.

يا كميل، لا ترفعن يدك من الطعام إلّا وأنت تشتهيه، فإذا فعلت ذلك فأنت تستمرئه.

يا كميل، صحة الجسم من قلة الطعام وقلة الماء.

يا كميل، البركة في المال من إيتاء الزكاة ومواساة المؤمنين وصلة الأقربين، وهم الأقربون لنا.

يا كميل، زد قرابتك المؤمن على ما تعطي سواه من المؤمنين، وكن بهم أرأف، وعليهم أعطف، وتصدق على المساكين.

يا كميل، لا تردَنَّ سائلاً ولو بشق تمرة، أو من شطر عنب.

يا كميل، الصدقة تنمى عند الله.

يا كميل، حسن خلق المؤمن التواضع، وجمالهُ التعطف، وشرفه الشفقة، وعزّه ترك القال والقيل.

يا كميل، إياك والمراء، فإنك تغري بنفسك السفهاء إذا فعلت، وتفسد الإخاء.

يا كميل، إذا جادلت في الله تعالى فلا تخاطب إلّا من يشبه العقلاء، وهذا ضرورة.

يا كميل، هم على كل حال سفهاء كما قال تعالى: **﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾**[(١)].

يا كميل، في كل صنف قوم أرفع من قوم، فإياك ومناظرة الخسيس منهم، وإن أسمعوك فاحتمل، وكن من الذين وصفهم الله تعالى بقوله: **﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾**[(٢)].

يا كميل، قل الحق على كل حال، ووازر المتقين، واهجر الفاسقين.

يا كميل، جانب المنافقين، ولا تصاحب الخائنين.

يا كميل، إيّاك إيّاك والتطرّق إلى أبواب الظالمين، الاختلاط بهم، والاكتساب منهم، وإيّاك أن تطيعهم، وأن تشهد في مجالسهم بما يسخط الله.

يا كميل، إن اضطررت إلى حضورها فداوم ذكر الله تعالى والتوكل عليه، واستعذ بالله من شرّهم، واطرق عنهم، وأنكر بقلبك فعلهم، واجهر بتعظيم الله عزّ وجل ولتسمعهم، فإنهم يهابونك[(٣)] وتكفى شرهم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٣) في المصدر يهابوك.

يا كميل، إن أحب ما أمت العباد إلى الله تعالى بعد الإقرار به وبأوليائه التجّمل والتعفّف والاصطبار.

يا كميل، لا بأس بأن لا يُعلم سرّك.

يا كميل، لا ترين الناس افتقارك واضطرارك، واصطبر عليه احتساباً تعرف بستر.

يا كميل، ومن أخوك؟ أخوك الذي لا يخذلك عند الشدة، ولا يغفل عنك عند الجريرة، ولا يخدعك حين تسأله، ولا يتركك وأمرك حتى يعلمه، فإن كان مميلاً أصلحه.

يا كميل، المؤمن مرآة المؤمن يتأمله، ويسد فاقته، ويجمل حالته.

يا كميل، المؤمنون إخوة ولا شيء آثر عند كل أخ من أخيه.

يا كميل، إذا لم تحب أخاك فلست أخاه.

يا كميل، إنما المؤمن من قال بقولنا، فمن تخلّف عنّا قصر عنّا، ومن قصر عنّا لم يلحق بنا، ومن لم يكن معنا ففي الدرك الأسفل من النار.

يا كميل، كل مصدور ينفث، فمن نفث إليك منّا بأمر وأمرك بستره فإياك أن تبديه، فليس لك من إبدائه توبة، وإذا لم تكن لك توبة فالمصير إلى لظى.

يا كميل، إذاعة سّر آل محمد عليهم السلام لا يقبل الله تعالى منها، ولا يحتمل أحداً عليها.

يا كميل، وما قالوهُ لك مطلقا فلا تعلّمه إلا مؤمناً موفقاً.

يا كميل، لا تعلم الكافرين أخبارنا فيزيدوا عليها، فيبدوكم بها يوم يعاقبون عليها.

يا كميل، لا بد لماضيكم من أوبة، ولا بد لنا فيكم من غلبة.

يا كميل، سيجمع الله لكم خير البدء والعاقبة.

يا كميل، أنتم ممتعون بأعدائكم، تطربون بطربهم، وتشربون بشربهم، وتأكلون بأكلهم، وتدخلون مداخلهم، وربما غلبتم على نعمتهم، إي والله على إكراه منهم لذلك، ولكن الله عزّ وجل ناصركم وخاذلهم، فإذا كان -والله- يومكم وظهر صاحبكم لم يأكلوا والله معكم، ولم يردوا مواردكم، ولم يقرعوا أبوابكم، ولم ينالوا نعمتكم أذلة خاسئين، أينما ثقفوا أُخذوا وقُتِّلوا تقتيلا.

يا كميل، أحمد الله تعالى والمؤمنون(١) على ذلك وعلى كل نعمة.

يا كميل، قل عند كل شدة: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم تكفها، وقل عند كل نعمة: الحمد لله تزد منها، وإذا أبطأت الأرزاق عليك فاستغفر الله يوسّع عليك فيها.

يا كميل، إذا وسوس الشيطان في صدرك فقل: أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي، وأعوذ بمحمد الرضى من شر ما قدّر وقضي، وأعوذ بإله الناس من شر الجنة والناس أجمعين وسلم تكف مؤونة إبليس والشياطين معه ولو انهم كلهم أبالسة مثله.

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج١٥، ص٣٨٧، ح١٢٣٣، في الحاشية: (والمؤمنين).

يا كميل، ان لهم خداعاً وشقاشق وزخاريف ووساوس وخيلاء على كل أحد على قدر منزلته في الطاعة والمعصية، فبحسب ذلك يستولون عليه بالغلبة.

يا كميل، لا عدو أعدى منهم، ولا ضار أضر منهم، أمنيتهم أن تكون معهم غدا إذا اجتثوا في العذاب الأليم لا يفتر عنهم شرره، ولا يقصر عنهم خالدين فيها أبدا.

يا كميل، سخط الله تعالى محيط بمن لم يحترز منهم باسمه واسم نبيه وجميع عزائمه وعوذه جل وعز وصلوات الله على نبيه وآله وسلم.

يا كميل، انهم يخدعونك بأنفسهم، فإذا لم تجبهم مكروا بك وبنفسك، وبتحسينهم إليك شهواتك، وإعطائك امانيك وإرادتك، ويسوّلون لك وينسونك وينهونك ويأمرونك ويحسنون ظنك بالله عزّ وجل حتى ترجوه، فتغتر بذلك وتعصيه، وجزاء العاصي لظى.

يا كميل، احفظ قول الله عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ (١) والمسوّل الشيطان والمملي الله تعالى.

يا كميل، اذكر قول الله تعالى لإبليس لعنه الله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلّا غُرُورًا﴾(٢).

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٤.

يا كميل، إن إبليس لا يعد عن نفسه وإنما يعد عن ربه ليحملهم على معصيته فيورطهم.

يا كميل، إنه يأتي لك بلطف كيده فيأمرك بما يعلم أنك قد ألفته من طاعة لا تدعها فتحسب أن ذلك ملك كريم وإنما هو شيطان رجيم، فإذا سكنت إليه واطمأننت حملك على العظايم المهلكة التي لا نجاة معها.

يا كميل، إن له فخاخاً ينصبها فاحذر أن يوقعك فيها.

يا كميل، إن الأرض مملوءة من فخاخهم فلن ينجو منها إلّا من تثبّت بنا، وقد أعلمك الله عزّ وجل أنه لن ينجو منها إلّا عباده، وعباده أولياؤنا.

يا كميل، وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[2]

يا كميل، انج بولايتنا من أن يشركك في مالك وولدك كما أمر.

يا كميل، لا تغتر بأقوام يصلّون فيطيلون، ويصومون فيداومون، ويتصدّقون فيحسبون أنهم موفقون.

يا كميل، اقسم بالله لسمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الشيطان إذا حمل قوماً على الفواحش مثل الزنا وشرب الخمر والربا وما أشبه ذلك من الخنا والمآثم حبب إليهم العبادة الشديدة والخشوع والركوع والخضوع والسجود، ثم حملهم على ولاية الأئمة الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٤٢.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٠.

يا كميل، إنه مستقر ومستودع فاحذر أن تكون من المستودعين.

يا كميل، إنما تستحق أن تكون مستقراً إذا لزمت الجادة الواضحة التي لا تخرجك إلى عوج، ولا تزيلك عن منهج ما حملناك عليه، وما هديناك إليه.

يا كميل، لا رخصة في فرض، ولا شدة في نافلة.

يا كميل، إن الله عزّ وجل لا يسأل إلّا عما فرض، وإنما قدمنا عمل النوافل بين أيدينا للأهوال العظام والطامة يوم المقام.

يا كميل، إن الله أعظم من أن تزيله الفرائض والنوافل وجميع الأعمال وصالح الأموال، ولكن من تطوع خيراً فهو خيرٌ له.

يا كميل، إن ذنوبك أكثر من حسناتك، وغفلتك أكثر من ذكرك، ونعمة الله عليك أكثر من كل عملك.

يا كميل، إنه لا تخلو من نعمة الله عزّ وجل عندك وعافيته، فلا تخل من تحميده وتمجيده وتسبيحه وتقديسه وشكره وذكره على كل حال.

يا كميل، لا تكونن من الذين قال الله عز وجل: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(١) ونسبهم إلى الفسق: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

يا كميل، ليس الشأن أن تصلي وتصوم وتتصدق إنما الشأن أن تكون الصلاة فعلت بقلب نقي، وعمل عند الله مرضي وخشوع سوى إبقاء للحد فيها.

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٩.

(٢) سورة الحشر: الآية ١٩.

يا كميل، عند الركوع والسجود وما بينهما تبتلت العروق والمفاصل حتى تستوفي إلى ما تأتى به من جميع صلواتك.

يا كميل، انظر فيم تصلي وعلام تصلي إن لم يكن من وجهه وحلّه فلا قبول.

يا كميل، اللسان يبوح من القلب، والقلب يقوم بالغذاء، فانظر فيما تغذي قلبك وجسمك، فإن لم يكن ذلك حلالاً لم يقبل الله تسبيحك ولا شكرك.

يا كميل، افهم واعلم أنا لا نرّخص في ترك أداء الأمانات لأحد من الخلق، فمن روى عني في ذلك رخصة فقد أبطل وأثم، وجزاؤه النار بما كذب. أقسم لسمعت رسول الله ﷺ يقول لي قبل وفاته بساعة مراراً ثلاثاً: يا أبا الحسن، أدِّ الأمانة إلى البر والفاجر فيما قلَّ وجلّ في الخيط والمخيط.

يا كميل، لا غزو إلّا مع إمام عادل ونفل إلّا مع إمام فاضل.

يا كميل، أرأيت لو أن الله لم يظهر نبياً وكان في الأرض مؤمن تقي أكان في دعائه إلى الله مخطئاً أو مصيباً؟ بل والله مخطئاً حتى ينصبه الله عزّ وجل ويؤهله.

يا كميل، الدين لله فلا تغترن بأقوال الأمة المخدوعة التي ضلت بعد ما اهتدت، وأنكرت وجحدت بعدما قبلت.

يا كميل، الدين لله فلا يقبل الله تعالى من أحد القيام به إلّا رسولاً أو نبياً أو وصياً.

يا كميل، هي نبوة ورسالة وإمامة، وما بعد ذلك إلّا متولين ومتغلبين وضالين ومعتدين.

يا كميل، إن النصارى لم تعطل الله تعالى ولا اليهود، ولا جحدت موسى ولا عيسى، ولكنهم زادوا ونقصوا وحرّفوا وألحدوا فلعنوا ومقتوا ولم يتوبوا ولم يقبلوا.

يا كميل، إنما يتقبل الله من المتقين.

يا كميل، إن أبانا آدم عليه السلام لم يلد يهودياً ولا نصرانياً، ولا كان ابنه إلّا حنيفاً مسلماً، فلم يقم بالواجب عليه، فأداه إلى أن يقبل قربانه، بل قبل من أخيه فحسده وقتله، وهو من المسجونين في الفلق الذين عدّتهم اثنا عشر، ستة من الأولين وستة من الأخرين، والفلق الأسفل من النار، ومن بخاره حر جهنم، وحسبك فيما حر جهنم من بخاره.

يا كميل، نحن والله الذين اتقوا والذين هم محسنون.

يا كميل، إن الله عزّ وجل كريم رحيم عظيم حليم دلّنا على الخلافة، وأمرنا بالأخذ بها، وحمل الناس عليها، فقد أديناها غير مختلفين، وأرسلناها غير منافقين، وصدقناها غير مكذبين، وقبلناها غير مرتابين، لم يكن لنا والله شياطين نوحي إليها وتوحي إلينا كما وصف الله تعالى قوماً ذكرهم الله عزّ وجل بأسمائهم في كتابه فاقرأ كما أنزل ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(١).

يا كميل، الويل لهم فسوف يلقون غيّاً.

يا كميل، لست والله متعلقاً حتى أطاع وممتناً حتى أعصى، ولا مهاناً لطغام الأعراب حتى انتحل إمرة المؤمنين أو أدّعي بها.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

يا كميل، نحن الثقل الأصغر، والقرآن الثقل الأكبر، وقد أسمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد جمعهم فنادى فيهم الصلاة جامعة يوم كذا وكذا، وأياماً سبعة وقت كذا وكذا، فلم يتخلف أحد، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشر الناس، إني مؤد عن ربي عز وجل، ولا مخبر عن نفسي، فمن صدقني فلله صدق، ومن صدق الله أثابه الجنان، ومن كذبني كذب الله عز وجل، ومن كذب الله أعقبه النيران، ثم ناداني فصعدت، فأقامني دونه ورأسي إلى صدره، والحسن والحسين عن يمينه وشماله، ثم قال: معاشر الناس، أمرني جبرئيل عليه السلام عن الله تعالى أنه ربي وربكم أن أعلمكم أن القرآن هو الثقل الأكبر، وأن وصيي هذا وابناي ومن خلفهم من أصلابهم هم الثقل الأصغر يشهد الثقل الأكبر للثقل الأصغر، ويشهد الثقل الأصغر للثقل الأكبر كل واحد منهما ملازم لصاحبه غير مفارق له حتى يردا إلى الله، فيحكم بينهما وبين العباد.

يا كميل، فإذا كنا كذلك فعلام تقدمنا من تقدم وتأخر عنا من تأخر؟

يا كميل، قد أبلغهم رسول الله رسالة ربه، ونصح لهم، ولكن لا يحبون الناصحين.

يا كميل، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي قولاً أعلنه والمهاجرون والأنصار متوافرون يوماً بعد العصر يوم النصف من شهر رمضان قائماً على قدميه فوق منبره علي وابناي منه الطيبون مني وأنا منهم، وهم الطيبون بعد أمهم، وهم سفينة من ركبها نجا ومن تخلف عنها هوى، الناجي في الجنة، والهاوي في لظى.

يا كميل، الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

يا كميل، علام يحسدوننا والله أنشأنا من قبل أن يعرفونا؟ أفتراهم بحسدهم إيانا عن ربنا يزيلوننا؟

يا كميل، من لا يسكن الجنة فبشِّره بعذاب أليم، وخزي مقيم، وأكبال ومقامع وسلاسل طوال، ومقطعات النيران، ومقارنةً كل شيطان، الشراب صديد، والباس حديد، والخزنة فضضة، والنار ملتهبة، والأبواب موثقة مطبقة ينادون فلا يجابون، ويستغيثون فلا يرحمون، نداؤهم: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[1].

يا كميل، نحن والله الحق الذي قال الله عز وجل: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[2].

يا كميل، ثم ينادون الله تقدست أسماؤه بعد أن يمكثوا أحقاباً أجعلنا على الرجا فيجيبهم: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[3].

يا كميل، فعندها ييأسون من الكرة، واشتدت الحسرة، وأيقنوا بالهلكة والمكث جزاء بما كسبوا وعذبوا.

يا كميل، قل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين.

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٧٧-٧٨.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٧١.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٠٨.

يا كميل، أنا أحمد الله على توفيقه إياي والمؤمنين وعلى كل حال.

يا كميل، إنما حظا من حظا بدنياً زائلة مدبرة، فافهم تحظى بآخرة باقية ثابتة.

يا كميل، كل يصير إلى الآخرة، والذي يرغب منها رضا الله تعالى والدرجات العلى من الجنة التي لا يورثها إلّا من كان تقياً.

يا كميل إن شئت فقم[1].

استشهاده رضوان الله تعالى عليه

جاء في تاريخ الطبري: حدثنا رجل من بني أسد قال: كان قد غزا عثمان فيمن غزاه، فلما قدم الحجاج ونادى بما نادى به، عرض رجل عليه ما عرض نفسه، فقبل منه، فلما ولّى قال أسماء بن خارجة: لقد كان شأن عمير مما يهمّني. قال: ومَنْ عمير؟ قال: هذا الشيخ. قال: ذكّرتني الطعن وكنت ناسياً.

أليس فيمن خرج إلى عثمان؟ قال: بلى. قال: فهل بالكوفة أحد غيره؟ قال: نعم كميل. قال: عليَّ بعُمير فضرب عنقه، ودعا بكميل فهرب، فأخذ النخع به، فقال له الأسود بن الهيثم: ما تريد من شيخ قد كفاكه الكِبَرُ؟ فقال: أما والله لتحبسنّ عنّي لسانك أو لأحُسَّنَّ رأسك بالسيف. قال: افعل، فلما رأى كميل ما لقي قومه من الخوف وهم ألفا مقاتل قال: الموت خير من الخوف إذا أُخيف ألفان من سببي وحرموا، فخرج حتى أتى الحجاج، فقال له الحجاج: أنت الذي أردت ثم لم يكشفك أمير المؤمنين،

---

(١) بشارة المصطفى: ص٥٠-٦٠، ح٤٣.

ولم ترض حتى أقعدته للقصاص إذْ دفعك عن نفسه؟ فقال: على أي ذلك تقتلني! تقتلني على عفوه أو على عافيتي؟ قال: يا أدهم بن المحرز، اقتله. قال: والأجر بيني وبينك؟ قال: نعم. قال أدهم: بل الأجر لك وما كان من إثم فعليّ، وقال مالك بن عبد الله – وكان من المسيّرين –:

مضت لابن أروى في كميل عفاها له والمستقيدُ يُلامُ
وقال له لا أُقبحُ اليوم مثلة عليك أبا عَمروٍ وأنت إمام
رُويدك رأسي والذي نسكت لهُ قُريش بنا على الكبير حرام
وللعفو أمنٌ يَعرف الناسُ فضله وليس علينا في القصاص أثام
ولو علم الفاروق ما أنت صانع نهى عنك نهياً ليس فيه كلام

والمسيّرون هم تسعة نفر سيّرهم عثمان من الكوفة إلى معاوية في الشام حيث كتب عثمان إلى سعيد: أن سيرّهم إلى الشام وألزمهم الدروب، ومن ثم أمر عثمان أن يُبعثوا إلى الكوفة وكان الوالي عليها آنذاك سعيد بن العاص بعد أن استنفذ معاوية كل قواه معهم في أن يركنوا ويتركوا ما هم عليه من إخلاص وثبات للعقيدة، حيث هذا أيضاً مع والي الكوفة سعيد بن العاص، فكتب إلى عثمان بعد أن ضَجّ منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والي حمص[(١)].

وجاء في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني أنه قال: دخل الهيثم بن الأسود على الحجاج فقال له: ما فعل كميل بن زياد؟ قال: شيخ

---

(١) تاريخ الطبري: ج٣، ص٣٦٧.

كبير في البيت. قال: فأين هو؟ قال: ذلك شيخ كبير خرف، فدعاه فقال له: أنت صاحب عثمان؟ قال: ما صنعت بعثمان لطمني فطلبت القصاص فأقادني فعفوت قال: فأمر الحجاج بقتله.

وقال جرير عن مغيرة طلب الحجاج كميل بن زياد فهرب منه، فحرم قومه عطاءهم، فلما رأى كميل ذلك قال: أنا شيخ كبير قد نفذ عمري لا ينبغي أن أحرم قومي عطاءهم، فخرج إلى الحجاج، فلما رآه قال له: لقد أحببت أن أجد عليك جميلاً، فقال له كميل: إنه ما بقي من عمري إلّا القليل فاقضِ ما أنت قاض، فإن الموعد الله وقد أخبرني أمير المؤمنين عليه السلام على أنك قاتلي. قال: بلى قد كنت فيمن قتل عثمان أضربوا عنقه، فضربت عنقه[1].

وفي معجم رجال الحديث لما ولي الحجاج لعنه الله طلب كميل بن زياد فهرب منه، فحرم قومه عطاءهم، فلما رأى كميل ذلك قال: أنا شيخ كبير وقد نفد عمري، ولا ينبغي أن أحرم قومي عطاءهم، فخرج فدفع بيده إلى الحجاج، فلما رآه قال له: لقد كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً، فقال له كميل: لا تصرف عليّ أنيابك، ولا تهدم عليّ، فو الله ما بقي من عمري إلّا مثل كواسر الغبار، فاقض ما أنت قاض، فإن الموعد الله، وبعد القتل الحساب، ولقد أخبرني أمير المؤمنين عليه السلام أنك قاتلي. قال: فقال له الحجاج: الحجة عليك إذاً، فقال له كميل: ذاك إذا كان القضاء إليك. قال: بلى قد

(١) الإصابة: ج٥، ص٤٨٦، الرقم ٧٥١٦.

كنت فيمن قتل عثمان بن عفان! اضربوا عنقه، فضربت عنقه، وهذا أيضاً خبر رواه نقلة العامة عن ثقاتهم، وشاركهم في نقله الخاصة[(١)].

واختلفت الروايات في سنة استشهاده رضوان الله تعالى عليه، ولكن أغلب ما جاء في الروايات هو أنه استشهد عام ٨٢هـ كما مرّ[(٢)]، وتؤيدها الرواية التي جاءت في تهذيب التهذيب[(٣)]،والإصابة[(٤)] نعم حكى ابن أبي خيثمة أنه سمع يحيى بن معين يقول مات كميل سنة ٨٨ وهو ابن سبعين سنة[(٥)]، وفي روضات الجنات للخونساري: قتله الحجاج سنة ٨٣ وعمره تسعون سنة[(٦)]. إلّا أن المشهور المعروف هو سنة (٨٢).

مكان قبره ومزاره

ذكر القلقشندي في هامش نهاية الأرب: سكن الكوفة في أواخر عمره ومات بها، وقبره الآن عليه قبة، معروف مشيّد يقع بين مسجد الكوفة وقبر الإمام عليه السلام، وموضع قبره يعرف بـ الثوية، وقد دفن حوله كثير من أصحاب علي عليه السلام، قتله الحجاج عام ٨٢هـ[(٧)].

---

(١) معجم رجال الحديث: ج١٥، ص١٣٢، الرقم ٩٧٧٦.

(٢) نهاية الأرب: ص٢٩٠.

(٣) تهذيب التهذيب: ج٨، ص٤٠٢، الرقم ٨١٣.

(٤) الإصابة: ج٥، ص٤٨٦، الرقم ٧٥١٦.

(٥) تهذيب التهذيب: ج٨، ص٤٠٢، الرقم ٨١٣.

(٦) روضات الجنات: ج٦، ص٦٣، الرقم ٥٦٢.

(٧) نهاية الأرب: ص٢٩٠.

إن قبره الشريف موجود حالياً في الكوفة قرب مسجد الكوفة بجانب قبر ميثم التمار عليه الرحمة والرضوان، ومن هنا تكتمل الفضيلة، وتسمو هذه الشخصية التي لا يعلم سرّها إلّا الله وأهل البيت الكرام، وقد جعلوا له لوحاً ومزاراً وبنوا عليه بنياناً وشعاراً[١].

دعاؤه سنداً ومتناً

عرف دعاء كميل بدعاء الخضر عليه السلام، وقد رواه كميل بن زياد النخعي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام كما في الإقبال. قال: قال كميل بن زياد كنت جالساً مع مولاي أمير المؤمنين صلوات الله عليه في مسجد البصرة ومعه جماعة من أصحابه، فقال بعضهم: ما معنى قول الله عز وجل: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٢] قال عليه السلام: «ليلة النصف من شعبان، والذي نفس علي بيده إنه ما من عبد إلّا وجميع ما يجري عليه من خير وشر مقسوم له في ليلة النصف من شعبان إلى آخر السنة في مثل تلك الليلة المقبلة، وما من عبد يحييها ويدعو بدعاء الخضر عليه السلام إلّا أجيب له» فلما انصرف طرقته ليلاً فقال عليه السلام: «ما جاء بك يا كميل؟» قلت: يا أمير المؤمنين دعاء الخضر عليه السلام فقال: «اجلس يا كميل، إذا حفظت هذا الدعاء فادع به كل ليلة جمعة، أو في الشهر مرة، أو في السنة مرة، أو في عمرك مرة تكف وتنصر وترزق ولن تعدم المغفرة.

---

(١) روضات الجنات: ج٦، ص٦٦، الرقم ٥٦٢.

(٢) سورة الدخان: الآية ٤.

يا كميل، أوجب لك طول الصحبة لنا أن نجود لك بما سألت﴾ ثم قال﴿: ﴿اكتب: اللهم إني أسألك برحمتك﴾ إلى آخر الدعاء الشريف[١].

وفي هذا الخبر إشارة إلى عدة حقائق:

الأولى: أن ليلة النصف من شعبان هي ليلة القدر، وقد ورد في جملة من الأخبار تسميتها بذلك أيضاً، وأن فيها تقدر الأعمار والأرزاق والوقائع[٢]، ولذا ذهب إلى ذلك بعض العامة إلّا أنه خلاف المشهور المعروف بين الإمامية[٣]، ومقتضى الجمع هو أن يحمل القدر في ليلة الخامس عشر من شعبان على التقدير، وفي ليالي شهر رمضان يتم القضاء والإبرام والتنفيذ بحسب ما تقتضيه مراتب الإرادة الإلهية، ويشهد له قوله: ﴿وجميع ما يجري عليه من خير وشر مقسوم له﴾ فإن القسمة ظاهرة في تقدير المقسوم.

الثانية: أن كميل بن زياد من أصحاب سرّ أمير المؤمنين وذو مقامات معنوية عالية تؤهله للتلقي من علوم الإمام عليه السلام المودعة في الدعاء، وقد نال هذا المقام بطول صحبته له عليه السلام، وهذا يؤكد ما ورد في الأحاديث العديدة من أن مكانة الشيعة لديهم تعرف بطول صحبتهم، وشدة التمسك بهم عليهم السلام والأخذ منهم والرواية عنهم[٤].

---

(١) إقبال الأعمال: ج٣، ص٣٣١.

(٢) انظر إقبال الأعمال: ج٣، ص٣٢٠.

(٣) انظر البحار: ج٩٤، ص٨٨، تعليق على ح١٦، ج٩٥، ص٤١٤.

(٤) انظر الوسائل: ج٢٧، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي، ص١٤٩-١٥٠، ح٣٧، ح٣٨، ح٤١.

الثالثة: أن التدوين عند أهل البيت عليهم السلام كان من القرن الأول خلافاً لبعض الصحابة الذين منعوا التدوين، وحاربوا الرواة والمدونين، وبسببه ضاعت الكثير من العلوم والمعارف النبوية، وفتح باب التحريف والدس في السنّة.

ولا يخفى أن الدعاء المذكور غني عن البحث السندي لعدة وجوه:

الأول: قوة متنه ومضمونه، فإنهما شاهدان على صدوره عن المعصوم عليه السلام، وقد حققنا في علم الحديث أن وثاقة المتن والمضمون أقوى من وثاقة السند.

الثاني: قيام سيرة المتشرعة على قراءته والأخذ بمضامينه في مظان الأدعية والمناجات من غير نكير من أحد فإنها كاشفة عن وثاقتهم بصدوره.

الثالث: اعتباره السندي عند جمع من أصحابنا، فقد حكي عن العلامة المجلسي قدس سره: إنه أفضل الأدعية، وقد رواه الشيخ والسيد كلاهما قدس سرهما، وأنا أرويه عن كتاب مصباح المتهجد(١)، على أن قاعدة التسامح تغني عن ذلك كله.

فالحق أن المناقشة السندية في مثله خروج عن النهج العلمي الصحيح، وأما متن الدعاء وشرحه فيأتي.

---

(١) الحاكي الشيخ عباس القمي في مفاتيح الجنان: ص١٢٦.

المَبْحَثُ الثَّانِي: حَقِيْقَةُ الدُّعَاءِ وأهميته وآثاره

في البدء ربما تدور في بعض الأذهان أسئلة عديدة عن الدعاء ومغزاه وأبعاده، منها:

أولاً: هل الدعاء عمل مشروع؟

ثانياً: ما هي الثمار التي تترتب على الدعاء بعد فرض مشروعيته؟

ثالثاً: إذا كان التقدير الإلهي هو الحاكم على نظام الكون والإنسان فلماذا الدعاء؟

أولاً: هل الدعاء عمل مشروع؟

والجواب عليه: أن الدعاء عمل مشروع، والدليل على مشروعيته أمور:

الأول: القرآن الكريم: فقد وردت آيات عديدة تحث على الدعاء.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[1].

وفي كلمة (ادعوني) أمر لنا بالدعاء، والحكيم إذا أمر بالطلب منه وجب أن يستجيب ويلبي الحاجة وإلّا كان الأمر لغواً، والأمر يفيد الوجوب ظهوراً أو دلالة عقلية إن لم تكن قرينة في البين على الاستحباب، والأمر نفسه يجري في الآيات الشريفة الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ**﴾[2].

ومنها: قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾[3] وقوله تعالى: ﴿**ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾[4] والفرق أن الآية الكريمة الأولى تشير إلى تلازم الدعاء والإجابة، وتعاطي الفاعل والقابل.

بينما الآية الثانية تشير إلى كيفية الدعاء والمناجاة مع الله سبحانه باسمائه وصفاته.

والآية الثالثة تؤكد توفيقات الإنسان التي يكسبها بالدعاء.

والرابعة تؤكد على الدعاء في كل حال.

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٧.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٥.

وفي مقابل هذا الحث نحو الدعاء ذم الذين يستكبرون عن الدعاء والمسألة بعد أن جعل الله سبحانه عبادته بدعائه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١].

والعبادة هي الدعاء، فالذي لا يدعو ولا يطلب حوائجه يكشف عن تكبره في نفسه وعدم خضوعه وتواضعه لربه، وهكذا عبد يستحق النار، ويكون داخراً فيها[٢].

الثاني: السنّة المطهرة: ففي أصول الكافي وسائر المجاميع الروائية روايات كثيرة تحث على الدعاء، وتجعله أفضل العبادات.

فعن حنان بن سدير، عن أبيه قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أيّ العبادة أفضل؟ فقال: «ما من شيء أفضل عند الله عزّ وجل من أن يسأل ويطلب مما عنده، وما أحد أبغض إلى الله عزّ وجل ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عنده»[٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السماوات والأرض»[٤] وفي خبر الشيخ الشامي أنه سئل أمير المؤمنين عليه السلام أي الكلام أفضل عند الله عز وجل؟

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «ادع ولا تقل، قد فرغ من الأمر، فإن الدعاء هو العبادة. إنّ الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾» الكافي: ج٢، ص٤٦٧، ح٥.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٦٦، ح٢.

(٤) الكافي: ج٢، ص٤٦٨، ح١.

قال عليه السلام: «كثرة ذكره، والتضرّع إليه ودعاؤه»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أفضل العبادات الدعاء، وإذا أذن الله للعبد (لعبد) في الدعاء فتح له باب الرحمة. إنه لن يهلك مع الدعاء أحد»[٢].

وروي أن الدعاء أفضل من قراءة القرآن الكريم كما في بحار الأنوار: أروي عن العالم عليه السلام أنه قال: «لكل داء دواء» سألته عن ذلك فقال: «لكل داء دعاء، فإذا أُلهم العليل الدعاء فقد أُذن في شفائه» ثم قال لي العالم عليه السلام: «الدعاء أفضل من قراءة القرآن؛ لأنّ الله جلّ وعزّ يقول: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[٣] وأروي أن الدعاء يدفع من البلاء ما قدِّر، وما لم يقدّر قيل: وكيف يدفع ما لم يقدَّر؟ قال: «حتى لا يكون»[٤].

ونقل ابن فهد الحلي قدس سره في عدة الداعي وصاحب الجواهر قدس سره في جواهر الكلام والحر العاملي في وسائل الشيعة وغيرها من الكتب الروائية عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: في الرجلين افتتحا الصلاة في ساعة واحدة فتلا هذا القرآن فكانت تلاوته أكثر من دعائه، ودعا هذا (أكثر) فكان دعاؤه أكثر (من تلاوته) ثم انصرفا في ساعة واحدة أيهما أفضل؟

---

(١) البحار: ج٩٠، ص٢٩٠، ح٨.

(٢) عدة الداعي: ص٣٥.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٧.

(٤) البحار: ج٩٠، ص٢٩٢، ح١٨.

قال: ﴿كلٌّ فيه فضل، وكلٌّ حسن﴾ قلت: إني قد علمت أن كلّاً حسن وأن كلّاً فيه فضل لكن أيّهما أفضل؟

فقال: ﴿الدعاء أفضل، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ هي والله العبادة هي والله العبادة، أليست أشدهنّ؟ هي والله أشدهنّ، هي والله أشدهنّ﴾[1].

كما أن الدعاء بعد الفريضة أفضل من الصلاة النافلة.

وفي المسألة رقم (٢٢) من كتاب الفقه ورد أن الدعاء بعد الفريضة أفضل من الصلاة تنّفلاً، وكذا الدعاء بعد الفريضة أفضل من الدعاء بعد النافلة، ويدلّ على الأول ما رواه المشايخ الثلاثة (قدست اسرارهم)، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿الدعاء بعد الفريضة أفضل من الصلاة تنّفلاً﴾ وزاد الفقيه وبذلك جرت السنّة. ورواه الدعائم: عن أبي جعفر عليه السلام، ورواه الكفعمي عن النبي صلى الله عليه وآله. ويدلّ على الثاني: ما رواه محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال: ﴿الدعاء دبر المكتوبة أفضل من الدعاء دبر التطوّع كفضل المكتوبة على التطوّع﴾[2].

---

(١) عدة الداعي: ص٣٥؛ جواهر الكلام: ج٧، ص٢٠١؛ الوسائل: ج٦، الباب ٦ من أبواب التعقيب وما يناسبه، ص٤٣٨، ح٨٣٨٣.

(٢) الفقه (الصلاة): ج٢٢، ص٢٣٢؛ وانظر الوسائل: ج٦، الباب ٥ من أبواب التعقيب وما يناسبه، ص٤٣٧، ح٨٣٨٠؛ الكافي: ج٣، ص٣٤٢، ح٥؛ الفقيه: ج١، ص٣٢٨، ح٩٦٣؛ التهذيب: ج٢، ص١٠٣، ح٣٨٩؛ الدعائم: ج١، ص١٦٦؛ التهذيب: ج٢، ص١٠٤، ح٣٩٢.

وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجّل في الأرض الدعاء، وأفضل العبادة العفاف﴾ قال: وكان أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً دعّاء[١].

وربما يرد سؤال هنا وهو ما موقع العبادات الأخرى كالصلاة والصوم والحج وغيرها من العبادات -خصوصاً أن الصلاة عمود الدين- من الدعاء؟

ويمكن الجمع بينهما بالقول: أن العبادات وخصوصاً الصلاة تشتمل على الدعاء، ولا تتنافى أفضلية الدعاء مع الصلاة والعبادات الأخرى، كما يمكن أن يكون الدعاء من شرائط قبول العبادة أو أفضليتها فتأمل.

وفيما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: ﴿وربّما أمرضت العبد فقلّت صلاته وخدمته، ولصوته إذا دعاني في كربته أحب إليّ من صلاة المصلين، ولربما صلّى العبد فأضرب بها وجهه، وأحجب عني صوته، أتدري من ذلك يا داود؟ ذلك الذي يكثر الالتفات إلى حُرَم المؤمنين بعين الفسق﴾[٢].

ومن هذه الرواية تظهر أهمية الدعاء وتقدمه على صلاة اللاهي والساهي والظالم والفاسق.

الثالث: الإجماع: أجمع العلماء على أفضلية الدعاء ومشروعيته، وقد عنون ذلك في الكتب الفقهية بأن الدعاء أفضل العبادات، وألّف

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٦٧، ح٨.

(٢) عدة الداعي: ص٣٢.

العديد من أعاظم العلماء كتباً في هذ المجال، ومما يشار إليه بالبنان كتاب العلامة ابن فهد الحلي قدس سره صاحب الكرامات المعروفة، وقد أشار في كتابه (عدة الداعي) إلى جملة من الإيرادات التي تعترض موضوع الدعاء والإجابة عنها.

وذهب بعض الفقهاء إلى أن أفضل العبادات الصلاة لأنها عمود الدين، وأشكل عليه لرجوع الصلاة إلى الدعاء، فإن الصلاة في اللغة هي الدعاء والحمد والسورة والقنوت فيها مشتملة على الدعاء أيضاً، بل ورد في النبوي الشريف: ﴿أفضل العبادات الدعاء﴾[(١)].

وقد ورد في الحديث أن: ﴿الدعاء مخ العبادة﴾ والمخ: الذي يكون في العظم، وربما سموا الدماغ مخاً، ومنه الدعاء: ﴿سجد لك مخي وعصبي﴾ ومخ كل شيء خالصه[(٢)].

وكون الدعاء مخ العبادة لأنه أصلها وخالصها لما فيه من امتثال أمر الله تعالى بقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(٣)] ولما فيه من قطع الأمل عما سواه، ولأنه إذا رأى نجاح الأمور من الله قطع نظره من سواه ودعاه لحاجته، وهذا هو أصل العبادة، ولأن الغرض من العبادة الثواب عليها، وهو المطلوب بالدعاء.

---

(١) عدة الداعي: ص٣٥.

(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٤٤٢، (مخخ)؛ وانظر البحار: ج٩٠، ص٣٠٢، ح٣٩.

(٣) سورة غافر: الآية ٦٠.

الرابع: العقل: كما أن العقل يستقل بضرورة الدعاء ووجوبه؛ لأن الإنسان مهما بلغ من القوة فهو يدرك عجزه وضعفه أمام أبسط الحالات التي لا تدخل ضمن حيز إرادته، وبالنتيجة فهي تحتاج إلى أن يتمسك أو يلتجئ إلى من هو أقوى منه، كما هي طبيعة البشر حيث يلتجئون إلى القوي في مورد الضعف، كما يلتجئون إلى العالم في مورد الجهل، فهنا يجد العقل من الضروري أن ندعو من هو قادر على تسيير جميع القوى الكونية وخالقها، وهو الذي بيده أزمة الأمور طراً، وإليه يرجع الأمر كله، وهو الله سبحانه، كما أن العقل يلزم بالدعاء ويوجبه لأمور:

منها: أداءً لشكر النعمة.

ومنها: لرفع الحاجات والنواقص ودفع الأضرار الدنيوية والأخروية.

ومنها: نيل الثوابات وعلو الدرجات.

وقد استدل على ذلك بالعقل - فضلاً عن النقل- وتقريره:

أن العقل يقضي بأن دفع الضرر عن النفس -مع القدرة عليه والتمكّن منه -واجب، وحصول الضرر ضروري الوقوع لكلّ إنسان في دار الدنيا؛ إذ كلّ إنسان لا ينفك عن الحاجات والأضرار، إمّا من داخل كحصول عارض يعيب مزاجه، أو من خارج كأذية ظالم، أو مكروه يناله من خليط أو جار، ولو خلا من الكلّ بالفعل فالعقل يجوز وقوعه فيها واعتلاقه بها.

كيف لا؟ وهو في دار الحوادث التي لا تستقرّ على حال، ففجائعها لا تنفك عن آدمي إما بالفعل أو بالقوة، فضررها إما حاصل واقع أو متوقع الحصول، وكلاهما يجب إزالته مع القدرة عليه، والدعاء محصل لذلك، وهو مقدور، فيجب المصير إليه.

وقد نبّه أمير المؤمنين وسيّد الوصيين (صلوات الله عليه وآله) على هذا المعنى حيث قال: ﴿ما من أحد ابتلي -وإن عظمت بلواه- بأحقّ بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن من البلاء﴾[١].

فقد ظهر من هذا الحديث احتياج كل عبد إلى الدعاء معافىً ومبتلى، وفائدته رفع البلاء الحاصل، ودفع السوء النازل، أو جلب نفع مقصود، أو تقرير خير موجود، ودوامه ومنعه من الزوال؛ لأنهم عليهم السلام وصفوه بكونه سلاحاً، والسلاح مما يستجلب به النفع، ويستدفع به الضرر، وسمّوه أيضاً ترساً، والترس جنّة يتوقى بها المكاره.

---

(١) عدة الداعي: ص١١-١٢؛ الفقيه: ج٤، ص٣٩٩، ح٥٨٥٧، (بتصرف).

ثانياً: ما هي الثمار التي تترتب على الدعاء؟

تحصل مما ذكرناه أن قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(١)] يربط بين الدعاء والإجابة، فيدل على أن الإجابة وتحقيق الغايات متوقفة على الدعاء والمسألة أولاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾[(٢)] يفيد أن الدعاء من وسائل القرب إلى الله، والقرب هو السبب الذي تتنزل به الفيوضات الإلهية والمواهب الرحمانية. طبعاً كل هذا مشروط بتحقق الدعاء موضوعاً بالفعل، وليس بلقلقة اللسان والألفاظ المرددة.

وفي إرشاد القلوب للديلمي عن أمير المؤمنين عليه السلام رواية جمعت شروط إجابة الدعاء، وهي قول أمير المؤمنين عليه السلام: «للدعاء شروط أربعة الأول إحضار النية، والثاني إخلاص السريرة، والثالث معرفة المسؤول، والرابع الإنصافُ في المسألة»[(٣)] والعدد يفيد الحصر فيدل على عدم الاشتراط بغير الأربعة المذكورة.

والمراد بإحضار النية أي إيرادها وعقد القلب عليها، وبإخلاص السريرة طهارة الباطن من الأمراض الأخلاقية والنفسية كالحسد والحقد والضغينة والوسوسة، وبمعرفة المسؤول أي الإيمان به وبعلمه وقدرته وحكمته وغيرها من صفات جماله وجلاله، وحسن الظن به في الاستماع

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٣) إرشاد القلوب: ج١، ص١٤٩.

والإجابة، وبالإنصاف في المسألة أي لا يطلب المحال ولا ما يوجب إضراراً أو خللاً في الحكمة ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١] وتعليق الإجابة على صدق الدعاء يدل على أن الإجابة مشروطة لا مطلقة فإذا اختل واحد من الشروط المذكورة لم يصدق الدعاء فلا وعد بالإجابة، وعليه فلو لم يستجب الدعاء كشف بالدليل الإنّي أن الدعاء موضوعاً لم يتحقق منّا؛ لأن المقدمة الخارجية التي تقول: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ﴾[٢] تشير إلى أن الوفاء بالوعد موضوعاً يجب إذا تحقق الدعاء حقيقة، وإلّا لزم القبح.

والخلاصة: أن تحقق الدعاء بمنزلة العلة للإجابة، فلو تخلفت العلة تخلف المعلول، وهذا يتعلق بفعل العبد وليس بفعل الباري الحكيم عز وجل.

وعليه فإذا دعا العبد ولم ير الإجابة فليعرف أن دعاءه لم يتحقق موضوعاً، بل كان صورة دعاء؛ لأن الدعاء إذا كان متحققاً في جوهره وشروطه ترتبت عليه الإجابة ألبتة؛ لأن الله لا يخلف وعده.

ولذا يقولون إن الانقطاع إليه سبحانه يحقق المراد ويوجب الإجابة، ويؤيد هذا المعنى أن في حالة الاضطرار أو انكسار القلب أو المظلومية كما في الروايات وغيرها يستجيب الله عزّ وجّل الدعاء. إما لأن هذه الحالات لها عناية وموضوعية خاصة في الإجابة أو لأن الإنسان

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٧.

الداعي في هذه الظروف والأحوال يكون ملتفتاً أكثر إلى دعائه، موفراً في دعائه شروط الاستجابة.

وربما يقال: ماذا يعني الإنصاف في المسألة الواردة في رواية الديلمي؟

والجواب أن له هنا تفسيرين:

الأول: يعني أن الإنسان لا يتجاوز حدوده في الطلب والمسألة، وهو المعنى الظاهري الأولي، وفي الأخبار أن مجاوزة الحدود من موانع الإجابة، أو أن السؤال بالممكن من شرائط الإجابة.

الثاني: أن العبد لا يسأل ربه سبحانه ما يخالف النظام الأصلح للعالم ومصالحه وأسبابه، كأن يطلب العلم بلا تعلّم، أو يطلب الذرية بلا نكاح ونحو ذلك، فإن للأشياء أسباباً ومسببات.

فعن اليقطيني يرفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: «أبى الله أن يجري الأشياء إلّا بالأسباب، فجعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل سبب شرحاً، وجعل لكل شرح مفتاحاً، وجعل لكلّ مفتاح علماً، وجعل لكل علم باباً ناطقاً من عرفه عرف الله، ومن أنكره أنكر الله، ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن»[(١)].

إن قلت: إن هذا التفسير يحث على سلوك العلل والأسباب الطبيعية لتحصيل الحوائج فلماذا الدعاء؟

الجواب: إذا كان المراد من العلل والأسباب سلسلة العلل التي لا تنفك عنها معاليلها ففي مثل هذه الموارد يكون الإشكال وارداً، ولكن

---

(١) البحار: ج٢، ص١٦٨، ح١؛ الكافي: ج١، ص١٨٣، ح٧.

طلب العلم والنكاح ونحو ذلك ليست عللاً تامة لتحقق معلولاتها، وإنما هي معدات.

بمعنى أنها مقدمات معدة لإفاضة النتائج عليها وترتيب آثارها ليس إلّا، ففي العلل الحقيقية لا حاجة للدعاء. أما في المعدات فالحاجة ماسة للدعاء؛ لأن العلل الحقيقية عليتها ذاتية لا تقبل الانفكاك عنها فلا يتخلف عنها المعلول على بعض المباني، مقابل من يقول بالتوافي وجريان عادة الله سبحانه عند اقتران الأسباب والمسببات أنه يفعل الأشياء ويحدثها، فعلى التوافي تصبح الحاجة إلى الدعاء ضرورية، إذ ليس العلل هي المؤثرة، بل المؤثر هو الله سبحانه عند التوافي والاقتران.

وعليه فيطلب العبد العناية الإلهية والعطف في إفاضة النتائج على المقدمة.

أما في المعدات فالنتيجة والأثر ليس بيد المعد، بل بيد المفيض القادر، ولذا يؤثر الدعاء في تحقيق آثاره.

هذا إذا سلّمنا بقانون العلية التامة المستقل في نظام الكون. أما إذا ألغينا هذا القانون من رأس -إلّا في سببية الله سبحانه- وسلّمنا بقانون المعدات والمقدمات فالأمر واضح.

ويرجع المبنى إلى الخلاف الكبير بين علماء المعقول في أن المقدمات هل هي علل حقيقية أم هي معدات وحسب أم لا هذا ولا ذاك؟

ويرى بعض المحققين أن المذهب المنصور هو ما أشار إليه صاحب الأسفار، وحاصله أن: المقدمات ليست عللاً بل معدات، وهي في هذا

تشبه المواد والصور فكما أن جميع الصور المادية تفاض من قبل الجاعل المفيض على موادها كذلك الإجابة تتحقق بالإفاضة من قبل الواجب المجيب، ولهذا قد يتخلف العلم عن المتعلم المجتهد أحياناً، والأرض تصبح عقيمة جدباء ولم تتفاعل مع جهود الفلّاح وهكذا[١].

فالصور تفاض من الجاعل على موادها، والاستجابات تفاض من الواجب على دعواتها. **هذا أولاً**.

وثانياً: أن الدعاء مطلوب نفسي وليس غيري، وفوائده لا تنحصر في نيل الحوائج وإجابة الطلبات، وقد نقل الشيخ أحمد بن فهد قدس سره أن العبد إذا سأل ربه سبحانه يحصل على أحد أمور أو كلها:

١- أن يصل إلى مطلوبه بإجابة دعائه.

٢- فإن لم يصل إلى مطلوبه فأعماله الصالحة يزاد في ثوابها.

٣- أو يذخر فائدة دعائه إلى يوم قيامته وحشره ونشره.

ونضيف:

٤- رقي الدرجات والقربة عند الله سبحانه، وهي لا تنال إلّا بالمسألة والخضوع والتواضع كأثر وضعي له أو نتيجة للفيض.

٥- أداء حق العبودية؛ لأن الدعاء عبادة، بل أفضل عبادة.

٦- افتتاح خزائن السموات والأرض وتوفير الرزق وضمان المستقبل السعيد.

---

(١) انظر الحكمة المتعالية: ج٤، ص١٦.

٧- زيادة صلاح العبد، وتأخير إجابة الدعاء لمحبته سبحانه سماع صوت عبده.

٨- في التأخير مصلحة للعبد، وفي التعجيل أيضاً مصلحة يقدرها الباري عزّ وجل.

٩- محو الذنوب والمظالم التي ارتكبها في الدنيا.

ثالثاً: إذا كان التقدير الإلهي هو الحاكم على نظام الكون والإنسان فلماذا الدعاء؟

والجواب: أن القضاء والقدر قسمان:

الأول: قضاء تعليقي.

والثاني: قضاء حتمي.

والدعاء يؤثر في القسم الأول لا الثاني، وقد وردت أحاديث عديدة في هذا المجال[(١)].

وبمثل هذا يجمع بين الآيات والروايات التي تربط الأمر بالمشيئة الإلهية، والأخرى التي تحث الإنسان على العمل والدعاء والرجاء؛ إذ إن العالم كما تحكمه الأسباب العادية فالنار حارقة والماء يرفع العطش ونحو ذلك كذلك الدعاء يرفع الحاجات الأخرى للإنسان.

---

(١) ورد في عدة الداعي في ذلك ما يلي:

قال عليه السلام: «عليكم بالدعاء، فإن الدعاء والطلب إلى الله تعالى يرد البلاء، وقد قدر وقضى فلم يبق إلّا إمضاؤه، فإذا دعي الله وسئل صَرْفَه صَرَفه».

وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ألا أدلكم على شيء لم يستثن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله؟» قلت: بلى. قال: «الدعاء يرد القضاء وقد أبرم إبراماً، وضمّ أصابعه».

وعن سيد العابدين عليه السلام: «إن الدعاء والبلاء ليتوافقان إلى يوم القيامة. إن الدعاء ليرد البلاء وقد أبرم إبراماً» عدة الداعي: ص١٣.

وأشار العلامة المجلسي في مرآة العقول عن الوافي: إلى السر في دفع البلاء بالدعاء، وأنه كيف يجتمع مع الإبرام، فبيّن عليه السلام أن الدعاء والاستجابة أيضاً من الأمر المقدّر المعلوم إذا وقعا. راجع مرآة العقول: ج١٢، ص١٧.

إذ ورد أيضاً:

من طلب شيئاً وجدّ وجد ومن قرع باباً ولجّ ولج[1]

أما لماذا ندعو ولم يستجب لنا من أمرنا بالدعاء؟

فالجواب: لا شك أن الله سبحانه لا يخلف وعده؛ لأن خلف الوعد قبيح، وهو محال على الحكيم؛ لأنه إما لعجز أو للحاجة أو للتشفي وكلها محالة.

فلا يوجد دعاء بلا إجابة إلّا أن الإجابة لا تكون إلّا حسب الحكمة والمصلحة فربما اقتضتا تسريع الإجابة أو الإبطاء فيها لحين ما تتوفر الدواعي، ولأجل توضيح ذلك لابد من معرفة مفهوم إجابة الدعاء فإن للإجابة مفهومين: مفهوماً عرفياً ومفهوماً شرعياً، وهي بالمفهوم الأول تعني تحقيق ما يطلبه العبد من ربه، إلّا أنها بالمفهوم الثاني تعني إيصال النفع إلى العبد، فهي بالمفهوم الأول لا تلازم المصلحة الواقعية؛ فإن العبد قد يطلب ما فيه مضرته في الواقع بتوهم أن فيه مصلحته بخلافها بالمفهوم الثاني وبما أن المولى حكيم وعالم بمصالح العباد ومضارهم وبما يضرهم وينفعهم فإذا سألوه فإنه يجيب سؤالهم بحسب ما تقتضيه المصالح لا الحاجات.

فالإجابة بالمفهوم الشرعي ليست إيصال العبد إلى آماله ومطلوباته الشخصية، وإنما الإجابة بمعنى إيصال العبد إلى كماله، ولكن الكمال مرة يكون مادياً ومرة معنوياً.

---

(١) يتيمة الدهر: ج٥، ص٢٦٤.

ومن جملة فوائد الدعاء نيل الداعي مقام القرب من المدعو ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي**﴾[١] بمعنى أن العبد إذا سأله بلسان الفقر والذل والحاجة الذاتية التكوينية فهو بلطفه وكرمه يوصله إلى مقام القرب واليقين. أما الوصول إلى حاجات العبد فهذا مرتبط بالشرائط والمصالح التي تعود على العبد نفسه والتي يراها مولاه ولا يراها العبد، ومن هنا ذكروا للدعاء آداباً وشروطاً منها:

١- أكل المال الحلال.

٢- الوقت والمكان المخصوص.

٣- مراعاة الشروط المخصوصة في الدعاء كالابتداء بالصلاة على النبي وآله عليهم السلام وتمجيد الخالق والثناء عليه ثم سؤاله.

إذاً ليست فوائد الدعاء منحصرة بقضاء حاجات الداعي المادية، وإنما نيل القرب منه والانقطاع إليه هي أيضاً من الغايات، وهذه أعظم الفوائد؛ إذ لو وصل العبد إلى هذا المقام الشريف وتهيأت أسبابه سيحظى بمقام الولاية على الأشياء، ويتصرف في أمور الكون، ويصبح مستجاب الدعوة، ولذا ورد في الأخبار: «ادعوني كدعاء الغريق»[٢] لأن الإنسان عند الغرق ينقطع عن كل شيء سوى خالقه: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**﴾[٤] أي انقطع إليه. **هذا أولاً**.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٢) أمالي الصدوق: ص٦١١؛ كمال الدين: ص٣٤٨.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

(٤) سورة المزمل: الآية ٨.

وثانياً: أن إجابة الدعاء قسمان: قسم منها لها ضرر على السائل وهو لا يعلم، وقسم آخر ليس له ضرر.

فالأول مثل المريض الذي يسأل الطبيب أن يصف له الطعام الذي يضره فهل يجيزه له؟ فإذا كانت الاستجابة تعود على الإنسان بالضرر المادي أو المعنوي لا تتحقق؛ لأنها مخالفة للحكمة، كما لو أمر الطبيب بالطعام الذي يضر مريضه فإنه يظلمه، ومن هنا لأنه سبحانه العالم بالمصالح والمضار قد لا يستجيب للعبد في العاجل لما يترتب على الإجابة من أضرار على العبد، وبذلك يكون في عدم التعجيل بالإجابة لطف بالعبد ورحمة.

فالتأخير في الإجابة لا يعني عدم الإجابة، بل تعليقها على المصلحة، بل إن الإجابة مع وجود المضرة بالداعي إضرار يتنزه الحكيم من فعله.

فقه الدعاء

هذا ولا يخفى أن آثار الدعاء لا تترتب في الغالب إلّا إذا دعا الداعي بقصد الإنشاء لا بقصد الحكاية أو الإخبار؛ لأن الداعي لا يكون داعياً إلّا إذا تلفظ بالمطلب والمناجاة بقصد الإنشاء، وأما إذا قصد الإخبار أو التعليم أو الاستئناس بجمال العبارة أو العبادة أو تحصيل آثارها المادية كالصحة في الصوم، وترويض البدن في القيام والقعود في الصلاة، فلا يكون داعياً عرفاً ولا شرعاً.

وكلمات هذا الدعاء -دعاء كميل- وغيره وإن قيلت على لسان قرآن ناطق عليه السلام وهي من المعاني العميقة والتركيبات الفريدة في سبكها وعباراتها بما يشهد لصدورها عن معصوم، إلّا أن قراءتها وتكرارها من الداعين ينبغي أن يتم بقصد الإنشاء لكي يحصلوا على آثارها الغيبية.

ومن هنا قد يرى البعض أن قراءة القرآن بقصد الحكاية لا يجوز معها مس كتابته لمن لم يتطهر، وأما من قرأها بقصد الإنشاء كمن يقرأ: **﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾**(١) التي تتضمن دعاء إنشاءً أو يكتبها إنشاءً فهذا -القرآن الكريم- يجوز لمن لم يتطهر مس كتابته.

ومن الواضح أن هذا لا يتنافى مع كون القرآن معجزة ولا يتأتى لأحد أن يأتي بمثله، ولكن الأحكام تتغير حسب النية، والإنشاء ليس فرداً جديداً، وقد وجه الجواز أن القرآن هو النازل على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا قرأناه حكاية فقد قرأنا القرآن، ولذا لابد من الطهارة، أما إذا قرئ بقصد الإنشاء فهو شبيهه وليس عينه، ولذا يجوز مسه بلا طهارة.

والأقوى أن المسألة ترجع إلى الصدق العرفي، ففي أي مورد صدق أنه من القرآن حرم مسّه على المحدث، وفي موارد الشك فالمرجع أصالة البراءة.

وعليه قد يحمل البعض المس في الآية الكريمة: **﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾**(٢) على إدراك المعاني والمضامين، أي لا يمسّ القرآن الكريم فهماً

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

وإدراكاً، أو الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلّا المطهرّون، والمطهرّون هم آل محمدﷺ الذين طهّر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب، أو مما هو أعظم من ذلك وأدق، وهو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى.

إلّا أن الفقهاء حملوها على الإطلاق الشامل للمس بالجارحة من دون تطهر، فقد حرّم في العروة الوثقى مسّ كتابة القرآن على المحدث[1]، وقرره أغلب الفقهاء ممن شرح العروة أو حشَّى عليها، ومثله في الجواهر والمستمسك والمهذب والفقه[2]، فعلى الأول الطهارة هي العلم بتطهير النفوس دون الطهارة من الخبث أو الحدث، وعلى الثاني تكون الطهارة من الحدث والخبث أيضاً.

منشأ الخلاف يعود إلى معنى (لا) في (لا يمسه) فإن كانت ناهية دلت على حرمة مس كتابة القرآن بالجارحة، وبالطهارة الطهارة من الحدث والخبث وإن كانت نافية دلت على امتناع إدراكه على غير المطهّرين بالعصمة.

ويمكن حمل الآية على المعنيين معاً حتى على تقدير كون (لا) نافية إذا كانت الآية إخباراً أريد به الإنشاء؛ لذا لا يجوز مسّه بلا طهارة من الخبث والحدث، كما لا تدرك حقائقه ومعانيه إلّا بالعصمة.

---

(١) العروة الوثقى: ج١، ص٣٥٤، مسألة(٣).

(٢) انظر جواهر الكلام: ج١، ص٨؛ مستمسك العروة: ج٢، ص٢٧٨، مسألة (٣)؛ مهذب الأحكام: ج٣، ص٥٠؛ الفقه (الطهارة): ج٧، ص٤٣٤.

ولتوضيح الفرق بين قصد الحكاية والإنشاء نقول:

كما أن لفظة (بِعْتُ) في البيع إذا قيلت بقصد الإنشاء أو بقصد الإخبار يختلف الحكم؛ إذ بالإنشاء يتحقق العقد. أما في الحكاية فلا، كذلك في القراءة في الصلاة ونحوها.

ولعل من هنا قال الشيخ الأنصاري قدس سره بعدم جواز الجمع بين قصد القرآنية وقصد الدعاء لدى قراءة بعض الآيات الشريفة في القراءة الواجبة في الصلاة مثل: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ وعدم جواز قصد الإنشاء وقصد الحكاية في مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والسبب في ذلك قد يرجع إلى عدم جواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى[١].

بل أفتى بذلك العلامة الحلي قدس سره في التذكرة[٢]، واستدل له البعض بوجه عقلي خلاصته: أن الجمع بين عنوان القراءة والدعاء مما لا يمكن عقلاً، فلابد إما أن يُدَّعى أن قراءة كلام الغير ليس معناه ما ذكر، أو يُدَّعى عدم التنافي بينه وبين الإنشاء، والأول مخالف للوجدان، والثاني مخالف لضرورة العقل[٣]، إلّا أن الشهيد قدس سره في الذكرى[٤] والسيد الطباطبائي اليزدي قدس سره في العروة خالفاه؛ إذ قالا بجواز الجمع.

---

(١) كتاب الصلاة (للشيخ الأنصاري): ج٢، ص٢١٥.

(٢) التذكرة: ج١، ص١١٨.

(٣) اسرار العارفين: ص٤٧.

(٤) الذكرى: ج٣، ص٣٤٩.

قال في العروة الوثقى: الأقوى جواز قصد إنشاء الخطاب بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إذا قصد القرآنية أيضاً بأن يكون قاصداً للخطاب بالقرآن، بل وكذا في سائر الآيات، فيجوز إنشاء الحمد بقوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإنشاء المدح في: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ وإنشاء طلب الهداية في: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ﴾ ولا ينافي قصد القرآنية مع ذلك[(١)].

ومن الواضح أن الإنشاء بقصد الطلب هو أيضاً إنشاء لا إخبار، أو هو إخبار عن واقع الحاجة بقصد الإنشاء، وبذلك يتفق مع ما ذكرنا، وهذا على مسلك القائلين بجواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى كما هو التحقيق فواضح، وأما على مسلك المانعين فلابد من إخراجه موضوعاً.

وقد أجابا على استدلالهم بأن الإنشاء والحكاية من قبيل الدواعي، واجتماع أكثر من داعٍ في أمر واحد ممكن، فليس الأمر من قبيل استعمال اللفظ في أكثر من معنى، ويؤيد هذا ما نقله صاحب الجواهرﭖ في باب تخيير المصلي في الركعتين الأخيرتين من الرباعية بين قراءة التسبيحات أو الفاتحة. عن عبيد بن زرارة قال سألت أبا عبد اللهعليه السلام عن الركعتين الأخيرتين من الظهر فقال: «تسبّح وتحمد الله وتستغفر لذنبك، وإن شئت فاتحة الكتاب فإنها تحميد ودعاء»[(٢)].

فإذا كانت قراءة الحمد تتنافى مع الدعائية كيف جمع الإمامعليه السلام بينها وبين الدعاء.

---

(١) العروة الوثقى: ج٢، ص٥٣٤، مسألة (٨).

(٢) جواهر الكلام: ج١٠، ص٤٠.

وكيف كان، فإنه ينبغي قراءة الأدعية والزيارات المطلقة والمخصوصة بالأوقات والأمكنة الخاصة بقصد الدعاء، ولو ضمّ إليها قصد التأسي بالمعصوم عليه السلام ازدادت فضلاً وثواباً، وأما قراءتها بقصد الحكاية مجرداً عن الدعاء فيخرجها عن الدعاء عرفاً، وبهذا يتضح الفرق بين قارئ الدعاء والداعي واللاهج بالذكر والذاكر.

شروط الدعاء

ثم إن تمامية الدعاء تتوقف على معرفة أمور:

الأول: معرفة المدعو -الله سبحانه- بما يليق به، فلا يجسمه أو يشبهه أو يشرك به في التأثير والأثر بأن يجعل للأسباب والوسائط أثراً في مقابله، أو يسيء الظن به، فما لم يعرف الداعي مدعوه بما يليق بشأنه لا يستحق الإجابة، ومن هنا قالوا: يجب أن يعتقد العبد بكمال ربه، وينسب إليه كل فضيلة، وينزهه من كل نقص ورذيلة وأنه وجود محض، وماهيته عين وجوده بغير ما سواه الذي يعد زوجاً تركيبياً من ماهية ووجود، وهذا ما اتفق عليه علماء المعقول، وهذه المعرفة معرفة بالإنيّة أي من المعلول إلى العلة؛ إذ بعد درك حقيقة الوجود بالبداهة ندرك أن مفيضه أيضاً وجود وليس دركاً بالكنه والحقيقة؛ لأن المحدود لا يحيط باللامحدود ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[1].

---

(١) سورة طه: الآية ١١٠.

وإنما ندركه ونعرفه بالصفات والآثار، فمعرفته بمعرفة صفاته وآثاره، وصفاته من العلم والقدرة والحياة والإرادة وغير ذلك، ككونه سميعاً بصيراً متكلماً بكلماته التكوينية والتدوينية، وكذلك المحبة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[(١)] وواضح أن اختلاف مراتب الناس ترجع إلى اختلاف مراتب المعرفة.

وكلمة (اللهم) الواردة في الأدعية وفي أول هذا الدعاء الشريف قد تكون إشارة إلى هذا الأمر، والأصل في (اللهم) (يا الله) حذف عنها الياء الندائية وعوضت بالميم كما قال ابن معط:

وأحرف النداء قد تنحذف ... كمثل ربّنا ومثل يوسفُ[(٢)]

وكلمة (الله) إما وصف أو اسم علم يدل على الذات الإلهية المستجمعة لجميع صفات الكمال؛ لذا لابد أن يعرف الداعي المدعو بما يليق به وبقدر استعداده.

الثاني: أن يعرف الداعي نفسه، وأنه فقير محتاج إلى ربه لذاته، والفقر قسمان: نوراني وظلماني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ﴾[(٣)] والفقر الذاتي بأبعاده كلها أي الفقر في أصل الذات، ثم في صفاتها، ثم في أفعالها وآثارها. هذا النوع من الفقر قال عنه الرسول الأعظمﷺ على بعض التفاسير:

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٢) انظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣.

(٣) سورة فاطر: الآية ١٥.

﴿الفقر فخري﴾[(١)] وفي مناجاة المعصومين عليهم السلام ورد: ﴿اللهمّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين﴾[(٢)] والفقير والمسكين بمعنى لو افترقا اجتمعا ولو اجتمعا اختلفا.

وهذا الفقر عند أهل المعرفة نوراني؛ لأنه يقوم على الاعتقاد الصحيح بكمال الخالق وغناه ونقص المخلوق وحاجته، ونتيجة ارتقاء العبد ووصوله إلى مناه في المعرفة والقرب، وتظهر عليه آثار النور، ويقابله الفقر الظلماني وهو المعنى المعروف بين العموم بمعنى قلة ذات اليد، وهو الذي ورد ذمه في الأخبار كقولهم عليهم السلام: ﴿كاد الفقر أن يكون كفراً﴾[(٣)] و: ﴿الفقر سواد الوجه في الدارين﴾[(٤)].

إذا صار باعثاً على الكفران ونفاذ الصبر، وبهذا البيان يمكن أن يجمع بين الروايات المادحة للفقر والذامة على اختلاف مواردها فتأمل.

ولعل كلمة (إنّي) الواردة في أول الدعاء (اللهم إنّي أسألك) إشارة إلى هذا المعنى، فإن الداعي لدى الدعاء ينبعث عن الحاجة والفقر أولاً ليطلب ما هو مفتقر إليه في ذاته وصفاته وأفعاله وحاجاته ممن هو غني في ذاته

---

(١) عوالي اللآلئ: ج١، ص٣٩، ح٣٨؛ وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿الفقر فخري وبه أفتخر على سائر الأنبياء﴾.

(٢) عوالي اللآلئ: ج١، ص٣٩، ح٣٧.

(٣) أمالي الصدوق: ص٣٧١، ح٦.

(٤) عوالي اللآلئ: ج١، ص٤٠، ح٤١.

وصفاته وأفعاله، ومستغن عن غيره، ومن هنا قال الحكماء: الممكن ما من ذاته أن يكون ليسا ومن علته أن يكون أيساً[١].

والليس والأيس بمعنى العدم والوجود في الاصطلاح اليوناني والفلسفي. قال الحاج السبزواري في منظومته:

ما ليس موجوداً يكون ليسا   قد ساوق الشيء لدينا الأيسا[٢]

ومعرفة الفقر الذاتي والتوجه به عند الدعاء له فوائد؛ ويفتح للداعي أبواب الرحمة من جوانب عدة:

منها: أن الفقير متى ما أحس بالفقر يتوجه إلى الغني لتحصيل فيضه وكسب عنايته، فهو طريق إلى الاتصال بالخالق والانقطاع إليه وكسب الخير وفيوضاته.

ومنها: متى ما توجه العبد إلى ربه يدنو من مقام القرب والمحبة، وبالمحبة يصل إلى ربه، فالفقر سبب يؤدي إلى الوصول إلى الله والقيام بين يديه، وهذا غاية الغايات في الدنيا والآخرة.

ومنها: التشبه بالخالق في السجايا والأفعال والتخلق بأخلاقه، فيكتمل ذاتاً وقولاً وعملاً بقدر استعداده.

---

(١) الحكمة المتعالية: ج٨، ص١٩٣، الهامش، وفيه: (فإنه ممكن وله من ذاته أن يكون ليس ومن علته أن يكون أيس).

(٢) غرر الفرائد: ص١١٣.

الثالث: معرفة الدعاء وشروطه وآدابه.

والدعاء في اللغة النداء. يقال دعوت فلاناً إذا ناديته وصحت به[(١)]، ويفترقان في أن النداء يقع بصوت مرتفع والدعاء أعم، وأن الدعاء لا يكون إلّا من الأدنى إلى الأعلى، وأن يقترن بالتذلل والخضوع، والنداء أعم[(٢)]، وبهذا المعنى ورد في الشرع وعرف المتشرعة، فالدعاء فيهما أن يلتمس العبد من ربه حاجاته مقرونة بالتذلل والخضوع والاستكانة، وقد حثت الآيات والروايات على ذلك كما مر في بعض الآيات وستمر ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[(٣)] التي تشير إلى منطلقات الدعاء والمسألة، وعليه فهو حقيقة شرعية لا عرفية يجب أن تحمل النصوص الشرعية عليها إلّا ما خرج.

---

(١) قال في القاموس: الدعاء: الرغبة إلى الله تعالى، دعا دعاءً ودعوى، القاموس المحيط: ج٤، ص٣٢٧.

وقال الطريحي في المجمع: قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ﴾ على معنى أن (الدعاء) بمعنى التسمية التي تتعدى إلى مفعولين، أي سموه (الله) أو سموه (الرحمن) أياً ما تسموه فله الأسماء الحسنى؛ إذ لو كان الدعاء بمعنى النداء المتعدي إلى مفعول واحد لزم الاشتراك إن كان مسمى (الله) غير مسمى (الرحمن) ولزم عطف الشيء على نفسه إن كان عينه. مجمع البحرين: ج١، ص١٣٨، (دعا).

(٢) مفردات الراغب: ص٣١٥، (دعا)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٣٣٧، (دعو)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٥٣٤-٥٣٥، (٢١٥٠)؛ (٢١٥١).

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادات الدعاء»[١] وفي مدح إبراهيم الخليل عليه السلام سمّاه (أوّاه) فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[٢] والأوّاه يعني الدعّاء، وفي الكافي «أوّاه هو الدعّاء»[٣] أي كثير الدعاء.

وقال صلى الله عليه وآله: «ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا استجلاب اثم إلّا أعطاه الله تعالى بها إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجّل له الدعوة وإمّا أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يرفع عنه مثلها من السوء»[٤].

وعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «ما من شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء»[٥] إلى غيرها من الروايات.

---

(١) عدة الداعي: ص٣٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٤؛ قال الطبرسي قدس سره: الأواه: الدعاء والبكاء عن ابن عباس، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. نقلاً عن الكافي: ج٢، ص٤٦٦، الحاشية (٢).

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٦٦، ح١.

(٤) مكارم الأخلاق: ص٢٦٩؛ وانظر دعوات الراوندي: ص١٩، ح١٢.

(٥) مكارم الأخلاق: ص٢٦٨.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ:
في آدَابِ الدُّعَاءِ

وهي على أقسام:

أولها: الآداب التي ينبغي العمل بها قبل الدعاء وهي عديدة:

منها: إعطاء الصدقة. قال تعالى: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[1].

واعتقاد الداعي بعلم الله سبحانه بحاله واستجابته لدعائه وقدرته على تحقيق مطلوبه وهو قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾[2].

وعن رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: من سألني وهو يعلم أنّي أضرُّ وأنفع استجبت له»[3].

وحسن الظن بالله سبحانه في إجابة الدعاء. قال الله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[4] وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي فلا يظن عبدي بي إلّا خيراً»[5].

والتطهّر، والتطيّب، وكون الدعاء في المسجد أفضل؛ لأنه محل العبادة والانقطاع، والاتجاه نحو القبلة، والانقطاع القلبي إلى الله، وتنظيف البطن من لقمة الحرام بالكسب الحلال، فعن رسول الله ﷺ: «من أكل الحلال أربعين يوماً نوّر الله قلبه»[6].

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٣) ثواب الأعمال: ص١٥٣؛ وسائل الشيعة: ج٧، الباب ١٥ من أبواب الدعاء، ص٥٣، ح٨٦٩٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

(٥) عدة الداعي: ص١٣٢.

(٦) البحار: ج١٠٣، ص١٦، ح٧١.

وقال صلى الله عليه وآله: ﴿يكفي من الدعاء مع البرِّ ما يكفي الطعام من الملح﴾(١). وتجنب موانع الإجابة كالذنوب، وتجديد التوبة والاستغفار من الذنوب، وأن لا يسأل محرّماً ولا قطيعة رحم، ولا ما يتضمّن قلة الحياء وإساءة الأدب. قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿يا صاحب الدعاء، لا تسأل عمّا لا يكون ولا يحلّ﴾(٢).

ثانيها: الآداب التي ينبغي أن تقترن بالدعاء.

وهي: عدم التعجيل في قراءة الدعاء، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿إنّ العبد إذا دعا لم يزل الله تبارك وتعالى في حاجته ما لم يستعجل﴾(٣).

وفيما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: ﴿يا موسى، عجل التوبة وأخِّر الذنب، وتأنَّ في المكث بين يديّ في الصلاة، ولا ترج غيري، واتخذني جُنّة للشدائد، وحصناً لملمّات الأمور﴾(٤).

وتسمية الحاجة، فعن الصادق عليه السلام قال: ﴿إنّ الله تبارك وتعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعاه، ولكنّه يحب أن تبثّ إليه الحوائج﴾(٥).

والإلحاح في الدعاء، فقد روى الوليد بن عقبة الهجري قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ﴿والله لا يلحّ عبدٌ مؤمن على الله في حاجته إلّا قضاها له﴾(٦).

---

(١) أمالي الطوسي: ص٥٣٤؛ مكارم الأخلاق: ص٤٦٥.

(٢) الخصال: ص٦٣٥.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٧٤، ح١.

(٤) الكافي: ج٨، ص٤٦، ح٨.

(٥) الكافي: ج٢، ص٤٧٦، ح١.

(٦) الكافي: ج٢، ص٤٧٥، ح٣.

والإسرار بالدعاء لبعده عن الرياء، فعن الإمام الرضا عليه السلام قال: «دعوة العبد سراً دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانيّة»[(١)].

والتعميم في الدعاء للأهل والإخوان، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا دعا أحدكم فليعم، فإنّه أوجب للدعاء»[(٢)].

والبكاء أو التباكي، والاعتراف بالذنوب والخطايا، والتحميد والتثنية على الله سبحانه، كما ورد في دعاء الصحيفة السجادية: «اللهمّ يا منتهى مطلب الحاجات، و يا من عنده نيل الطلبات، و يا من لا يبيع نعمه بالأثمان»[(٣)].

والصلوات على النبي وآله، ورفع اليدين من باطنهما إلى السماء في طلب الرحمة، وأما إذ كان في طلب اللعنة ونزول العذاب على الظالمين فبظاهر الكف.

ثالثها: الآداب التي ينبغي العمل بها بعد الدعاء وهي عديدة:

منها: الإلحاح في المسألة، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله يحبّ السائل اللحوح»[(٤)] وختم الدعاء بالصلوات على النبي وآله، ومعاودة الدعاء وملازمته في جميع الأوقات والحالات، فعن الباقر عليه السلام قال: «ينبغي للمؤمن أن يكون دعاؤه في الرخاء نحواً من دعائه في الشدّة، ليس إذا أعطي فتر، فلا تملّ الدعاء فإنّه من الله عزّ وجل بمكان»[(٥)].

---

(١) مكارم الأخلاق: ص٢٧٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٨٧، ح١.

(٣) الصحيفة السجادية: ص٨٤، دعاء رقم ٣٩.

(٤) عدة الداعي: ص١٤٣.

(٥) الكافي: ج٢، ص٤٨٨، ح١؛ وانظر قرب الإسناد: ص٣٨٦، ح١٣٥٨.

والتلفظ بقول: ((ما شاء الله لا حول ولا قوة إلّا بالله))[(١)].

ومسح الرأس والوجه والكفين، وفي رواية الصدر أيضاً، فإذا اقترن الدعاء بهذه الآداب وتوفرت فيه الشرائط فإنه يقترن بالإجابة إن شاء الله تعالى.

الرابع: معرفة المدعو به، أي الوسيلة التي يتوسل بها إلى الله.

فإن الدعاء طلب الفيض ونيله من المولى الحق بلا وسيلة غير ممكن، فاستفاضة الفيوضات الإلهية الأعم من التكوينية والتشريعية تحتاج إلى مجرى لهذه الفيوضات، وذلك لنهاية البعد بين مرتبة العبودية والربوبية وعالم الوجوب وعالم الإمكان.

ومن هنا كان الأنبياء عليهم السلام يستفيضون الفيوضات الإلهية بواسطة محمد وآل محمد عليهم السلام؛ لأنهم الوسيلة إليه، وأرقى مجرى لهذه الفيوضات كما تواتر في النصوص وكثر في مثل الزيارة الجامعة، والأدعية الرجبية والشعبانية، والمناجاة السحرية في شهر رمضان، كدعاء أبي حمزة الثمالي.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[(٢)].

فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «في الجنة لؤلؤتان إلى بطنان العرش: إحداهما بيضاء والأخرى صفراء، في كل واحدة منهما سبعون ألف غرفة، أبوابها وأكوابها من عرق واحدة، فالبيضاء الوسيلة لمحمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته، والصفراء لإبراهيم وأهل بيته»[(٣)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٥٢١، ح١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٣) مجمع البيان: ج٣، ص٣٢٧.

مَتْنُ الدُعاء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَبِقُوَّتِكَ الَّتي قَهَرْتَ بِها كُلَّ شَيْءٍ، وَخَضَعَ لَها كُلُّ شَيءٍ، وَذَلَّ لَها كُلُّ شَيءٍ، وَبِجَبَرُوتِكَ الَّتي غَلَبْتَ بِها كُلَّ شَيءٍ، وَبِعِزَّتِكَ الَّتي لا يَقُومُ لَها شَيءٌ، وَبِعَظَمَتِكَ الَّتي مَلأَتْ كُلَّ شَيءٍ، وَبِسُلْطانِكَ الَّذي عَلا كُلَّ شَيءٍ، وَبِوَجْهِكَ الْباقي بَعْدَ فَناءِ كُلِّ شَيءٍ، وَبِأَسْمائِكَ الَّتي مَلأَتْ أَرْكانَ كُلِّ شَيءٍ، وَبِعِلْمِكَ الَّذي أَحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ، وَبِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي أَضاءَ لَهُ كُلُّ شَيءٍ، يا نُورُ يا قُدُّوسُ، يا أَوَّلَ الأَوَّلِينَ، وَيا آخِرَ الآخِرينَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لي الذُّنُوبَ الَّتي تَحْبِسُ الدُّعاءَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ الْبَلاءَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لي كُلَّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ خَطيئَةٍ أَخْطَأْتُها، اللّهُمَّ إنّي أَتَقَرَّبُ إلَيْكَ بِذِكْرِكَ، وَأَسْتَشْفِعُ بِكَ إلى نَفْسِكَ، وَأَسْأَلُكَ بِجُودِكَ

أنْ تُدْنِيَني مِنْ قُرْبِكَ، وَأنْ تُوزِعَني شُكْرَكَ، وَأنْ تُلْهِمَني ذِكْرَكَ، اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ سُؤالَ خاضِعٍ مُتَذَلِّلٍ خاشِعٍ أنْ تُسامِحَني وَتَرْحَمَني وَتَجْعَلَني بِقِسْمِكَ راضِياً قانِعاً، وَفي جَميعِ الأَحْوالِ مُتَواضِعاً، اللّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ سُؤالَ مَنِ اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ، وَأَنْزَلَ بِكَ عِنْدَ الشَّدائِدِ حاجَتَهُ، وَعَظُمَ فيما عِنْدَكَ رَغْبَتُهُ، اللّهُمَّ عَظُمَ سُلْطانُكَ، وَعَلا مَكانُكَ، وَخَفِيَ مَكْرُكَ، وَظَهَرَ أمْرُكَ وَغَلَبَ قَهْرُكَ، وَجَرَتْ قُدْرَتُكَ، وَلا يُمْكِنُ الْفِرارُ مِنْ حُكُومَتِكَ، أَللّهُمَّ لا أجِدُ لِذُنُوبي غافِراً، وَلا لِقَبائِحي ساتِراً، وَلا لِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِي الْقَبيحِ بِالْحَسَنِ مُبَدِّلاً غَيْرَكَ، لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ ظَلَمْتُ نَفْسي، وَتَجَرَّأْتُ بِجَهْلي، وَسَكَنْتُ إلى قَديمِ ذِكْرِكَ لي وَمَنِّكَ عَلَيَّ، اللّهُمَّ مَوْلاي كَمْ مِنْ قَبيحٍ سَتَرْتَهُ، وَكَمْ مِنْ فادِحٍ مِنَ الْبَلاءِ أَقَلْتَهُ (أَمَلْتَهُ) وَكَمْ مِنْ عِثارٍ وَقَيْتَهُ، وَكَمْ مِنْ مَكْرُوهٍ دَفَعْتَهُ، وَكَمْ مِنْ ثَناءٍ جَميلٍ لَسْتُ أهْلاً لَهُ نَشَرْتَهُ، اللّهُمَّ عَظُمَ بَلائي وَأَفْرَطَ بي سُوءُ حالي، وَقَصُرَتْ (قَصَّرَتْ) بي أعْمالي، وَقَعَدَتْ بي أغْلالي، وَحَبَسَني عَنْ نَفْعي بُعْدُ

أَمَلي (آمالي)، وَخَدَعَتْني الدُّنْيا بِغُرُورِها، وَنَفْسي بِجِنايَتِها (بِخِيانَتِها) وَمِطالي يا سَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أنْ لا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعائي سُوءُ عَمَلي وَفِعالي، وَلا تَفْضَحْني بِخَفِيِ مَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ سِرّي، وَلا تُعاجِلْني بِالْعُقُوبَةِ عَلى ما عَمِلْتُهُ في خَلَواتي مِنْ سُوءِ فِعْلي وَإساءَتي، وَدَوامِ تَفْريطي وَجَهالَتي، وَكَثْرَةِ شَهَواتي وَغَفْلَتي، وَكُنِ اللّهُمَّ بِعِزَّتِكَ لي في كُلِّ الأحْوالِ (فِي الأحْوالِ كُلِّها) رَؤوفاً، وَعَلَيَّ في جَميعِ الأُمُورِ عَطُوفاً، إلـهي وَرَبّي مَنْ لي غَيْرُكَ أَسْأَلُهُ كَشْفَ ضُرّي وَالنَّظَرَ في أمْري، إلهي وَمَوْلاي أجْرَيْتَ عَلَيَ حُكْماً اتَّبَعْتُ فيهِ هَوى نَفْسي وَلَمْ أحْتَرِسْ فيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوّي، فَغَرَّني بِما أَهْوى وَأَسْعَدَهُ عَلى ذلِكَ الْقَضاءُ، فَتَجاوَزْتُ بِما جَرى عَلَي مِنْ ذلِكَ بَعْضَ حُدُودِكَ، وَخالَفْتُ بَعْضَ أوامِرِكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ (الْحُجَّةُ) عَلَيّ في جَميعِ ذلِكَ، وَلا حُجَّةَ لي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُكَ، وَأَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ يا إلـهي بَعْدَ تَقْصيري وَإسْرافي عَلى نَفْسي مُعْتَذِراً نادِماً مُنْكَسِراً مُسْتَقيلاً مُسْتَغْفِراً مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِناً

مُعْتَرِفاً لا أجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنّي وَلا مَفْزَعاً أتَوَجَّهُ إلَيْهِ في أمْري غَيْرَ قَبُولِكَ عُذْري وَإدْخالِكَ إيّايَ في سَعَةٍ (مِنْ) رَحْمَتِكَ، اللّهُمَّ (إلهي) فَاقْبَلْ عُذْري، وَارْحَمْ شِدَّةَ ضُرّي، وَفُكَّني مِنْ شَدِّ وَثاقي، يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَني وَرِقَّةَ جِلْدي وَدِقَّةَ عَظْمي، يا مَنْ بَدَأَ خَلْقي وَذِكْري وَتَرْبِيَتي وَبِرّي وَتَغْذِيَتي هَبْني لِابْتِداءِ كَرَمِكَ وَسالِفِ بِرِّكَ بي، يا إلهي وَسَيِّدي وَرَبّي، أتُراكَ مُعَذِّبي بِنارِكَ بَعْدَ تَوْحيدِكَ، وَبَعْدَ مَا انْطَوى عَلَيْهِ قَلْبي مِنْ مَعْرِفَتِكَ، وَلَهِجَ بِهِ لِساني مِنْ ذِكْرِكَ، وَاعْتَقَدَهُ ضَميري مِنْ حُبِّكَ، وَبَعْدَ صِدْقِ اعْتِرافي وَدُعائي خاضِعاً لِرُبُوبِيَّتِكَ، هَيْهاتَ أنْتَ أكْرَمُ مِنْ أنْ تُضَيِّعَ مَنْ رَبَّيْتَهُ، أوْ تُبْعِدَ (تُبَعِّدَ) مَنْ أدْنَيْتَهُ، أوْ تُشَرِّدَ مَنْ آوَيْتَهُ، أوْ تُسَلِّمَ إلَى الْبَلاءِ مَنْ كَفَيْتَهُ وَرَحِمْتَهُ، وَلَيْتَ شِعْري يا سَيِّدي وَإلهي وَمَوْلايَ أتُسَلِّطُ النّارَ عَلى وُجُوه خَرَّتْ لِعَظَمَتِكَ ساجِدَةً، وَعَلى ألْسُن نَطَقَتْ بِتَوْحيدِكَ صادِقَةً، وَبِشُكْرِكَ مادِحَةً، وَعَلى قُلُوب اعْتَرَفَتْ بِإلهِيَّتِكَ مُحَقِّقَةً، وَعَلى ضَمائِرَ حَوَتْ مِنَ الْعِلْمِ بِكَ حَتّى

صارَتْ خاشِعَةً، وَعَلى جوارِحَ سَعَتْ إلى أوْطانِ تَعبُّدِكَ طائِعَةً، وَأشارَتْ بِاسْتِغْفارِكَ مُذْعِنَةً، ما هكَذَا الظَّنُّ بِكَ، وَلا أخْبِرْنا بِفَضْلِكَ عَنْكَ يا كَريمُ، يا رَبِّ وَأنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفي عَنْ قَليل مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا وَعُقُوباتِها، وَما يَجْري فيها مِنَ الْمَكارِهِ عَلى أهْلِها، عَلى أنَّ ذلِكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ، قَليلٌ مَكْثُهُ، يَسيرٌ بَقاؤُهُ، قَصيرٌ مُدَّتُهُ، فَكَيْفَ احْتِمالي لِبَلاءِ الآخِرَةِ وَجَليلِ (حُلُولِ) وُقُوعِ الْمَكارِهِ فيها، وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ، وَيَدُومُ مَقامُهُ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْ أهْلِهِ، لِأنَّهُ لا يَكُونُ إلّا عَنْ غَضَبِكَ وَانتِقامِكَ وَسَخَطِكَ، وَهذا ما لا تَقُومُ لَهُ السَّماواتُ وَالأرْضُ، يا سَيِّدي فَكَيْفَ لي (بي) وَأنَا عَبْدُكَ الضَّعيفُ الذَّليلُ الْحَقيرُ الْمِسْكينُ الْمُسْتكينُ، يا إلهي وَرَبّي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ لِأيِّ الأمُورِ إلَيْكَ أشْكُو وَلِما مِنْها أضِجُّ وَأبْكي، لِأليمِ الْعَذابِ وَشِدَّتِهِ، أمْ لِطُولِ الْبَلاءِ وَمُدَّتِهِ، فَلَئِنْ صَيَّرْتَنى لِلْعُقُوباتِ مَعَ أعْدائِكَ، وَجَمَعْتَ بَيْني وَبَيْنَ أهْلِ بَلائِكَ، وَفَرَّقْتَ بَيْني وَبَيْنَ أحِبّائِكَ وَأوْليائِكَ، فَهَبْني يا إلهى وَسَيِّدي

وَمَوْلايَ وَرَبّي صَبَرْتُ عَلى عَذابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلى فِراقِكَ، وَهَبْني (يا إِلـهي) صَبَرْتُ عَلى حَرِّ نارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلى كَرامَتِكَ، أَمْ كَيْفَ أَسْكُنُ فِي النّارِ وَرَجائي عَفْوُكَ، فَبِعِزَّتِكَ يا سَيِّدى وَمَوْلايَ أُقْسِمُ صادِقاً لَئِنْ تَرَكْتَني ناطِقاً لأَضِجَّنَّ إِلَيْكَ بَيْنَ أَهْلِها ضَجيجَ الآمِلينَ، وَلأَصْرُخَنَّ إِلَيْكَ صُراخَ الْمُسْتَصْرِخينَ، وَلأَبْكِيَنَّ عَلَيْكَ بُكاءَ الْفاقِدينَ، وَلأُنادِيَنَّكَ أَيْنَ كُنْتَ يا وَلِيَّ الْمُؤْمِنينَ، يا غايَةَ آمالِ الْعارِفينَ، يا غِياثَ الْمُسْتَغيثينَ، يا حَبيبَ قُلُوبِ الصّادِقينَ، وَيا إِلهَ الْعالَمينَ، أَفَتُراكَ سُبْحانَكَ يا إِلهى وَبِحَمْدِكَ تَسْمَعُ فيها صَوْتَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ سُجِنَ (يُسْجَنُ) فيها بِمُخالَفَتِهِ، وَذاقَ طَعْمَ عَذابِها بِمَعْصِيَتِهِ، وَحُبِسَ بَيْنَ أَطْباقِها بِجُرْمِهِ وَجَريرَتِه، وَهُوَ يَضِجُّ إِلَيْكَ ضَجيجَ مُؤَمِّل لِرَحْمَتِكَ، وَيُناديكَ بِلِسانِ أَهْلِ تَوْحيدِكَ، وَيَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِرُبُوبِيَّتِكَ، يا مَوْلايَ فَكَيْفَ يَبْقى فِي الْعَذابِ وَهُوَ يَرْجُو ما سَلَفَ مِنْ حِلْمِكَ، أَمْ كَيْفَ تُؤْلِمُهُ النّارُ وَهُوَ يَأْمُلُ فَضْلَكَ وَرَحْمَتَكَ، أَمْ كَيْفَ يُحْرِقُهُ لَهيبُها وَأَنْتَ تَسْمَعُ

صَوْتَهُ وَتَرى مَكانَه، أَمْ كَيْفَ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ زَفيرُها وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفَهُ، أَمْ كَيْفَ يَتَقَلْقَلُ بَيْنَ أَطْباقِها وَأَنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ، أَمْ كَيْفَ تَزْجُرُهُ زَبانِيَتُها وَهُوَ يُناديكَ يا رَبَّهُ، أَمْ كَيْفَ يَرْجُو فَضْلَكَ في عِتْقِهِ مِنْها فَتَتْرُكُهُ فيها، هَيْهاتَ ما ذلِكَ الظَّنُّ بِكَ وَلاَ الْمَعْرُوفُ مِنْ فَضْلِكَ، وَلا مُشْبِهٌ لِما عامَلْتَ بِهِ الْمُوَحِّدينَ مِنْ بِرِّكَ وَإِحْسانِكَ، فَبِالْيَقينِ أَقْطَعُ لَوْ لا ما حَكَمْتَ بِهِ مِنْ تَعْذيبِ جاحِديكَ، وَقَضَيْتَ بِهِ مِنْ إِخْلادِ مُعانِديكَ لَجَعَلْتَ النّارَ كُلَّها بَرْداً وَسَلاماً، وَما كانَ لِأَحَد فيها مَقَرّاً وَلا مُقاماً، لكِنَّكَ تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُكَ أَقْسَمْتَ أَنْ تَمْلأَها مِنَ الْكافِرينَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعينَ، وَأَنْ تُخَلِّدَ فيهَا الْمُعانِدينَ، وَأَنْتَ جَلَّ ثَناؤُكَ قُلْتَ مُبْتَدِئاً، وَتَطَوَّلْتَ بِالإنعامِ مُتَكَرِّماً، أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ، إِلهي وَسَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِالْقُدْرَةِ الَّتي قَدَّرْتَها، وَبِالْقَضِيَّةِ الَّتي حَتَمْتَها وَحَكَمْتَها، وَغَلَبْتَ مَنْ عَلَيْهِ أَجْرَيْتَها أَنْ تَهَبَ لي في هذِهِ اللَّيْلَةِ وَفي هذِهِ السّاعَةِ كُلَّ جُرْم أَجْرَمْتُهُ، وَكُلَّ ذَنْب أَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ قَبيح

أَسْرَرْتُهُ، وَكُلَّ جَهْل عَمِلْتُهُ، كَتَمْتُهُ أَوْ أَعْلَنْتُهُ، أَخْفَيْتُهُ أَوْ أَظْهَرْتُهُ، وَكُلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتَ بِإِثْباتِهَا الْكِرامَ الْكاتِبِينَ الَّذينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ ما يَكُونُ مِنّي، وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوارِحي، وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرائِهِمْ، وَالشّاهِدَ لِما خَفِيَ عَنْهُمْ، وَبِرَحْمَتِكَ أَخْفَيْتَهُ، وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ، وَأَنْ تُوَفِّرَ حَظّي مِنْ كُلِّ خَيْر أَنْزَلْتَهُ (تُنَزِّلُهُ) أَوْ إِحْسانٍ فَضَّلْتَهُ، أَوْ بِرٍّ نَشَرْتَهُ (تَنْشُرُهُ) أَوْ رِزْق بَسَطْتَهُ (تَبْسُطُهُ) أَوْ ذَنْب تَغْفِرُهُ، أَوْ خَطَأً تَسْتُرُهُ، يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبِّ يا إِلهي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ وَمالِكَ رِقّي، يا مَنْ بِيَدِهِ ناصِيَتي، يا عَليماً بِضُرّي (بِفَقْري) وَمَسْكَنَتي، يا خَبيراً بِفَقْري وَفاقَتي، يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ وَقُدْسِكَ وَأَعْظَمِ صِفاتِكَ وَأَسْمائِكَ أَنْ تَجْعَلَ أَوْقاتي مِنَ (فِي) اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بِذِكْرِكَ مَعْمُورَةً، وَبِخِدْمَتِكَ مَوْصُولَةً، وَأَعْمالي عِنْدَكَ مَقْبُولَةً حَتّى تَكُونَ أَعْمالي وَأَوْرادي (وَإِرادَتي) كُلُّها وِرْداً واحِداً، وَحالي في خِدْمَتِكَ سَرْمَداً، يا سَيِّدي يا مَنْ عَلَيْهِ مُعَوَّلي، يا مَنْ إِلَيْهِ شَكَوْتُ أَحْوالي، يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبِّ

قَوِّ عَلى خِدْمَتِكَ جَوارِحي، وَاشْدُدْ عَلَى الْعَزيمَةِ جَوانِحي، وَهَبْ لِيَ الْجِدَّ في خَشْيَتِكَ، وَالدَّوامَ فِي الاتِّصالِ بِخِدْمَتِكَ، حَتّى أَسْرَحَ إِلَيْكَ في مَيادينِ السّابِقينَ، وَأُسْرِعَ إِلَيْكَ فِي الْبارِزينَ (الْمُبادِرينَ) وَأَشْتاقَ إِلى قُرْبِكَ فِي الْمُشْتاقينَ، وَأَدْنُوَ مِنْكَ دُنُوَّ الْمُخْلِصينَ، وَأَخافَكَ مَخافَةَ الْمُوقِنينَ، وَأَجْتَمِعَ فى جِوارِكَ مَعَ الْمُؤْمِنينَ، اللّهُمَّ وَمَنْ أَرادَني بِسُوءٍ فَأَرِدْهُ، وَمَنْ كادَني فَكِدْهُ، وَاجْعَلْني مِنْ أَحْسَنِ عَبيدِكَ نَصيباً عِنْدَكَ، وَأَقْرَبِهِمْ مَنْزِلَةً مِنْكَ، وَأَخَصِّهِمْ زُلْفَةً لَدَيْكَ، فَإِنَّهُ لا يُنالُ ذلِكَ إِلّا بِفَضْلِكَ، وَجُدْ لي بِجُودِكَ، وَاعْطِفْ عَلَيَّ بِمَجْدِكَ، وَاحْفَظْني بِرَحْمَتِكَ، وَاجْعَلْ لِساني بِذِكْرِكَ لَهِجاً، وَقَلْبي بِحُبِّكَ مُتَيَّماً، وَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْنِ إِجابَتِكَ، وَأَقِلْني عَثْرَتي، وَاغْفِرْ زَلَّتي، فَإِنَّكَ قَضَيْتَ عَلى عِبادِكَ بِعِبادَتِكَ، وَأَمَرْتَهُمْ بِدُعائِكَ، وَضَمِنْتَ لَهُمُ الإِجابَةَ، فَإِلَيْكَ يا رَبِّ نَصَبْتُ وَجْهي، وَإِلَيْكَ يا رَبِّ مَدَدْتُ يَدي، فَبِعِزَّتِكَ اسْتَجِبْ لي دُعائي، وَبَلِّغْني مُنايَ، وَلا تَقْطَعْ مِنْ فَضْلِكَ رَجائي، وَاكْفِني شَرَّ الْجِنِّ

وَالإِنْسِ مِنْ أَعْدائي، يا سَريعَ الرِّضا اغْفِرْ لِمَنْ لا يَمْلِكُ إِلّا الدُّعاءَ، فَإِنَّكَ فَعّالٌ لِما تَشاءُ، يا مَنِ اسْمُهُ دَواءٌ، وَذِكْرُهُ شِفاءٌ، وَطاعَتُهُ غِنىً، ارْحَمْ مَنْ رَأْسُ مالِهِ الرَّجاءُ، وَسِلاحُهُ الْبُكاءُ، يا سابِغَ النِّعَمِ، يا دافِعَ النِّقَمِ، يا نُورَ الْمُسْتَوْحِشينَ فِي الظُّلَمِ، يا عالِماً لا يُعَلَّمُ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَافْعَلْ بي ما أَنْتَ أَهْلُهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلى رَسُولِهِ وَالأَئِمَّةِ الْمَيامينَ مِنْ آلِهِ (أَهْلِهِ) وَسَلَّمَ تَسْليماً كَثيراً﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة وأدب الابتداء بها وآثاره

البحث في البسملة أي (بسم الله الرحمن الرحيم) يقع في مفادها ومفرداتها وآثارها.

ويبتدئ من (الباء .. ثم الاسم .. ثم لفظ الجلالة الله .. ثم الرحمن .. ثم الرحيم) فقد اختلفوا في معنى الباء على أقوال عديدة تتفق على وجوب تقدير المتعلق؛ لأن الجار والمجرور يتطلب متعلقاً، وهو هنا مقدّر، فقالوا المقدّر استعين، والمعنى (أستعين باسم الله) وقال جماعة: المقدّر القراءة، والمعنى (أقرأ باسم الله) وقال جماعة المقدّر الابتداء والمعنى (أبتدئ باسم الله) وقال آخرون للالصاق ولكل وجه ومناقشة، ولعل المقدّر هو السببية، وفيه تجتمع سائر المعاني.

فالباء سببية، والفعل والفاعل مقدّران، والمعنى بسبب اسم الله سبحانه المتصف بالرحمة أبتدئ في قولي وعملي؛ بداهة أن العبد في نفسه قاصر عاجز إلّا أن يعطيه الله الوجود والقدرة، فالباء تفيد الإخبار عن الواقع التكويني للعبد، وتكشف عن أصل العلاقة بين العبد وربّه القادر العظيم، وهي علاقة الحاجة والفقر الدائم في المبدأ والمنتهى، وإليه يعود تفسير الأكثر لها بالاستعانة؛ لتوافق المعنى، إلّا أن نسبة المعنى إلى الأصل وهو السبب أولى من نسبته إلى الفرع، وهو لازم الأصل، أي الاستعانة، ويتضمن الابتداء بالباء عدة فوائد أخرى:

منها: التشريف، فإن من المتعارف عند الناس أنهم يسمّون أولادهم وأعمالهم المهمة ومؤسساتهم ونحوها من سائر المشاريع والأنشطة باسم من

أسماء عظمائهم؛ تجليلاً وتخليداً لهم وللعمل، أو باسم الشخص الذي يؤيد ويدعم العمل ويرعاه؛ ليكسب العمل والمؤسسة قوة ومكانة من قوة من يحميه ويدعمه؛ لأن الفاقد للقوة لا يعطيها، وإذا كان كذلك أفليس من الأفضل أنْ نربط أعمالنا وأفعالنا باسم من هو قادر دائم وباقٍ لا يزول؟

كما بقي اسم الأنبياء خالداً في التأريخ الإنساني؛ لارتباطهم بالباقي الدائم، كما بقي اسم حاتم لجوده وكرمه الذي هو من صفات المعنى التي لا تزول، والباقي الدائم الوحيد هو الله تعالى، فمن الأفضل أن يُبتدأ كل قول وعمل ويختتم باسم الله تعالى، فإنه سيبقى ببقاء مسماه، ويحظى بلطفه ورعايته مما يعطيه القوة والدوام والبركة مكللّة بالنجاح.

ومنها: الترقي والاستمداد والبركة، فإن من الثابت أن العمل المرتبط بالله تعالى يغمره بعنايته ولطفه، فيصونه من الانحراف والخطأ والزلل، ويعصمه من السقوط، فيكون عظيم المنافع كثير الخيرات، وقد ورد في الحديث القدسي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الله عزّ وجل قال: «كل أمرٍ ذي بال لم يذكر فيه اسم الله فهو أبتر»[1] أي مقطوع العاقبة.

ومنها: الشكر، فإن الابتداء باسمه تبارك وتعالى يتضمن ذكره سبحانه، وقد قال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2] فيزداد العامل توفيقاً وتسديداً في الإنجاز، كما يتضمن الشكر له سبحانه؛ لأنه الذي أعطى القوة والهمّة والفكر والنشاط فضلاً عن الجوارح والوسائل التي ينجز الإنسان بها

(١) راجع تفسير البرهان: ج١، ص١٠٥، ذيل الحديث ١١.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

أعماله؛ إذ من مظاهر الشكر أن لا يعتمد الإنسان على نفسه، وينسى من وفقه وأعطاه، فمقتضى الشكر وأدنى مراتبه أن يذكر المعطي والسبب، كما ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «ولرُبما ترك بعض شيعتنا في افتتاح أمره بسم الله الرحمن الرحيم، فيمتحنه الله بمكروه لينبِّهه على شكر الله تبارك وتعالى والثناء عليه، ويمحق عنه وصمة تقصيره عند تركه قوله بسم الله الرحمن الرحيم»[(١)].

وفي هذا جاءت بعض الروايات أيضاً مفسرة لبعض فلسفة الشروع ببسم الله الرحمن الرحيم؛ فعن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «ما نزل كتاب من السماء إلّا وأوّله بسم الله الرحمن الرحيم»[(٢)].

كما نزلت أول آية في القرآن على النبيصلى الله عليه وآله تأمره بتبليغ الرسالة والقيام بأعباء الدعوة مبتدئةً باسم الله تعالى؛ إذ يقول عزّ وجل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[(٣)] لأن الابتداء باسمه تعالى يكلّل العمل بالدوام والبركة، ويوصله إلى الأهداف.

فقد ورد عن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام أنه قال: «فقولوا عند افتتاح كل أمرٍ عظيم أو صغير: بسم الله الرحمن الرحيم، أي: أستعين على هذا الأمر بالله الذي لا تحقّ العبادة لغيره، المغيث إذا استغيث، والمجيب إذا دعي، الرحمن الذي يرحم ببسط الرزق علينا، الرحيم بنا في أدياننا

---

(١) تفسير الإمام العسكريعليه السلام: ص٢٢، ح٧؛ التوحيد: ص٢٣١، ح٥.

(٢) المحاسن: ج١، ص٤٠، ح٤٩.

(٣) سورة العلق: الآية ١.

ودنيانا وآخرتنا، خفّف الله علينا الدين، وجعله سهلاً خفيفاً، وهو يرحمنا بتمييزنا من أعدائه»[(١)].

ونوح عليه السلام في طوفانه عندما ركب الموج بسفينته لكي ينتصر على المخاطر والمشكلات ويحظى بالأمن والسلام قال: ﴿ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[(٢)] فحصل على أمنه وسلامه ببركة هذا الاسم العظيم، حيث قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[(٣)] وفي الحديث القدسي عن رسول صلى الله عليه وآله: «قال الله جل جلاله: إذا قال العبد (بسم الله الرحمن الرحيم) قال الله جل جلاله: بدأ عبدي باسمي، وحق عليّ أن أتمم له أموره، وأبارك له في أحواله»[(٤)].

الاسم

اختلف علماء اللغة والأدب في معنى الاسم، فبعضهم قالوا أصله: (السُّمُو) على وزن (علو) بمعنى الارتفاع والعلو[(٥)]، سمي بذلك؛ لأن به يُرفع ذكر المسمّى فيعرف به[(٦)] وهو الذي رجحه الطبرسي رحمه الله في المجمع،

---

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٢٨، من ح٩؛ التوحيد: ص٢٣٢، ح٥؛ تفسير البرهان: ج١، ص١٠٤، ذيل الحديث ٨٥؛ البحار: ج٨٩، ص٢٤٤، ح٤٨.

(٢) سورة هود: الآية ٤١.

(٣) سورة هود: الآية ٤٨.

(٤) أمالي الصدوق: ص٢٣٩، ح١؛ الجواهر السنية: ص١٣٦.

(٥) معجم مقاييس اللغة: ص٤٦٩، (سمو).

(٦) مفردات الراغب: ص٤٢٨، (سما).

فالمسمّى بالاسم يخرج من الخفاء إلى الظهور، أو لأن اللفظ بعد تسميته يصبح له معنى ظاهر لدى الأذهان بعد أن كاد أن يكون مهملاً أو لغطاً قبل مجيء الاسم.

وبعض آخر قالوا: الاسم من السِمة على وزن هِبة مأخوذ من الوسم؛ وذلك لأن الاسم علامة على المعنى[(١)]، وبه وردت بعض الأخبار.

ففي التوحيد للشيخ الصدوق ﵀: بسنده أنه سُئل الرضا عليه السلام عن باسم الله فقال: «معنى قول القائل باسم الله أي: اسم على نفسي سِمَةً من سمات الله عزّ وجل وهي العبادة» قال: فقلت له: ما السِمة؟ فقال: «العلامة»[(٢)].

والفرق بينهما أن السمة علامة الشيء في ذاته، إما في بدنه أو في سجاياه النفسية، بخلاف العلامة فإنها أعم[(٣)]، ولذا تطلق على رموز الطريق وإشاراته علامات لا سمات ويمكن الجمع بينهما للملازمة بين السمو والسمة، وكلاهما يتضمنان العلو والارتفاع، فمرجع السمة إلى السمو،

---

(١) جاء في مجمع البيان: الاسم مشتق من السمو وهو الرفعة، أصلهُ سمو بالواو لأنّ جمعه أسماء، مثل: قِنْو وأقناء، حنو وأحناء، وتصغيره سمي. قال الراجز: (باسم الذي في كل سورة سمه). وسمه أيضاً ذكره أبو زيد وغيره.

وقيل: إنّه مشتق من الوسم والسمة، والأول أصحّ؛ لأن المحذوف الفاء نحو صلة ووصل وعدة ووعد لا تدخله همزة الوصل، ولأنه كان يجب أنْ يقال في تصغيره وسيم كما يقال وعيدة ووصيلة في تصغير عدة وصلة، والأمر بخلافه، تفسير مجمع البيان: ج١، ص٥٠؛ وانظر لسان العرب: ج١٤، ص٣٩٧، (سما).

(٢) التوحيد: ص٢٢٩، ح١.

(٣) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٢٨٣، (١١٢٧).

وعلامية العلامة بظهورها وبروزها، وقول الإمام عليه السلام: ﴿ اسم على نفسي﴾ لأن العبد بذكره البسملة يتميز ويبرز في عبوديته واستعانته بربّه عز وجل.

ولا يخفى أن لفظ الاسم هنا واسطة محضة لاسم الله تبارك وتعالى، فهو الطريق إلى حقيقة المسمى، لا أن يكون له موضوعية خاصة كما هو الشأن في جميع الأسماء. نعم الطريقية قسمان:

الأول: الطريقية اللفظية أي طريقية الاسم المبارك إلى ذاته القيومية، وهو المعنى المشهور المعروف.

والثاني: الطريقية الحقيقية، وهي حقيقة محمد وآل محمد والأنبياء والأولياء عليهم السلام وغيرها من العلائم الدالة على جمال الله وجلاله، فإن هذه الحقائق هي أسماء لله سبحانه، وقد اتفقت كلمة أهل المعرفة على أن الأسماء الإلهية قسمان: لفظية تدوينية وحقيقية تكوينية هم النبي وآله عليهم السلام، ويمكن أن يكون الاسم في البسملة الأول ويمكن أن يكون الثاني وحينئذ يكون معنى (باسم) بنحو الإضافة الحقيقية والتشريفية، كما يقال (بيت الله) ويقال (نبي الله) و(ولي الله) والمعنى بنبي الله ووليه يبتدئ لكونها الواسطة بين العبد وربه والوسيلة إليه وهذا المعنى وإن لم يصرحوا به إلّا أنه يتوافق مع النصوص الكثيرة التي دلت على أنهم الأسماء الحسنى، وأنهم الواسطة إلى الله سبحانه، وقام عليه البرهان العقلي كما سيأتي.

وعليه يكون مفاد البسملة (بنبي الله الرحمن الرحيم) و(بوليه) هذا كله إن لم يقل إن الاسم في البسملة موضوع بالوضع التعييني أو التعيني للاسم اللفظي.

الله

هو اسم لا يطلق إلّا لمقام الجلالة المطلق، فالاسم (الله)[١] يجمع كمالات ذاته وصفاته وأفعاله، وهنا سؤال: لماذا نبتدئ باسم الله دون غيره من سائر أسمائه تعالى كالخالق والرازق ونحوهما؟

والجواب: أن لفظ الجلالة الله تعالى منفرد بجامعيته لجميع صفاته وكمالاته بخلاف غيره من الأسماء، كالخالق مثلاً فإنه يشير إلى صفة واحدة من صفاته، وهكذا الرازق، وغيرها.

ومن هنا تقع سائر الأسماء صفاتاً للفظ الجلالة (الله) دون العكس. مثل: ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] و: ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٣] ولأنه جامع لكل الصفات وقع موصوفاً لمجموعة منها، كما في قوله تعالى: **﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾**[٤].

هذا وقد ذكر أهل اللغة وجمع من المفسرين أن (الله) اسم جنس للواجب بالذات المنحصر بالفرد كالشمس والقمر، وهو غير سديد، ولا يليق بمقامه سبحانه؛ لأن المتفرد بذاته في جميع شؤونه بما لا يمكن

---

(١) المحاسن: ج١، ص٢٣٨، ح٢١٢؛ الكافي: ج١، ص١١٥، ح٣؛ التوحيد: ص٢٣٠، ح٤.

(٢) سورة النحل: الآية ١٨.

(٣) سورة الحج: الآية ٦١.

(٤) سورة الحشر: الآية ٢٣.

تعقله لعلوه وسمو معانيه لا يمكن أن يكون اسمه اسم جنس عام؛ لأن الجنس يقتضي الاشتراك.

ومن هنا قال أهل المعرفة: إن الكلية والجزئية والجنسية ونحوها من شؤون المفاهيم الممكنة، ولا تصح أن تنسب إليه سبحانه؛ لأنه فوق ذلك كله. هذا فضلاً عن خروجه عن قواعد أهل اللغة؛ لأن لفظ (الله) لا يقع صفة أبداً، بل موصوفاً، فلا يصح أن يكون اسم جنس، بل هو علم مختص بالخالق العظيم المستجمع لجميع الصفات الكمالية.

وبذلك يظهر عدم صحة القول بأنه مشتق من (وَلَه) أو من (أله) بمعنى تحيّر أو تعبّد، باعتبار تحيّر الكل فيه وتعبدهم له تكويناً وتشريعاً ولا من (لاه) كما قالوا أي احتجب، إذ لا تدركه الأبصار ولا (ولِه) أي أحب لأنه محبوب الخلائق كلها[1] فإن المعاني المذكورة من خلط اللفظ بالمعنى اللازم؛ إذ لا إشكال في تحيّر العقول بوجوده وكمالاته وأنه محتجب عن الخلق ومحبوب له لكنه ليس أصل لفظ (الله).

ومن هنا ورد في الصحيح عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام لما سئل عن معنى الله تعالى؟ قال: ﴿استولى على ما دق وجل﴾[2] أي أنه متولي ومسلط على كل شيء حتى الدقائق، ومن هذه صفته لا يحاط به حتى يدرك، وعن الباقر عليه السلام: ﴿**الله معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيته والإحاطة**

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٨٢-٨٣، (أله).

(٢) المحاسن: ج١، ص٢٣٨، ح٢١٢؛ الكافي: ج١، ص١١٥، ح٣؛ التوحيد: ص٢٣٠، ح٤.

بكيفيته﴾[(١)] ولم يشر إلى اشتقاقه من (وله) أو (أله) ولا من غيرهما، وإنما أشار إلى استحالة بلوغ معناه لدقته وجلالته وعلوه على الأذهان والأفكار.

ويؤيده قول الخليل أن لفظ الجلالة بسيط وليس بمشتق، واللام جزء اللفظ، وأن الواضع له هو الله تعالى، بل جميع أسمائه عرفت بتعليمه عز وجل، فهو المعرِّف فيها والمعرّف بها[(٢)]، ويعززه قول الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿اعرفوا الله بالله﴾[(٣)] ومنه يعرف أيضاً عدم سداد قول الفلاسفة في تعريفه: إنه الذات الجامع لجميع الكمالات الواقعية، والمسلوب عنه جميع النواقص[(٤)]، وقول بعض العرفاء بأنه الذات المسلوب عنه الإمكان مطلقاً، وقول بعض قدماء اليونان أنه ذات فوق الوجود؛ لأنها إشارة إلى لوازم المعنى لا ذاته.

فالحق أن لفظ (الله) اسم علم مختص به سبحانه، وهو جامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا لا يبلغ كنه معناه أحد. نعم ربما نصحح تعاريف أهل اللغة بإرجاعه إلى (وله) أو (أله) لو أريد به الإشارة إلى بعض خواص المعنى وآثاره، أو أن الأسماء لابد وأن ترجع إلى جذور أصيلة تشير إلى بعض المعنى أو لوازمه كما ليس بالبعيد، وأما لو أريد التعريف التام فقد عرفت بطلانه، ومن هنا قال العلامة ابن فهد قدس سره.

---

(١) التوحيد: ص٨٩، ح٢؛ البحار: ح٣، ص٢٢١، ح١٢.

(٢) انظر لسان العرب: ج ١، ص١٨٨، (أله)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٦٨، (٢٧١)؛ انظر مواهب الرحمن: ج١، ص١٤.

(٣) الكافي: ج١، ص٨٥، ح١؛ روضة الواعظين: ص٣٠.

(٤) أصول الكافي: ج٨، ص٣٤٧، الحاشية؛ وانظر شرح الأسماء الحسنى: ج ١، ص٦.

في عدة الداعي (بإضافة): الله وهو أشهر أسماء الرب وأعلاها محلاً في الذكر والدعاء، وجُعل أمام سائر الأسماء، وخصت به كلمة الإخلاص، ووقعت به الشهادة ثم اعلم أن هذا الاسم المقدس قد امتاز عن سائر الأسماء بخواص:

الأولى: أنه عَلَم على الذات المقدسة يختص بها، فلا يطلق على غيره تعالى حقيقة ولا مجازاً. قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(١) أي: هل تعلم أحداً يسمى الله غيره وبه وردت رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام(٢).

الثانية: أنه دال على الذات، وباقي الأسماء لا يدل أحدها إلّا على آحاد المعاني كالقادر على القدرة، والعالم على العلم، وغير ذلك.

الثالثة: أن جميع الأسماء يتسمى بذلك الاسم المقدس، ولا يتسمى هو بها، فيقال: الصبور اسم من أسماء الله، ولا يقال: الله اسم من أسماء الصبور أو الرحيم أو الشكور، وتقدم ستة فصار امتيازه بتسعة أشياء(٣).

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: «حدثني أبي عن أخيه عن أمير المؤمنين عليه السلام: أن رجلاً قام إليه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني، عن بسم الله الرحمن الرحيم ما معناها؟ فقال: إن قولك: ((الله)) أعظم الأسماء من أسماء الله تعالى، وهو الاسم الذي لا ينبغي أن يتسمّى به غير الله، ولم يتسمّ به مخلوق»(٤).

---

(١) سورة مريم: الآية ٦٥.

(٢) انظر التوحيد: ص٢٥٤، ح٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٣٥٢، ح١٢٥.

(٣) عدة الداعي: ص٥١، (بتصرف).

(٤) التوحيد: ص٢٣١، ح٥؛ البحار: ج ٨٩، ص٢٤٤، ح ٤٨.

وجاء في شرح دعاء الجوشن الكبير: «يا الله» يعني الذات المستجمعة لجميع الكمالات والخيرات؛ لأنه تعالى صرف الكمال ومحض الخير، فلو كان فاقداً لكمالٍ وخيرٍ من حيث هما كمالٌ وخيرٌ لتركب ذاته من الكمال والخير وفقْدِهما، فتحقق فيه شيء وشيء[١].

ولعل مما يؤيد هذا أن الإيمان يتحقق بكلمة التوحيد المتضمنة لاسم الله سبحانه: «لا إله إلّا الله»[٢] دون سائر الأسماء، إذ لم يقل: لا إله إلّا العليم أو الحكيم أو العزيز ونحوها، فيؤكد أنّ اسم الله جامع لكل صفات الكمال والجلال دون غيره من الأسماء؛ لهذا اقتضى الأمر الابتداء به دون سائر الأسماء.

نعم قد يقال: إذا كانت الحاجة خاصة فيصح الابتداء بالاسم الذي وصفه الله سبحانه نفسه، فمن يطلب الرزق مثلاً يبتدئ سؤاله بقول: (يا رزاق) أو: (باسم الرزاق) وهكذا طلب العلم فيقول: (يا عالم) أو (باسم العليم) ولكن قد يرد عليه أنه لم يشتهر هذا التعبير في الأدلة النقلية؛ إذ غالباً يذكر اسم الله أولاً ثم جهة الرزق[٣]، وهكذا جهة العلم فيقول (باسم الله الرزاق العليم) فتأمل.

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص ٦، (بتصرف).

(٢) ورد في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «قال الله جل جلاله: لا إله إلّا الله اسمي من قاله مخلصاً من قلبه دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي». راجع عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٤٨، ح٢.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خيرُ العبادة قول لا إله إلّا الله»؛ التوحيد: ص١٨، ح ٢.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «قول لا إله إلّا الله ثمن الجنة»، التوحيد: ص٢١، ح١٣.

(٣) البحار: ج٩٢، ص٢٩٧، ح١٢.

بل ما ورد في الأخبار يؤكد ذلك، فعن الإمام الصادقعليه السلام في طلب الرزق: «يا ألله يا ألله يا ألله أسألك بحق من حقه عليك عظيم أن تصلّي على محمد وآل محمد، وأن ترزقني العمل بما علمتني من معرفة حقّك، وأن تبسط عليّ ما حظرت من رزقك»[١].

وفي رواية أخرى عنهعليه السلام فيمن قال: «يا ألله يا ألله عشر مرات، قيل له: لبيك عبدي سل حاجتك تعط»[٢].

ومن هنا يتضح معنى الابتداء ببسم الله الرحمن الرحيم لدى الشروع في كل عمل، فإن ذلك يتضمن أمرين:

الأول: الاستعانة باسمه تعالى، والاسم يكسب عظمته وأثره من المسمى، فكما أن المسمّى مفتاح كل حل وحاجه يصبح الاسم الذي تنادي به مفتاحاً لهذا الحل أيضاً؛ لكمال الاتصال أو المجاورة أو المحبوبية أو التقديس والتشريف.

وقد ورد عن الإمام الحسن العسكريعليه السلام: «تقول: بسم الله الرحمن الرحيم أي: أستعين على أموري كلها بالله الذي لا تحقّ العبادة إلّا له، المغيث إذا استغيث، والمجيب إذا دعي»[٣]، وقال الإمامعليه السلام: «وهو ما قال رجل للصادقعليه السلام: يا ابن رسول الله، دُلّني على الله ما هو؛ فقد أكثر المجادلون

---

(١) الكافي: ج٢، ص٥٥٣، ح١١؛ البحار: ج٩٢، ص٢٩٧، ح١٢.

(٢) عدة الداعي: ص٥٢.

(٣) تفسير الإمام العسكريعليه السلام: ص٢١، ح٥.

عليّ وحيّروني؟ فقال له: «يا عبد الله، هل ركبت سفينة قط؟» قال: بلى. فقال: «هل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟» قال: بلى. قال: «فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟» قال: بلى. قال الصادق عليه السلام: «فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حين لا مغيث»[(١)].

الثاني: الابتداء باسمه تعالى، أي أبتدئ بتسمية الله، فوضع الاسم موضع المصدر، وقد رجّح هذا القول العلامة الطبرسي قدس سره في مجمع البيان، وعلّله بقوله: لأنّا إنما أُمرنا بأن نفتتح أمورنا بتسمية الله لا بالخبر عن كبريائه وعظمته، كما أمرنا بالتسمية على الأكل والشرب والذبائح[(٢)].

والظاهر أنهما أي الاستعانة والابتداء من قبيل المتلازمين أو اللازم والملزوم، بمعنى أبتدئُ باسمه الشريف، وأستمد العون من ذاته تعالى، وإن كان بعض المفسرين[(٣)] فكك بينهما.

هذا وقد ورد في معاني الباء التي في باسم الله احتمالات عديدة ذكرناها، إلّا أن الظاهر أن المعنى الأقرب هو السببية، والتمسك بها جميعاً مع بعض

---

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٢٢، ح٦؛ وانظر معاني الأخبار: ص٤، ح٢، وفيه: «بدّل بلى نعم».

(٢) مجمع البيان: ج١، ص٥٤.

(٣) فمتعلق الباء في بسملة الحمد الابتداء، ويراد به تتميم الإخلاص في مقام العبودية بالتخاطب، وربما يقال: إنه الاستعانة، ولا بأس به، ولكن الابتداء أنسب؛ لاشتمال السورة على الاستعانة صريحة في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، تفسير الميزان: ج١، ص١٧.

التأويل له وجه وجيه فإن السببية تشمل الإلصاق والاستعانة والابتداء، فالاستعانة باسمه تعالى اعتماداً عليه، وهو قادر حكيم، وقدرته لا محدودة، لا يعجزها شيء ولا يحدّها شيء، والابتداء باسمه تعالى يعطي العمل نجاحاً ودواماً وبركة مقرونة بالموفقية.

والبحث في هذا المعنى عميق وطويل، وكما ورد في الأخبار أن أمير المؤمنين عليه السلام فسّر باء بسم الله الرحمن الرحيم لابن عباس ليلة كاملة إلى الصباح؛ لما في معانيها من مضامين غزيرة وعميقة[(١)]، لا يتحملها المقام.

وقد ورد عنه عليه السلام: «اعلم أن جميع أسرار الكتب السماوية في القرآن، وجميع ما في القرآن في الفاتحة، وجميع ما في الفاتحة في البسملة، وجميع ما في البسملة في باء البسملة، وجميع ما في باء البسملة في النقطة التي هي تحت الباء» وقال عليه السلام: «أنا النقطة التي تحت الباء»[(٢)].

وورد في عوالي اللآلئ عنه عليه السلام أنه كان يقول: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من باء بسم الله الرحمن الرحيم»[(٣)].

---

(١) جاء في ينابيع المودة: ج١، ص٢١٤، ح١٩؛ عن ابن عباس قال: أخذ بيدي الإمام علي عليه السلام في ليلة مقمرة فخرج بي إلى البقيع بعد العشاء. قال: «اقرأ يا عبد الله» فقرأت (بسم الله الرحمن الرحيم) فتكلّم لي في أسرار الباء إلى بزوغ الفجر. انظر ينابيع المودة: ج٣، ص٢١١؛ مستدرك سفينة البحار: ج١، ص٢٦٩.

(٢) انظر ينابيع المودة: ج١، ص٢١٣، ح١٥؛ ج٣، ص٢١٢؛ مستدرك سفينة البحار: ج١، ص٢٦٩.

(٣) عوالي اللآلئ: ج٤، ص١٠٣، ح١٥٠؛ تفسير المحيط الأعظم: ج ١، ص٣٦٢.

الرحمن الرحيم

هما اسمان مشتقان من الرحمة، وهي في بني آدم رقة القلب ثم عطفه، وفي الله سبحانه عطفه ورزقه وإحسانه بخلقه[(١)]، والرحمن هو ذو الرحمة، وهو صفة الذات الإلهية، ولذا لا يوصف به غيره سبحانه، والرحيم صفة مشبهة تتضمن المبالغة، ومعناه عظيم الرحمة وهو صفة فعل، والمشهور عند المفسرين أن (الرحمن) إشارة إلى الرحمة الإلهية العامة الشاملة للمؤمن والكافر والمحسن والمسيء، وأما (الرحيم) فإشارة إلى الرحمة الخاصة الشاملة للمؤمنين المحسنين فقط[(٢)].

وقد ورد هذا المعنى عن الصادق عليه السلام: ﴿والله إله كل شيء، والرحمن بجميع خلقه، والرحيم بالمؤمنين خاصة﴾[(٣)].

---

(١) مجمع البحرين: ج٦، ص٦٩، (رحم)؛ مفردات الراغب: ص٣٤٧، (رحم).

(٢) وجاء في كتاب شرح الأسماء الحسنى للسبزواري في معنى قول مولانا الصادق عليه السلام: ﴿الرحمن اسم خاص لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة خاصة﴾.
أقول: وإنما كان الأول خاصاً والثاني اسماً عاماً، لأن الأول من أسمائه تعالى الخاصة به لا يطلق على غيره، بخلاف الثاني، وأما عموم الصفة في الأول وخصوصها في الثاني فلأنه كما قال العرفاء الإلهيون: الرحمن: اسم للحق تعالى باعتبار الجمعية الأسمائية التي في الحضرة الإلهية الفائض منه الوجود وما يتّبعه من الكمالات على جميع الممكنات، والرحيم: اسم له باعتبار فيضان الكمالات المعنوية على أهل الإيمان كالمعرفة والتوحيد.
شرح الأسماء الحسنى وشرح دعاء الجوشن: ج١، ص٦.

(٣) تفسير البرهان: ج١، ص١٠١-١٠٢، ح١-٢.

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: ﴿الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة﴾[1].

وفي مجمع البيان: وإنما قدّم الرحمن على الرحيم لأن الرحمن بمنزلة اسم العلم من حيث لا يوصف به إلّا الله، فوجب لذلك تقديمه، بخلاف الرحيم لأنه يطلق عليه وعلى غيره، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿أن عيسى بن مريم قال: الرحمن رحمن الدنيا، والرحيم رحيم الآخرة﴾.

وعن بعض التابعين قال: الرحمن بجميع الخلق والرحيم بالمؤمنين خاصة، ووجه عموم الرحمن بجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وبرّهم وفاجرهم هو إنشاؤه إيّاهم، وخلقهم أحياء قادرين، ورزقه إيّاهم، ووجه خصوص الرحيم بالمؤمنين هو ما فعله بهم في الدنيا من التوفيق، وفي الآخرة من الجنة والإكرام، وغفران الذنوب والآثام[2]. والحق ما ذكرناه من أن الرحمن صفة ذات، والرحيم صفة فعل، ولذا ورد في الأخبار أنه اسم خاص بصفة عامة؛ لأن صفات الذات لا تنفك عنها وهي عَلَم لها بخلاف الرحيم.

والسؤال: لماذا لم تأت سائر الصفات الأخرى بدلاً عن الرحمن الرحيم لاحقة لاسم الجلالة (الله) واصفة له؟

والجواب: لسببين:

---

(١) مجمع البيان: ج١، ص٥٤.

(٢) مجمع البيان: ج١، ص٥٤.

الأول: لأن الرحمة هي الصفة التي وسعت كل شيء من دون نظر إلى القابليات والاستعدادات، بخلاف غيرها من الصفات فإنها قد تكون بحسب ذلك كالرزق والعلم، وبما أن الابتداء باسمه يراد به التبرك والاستعانة على الأمور ناسب أن يوصف بالرحمة؛ لأنها مضمونة الأثر.

والثاني: لأن الرحمة أقوى رابطة بين عالمي الفقر والغنى؛ لأنها تفيد العطوفة والمحبة وحسن الظن بالرّب تبارك وتعالى، وتشعر العبد بالأمن والأمل بالوصول إلى غايته، فتكون أدعى للخضوع والإخلاص والتوفيق.

والخلاصة: أن لدى الابتداء بأي عمل فإن العبد يطلب الموفقية الشاملة حدوثاً وبقاءً وأيضاً نجاحاً وبركةً، وذلك لا يكون إلّا باستمداد منه تعالى عبر صفة آثارها تشمل جميع العالم، ولا تتوقف على توفر استعداد مسبق، خاصة في المعتركات الصعبة والمهمات الخطيرة، وليست سوى (الرحمة) لأنه سبحانه قال: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[(١)] وفي آية أخرى: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً**﴾[(٢)] ومن هنا كان الأنبياء عليهم السلام يخاطبونه بالرحمة لدى التعرّض للأزمات ومخاطر الأعداء، كما في قضية موسى عليه السلام لدى الخلاص من فرعون قال: ﴿**وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ**﴾[(٣)] وفي قصة هود عليه السلام: ﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا**﴾[(٤)].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٢) سورة غافر: الآية ٧.

(٣) سورة يونس: الآية ٨٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٧٢.

ومناسبة الحكم والموضوع تقتضي أن نسأل الله تعالى من الجهة المناسبة للسؤال والحاجة؛ فإن الحاجة نقص وكل نقص يقابله كمال عنده سبحانه، فالأفضل للداعي والأبلغ في الخطاب والأسرع في الإجابة والأشد في التواضع وإظهار الفقر أن نطرق بكل دعاء باب كمال من كمالاته، وصفة من صفاته سبحانه تناسبه فندعوه بها، وقد كان هذا أسلوب الأنبياء والأولياء عليهم السلام في التضرع والدعاء.

فمثلاً: عيسى عليه السلام حينما طلب المائدة ولأنها نوع رزق خاطبه بقوله: **﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾**(١) ونوح عليه السلام لدى طلب الأمان للركون إلى الشاطئ قال: **﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾**(٢) وزكريا عليه السلام لما طلب الولد قال: **﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾**(٣) وهذا ما يصطلح عليه أهل المعرفة بتجليات الذات الإلهية في صفاتها، ولدى الدخول إلى ساحة الربوبية ينبغي طرق الأبواب والخزائن الإلهية التي تناسب الحاجات.

بناء على هذا لدى الشروع في أعمالنا ولكي نضمن لها النجاح والدوام والاستقامة يجب الشروع من الرحمة؛ إذ بالرحمة نكسب لطف الرب تبارك وتعالى وعطفه، كما نكسب ميل قلوب الخلق ومحبتهم

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٤.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٩.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٩.

فيتعاطفون مع العمل، ويمدّونه بالدعم والتأييد، كما تظهر آثار الرحمة على العمل والعامل؛ إذ من الواضح أن الشروع إذا كان بالرحمة ستؤثر بركاتها في العمل منذ الابتداء وحتى الانتهاء، فيكون التعامل بالرحمة، ويترك العنف والخشونة والقسوة والجفاء إلّا لضرورة نادرة، كما ابتدأت سور القرآن جميعها ببسم الله الرحمن الرحيم إلّا في سورة واحدة لضرورة وحكمة هي سورة التوبة.

ولعل ما ورد في دعاء الجوشن الكبير: ﴿يا من سبقت رحمتُهُ غضَبَهُ﴾(١) يؤكد أن الله تعالى يعامل الخلق بالرحمة لا بالغضب، ابتدأ الخلق بالرحمة، وبالرحمة يديم عليهم الفضل، وبها يجازيهم. أما غضبه سبحانه فلا ينال إلّا البعض القليل ممن أبعدوا أنفسهم عن ساحته سبحانه.

وبالرغم من ذلك فإن الابتداء باسم الله الرحمن الرحيم يفتح للعبد باب الأمل بالعفو والرحمة؛ لأن رحمته تسبق الغضب، فإذا كان العبد مذنباً فاعلاً للقبيح استحق الغضب الإلهي والطرد من ساحته تعالى؛ لأنه ظالم لحق المولوية، وخارج عن رسم العبودية في الطاعة وشكر المنعم، ولكن بذكره تبارك وتعالى باسم الرحمة تمحي رحمته الغضب، وتغفر الذنب، وتنفي تبعته، فيتحقق بها المقتضي لإجابة الدعاء ورفع موانع الاستجابة.

هذا وللابتداء باسم الله تعالى في الدعاء بل وسائر الأعمال -حيث يستحب ذلك أيضاً- حكم ومصالح نشير إلى بعضها:

---

(١) مصباح المتهجد: ص٦٩٦؛ المصباح: ص٢٤٩.

منها: ضمان الإجابة، فإن بالاسم المبارك تتوفر أسباب الاستجابة وقضاء الحوائج كما ورد في الحديث الشريف: «لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم»[١].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل: بدأ عبدي باسمي حقّ عليّ أن أتمم له أموره، وأبارك له في أحواله»[٢].

ومنها: تحصيل الفرج، فإن العبد عندما تقلقه المشكلات وتملأ قلبه الهموم والغموم يتوجه إلى بارئه لشكاية همّه وغمّه طلباً للخلاص، وقد ورد في الأخبار أن جملة البسملة ترفع الهموم والغموم، وتنزل بالفرج عاجلاً غير آجل، حيث روى الطبرسي قدس سره في مكارم الأخلاق عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «ما من أحد دهمه أمر يغمّه أو كربته كربة فرفع رأسه إلى السماء ثم قال ثلاث مرات: (بسم الله الرحمن الرحيم) إلّا فرّج الله كربته، وأذهب غمّه إن شاء الله تعالى»[٣].

ومنها: تحصيل الآثار، فقد ورد في بعض الأخبار أن بسم الله الرحمن الرحيم تتضمن الاسم الأعظم، وهو قول جملة من الأعاظم أيضاً، ومن الواضح أن الابتداء بالاسم الأعظم وقراءته في المعضلات تحل المشكلات، وتقضي الحاجات، وتفتح أبواب الرحمة على مصراعيها، وقد ورد عن

---

(١) البحار: ج ٩٠، ص٣١٣، ح١٧.

(٢) البحار: ج ٨٢، ص٥٩، ح ٤٧.

(٣) مكارم الأخلاق: ص٣٤٦.

الإمام الرضاعَلَيْهِالسَّلَامُ أنه قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها﴾[(١)].

ومنها: معالجة الأمراض الباطنية والظاهرية فإن العبد بدعائه يتوجه إلى من يغفل عنه الناس؛ لانصرافهم إلى لذاتهم وانشغالهم بأمورهم الدنيوية، فتتلوث الضمائر، وتسودّ القلوب، وتحبط الأعمال، وبذلك يقع في القبائح والرذائل وربما المعاصي فينحط مقامه ويبتعد العبد من ربه سبحانه، فإذا أراد الدنو إلى ساحته ومخاطبته سرّاً وجهراً بما يفتح عليه باب الشفاء والفلاح فينشرح صدره، وتنشط قواه، فيبتدئ خطابه (باسم الله) طالباً منه العفو والمغفرة؛ ليشفى باطنه ويتنزه ويدنو من ساحته أكثر، ويقترب إليه، فيهيئ لنفسه الاستعداد للإجابة.

وقد جاء في الحديث الشريف: ﴿أن رسول اللهصَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أشتكى الصداع، فنزل عليه جبرائيلعَلَيْهِالسَّلَامُ فرقاه، فقال: باسم الله يشفيك، باسم الله يكفيك، من كل داءٍ يؤذيك، خذها فليهنيك﴾[(٢)] فشفى من مرضه فوراً.

فباسم الله تعالى تتم معالجة الأمراض الظاهرية والباطنية، وبها يتم الدنو والقرب إليه سبحانه، وهي أقصى غاية الطالبين.

ومن كلام لمولانا أمير المؤمنينعَلَيْهِالسَّلَامُ إلى قيصر ملك الروم جاء فيه: ﴿فأما سؤالك عن اسم الله فإنه اسم فيه شفاء من كل داء، وعون على كل

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٢١، ح١٣؛ تفسير البرهان: ج١، ص٩٦، ح٩، وص٩٩، ح٢٤؛ البحار: ج٨٩، ص٢٣٣، ح٥١.

(٢) البحار: ج٩٢، ص٥١، ح٦.

دواء﴾[١]. وجاء في رواية أخرى أنه كان بالملك النجاشي صداع، فكتب إلى النبي ﷺ في ذلك، فبعث إليه هذا الحرز، فخاطه في قلنسوته فسكن ذلك عنه، وهو: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، باسم الله الحق المبين﴾[٢].

ومنها: التعظيم، فإن من عظّم ربه حصل على عناياته وحسن نظره، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ﴿من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالاً لله ولاسمه عن أن يداس كان عند الله من الصدّيقين، وخفّف عن والديه وإن كانا مشركين﴾[٣].

وقد ورد أن بشر الحافي في يوم رأى ورقة على قارعة الطريق كتب فيها (بسم الله الرحمن الرحيم) فاشترى عطراً وعطّرها تعظيماً لها، ثم وضعها في مكان محترم، فرأى أحد العبّاد في تلك الليلة في المنام أحداً يقول له قل لبشر: (طيّبت اسمنا طيبناك، وبجّلت اسمنا فبجّلناك، وطهّرت اسمنا فطهّرناك، فبعزتي لأطيبنّ اسمك في الدنيا والآخرة)[٤].

وهذا ما تقتضيه قواعد العقل والكمال، فإن الناس على نقصهم وعجزهم يتعاملون بقانون الإحسان مقابل الإحسان فكيف ببارئ الخلق وهو الذي قال: **﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾**[٥].

---

(١) إرشاد القلوب: ج ٢، ص٣٦٦.

(٢) البحار: ج٩٢، ص٤٨، ح١.

(٣) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام): ج١، ص٤٠؛ وانظر الدر المنثور: ج١، ص١١.

(٤) انظر تاريخ مدينة دمشق: ج١٠، ص١٨١.

(٥) سورة الرحمن: الآية ٦٠.

ومنها: طرد الموانع؛ لأنّ الابتداء باسمه تبارك وتعالى يطرد الهوى والشيطان من قلب الإنسان، فينصرف إلى عبوديته أكثر وأكثر، وهو من دواعي الارتقاء والاستجابة.

ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا أمّ الرجل القومَ جاء شيطان إلى الشيطان الذي هو قريب الإمام فيقول: هل ذكر الله؟ يعني هل قرأ بسم الله الرحمن الرحيم؟ فإن قال: نعم هرب منه، وإن قال: لا ركب عنق الإمام، ودلّى رجليه في صدره، فلم يزل الشيطان أمام القوم حتى يفرغوا من صلواتهم»(١). وربما تقرأ بكسر الهمزة فيكون الشيطان إمام الصلاة، والصلاة التي يؤمها شيطان كيف تكون؟ وقد ورد: فكان الله يقول عبدي عدوّك الشيطان، فإذا شرعت في عمل وطاعة فاجعل عليها سمتي، وقل: بسم الله الرحمن الرحيم(٢).

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٢٠، ح٧.

(٢) تفسير الرازي: ج١، ص١٦٨.

﴿اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي
وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾

رحمة الله الواسعة

مفتاح الإفاضة والاستفاضة

وقع الخلاف بين علماء اللغة في معنى (اللهم) فقال بعضهم معناه يا ألله أمّنا بالخير، أي اقصدنا به فحذفت تخفيفاً لكثرة الدوران على الألسن[١]، وذهب الأكثر إلى أن أصله (يا ألله) فحذف حرف النداء وعوّض عنه الميم المشددة[٢]، والأقوى أنها موضوعة بهذه الهيئة للدعاء بالوضع التعييني أو التعيني مثل حروف الندبة، ولفظ الجلالة (الله) على قول، ولذا لا تطلق إلّا في مورد دعاء العبد ومناجاته لربه، وعليه فلا حاجة إلى التماس الأصل اللغوي فيها، ومن هنا اتفق أهل اللغة على بعض الخصوصيات في هذا الاسم خارجة عن القواعد العامة[٣]، ولعل تفسير الأكثر لها بالنداء يعود إليه.

ويشهد له قوله: ﴿إنّي أسألك﴾ فإنها من الصيغ المختصة بمواضع الدعاء؛ لأنها تشير إلى ذات العبد وإنيّته، وهو مصطلح مأخوذ من الأنا، يشير إلى الضمير المعبّر عن الذات، ويقبح التعبير بأنّي في الغالب، لكنه يحسن في موضع الدعاء والمسألة؛ لدلالته على جهة فقر السائل وحاجته وانقطاعه إلى الغني.

---

(١) مفردات الراغب: ص٨٣، (أله)؛ منهاج البراعة: ج٢، ص١٧؛ البحار: ج٧٧، ص١٨٠، توضيح؛ شرح أصول الكافي: ج٦، ص٢٤٤؛ كشاف القناع: ج١، ص٢٩٢.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٦٨، (٢٧١)؛ مفردات الراغب: ص٨٣، (أله)؛ مجمع البيان: ج٢، ص٢٦٨، تفسير الآية ٢٦ من سورة آل عمران؛ البحار: ج٧٧، ص١٨٠، توضيح.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٣٤٠، (أله)؛ مواهب الرحمن: ج٥، ص٢٢٠.

ومن هنا قال أهل المعرفة إن إثبات الإنيّة من أعظم الخطايا؛ لأن إثباتها يتضمن الانقطاع إلى النفس، ومقتضى العبودية الانقطاع إلى الرب تبارك وتعالى.

ولا ينال العبد مقام القرب ويحظى بالوجاهة عند الله سبحانه إلّا إذا تجاوز ذاته، وانقطع عن شواغلها التي تمنعه من السمو والارتقاء إلى المراتب العالية، ولذا قال قائلهم مشيراً إلى هذه الحقيقة:

بيني وبينك انيّي ينازعني فارفع بلطفك انيّي من البينِ[1]

فالإنّية في الممكن أصل العجز والحاجة والقصور، ولا يرتقي العبد إلى مقام القرب ولا يلج عالم الملكوت ولا تتجلى فيه كمالات الخالق وأخلاقه إلّا برفعها، ولا ترتفع إلّا بالانقطاع إلى ربه، فالحاجة إلى الناس هو بذاته نقص، والاستقواء بهم أو بالمال أو بالسلطة ضعف، ولا يزداد العبد منها إلّا عجزاً وفقراً؛ لأن الاعتصام بالعاجز عجز، والاكتمال بالناقص نقص؛ إذ فاقد الشيء لا يعطيه.

فلو لم يتخلّص العبد من أنانيّته يستحيل عليه الاكتمال، ولا يتخلص من إنّيتهِ إلّا بلطف الله وعنايته؛ لأنه في نفسه غير محيط بوجوده ولا قادراً على رفع نواقصه إلّا إذا أعانه الله سبحانه وهيأ له المقتضيات ورفع الموانع ومفتاح ذلك كله الدعاء والمناجاة والطلب وإظهار الفقر والفاقة إليه جلّ

---

(١) شرح أصول الكافي: ج٨، ص٢٥٥؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣؛ ج٢، ص١٤؛ المبدأ والمعاد: ص١٤٠؛ تفسير ابن عربي: ج٢، ص٢٣٣.

وعلا، ولذا افتتح دعاءه عليه السلام بقوله: «اللهم إنّي أسألك» وفي ذلك إشارة إلى عدة حقائق:

الأولى: الإقرار والإذعان بوجود الخالق العظيم والإقرار بقوته وقدرته وعلمه وكماله وسمعه وبصره وجوده وكرمه، فقوله: (اللهّم) كلمة واحدة تتضمن جميع مراتب التوحيد أي الذات والصفات والأفعال.

الثانية: الإقرار بعجز العبد وقصوره وحاجته إلى ربه، وبها يرتقي العبد إلى مقام العبودية بركنيها الإقرار بربوبية الرب والإقرار بعبودية العبد.

الثالثة: أن السؤال والدعاء هو مفتاح الإفاضة والاستفاضة، فلا كمال للعبد إلّا بالدعاء، ولا نجاة له إلّا به، وحيث إن منشأ ذلك هو الرحمة الإلهية قال: «اللهّم إنّي اسألك برحمتك التي وسعت كلَّ شيء».

والباء في (برحمتك) إما للقسم ومعناها أقسم عليك برحمتك أو للسببية، ولا مانع من الجمع؛ لجواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى.

ووسعت من السعة أي عدم الضيق، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] أي شملت الجميع دون مضايقة، ولازم ذلك الإحاطة، ومن اسمائه سبحانه (الواسع) أي الذي شمل رزقه جميع خلقه، ورحمته كل محتاج، وغناه كل فقر[2].

---

(١) سورة الأعراف: اية ١٥٦.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة: ص١٠٥٢، (وسع)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٤٠٣، (وسع)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٣٢، (وسع).

والشيء يطلق على ما يصح أن يعلم ويخبر عنه موجوداً كان أو معدوماً، مادياً كان أو معنوياً، وهو أوسع مفردة في اللغة[١]، وعند أهل الحكمة مساوق للوجود ومرادهم من الوجود ما حظي برتبة من مراتب الوجود ولو ضعيفة كالاخبار عن الشيء ولو كان ممتنع الوجود كشريك الباري، أو كان صورة خيالية لها تقرر، وهو كذلك عرفاً، وبقرينة الرحمة يحمل الشيء هنا على مصداقين للوجود هما: ماله اقتضاء الوجود فيوجده وهو الرحمة الفعلية، وماله اقتضاء بقاء الوجود وهو الرحمة اللطفية وأما الممتنعات فلا تتعلق بها الرحمة؛ لعدم المقتضي ولوجود المانع لاستلزامه اللغوية، واضافة (كل) إلى (شيء) تفيد غاية العموم؛ لدلالة شيء على أعم العموم، ووضع (كل) للدلالة على الاستغراق في اللغة، فيدلان على عدم استثناء موجود بالقوة أو بالفعل من رحمته سبحانه.

وتتضمن الفقرة عدة معان:

الأول: إشارة إلى الرحمة العامة الواسعة؛ إذ هي الفيض الإلهي العام الشامل لكل الموجودات، ويبتدئ من إيجاد الخلق الأول ثم كمالاته، ومن الواضح أن نسبة المخلوقات إلى القادر الحكيم نسبة الحاجة والفقر، وهي نسبة واحدة، كما أن نسبة رحمته إلى الجميع نسبة واحدة فلو تميّزت واختلفت كان ظلماً، وهو قبيح بل محال؛ لاستلزامه أن تكون الإفاضة

---

(١) مجمع الفروق اللغوية: ص٣٠٧، (١٢٣٣)؛ مفردات الراغب: ص٤٧١، (شيء)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٢٥٣، (شيا).

على شيء دون آخر ترجيحاً بلا مرجح: ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[(١)] إذ لعل الآية أشارت إلى عموم الفيض؛ إذ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ تؤكد هذا المعنى كما تقدم، و: ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ قد يشير إلى تساوي النسبة وعدم الاختلاف كما في لسان العرب[(٢)] ومجمع البحرين[(٣)]، فمن جهة الخالق لا تفاوت وإن كان تفاوت فهو من جهة المخلوق؛ لتفاوت استعداداته وقابلياته ولذا قال الطبرسي قدس سره في مجمع البيان: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت أي اختلاف وتناقض من طريق الحكمة، بل ترى أفعاله كلّها سواء في الحكمة وإن كانت متفاوتة في الصور والهيئات يعني في خلق الأشياء على العموم، وفي هذا دلالة على أن الكفر والمعاصي لا يكون في خلق الله تعالى؛ لكثرة التفاوت في ذلك[(٤)]، ولعلنا نقرب هذا المعنى بمثال الشمس، فإنها حينما تشرق على الوجود فكل موجود يستفيد منها حسب قابليته واستعداده ابتداءً من الذرات الصغيرة إلى الحيوان والنبات والإنسان الذي هو أكمل الموجودات، فبعض الموجودات تتغذى على شعاعها، وبعضها تنكشف للعيان بنورها، ويتجلى عنها ظلام الضياع أو الإبهام، وبعضها تدفع أمراضها بواسطة حرارتها، وبعضها تعكس ضوءها كالمرايا والعكوس وهكذا.

---

(١) سورة الملك: آية ٣.

(٢) لسان العرب: ج٢، ص٦٩، (فوت).

(٣) مجمع البحرين: ج٢، ص٢١٣، (فوت).

(٤) مجمع البيان: ج١٠، ص٦٩.

ونلاحظ أن الشعاع والنور واحد إلّا أن المظاهر والانفعالات متفاوتة، وهذا التفاوت ليس من الشعاع أو النور، بل من استعدادات الأشياء وطبايعها[١].

والرحمة الإلهية تنزل على قدر الاستعداد، وهو كامن في ذوات الأشياء وماهياتها، فهي تستوعب فيض الرحمة بحسب القابلية؛ إذ الإشراق واحد عام ولكن قابليات المشرقات تختلف، فيتجلى في بعضها دراً، وفي بعضها ذهباً، وفي بعضها سماً، كما يقول الشاعر:

كقطر الماء في الأصداف درّاً ... وفي بطن الأفاعي صار سمّاً[٢]

مع أن الماء واحد في الاثنين فتأمل.

والفيض الرحماني ليس جعلاً للماهيات بالجعل المركب، بل بالجعل البسيط دفعاً لمحذور الدور والتسلسل ونحوهما، ومن هنا قال ابن سينا كما في شرح المنظومة وغيره: ما جعل الله المشمش مشمشاً بل جعله موجوداً[٣]، وكذلك الخالق فإنه صبغ الماهيات بصبغة الوجود ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**﴾[٤] واختلاف الموجودات اختلاف لماهياتها التي تستعد لقبول

---

(١) راجع بعض التوضيحات لذلك في تفسير الميزان: ج٨، ص٢٧٣، في تفسير قوله سبحانه: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٢) الخصائص الفاطمية: ج٢، ص٣٧٣.

(٣) راجع شرح المنظومة: ص٢٩٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

فيض الوجود، فرحمته وسعت كل شيء، والتفاوت في القوابل، وهذا هو المعنى الظاهري للرحمة.

الثاني: مظهران للرحمة ظاهري كما عرفت وباطني، وله مراتب وأجلى مراتبه وأعلاها محمد وآل محمدعليهم السلام؛ إذ هم الرحمة الإلهية الواسعة ومجرى الفيض الإلهي، فرسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿رحمة مهداة﴾[(١)] والإمام الحسين عليه السلام: ﴿رحمة الله الواسعة وباب نجاة الأمة﴾[(٢)] وهم العلة الغائية للكون، فلهم وجدت الأشياء: ﴿لولاك لما خلقت الأفلاك﴾[(٣)] كما هم العلة الفاعلية التوسيطية: ﴿بكم فتح الله وبكم يختم﴾[(٤)] فالفيوضات التكوينية والتشريعية تمت بهم ولهم، فهم رحمته الواسعة، ونسأله سبحانه بهم، ونجعلهم الواسطة بيننا وبينه سبحانه؛ إذ (هم السبيل إليه والطريق إلى رضوانه)[(٥)].

---

(١) كشف الغمة: ج١، ص٨؛ البحار: ج١٦، ص١١٥ وص٣٠٦.

(٢) أمالي الصدوق: ص١٧٧، ح٢؛ الفضائل: ص١٠.

(٣) جاء هذا الحديث القدسي في عوالم سيدة النساء: ج١، ص٤٣-٤٤؛ نقلاً عن الجنة العاصمة، ص١٤٨؛ وأيضاً في مستدرك سفينة البحار: ج٣، ص١٦٨، وج٨، ص٢٤٣؛ عن مجمع النورين: ص١٤وص١٨٧.

عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ﴿يا أحمد، لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما﴾.

(٤) جاء في شرح الزيارة الجامعة أنه قال: ﴿بكم فتح الله الوجود أو الخلافة، أو جميع الخيرات والإفاضات، أو بكم خلق الله؛ إذ لولاكم لما خُلِقَتْ سماء مبنية ولا أرض مدحية، ولا شمس مضيئة، ولا قمر منير، ولا ريح تسير، ولا غير ذلك﴾ الأنوار اللامعة: ص١٨٠.

(٥) مكاتيب الرسول: ج١، ص٥٥١؛ الإسلام والكفر: ص٧٠.

وعن الإمام الرضا عليه السلام: ﴿نحن حجج الله في خلقه، وخلفاؤه في عباده، وأمناؤه على سرّه، ونحن كلمة التقوى والعروة الوثقى، ونحن شهداء الله وأعلامه في بريّته، بنا يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا، وبنا ينزِّل الغيث، وينشر الرحمة، ولا تخلو الأرض من قائم منّا ظاهر أو خاف، ولو خلت يوماً بغير حجّة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله﴾[1].

وبهذا يعرف السر في توقف إجابة الدعاء على الصلاة على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله[2]، وحتى أدعية الأنبياء والأولياء لا تستجاب إلّا بالتوسل بهم عليهم السلام وجعلهم وسيلة إلى الله سبحانه؛ إذ لعل بالصلاة عليهم يحصل العبد على استعدادات أفضل لتلقي فيض الرحمة الإلهية؛ لأنه يبادر إلى ربه بأحب الخلق إليه محمد وآل محمد عليهم السلام أو لعل ذلك لجهة أنهم عليهم السلام مجرى الفيوضات الإلهية، فيكون العبد قد وفر سبب الإفاضة، وسلك السبيل الذي بواسطته يوصل الله سبحانه رحمته وخيره لعباده، كما قد يشير إليه قوله سبحانه: ﴿**وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[3].

قال العلامة المجلسي قدس سره في مرآة العقول: إن هناك أموراً عديدة لحجب الدعاء بدون الصلاة على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله منها: أن المقصود من إيجاد الثقلين وسائر الموجودات والقابل من الفيوض الفائضة من بدو

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ص٢٠٢، ح٦.

(٢) مرآة العقول: ج١٢، ص٨٧-٨٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٥.

الإيجاد إلى ما لا يتناهى من الأزمنة والأوقات هو رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم أفضل الصلوات، فلهم الشفاعة الكبرى في هذه النشأة والنشأة الأخرى، وبواسطتهم تفيض الرحمات على جميع الورى؛ إذ لا بخل في المبدأ، و إنما النقص من القابل، وهم القابلون لجميع الفيوض القدسية والرحمات الإلهية، فإذا أفيض عليهم فبتلطفهم يفيض على سائر الموجودات، فإذا أراد الداعي استجلاب رحمة من الله سبحانه يصلي عليهم، و لا يرد هذا الدعاء؛ لأن المبدأ فيّاض، والمحل قابل، وببركتهم يفيض على الداعي، بل على جميع الخلق.

كما أنهم صلوات الله عليهم وسائط بيننا وبين ربّنا تقدّس وتعالى في إيصال الحكم والأحكام منه إلينا؛ لعدم ارتباطنا بساحة جبروته، وبعدنا عن حريم ملكوته، فلابد أن يكون بيننا وبين ربّنا سفراء وحجب ذوو جهات قدسية وحالات بشرية يكون لهم بالجهات الأُوَل ارتباط بالجناب الأعلى يأخذون عنه، ويكون لهم بالجهات الثانية مناسبة للخلق يلقون إليهم ما أخذوا من ربّهم.

فكذلك في إفاضة سائر الفيوض والكمالات هم وسائط بين ربّهم وبين سائر الموجودات، فكل فيض وجود يبتدئ بهم صلوات الله عليهم، ثم ينقسم على سائر الخلق، فالصلوات عليهم استجلاب للرحمة من معدنها، وللفيوض إلى مقسمها لتنقسم على سائر البرايا بحسب استعداداتها وقابليتها[(١)].

---

(١) مرآة العقول: ج١٢ ص٨٧-٨٨؛ وانظر التجلي الأعظم: ص٥٢٢.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلّي على محمد وآل محمد»[١].

الثالث: ومن معانيها أن رحمته الواسعة التي وسعت كل شيء يراد بها أرزاق الخلق ودوام الرزق الواصل إلى كل الأشياء على الدوام حتى لو لم يعرفوا الخالق أو أخلّوا بطاعته، ومن الواضح أن رزق كل شيء بحسبه؛ إذ الرزق ما به يتم قوام الوجود وكماله، فمثلاً: رزق الحس إدراك المحسوسات، ورزق الخيال إدراك المتخيلات، ورزق العقل إدراك المعقولات والعلوم الكلية، ورزق المعدة الطعام، ورزق القلب المحبة وهكذا كما قرر في المعقول[٢].

وقد جاء في تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «العاطف على خلقه بالرزق لا يقطع عنهم موادَّ رزقه وإن انقطعوا عن طاعته. الرحيم: بعباده المؤمنين في تخفيفه عليهم طاعاته، وبعباده الكافرين في الرفق بهم في دعائهم إلى موافقته»[٣].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٩١، ح١.

(٢) قال الحاج السبزواري: اعلم أنّ رزق كل مخلوق ما به قوام وجوده وكماله اللائق به، فرزق البدن ما به نشوه وكماله، ورزق الحسّ إدراك المحسوسات، ورزق الخيال إدراك الخياليات من الصور والأشباح المجرّدة عن المادّة دون المقدار، ورزق الوهم المعاني الجزئية، ورزق العقل المعاني الكلية والعلوم الحقّة من المعارف المبدئية والمعادية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ سورة الذاريات: الآية ٢٢.

فالرزق في كلّ بحسبه... بل ليس منحصراً في الكمالات الثانية، بل الكمال الأول الذي هو وجود كلّ ماهية رزقها اللائق بحالها. راجع شرح الأسماء الحسنى: ص٦.

(٣) تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ص٣٤.

قال الفيض الكاشاني ﴿ﭬ﴾: رزق كل مخلوق ما به قوام وجوده وكماله اللائق به فالرحمة الرحمانية تعم جميع الموجودات، وتشمل كل النعم، كما قال الله سبحانه: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[١] وأما الرحمة الرحيمية بمعنى التوفيق في الدنيا والدين فهي مختصة بالمؤمنين، وما ورد من شمولها للكافرين فإنما هي من جهة دعوتهم إلى الإيمان والدين مثلما في تفسير الإمام عليه السلام من قولهم عليهم السلام: «الرحيم بعباده المؤمنين في تخفيفه عليهم طاعاته، وبعباده الكافرين في الرفق في دعائهم إلى موافقته»[٢].

فليس الرزق منحصراً بالمال والطعام، بل لكل شيء رزق، ورزق كل شيء بوجوده، وبكماله تمام الرزق، ولعل ما يؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا﴾[٣] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[٤] وبهذا يتضح معنى سعة الرحمة الإلهية لكل شيء.

والفرق بين المعاني الثلاثة: أن الأول بلحاظ سعة الفيض وشموله لكل ماهية موجودة، والثاني بلحاظ الولاية الكلية؛ إذ ولايتهم عليهم السلام تعم كل شيء، وتسع العوالم أجمع، والثالث بلحاظ إيصال الرزق وما يقوّم كل شيء.

---

(١) سورة طه: الآية ٥٠.

(٢) التفسير الصافي: ج١، ص٨١؛ وانظر تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ص٣٤، وفيه: «في الرفق بهم في دعائهم».

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٠.

(٤) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

فالأول ذاتي، والثاني عرضي لمقام القرب، والثالث عرضي لمقام الفعل، وكل المعاني الثلاثة هي من مقتضيات الرحمة الإلهية بحسب مراتبها التشكيكية، والرحمة الواسعة تشملها كما لا يخفى.

والسؤال: لماذا أبتدأ الإمام عليه السلام دعاءه بالرحمة؟

والجواب عنه بوجهين:

أولهما: لأن الرحمة تأتي من العطف والميل فهي تستنزل عناية الرؤوف الرحيم، وهي من أجلى صفاته الملاصقه للفظ الجلالة؛ لذا يجب الابتداء بها دائماً في الطلب كما عرفته في البسملة، فيكون أدعى للإجابة[(١)].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا طلب أحدكم الحاجة فليثن على ربِّه، وليمدحه، فإنّ الرجل منكم إذا طلب الحاجة من سلطان هيأ له من الكلام أحسن ما يقدر عليه، فإذا طلبتم الحاجة فمجّدوا الله العزيز الجبار، وامدحوه، و اثنوا عليه. تقول: يا أجود من أعطى، ويا خير من سُئل، ويا أرحم من استرحم»[(٢)].

ثانيهما: للإشارة إلى المعنى الباطني للرحمة، فإن الله سبحانه يحب التوسل إليه بمحمد وآل محمد صلوات الله عليهم؛ لأنهم خلفاؤه وحججه وأحب الخلق إليه، فإذا جعلهم العبد واسطة بينه وبينهم لا ترد لهم حاجة كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله سبحانه يقول:

---

(١) راجع عدة الداعي: ص١٤٧-١٤٨.

(٢) عدة الداعي: ص١٤٩؛ الكافي: ج٢، ص٤٨٥، ح٦.

عبادي من كانت له إليكم حاجة فسألكم بمن تحبون أجبتم دعاءه، ألا فاعلموا أنّ أحب عبادي إليّ وأكرمهم لديّ محمد وعلي حبيبي ووليّ، فمن كانت له إليّ حاجة فليتوسل إليّ بهما، فإنيّ لا أرد سؤال سائل يسألني بهما وبالطيبين من عترتهما»[1].

(١) الوسائل: ج٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص١٠٢، ح٨٨٥٠؛ مشارق أنوار اليقين: ص٢٥٠.

﴿وَبِقُوَّتِكَ الَّتِي قَهَرْتَ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ، وَخَضَعَ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَذَلَّ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ﴾

القوة والقهر

الجملة معطوفة على ما قبلها وفيها مطالب:

الأول: ماذا تعني القوة؟ وماذا يعني القهر؟

القوة نقيض الضعف[1]، والقدرة ترادفها بناء على وقوع الترادف التام في اللغة -وإن كنّا لا نرّجحه كما سترى- وإلّا كانت القوة بلحاظ الذات، أما القدرة فبلحاظ الفعل؛ لذا يقال للفاعل بعد صدور الفعل إنه قادر، أو أن القوة منشأ القدرة وسببها فتأمل.

وفي مجمع البحرين: قدرت على الشيء -من باب ضرب- قويت عليه وتمكنت منه، والاسم القدرة، والفاعل قدير وقادر، والشيء مقدور عليه[2].

والقهر هو الغلبة ومن أسمائه سبحانه القاهر أي شديد القهر والغلبة، كما ورد في التنزيل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[3] أي الغالب لجميع الخلائق، وقهّار مبالغة، وقوله ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ تصوير للقهر والعلو بالغلبة والقدرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[4]؛ يريد أنهم تحت تسخيره وتذليله، وفي الدعاء: (الحمد لله الذي علا فقهر) أي ارتفع فقهر عباده بالغلبة والقدرة، فهم تحت قدرته[5].

---

(١) لسان العرب: ج١٥، ص٢٠٧، (قوا).

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٤٩، (قدر).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٢٧.

(٥) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٤٩، (ق هـ ر).

وفي توحيد الصدوق ﷺ: القدير والقاهر معناهما أن الأشياء لا تطيق الامتناع منه، ومما يريد الإنفاذ فيها... والقهر الغلبة... وقدرته على ما لم يوجد واقتداره على إيجاده هو قهره وملكه له[١].

الثاني: أن القدرة كالعلم حقيقة تشكيكية لها مراتب: مرتبة منها واجبة وهي الذاتية القديمة التي هي عين الذات، ولا يتصور فيها مفارقة أو انفكاك سواء كان هناك مقدور أو لم يكن، وبهذا اللحاظ تسمى قوة أيضاً؛ لما عرفت من أنها نقيض العجز أو الضعف، ولا شك أنه سبحانه كمال مطلق، وكل جهات كماله واجبة الثبوت له بالفعل؛ إذ لا يتصور فيه جهة قوة أبداً، فهو سبحانه قادر سواء كان مقدوراً أم لا.

وفي رواية أن الإمام الكاظم عليه السلام سُئل عن التوحيد وأجاب عن ذلك بإجابة منها: ﴿القادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يغلب﴾[٢].

وفي الكافي: ﴿والقدرة ذاته ولا مقدور﴾[٣].

والقدرة يعدونها من صفات الفعل؛ إذ: (لا حول ولا قوة إلّا بالله).

لأنها تقترن بصدوره تابعة للعلم والإرادة ومغايرة لهما كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٤] والقول هو الفعل

---

(١) راجع التوحيد: ص١٩٨.

(٢) التوحيد: ص٧٦، ح٣٢.

(٣) الكافي: ج١، ص١٠٧، ح١.

(٤) سورة يس: الآية ٨٢.

والإيجاد، وهو متأخر عن الإرادة كما لا يخفى، واستعمال القول في الفعل وارد في اللغة، بل وفي القرآن الكريم أيضاً، كما في قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[(١)] وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ﴾[(٢)] أي حصل ما وعد الله من علامات قيام الساعة وظهور شرائطها[(٣)]، كما أن الإرادة متأخرة عن العلم بما في الفعل من المصلحة التي اقتضت تعلق الإرادة بإيجاده كما عليه جمع من المتكلمين[(٤)]، واختلاف الاسم لا يضر في كونها ذاتية له، وقد وردت الأدلة النقلية في هذين المعنيين.

جاء عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «إن الله -لا إله إلّا هو- كان حياً بلا كيف ولا أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكاناً، ولا قوي بعد ما كوّن الأشياء، ولا يشبهه شيء يكون، ولا كان خلواً من القدرة على الملك قبل إنشائه، ولا يكون خلواً من القدرة بعد ذهابه. كان عزّ وجل إلهاً حياً بلا حياة حادثة... ومالكٌ لم يزل لهُ القدرة، أنشأ ما شاء حين شاء بمشيئته وقدرته، كان أولاً بلا كيف، ويكون آخراً بلا أين، وكل شيء هالك إلّا وجهه، له الخلق والأمر تبارك رب العالمين»[(٥)].

---

(١) سورة مريم: الآية ٣٤.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٢.

(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٤٥٦، (قول) ويستعمل القول في معان عدة غير الفعل. راجع المصدر المذكور.

(٤) انظر كشف المراد: ص٣٥٨.

(٥) التوحيد: ص١٤١، ح٦.

وواضح أن قوله عليه السلام: ﴿ولا كان خلواً من القدرة على الملك قبل إنشائه﴾ إشارة إلى القدرة الذاتية، كما أن قوله: ﴿أنشأ ما شاء حين شاء بمشيئته وقدرته﴾ إشارة إلى القدرة المقترنة بالفعل، والباء فيها سببية.

وفي نهج البلاغة: ﴿فطر الخلائق بقدرته﴾[(١)] والظاهر أنها بمعنى واحد والتفاوت في اللحاظ، كما أن هناك قدرة ثالثة هي من الحقائق الانتزاعية المتقوّمة بوجود الطرفين، كسائر المقولات الإضافية كالرازقية والخالقية؛ لأنها مفهوم منتزع عن تصوّر القادر والمقدور، وهذا المعنى من الوجودات الذهنية التي لا تقرر لها إلّا في الذهن، كما أنها متأخرة عن المقدور وجوداً، بخلاف الأولى والثانية كما لا يخفى، لكن حيث إنها لا تدخل في غرض المتكلم ولا يترتب عليها أثر فعلي خاص لم يتعرضوا لها في الغالب في كتب الكلام، أو لأنها في الحقيقة ليست من الصفات الكمالية، بل هي أمور حادثة ينسبها العبد بعد تصور طرفي الإضافة؛ لذا لا تناسب بحثها أو نسبتها إليه سبحانه فتأمل.

ولا يخفى أن القوة والقدرة من قبيل الفقير والمسكين اللذين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وفي مورد الافتراق يختلف معنى القوة عن القدرة من جهات:

إحداها: أن القوة بلحاظ الذات أما القدرة فبلحاظ الفعل؛ لذا يقال للصادر عنه مقدور ولا يقال له مقوّي، والآيات والروايات وردت في

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٩، الخطبة ١.

القدرة في موقع الفعل غالباً، فيما وردت في القوة في موقع وصف الذات وبيان كمالاتها، فالأول مثل قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)] وقوله : ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٢)] والثاني مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[(٣)] فإن الرزق صفة فعل والقوة صفة ذات هنا؛ لأن الرزق لا يصدر من الفقير العاجز؛ إذ فاقد الشيء لا يعطيه، فلابد من الوجدان والقدرة أولاً حتى يصدر الرزق فتأمل.

ثانيتها: أن القوة أعم من القدرة؛ لأنها تطلق حتى في العلل غير المختارة كالقوة النباتية وقوة الطبيعة وقوة النور والماء والجاذبة ونحو ذلك.

بخلاف القدرة فإنها تقترن بالإرادة؛ لذا عرّفوها بأنّها تساوي نسبة القوة إلى الفعل والترك، والقادر هو الذي يصح منه الفعل والترك كما في شرح التجريد[(٤)] وغيره[(٥)]، ولعله لهذه الجهة يقولون إن القدرة عين ذاته، ولم يعبّروا عن ذلك بالقوة؛ إذ إن صفاته الذاتية سبحانه ثلاث -على المشهور- العلم والحياة والقدرة، وحيث إن القدرة تتضمن الإرادة لم يذكروا الإرادة منفصلة عنها، ولذا أرجع المفيدﹻ الإرادة إلى الفعل، بل هي عنده عين الفعل، خلافاً للخاجة الطوسيﹻ الذي أرجعها إلى العلم فتأمل.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٢) سورة فاطر: الآية ١.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

(٤) كشف المراد: ص٢٦٨.

(٥) مجمع البحرين: ج٣، ص٣١١، (قدر).

ففي أوائل المقالات قال: إن إرادة الله تعالى لأفعاله هي نفس أفعاله وإرادته لأفعال خلقه أمره بالأفعال، وبهذا جاءت الآثار عن أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام، وهو مذهب سائر الإمامية(١).

وفي توضيح المراد: هذا مذهب أصحاب الحديث من الإمامية، وكذا الشيخية ذاهبة إليه، وبه وردت أخبار صريحة كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام في الكافي والتوحيد وغيرهما كما صرح به المفيد رحمه الله، وظاهر القرآن في مواضع ذكر الإرادة يلائم هذا القول، وعلى هذا فإرادته تعالى من صفات فعله لا من صفات الذات(٢)، ولكن لا يخفى أن الأدلة النقلية وردت في كلا المعنيين فتأمل.

ثالثتها: أن للقوة تقدماً رتبياً أو طبعياً على القدرة؛ إذ لا قدرة إلّا بقوة هذا على معنى، أو أن القدرة مرتبة فعلية القوة على معنى آخر.

الثالث: أن قدرته سبحانه كاملة من جميع الجهات، فهي بتمام العلم والإرادة والحكمة، كما ثبت في علم المعقول أن الله سبحانه غني مطلق، وليس فيه جهة فقر أو نقص أبداً، وإلّا خرج عن كونه واجباً(٣).

---

(١) أوائل المقالات: ص٥٣؛ وتوضيح المراد: ج٢، ص٤٧٣.

(٢) توضيح المراد: ج٢، ص٤٧٣.

(٣) جاء في كشف المراد المسألة السابعة عشرة في أنه تعالى غني وجوب الوجود ينافي الحاجة وهو معطوف على الزائد، وهذا الحكم ظاهر، فإن وجوب الوجود يستدعي الاستغناء عن الغير في كل شيء، فهو ينافي الحاجة، ولأنه لو افتقر إلى غيره لزم الدور؛ لأن ذلك الغير محتاج إليه لإمكانه. راجع كشف المراد: ص ٣١٩؛ وانظر القول السديد في شرح التجريد: ص٢٨٤.

وبهذا يظهر أن قدرته بتمام الكمال، أي أن فعلها يكون حسب مقتضى تمام العلم في الإتقان والإكمال وتمام الحكمة، فليس فيه نقص أو خلل، وبهذا يجاب عن توهم البعض بأن القادر على كل شيء لماذا لا ينتقم من الظالمين بشكل سريع وظاهر، أو لا يستجيب للعباد في كل ما يطلبون ويتمنون، كما تتجلّى رحمته ورأفته بعباده وعدله في معاملتهم، فإن قدرته مقترنة بالرحمة والحكمة: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(١) و: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٢) تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وكيف كان، فإن الفقرة الواردة في الدعاء: ﴿بقوّتك التي قهرت بها كلّ شيء﴾ يراد بها القوة المقترنة بالفعل؛ لقرينة السياق الذي ذكرت فيه الرحمة في مفتتح الدعاء، والقهر الذي يتضمن الغلبة والخضوع والذل الذي يتضمن الاستجابة للقهر والغلبة؛ إذ هو سبحانه بالقوة والقدرة قهر الأشياء وأوجدها وذللها ونقلها في أطوار الوجود من النقص إلى الكمال، ومن الكمال إلى النقص، أو من الكمال إلى الكمال، أو من النقص إلى النقص(٣)؛ إذ هو سبحانه: ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾(٤) وفي الدعاء: ﴿وبقوتك

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.

(٣) من الكمال إلى الكمال كتبدّل أطوار الجنين من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى اللحم كما قال سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سورة ق: الآية ١٥؛ وتبدّل الثمرة من النشوء الأول إلى مراتب النضوج، ومن النقص إلى النقص، كتبدّل الطعام الفاسد إلى الأفسد، أو تبدله من فاسد إلى فاسد آخر.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٨.

التي خضع لها كل شيء﴾[(١)] ولا يقال: في الفقرة: (برحمتك .. وبقوتك التي قهرت بها..) الباء للسببية والاستعانة كما ذكرتم، وهذا يستدعي نسبة الحاجة إليه سبحانه؛ إذ يستعين بقوته لقهر الأشياء فيكون محتاجاً إلى صفته وهي القوة، وهذا تناقض؛ إذ الواجب لا يحتاج إلى غيره مطلقاً؛ لأن القدرة من صفاته الذاتية، وهي عين ذاته كما عليه الإمامية، وليست زائدة كما عليه الأشاعرة حتى يلزم الإشكال[(٢)].

والباء هنا تشير إلى حيثية القدرة والاعتبار؛ لأنها تنسجم مع إجابة الدعاء، كما الرحمة تنسجم مع الميل، فأولاً الميل ثم القدرة، وكلاهما يشتركان في إجابة الدعاء والتغاير بينهما في اللحاظ والاعتبار، وإلّا فهي في الحقيقة شيء واحد متحد مصداقاً، كما هو الشأن في اتصاف ذي المبدأ كالعالم والعادل بالمبدأ من العلم والعدالة.

فمعنى الفقرة يصبح هكذا: (وبذاتك التي قهرت بها كل شيء) وذاته عين قدرته، كما أن قدرته عين ذاته.

---

(١) مصباح المتهجد: ص٦٠٤؛ الكافي: ج٤، ص٧٢، ح٣.

(٢) جاء في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ﴿فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه، أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه﴾ راجع نهج البلاغة: ص ٣٩، الخطبة (١).

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿لم يزل الله جلّ وعز ربّنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور﴾[١].

وفي منهاج البراعة في معنى قوله عليه السلام: ﴿فطر الخلائق بقدرته﴾ قال: في قوله عليه السلام بقدرته إشارة إلى أن خلق الأشياء بنفس القدرة التي هي عين ذاته لا بشيء آخر، وأما سائر الصنّاع والفواعل فليسوا كذلك، فإن صنعهم وفعلهم بشيء غير ذواتهم كآلة أو ملكة نفسانية أو مادة أو معاون. مثلاً إذا أنشأ إنسان كتاباً فإنه يحتاج إلى آلة كاليد والقلم، وإلى ملكة الكتابة، وإلى مادة كالمداد والقرطاس، وإلى معاون يتخذ له الآلة الخارجية، ويصلح مادّة الكتابة، وأما صنعه سبحانه فلا يحتاج إلى شيء من ذلك، وإنما هو بنفس ذاته الواجب، ونفس قدرته الكاملة[٢].

ومن الواضح أن الذي يلبّي الحاجات لابد أن يكون قادراً غنياً، وإلّا فإن العاجز الفقير هو ذليل في ذاته، عاجز عن حوائج نفسه، فكيف بحوائج غيره، ولذا ورد: ﴿كيف يسأل محتاج محتاجاً؟ وأنّى يرغب معدم إلى معدم؟﴾[٣] كما أن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن هنا لا يليق الدعاء إلّا له

---

(١) راجع التوحيد: ص١٣٩، ح١.

(٢) راجع منهاج البراعة: ج١، ص٣٠٩.

(٣) الصحيفة السجادية: ص٨٥، دعاء (٣٩).

سبحانه، ولا تطلب الحوائج إلّا منه؛ لأنّ غيره عاجز ذليل، وهو القوي العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[(١)].

دوام القدرة

هذا وبالقدرة الإلهية تعمل الأسباب، وتصدر الأفعال، ويحدث الليل والنهار، فهي الحقيقة التي تعمل في الكون كل آن آن بلا انفكاك ولا فتور، وما يرى من أسباب ومظاهر فهي مظاهر وتجليات للقدرة في مخلوقاته سبحانه؛ إذ كل مخلوق وهو مجلى عشرات المظاهر للقدرة الإلهية حسب توفر الدواعي والاستعدادات، وكلما كان الاستعداد أقوى كانت مظهريته للقدرة أجلى وأشد، فالشجرة مظهر قدرة الله سبحانه في الإثمار، والسحاب مظهر قدرته سبحانه في الإمطار، والشمس مظهر قدرته سبحانه في الإضاءة والدفء، ورحم الأم مظهر قدرته سبحانه في الخلق والإيجاد، والذهن مظهر قدرته في التصوير والإبداع، والملائكة مظهر قدرته في التدبير والإحياء والإماتة، فعزرائيل عليه السلام مظهر قدرته في الإماتة، وإسرافيل مظهر قدرته في النشر، والأنبياء عليهم السلام مظهر قدرته في الإعجاز في شؤون الكون، فمثلاً عيسى عليه السلام مظهر قدرته في الخلق، وموسى مظهر قدرته في التبديل وهكذا، ومحمد وآل محمد عليهم السلام مظاهر قدرته في الولاية الكليّة على الكون تكويناً وتشريعاً؛ إذ هم وسائط الفيض وأوعية المشيئة الإلهية كما في متضافر الأدلة والأخبار.

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٥.

وبذلك يجمع بين قانون السببية الذي أودعه سبحانه في الوجود، وورد عنهمعليهم السلام: ﴿أبى الله أن يجري الأشياء إلّا بالأسباب﴾[(١)] وبين كونه سبحانه القاهر القادر المدبر، كما يجمع بين ما ورد في الآيات والروايات من أنه سبحانه (الخالق القادر) وأن أزمّة الأمور بيده، وبين ما ورد عنهمعليهم السلام من أنهم (قدرة الله) و(إرادته).

ولعل بهذا يظهر أن قوله عليه السلام: ﴿وبقوتك التي قهرت بها كل شيء، وخضع لها كل شيء، وذل لها كل شيء﴾ يراد منه كل موجود الأعم من الموجودات المقررة في الخارج أو في الذهن أو في الاعتبار؛ لمساوقة الشيئية للوجود، ولا يقال: إن الصور الذهنية والاعتبارات أمور ليس لها وجود في الخارج، فكيف يصدق عليها القهر والخضوع والإذلال؟ لأنه يقال: إن وجود كل شيء بحسبه، والذهن والنفس من مراتب الوجود الخارجي، وما يتقرر فيهما من الأمور له حظ من الوجود؛ إذ هما ليسا كالعدم المحض كما لا يخفى.

وعليه فما جعله الله سبحانه من مظاهر لقدرته في أي مرتبة من المراتب أو أي نحو من أنحاء الوجود تخضع له اشياؤه، فالذهن تتجلى فيه القدرة على التصوير والتخيل والإبداع، وهي خاضعة ذليلة له، كما هي خاضعة لله سبحانه وقدرته بالواسطة والمآل؛ لأنه الذي قرر النظام، وجعل العلة، وجعل المحل القابل الذي تتجلى فيه القدرة، وكذا النفس تتجلى فيها القدرة

---

(١) بصائر الدرجات: ص٢٦، ح١، ص٥٢٥، ح٢.

على الإنشاء والاعتبار، وهكذا الشمس على الدفء، والتراب على الزرع، والماء على الإرواء، والبيضة على التوليد. هذه كلها مظاهر للقدرة الإلهية، وسببيتها راجعة إليه سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[(١)] وقد ثبت في محله أن التسلسل الطولي في العلل مما قام عليه البرهان والوجدان فتدبر.

(١) سورة الشورى: الآية ٥٣.

﴿وَخَضَعَ لَها كُلُّ شَيءٍ، وَذَلَّ لَها كُلُّ شَيءٍ﴾

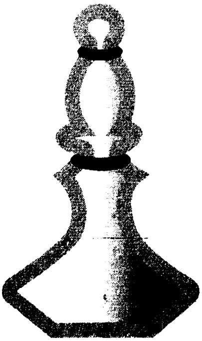

خضوع الأشياء له سبحانه

الخضوع اللين والانقياد، ويكون في البدن في مقابل الخشوع الذي يكون في القلب[1]، ومنشؤه تارة يكون الانقياد وهو من التواضع وتارة القاهر الخارجي وهو من الذل[2]، ولذا عطف عليه قوله ﴿وذل لها كل شيء﴾ للإشارة إلى أن الأشياء كلها منقادة ذليلة إلى قدرته سبحانه لا تملك من أمرها شيئاً، أو للإشارة إلى أن الأشياء منقادة لها بظهورها وباطنها، وبيان ذلك يقع من وجوه محتملة:

الأول: الخضوع الذاتي الناشئ من الإمكان الذاتي في الأشياء؛ إذ كل ممكن مفتقر إلى الوجود ذاتاً، أو متساوي النسبة إلى الوجود والعدم -على خلاف بينهم- فهو من حيث ذاته ليس بشيء إلّا عبر علته، فكل ممكن هو خاضع له ذليل إلى قدرته في أصل وجوده وفي كمالات وجوده، فالممكنات مقدوراته تعالى، وكلها جنوده: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3] مطيعة لأمره تكويناً، خاضعة لقوانينه وحكومته في التكوين والتشريع، وقد فسّر البعض السجود في قوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ﴾[4] بالخضوع الإمكاني.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢١٦، (٨٤٥)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٣٠١، (خضع)؛ لسان العرب: ص٧٢.

(٢) مجمع البحرين: ج٤، ص٣٢٢، (خضع).

(٣) سورة الفتح: الآية ٤.

(٤) سورة الحج: الآية ١٨.

وفي مجمع البيان في تفسير الآية: ﴿أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض﴾ من العقلاء ﴿والشمس﴾ أي وتسجد الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، وصف سبحانه هذه الأشياء بالسجود وهو الخضوع والذل والانقياد لخالقها فيما يريد منها[(١)].

وقال بعض أهل المعقول: إن الافتقار الذاتي اللازم للماهية أدلّ على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الأرض، فإن ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتي قد يتطرق إليها الصدق والكذب. أما نفس الافتقار الذاتي فإنه ممتنع التغير والتبدّل، فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى لله تعالى، أي خاضعة متذللة معترفة بالفاقة إليه والحاجة إلى تخليقه وتكوينه، وعلى هذا تأوّلوا قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[(٢)(٣)].

الثاني: الخضوع والذل التشريعي ومعناه الاستجابة والانقياد لأوامر الله سبحانه وأحكامه وطاعة أوليائه عليهم السلام، فإن كل موجود هو مكلف وخاضع لنوعين من الأوامر: الأوامر التكوينية التي جبل عليها، والأوامر التشريعية في العبادة والتسبيح والتهليل، وهو بهذا الخضوع منقاد مما يملك لنفسه منعاً أو رداً أو عصياناً، إلّا الإنس والجن إذ جعلهما الباري عزّ وجل مختارين في الطاعة؛ لاقتضاء مصلحة الاختبار، وهما أيضاً منقادان خاضعان تكويناً وتشريعاً لأوامره وإن كانا مختارين في الفعل.

---

(١) مجمع البيان: ج٧، ص١٣٧.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٣) تفسير الرازي: ج٢٣، ص٢٠.

الثالث: المراد الذل والخضوع الأحوالي، ويحصل بالمقدرات الإلهية وتقلب الخلق من حال إلى حال، ومن هنا ورد في أسماء الله تعالى: المُذِلُّ(١) لأنه الذي يلحق الذُّلَّ بمن يشاء من عباده، وينفي عنه أنواع العز جميعها..، فلا عزيز مطلق في الممكنات، ولا دوام لعز العزيز منها بل الكل ذليل أمام الخالق البارئ وهو العزيز المطلق، ومن هنا خضع لقوته كل شيء، وذل لها كل شيء.

هذا ما يقال في معنى خضوع الأشياء وذلها، وهو مبني على الوجوه والاحتمالات لا بلوغ الحقيقة من باب معرفة الشيء بوجوهه لا بكنهه وحقيقته، وهنا نلفت الأنظار إلى أمرين:

أحدهما: أن الإدراك والتصور الإجمالي كافٍ في المعرفة وليس بالضرورة إدراك الكنه، ولعل مما يشير إلى بعض هذا ما ورد عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن أدنى المعرفة؟ فقال: «الإقرار بأنه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظير، وأنّه قديم مثبت موجود غير فقيد، وأنّه ليس كمثله شيء»(٢).

ثانيهما: نحن حتى صفات الفعل لا ندركها بكنهها وإنما ببعض وجوهها وحالاتها ليس إلاّ. أما حق المعرفة فهي ترجع إليه سبحانه(٣).

---

(١) لسان العرب: ج١١، ص٢٥٦، (ذلل).

(٢) ورد في التوحيد: ص٢٨٣، ح١.

(٣) ورد في شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٢١٦، وأما معرفة كنه (المسمى) و(المرتبة الأحديّة) فهي مما استأثرها الله لنفسه.

وفي الدعاء: «باسمك المخزون المكنون الذي لا يعلمه أحد سواك»[(١)].

وعن الباقر عليه السلام: «كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق مصنوع مثلكم، مردود إليكم، ولعل النمل الصغار تتوهم أن لله تعالى زبانيتين، فإن ذلك كمالها، ويتوهم أن عدمها نقصان لمن لا يتّصف بهما، وهكذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالى به»[(٢)].

وهو إشارة إلى أن درك المحدود للامحدود، يجعل المدرك اللامحدود محدوداً لعدم قدرة المحدود عن تجاوز محدوديته في التصور، ولذا يعطيه ما يتصوره هو من الصور، وينسب له ما يعتقده هو من حدود الكمالات، وهذه أمور مخلوقة للمتصوِّر فلا يمكن أن تعبّر عن حقيقة الواجب تبارك وتعالى؛ لذا قال: «مصنوع مثلكم مردود إليكم»[(٣)].

نعم تتفاوت المعرفة بحسب مراتب الخلق وإدراكاتهم وقوة الاستعدادات والقابليات، فالأنبياء عليهم السلام من أولي العزم معرفتهم أرقى من غيرهم وهكذا[(٤)]، وبهذا تختلف المقامات والمراتب بين الخلق، وقد دلّت الأخبار على ذلك، وفي الدعاء الشريف: «يا من لا يعلم ما هو ولا كيف هو ولا أين هو ولا حيث هو إلّا هو»[(٥)].

---

(١) البحار: ج٩٠، ص٢٦٦، ح١.

(٢) البحار: ج٦٦، ص٢٩٣، ح٢٣.

(٣) شرح نهج البلاغة (لابن ميثم البحراني): ج١، ص١١٠.

(٤) الكافي: ج١، ص٢٣٠، ح٢.

(٥) دعاء المشلول المروي في كتب الكفعمي وكتاب مهج الدعوات، وهو دعاء علمه أمير المؤمنين عليه السلام لشاب أخذ بذنبه فصار مشلولاً لما عمله من الظلم والإثم، وهو دعاء

←

وكيف كان، فإن مثل العارفين به سبحانه مثل من يرون الشمس من بُعد، فإنهم لا يدركونها كما يدركها الأقرب فالأقرب وهكذا، وكلّما كانت الدرجة أكثر كانت المعرفة أكثر، ثم المقام أسمى وأعلى[(١)].

فالذي لا يرى الشمس لبعده عنها يكون في درجة الكفار الذين لا يرون الحقيقة فيكفرون بها، والذي يراها مشوشة ولكن يدرك الأصل فهو من المؤمنين العاديين الذين يخلطون الحق بالأوهام. أما الذين يدركونها ويميزونها عن بعض ما يشاركها في الظاهر من السحب والنجوم والشموس فهم العارفون.

أما الأقرب الذي ينفي عنها الشركة أبداً فهم الأصفياء، والذين يرفعون الحجب بين أبصارهم وحقيقتها فهم الأنبياءعليهم السلام. أما الذين يصلون إلى أقرب من ذلك فيرون كل ما في الوجود راجع لها ومتأثر بها فهي معرفة محمد وآل محمدعليهم السلام، وهو مقام: ﴿**دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾[(٢)].

ولعل هذا بعض معنى قول مولانا أمير المؤمنينعليه السلام: «لو كشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً»[(٣)].

→

عظيم المنزلة والأثر؛ مهج الدعوات: ص١٥٣؛ المصباح: ص٢٦٠؛ وكذلك: البلد الأمين: ص٣٣٧؛ مفاتيح الجنان: ص ١٤٤.

(١) حق اليقين: ج١، ص٩٨.

(٢) سورة النجم: الآيتان ٨-٩.

(٣) جامع السعادات: ج ١، ص١١٩.

كما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: ﴿متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ أو متى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك﴾[(١)].

وفي المناجاة الشعبانية العظيمة الأثر يقول الأئمة عليهم السلام في المروي عنهم: ﴿إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك﴾[(٢)].

وفي حق اليقين: وأما اتساع المعرفة فإنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته، وبها تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأولياء في معرفة الله عز وجل، فليس من يعلم أنه قادر عالم على الجملة كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السماوات والأرض وخلق الأرواح والأجساد، واطلع على بدائع المملكة وغرائب الصفة ممعناً في التفصيل، ومستقصياً دقائق الحكم، ومستوفياً لطائف التدبير، ومتصفاً بجميع الصفات الملكية المقربة من الله تعالى، نائلاً لتلك الصفات نيل اتصاف بها، بل بينهما من البون البعيد ما لا يكاد يحصى.

وفي تفاصيل ذلك ومقاديره تتفاوت الدرجات، فلا تلتفت إلى من يزعم أنه وصل إلى كنه الحقيقة المقدسة، بل أحث التراب في فيه، فقد ضل وغوى وكذّب وافترى، فإن الأمر أرفع وأظهر من أن يتلوث بخواطر

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ج٢، ص١٣؛ البحار: ج٦٤، ص١٤٢؛ ج٩٥، ص٢٢٦؛ وفي البحار: ((ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك)).

(٢) إقبال الأعمال: ج٣، ص٢٩٩.

البشر، وكلما تصوره العالم الراسخ فهو عن حرم الكبرياء بفراسخ، وأقصى ما وصل إليه الفكر العميق، فهو غاية مبلغه في التدقيق، فسبحان من حارت لطائف الأوهام في بيداء كبريائه وعظمته، وسبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلّا بالعجز عن معرفته[(١)].

ولا يخفى أن المعرفة تختلف درجاتها بالقياس إلى معرفة صفات الفعل الحادثة، وليست صفات الذات؛ لأنها عين الذات، ومن المحال الوصول إلى درك حقيقة الذات إلّا بالدرك الإجمالي المبني على معرفة مفهوم الذات وصفاتها وكونها عين ذاتها؛ لاستحالة إحاطة المحدود باللامحدود؛ لذا ورد عنهم عليهم السلام: ﴿ما عرفناك حق معرفتك﴾[(٢)] ومن هنا قالوا عليهم السلام: ﴿وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه﴾[(٣)] أي الصفات السلبية أو النواقص لا الكمالات.

ومن الواضح أن نفي النواقص عنه يستلزم كمال الإخلاص في المعرفة وفي العبادة؛ لأن الإخلاص بمعنى ما صفا وتخلّص ولم يمتزج بغيره، وفي الحديث: ﴿قل هو الله أحد هي سورة الإخلاص﴾ قيل سمّيت بذلك لأنّها خالصة في صفة الله تعالى، أو لأنّ اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله تعالى[(٤)]،

---

(١) حق اليقين: ج١، ص٩٨؛ وانظر البحار: ج٦٦، ص٢٩٢، ح٢٣؛ رياض السالكين: ج١، ص٣١٧، الحاشية.

(٢) البحار: ج٦٦، ص٢٩٢، ح٢٣.

(٣) نهج البلاغة: ص٣٩، الخطبة (١).

(٤) مجمع البحرين: ج٤، ص١٦٨-١٦٩، (خلص)؛ لسان العرب: ج٧، ص٢٦، (خلص)؛ النهاية في غريب الحديث: ج٢، ص٦١.

وبهذا يتضح أن غلبة القدرة الإلهية على الأشياء بجبروته سبحانه لا يمكن درك كنهها على الوجه الحقيقي إلّا بالإشارة والإجمال، وذلك ليس عبر درك الغلبة؛ لأننا ندرك المغلوبية والمقهورية فقط. أما كيف تغلب القدرة الإلهية فهو خارج عن إدراكنا، كما في الخالقية والرازقية ونحوهما؛ إذ ندرك معنى الخالقية ولكن لا ندرك كنه الخالقية وكيفيتها وتحت عنوان (أنه لا سبيل للمخلوق في معرفة كنه الذات الإلهية) قال السيد شبرﷺ: اعلم أنه لا سبيل للمخلوق إلى معرفة كنه الخالق وحقيقته والإحاطة به جلّ شأنه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[٢] وفي الدعاء: «سبحان الله من لا يعلم ما هو إلّا هو».

وقال أمير المؤمنينعليه السلام: «لا تقدر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين»، وقالعليه السلام: «من قال فيه لِمَ فقد علّله، ومن قال فيه متى فقد وقّته، ومن قال فيمَ فقد ضمنه، ومن قال أنّى فقد أنهاه، ومن قال حتى فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزاه، ومن جزاه فقد ألحد فيه، لا يتغير الله بتغاير المخلوق، ولا يتجدد بتجدد المحدود».

وقال الإمام الصادقعليه السلام: «وكيف أصفه بالكيف وهو الذي كيّف الكيف حتى صار كيفاً، فعرفت الكيف بما كيف لنا من الكيف».

فإنا لما رأينا الوجود والقدرة والعلم فينا وعلمنا أنها ليست من ذواتنا بل من الفيّاض الحقيقي علمنا أنه موجود قادر عالم ونحو ذلك بلا كيفية

---

(١) سورة طه: الآية ١١٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩١.

لصفاته، ولما رأينا فينا بعض الكمالات كالوجود والقدرة والعلم والحياة والإدراك ونحوها وعلمنا أن نقائضها من العدم والعجز والجهل والموت وعدم الإدراك نقائص وصفنا ربنا بالكمالات ونزهناه عن النقائص، مع عدم علمنا بكنه ما أثبتناه له تعالى.

فنهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة، ومعرفتهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه حق معرفتهِ، وأنه لا يمكنهم معرفة الحقيقة ألبتة، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفاته الربوبية إلا الله تعالى، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافاً برهانياً فقد عرفوه، أي بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته، وهو الذي أشار إليه من قال العجز عن درك الإدراك إدراك، بل هو الذي عناه سيد البشر صلى الله عليه وآله حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» ولم يرد به أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة عنه، بل معناه أني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك.

وقال صلى الله عليه وآله: «إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم» وروى ثقة الإسلام في الكافي عن أبي بصير عن الباقر عليه السلام قال: «تكلموا في خلق الله تعالى ولا تتكلموا في الله تعالى، فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلّا تحيّرا» وعن الصادق عليه السلام قال: «إن الله يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[1] فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا»[2].

---

(١) سورة النجم: الآية ٤٢.

(٢) حق اليقين: ج١، ص٦٨-٧٠.

﴿وَبِجَبَرُوتِكَ الَّتِي غَلَبْتَ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ﴾

جبروت الله سبحانه

الجبروت في اللغة على وزن (فعلوت) من مادة (الجبر) وهو بمعنى (القهر)[1]، أو ربط المنكسر ليلتئم ويكمل، ومن أسمائه الجبّار أي الذي يقهر الخلق على بعض الأمور التي ليس لهم فيها اختيار، ولا على تغييرها قدرة، أو الذي يصلح حالهم الفاسد، وربما يطلق الجبروت على عالم الأسماء والصفات كما يطلق اللاهوت على عالم الذات بكل شأن[2]. أما عند أهل المعرفة فقالوا: إن العوالم على أقسام:

الأول: عالم اللاهوت: وهو عالم الذات المجردة عن الصفات.

الثاني: عالم الملكوت: أي عالم المجردات، والمراد بها المجردة عن ثقل المادة لا المجردة عن المادة؛ لعدم وجود مجرد بالمعنى الحقيقي إلّا الله سبحانه، وكل ما يقال له مجرد كالروح والملائكة فإنها ماديات خفيفة؛ لذا تتمتع بمزايا تفوق المادة الثقيلة على ما حققناه في مباحث العقائد.

الثالث: عالم الناسوت: وهو عالم المشاهدة الجسماني، أي المشاهد والمحسوس.

---

(١) ذكر ذلك في مجمع البحرين: ج٣، ص٢٤٠، (جبر). الجبروت: فهو فعلوت من الجبر والقهر.

(٢) راجع شرح دعاء السحر: ص٦١-٦٢.

الرابع: عالم الجبروت: وهو عالم الأسماء والصفات الإلهية[(١)].

وفي جملة الدعاء الشريف يراد به نفوذ القدرة والمشيئة الإلهية في الأشياء وخضوعها له، وهو وصف فريد لا يوصف به إلّا الله سبحانه ولا يليق إلّا بجنابه، ولأنه عام لا يقبل التخصيص، والاستثناء ورد بصيغة المبالغة (جبروت) والإضافة إلى كاف الخطاب (جبروتك) تفيد التخصيص به سبحانه، فلو وصف به غيره كان ذماً؛ لذا يرد في ذم الطغاة والجبابرة. قال تعالى: **﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾**[(٢)] ولا يوصف به إلّا الاشقياء؛ لذا قال تبارك وتعالى على لسان وليه عيسى بن مريم عليه السلام: **﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾**[(٣)] لأن الجبار هو الذي يتعالى على الناس ويتسلط على رقابهم.

---

(١) ذكر الحاج السبزواري في شرح الأسماء الحسنى كلاماً في بعض أسرار عدد الأربعة:

ومنها: أن عدد العوالم أربعة: اللاهوت، والجبروت، والملكوت، والناسوت. شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٠٠.

وذكر أيضاً في بيان معنى الملك الأعم عن الملكوت بقوله: أعني المملكة التي هي عالم الوجود لا المعنى المساوق لعالم الظاهر وعالم الشهادة وعالم المادة وعالم الناسوت وغيرها القسيم للملكوت المراد به تارة باطن الكون مطلقاً كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ سورة الأنعام: الآية ٧٥، وتارة مقابل عالم الجبروت المراد به عالم العقول؛ راجع شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٤٦.

(٢) سورة القصص: الآية ١٩.

(٣) سورة مريم: الآية ٣٢.

﴿وَبِعِزَّتِكَ الَّتي لا يَقُومُ لَها شَيءٌ﴾

العزة الإلهية

العزّة في اللغة: بمعنى القوة والغلبة[1]. يقال: عزّه -يعزّه- عزاً إذا غلبه، وفي قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[2] أي قوّينا وشددنا ظهورهما برسول ثالث[3]، وقوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[4] أي: غلبني، وفي دعاء اليوم الأول من شهر رمضان: ﴿وبعزتك التي قهرتْ كلّ شيء﴾[5] والعزيز من أسمائه سبحانه، ومعناه الغالب الذي لا يفوته شيء ولا يعجزه شيء[6]، و لا يظلم أو يؤذي بعزته وغلبته، فالعزة أخص من القهر؛ لأن القهر يتضمن معنى الغلبة، ولا ينفي المغلوبيّة عن الغالب من جهة أخرى، ولا سلامة الفعل من الأذى والظلم، وما ذكره بعض أهل اللغة من تعريفه بالقوي الغالب أو الذي يقهر ولا يُقهر[7] تعريف بالأعم، وربما يجمع بين القولين بالقول بأن العزة تتضمن الترفع عن الذل والحاجة، وهو المتبادر من معناها عرفاً، وهي تلازم القوة والغلبة؛ لترفعها عن الضعف والقهر، كما تلازم السلامة في الفعل؛ لترفعها عن الأذى والظلم للغنى عنهما؛ لذا نسبت العزة

---

(١) لسان العرب: ج٥، ص٣٧٤، (عزز).

(٢) سورة يس: الآية ١٤.

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٦، (عزز).

(٤) سورة ص: الآية ٢٣.

(٥) الكافي: ج٤، ص٧٢، ح٣.

(٦) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٣٥٨، (١٤٤٢).

(٧) مفردات الراغب: ص٥٦٣، (عز).

لله سبحانه في التنزيل بلسان الحصر كما في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(١) وقوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٢) أي مالكها، وعرف العزيز بأنه الذي ليس كمثله شيء(٣).

وقال الكفعمي: العزيز: الذي لا يعادله شيء، والذي لا مثل له ولا نظير، وهو يرجع إلى المعنى الأول؛ لأن ما لا شيء يعادله ولا يماثله ولا يناظره فهو غالب على ما سواه(٤)، والملك يسمى عزيزاً؛ لأنه غالب على رعيته ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرّ﴾(٥) والله عزّ وجل (عزيز) لأنه غالب على خلقه في فعله، وغالب على ما سواه بذاته(٦)، وهو منزه عن نواقص الغلبة وملازماتها. هذا وللعزة الإلهية تجليات:

منها: انتصار النبي ﷺ على الكفر والنفاق.

ومنها: انتصاره على اليهود وأمثالهم في خيبر وغيرها.

ومنها: انتصاره على النصارى في المباهلة وغيرها من صولات عنادهم وتحديهم لدين الحق.

ومنها: انتصاره على عموم الكفر والشرك والنفاق بتنصيب أمير

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٨٠.

(٣) لسان العرب: ج٥، ص٣٧٤، (عزز).

(٤) المصباح: ص٣١٩.

(٥) سورة يوسف: الآية ٨٨.

(٦) انظر شرح دعاء السحر: ص٣١-٣٤.

المؤمنين عليه السلام ولياً وقائداً للأمة؛ إذ وصفه الباري باليوم الذي يئس فيه الكفار من دين الإسلام.

ومنها: انتصاره على الظلم والجور الذي أسسه أئمة الضلال بعد النبي صلى الله عليه وآله وتجلى ذلك في نهضة سيد الشهداء عليه السلام لإحياء الدين وصناعة الفتح الإلهي في التاريخ الإنساني، وقدم أبيّ الضيم أغلى ما لديه قرباناً لإعزاز الله ودينه وتحرير عباد الله من قيود الظلم والظالمين وقد كافأه رب العزة بعزة أبدية في الوجودين التكويني والتشريعي، فزرع محبته في القلوب ﴿إن للحسين في بواطن المؤمنين معرفة مكتومة﴾[١] ومصيبته جلت وعظمت على جميع الخلق: ﴿وجلت وعظمت مصيبتك في السموات على جميع أهل السموات﴾[٢] فالحسين عليه السلام حظي بأعلى مراتب العز عند الله سبحانه؛ لأن من أحب الأشياء إلى الله هداية الخلق إليه وسيد الشهداء صلوات الله عليه بدمه وبذله وتضحياته صنع هذا إلى يوم القيامة، وقد كتب ذلك عن يمين عرش الله كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿أن الحسين بن علي في السماء أكبر منه في الأرض، وإنه لمكتوب عن يمين عرش الله عز وجل: مصباح هدى وسفينة نجاة﴾[٣]. فاهتز له العرش؛ لأنه عزيز على الله، وبكاه الكون والملائكة والإنس وكل شيء لأنه عزيز عليهم، وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ﴿يا زراره، إن السماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالدم، وإن الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد، وإن الشمس بكت

---

(١) الخرائج والجرائح: ج٢، ص٨٤٢، ح٦٠؛ البحار: ج٤٣، ص٢٧٢، ح٣٩.

(٢) مصباح المتهجد: ص٧٧٤؛ البحار: ج٩٨، ص٢٩٤، ح٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٦٢، ح٢٩.

أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة، وإن الجبال تقطعت وانتشرت، وإن البحار تفجرت، وإن الملائكة بكت أربعين صباحاً على الحسين﴾[(١)].

وبهذه العزة أصبح مظهر الغلبة والانتصار على أعداء الله وأعداء دينه، ويدل على بعض ذلك الشعائر الحسينية وعشق الملايين له وأحياؤهم مراسيم الحزن عليه ومن مختلف القوميات على مدى سعة الأرض وامتداد الزمان، فهو مظهر العزة الإلهية والغلبة في الدين، والهداية التي هي من أهم الغايات عند الله تعالى التي ضحى أولياؤه بأنفسهم لأجلها، ولا يخفى أن العزيز في العرف يطلق على المحبوب نادر الوجود، ومن مثل الحسين عليه السلام عشقته الملايين، وألهب الملايين على طول التأريخ البشري، وكان المصدر للنهضات والحركات الإنسانية ضد الباطل وقد نقل الشيخ القمي في الكنى والألقاب عن ذلك قول سيد أهل الإباء والحمية -الذي علم الناس الموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية- أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام. عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذل[(٢)]. و قال الإمام الحسين عليه السلام: ﴿ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين السلة والذلة وهيهات منا الذلة﴾[(٣)].

ولا يخفى أن العزيز في العرف يطلق على المحبوب أيضاً، إلّا أن الظاهر أنه مأخوذ من المعنى الثاني بنحو السببية والمسببية أو المجاز في الكلمة؛ لأن المحبوب مطلوب للمحب، وهو قليل الوجود بالقياس إلى غيره.

---

(١) كامل الزيارات: ص١٦٧، ح٨؛ البحار: ج ٤٥، ص٢٠٦، ح ١٣.

(٢) راجع الكنى والألقاب: ج١، ص٣٢.

(٣) مثير الأحزان: ص٤٠.

﴿وَبِعَظَمَتِكَ الَّتي مَلأتْ (أرْكانَ)
كُلَّ شَيءٍ﴾

معاني العظمة الإلهيّة

نلفت النظر إلى أن: الأركان وردت في موضع من الاقبال[1] ولم ترد في موضع آخر منه وكذا لم ترد في مصباح المتهجد ومصباح الكفعمي وسنعتمد الورود في الشرح فنقول:

العظمة مأخوذة من العظيم، ويطلق على كل كبير قوي متفوق المزايا والخصوصيات[2]، وبهذا الاعتبار. يطلق على الزمان والمكان والأوصاف والأعيان. قال تعالى: ﴿**عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[3] وقال: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ**﴾[4] وقال: ﴿**رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾[5] ووصف الباري عزّ وجل به لأنه جاوز حدود العقول أن تقف على صفات كماله ونعوت جلاله[6]، والسؤال بعظمته سبحانه لأن آثارها نافذة في جميع الأشياء، ودالة على تفرّده في الخصائص والآثار من وجوه عديدة:

أحدها: الغلبة والقدرة على الموجودات، فهو عظيم القدرة.

ثانيها: أن ما سواه خاضع له وخاشع وذليل، فهو عظيم الشأن والسلطان، كما ورد في دعاء اليوم الأول من شهر رمضان: ﴿وبعظمتك التي تواضع لها كل شيء﴾[7].

---

(١) انظر اقبال الأعمال: ج٣، ص٣٣٢.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٦١، (عظم).

(٣) سورة الزمر: الآية ١٣.

(٤) سورة النبأ: الآيتان ١-٢.

(٥) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٦) معجم الفروق اللغوية: ص٣٦٢، (١٤٥٦).

(٧) الكافي: ج٤، ص٧٢، ح٣.

ثالثها: لأنه خالق الأشياء العظيمة كالأنبياء والأوصياءعليهم السلام، وخالق العرش العظيم، كما في قوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1] وفي مجمع البحرين وصفه بالعظمة من جهة الكمية والكيفية، فهو ممدوح ذاتاً وصفة، وخصّه بالذكر؛ لأنه العرش أعظم الأجسام، فتدخل تحته الجميع[2].

رابعها: أو لأنه عظيم الذات؛ إذ لا يصل إلى عظمته أحد، ولا يدرك حقيقته أحد[3]، وقد ورد عن الصادقعليه السلام: «أنّ الله عظيم رفيع لا يقدر العباد على صفته، ولا يبلغون كنه عظمته، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير»[4].

خامسها: لأن وجوده عظيم فوق ما لا يتناهى بما لا يتناهى شدة ومدة وعدة؛ إذ هو غير محدود في مراتب الكمال والعظمة، وفي لسان العرب: عظم: من صفات الله عزّ وجل العلي العظيم، ويسبح العبد ربه فيقول: سبحان ربي العظيم. العظيم: الذي جاوز قدره، وجل عن حدود العقل حتى لا تُتَصَوّر الإحاطة بكنهه وحقيقته... وعظمة الله سبحانه لا تكيَّف ولا تحدُّ ولا تمثل بشيء، ويجب على العباد أن يعلموا أنه عظيم كما وصف نفسه وفوق ذلك بلا كيفية ولا تحديد[5]. وتتجلى عظمة وجوده في عدة أمور:

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢٩.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٠٥، (عظم).

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٠٥، (عظم)؛ وانظر لسان العرب: ج١٢، ص٤٠٩، (عظم).

(٤) راجع التوحيد: ص١١٥، ح١٤.

(٥) لسان العرب: ج١٢، ص٤٠٨، (عظم).

منها: دوام وجوده الأزلي الأبدي فلا أول له ولا آخر؛ إذ لا شيء سواه يتصف بهذه العظمة في الوجود.

ومنها: أن وجوده مصدر ومنشأ لسائر الموجودات؛ إذ كل موجود هو مخلوق له وصادر عنه؛ إذ لا مؤثر في الوجود سوى الله.

ومنها: أنه مصدر جميع الكمالات، فإن الكل مفتقر إليه ذاتاً وصفة وفعلاً، وهو الغني المطلق، وإليه يرجع الأمر كله.

ولعل قوله عليه السلام ﴿وبعظمتك[1] التي ملأت أركان كل شيء﴾ يشير إلى هذا المعنى من جهتين:

---

(١) ورد في كتاب شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١١.
(يا عظيم) لما كان ظهور عظمة الفاعل بعظمة فعله نقول: عظمة الفعل إمّا حسيّة وإما معنوية. أما الحسية فكما تشاهد في السماوات؛ إذ قد تقرر في فن الأبعاد والأجرام من الهيئة: أن أعظم الثوابت المرصودة بمقدار جرمه مئتان واثنان وعشرون مثل مقدار جرم الأرض، وأصغرها مقدار جرمه ثلاثة وعشرون مثل مقدار جرم الأرض، وأن مقدار جرم زحل من السيارات اثنان وثمانون مثل مقدار جرم الأرض، ومقدار المشتري مئة وثمانون مثل مقدار الأرض، وأن مقدار المريخ ثلاثة أمثال مقدار الأرض، ومقدار جرم الشمس ثلاثمئة وستة وعشرون مثل مقدار جرم الأرض وهكذا فيما لا نطيل بذكرها من السيارات والأفلاك وأحدس مقادير الثابتات غير المرصودة التي لا يعلم عددها كمقاديرها إلّا هو.
وأما العظمة المعنوية: فكما في القلوب؛ إذ في كل قلب جميع هذه الأمور العظيمة من السماوات والأرضين بحيث لا تصادم ولا تزاحم فيها، ولا يؤده حفظها، بل كل قلب وما فيه في كل قلب فكلها في كلها، والقلب للطافته وصفائه بحيث متى يتوجه إلى شيء ويتصور بصورته ويتهيأ بهيئته ويتزيا بزيه، فتصوراته جعله البسيطي، وتصديقاته جعله التركيبي، وكل الصور منشأته، كما في الحديث عن مولانا باقر العلوم عليه السلام: ﴿كلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق لكم، مصنوع مثلكم، مردود إليكم﴾. ولكن في الكليات على نمط آخر أعلى من الجزئيات.

الأولى: أن كل شيء صدر عنه ووجوده مفاض منه، فعظمته الوجودية أوجدت كل شيء وملأت أركانه.

الثانية: أن في وجود كل مخلوق إشارات غير متناهية إلى عظمته سبحانه في الخلق والإبداع والتكوين.

وفي كل شيء له آية   تدلّ على أنه واحد[١]

تجليات العظمة في أركان الأشياء

والأركان في اللغة جمع ركن، والركن: هو الجانب الذي يستند إليه، وأركان كل شيء: جوانبه التي يستند إليها ويقوم بها.

وركن الشيء: جانبه الأقوى، وركن الإنسان قوته وشدته، وركن الرجل قومه وعدده ومادته كما في قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[٢] أي العزة والمنعة.

وعظمة الله سبحانه تتجلى في جوانب الأشياء وقواها؛ إذ هو القيّوم على الأشياء، ولا قيومية لها من ذاتها إلّا بما أعطاها الله سبحانه وتعالى قوامها وقيومتها.

ويطلق الركن أيضاً على السكينة، كما يقال للرجل الساكن الوقور أنه ركين، كما يطلق على الشريف العزيز في قومه أنه ركن فيهم[٣].

---

(١) تفسير جوامع الجامع: ج٣، ص٤٣٠؛ الخصائص الفاطمية: ج٢، ص٤٦٥.
(٢) سورة هود: آية ٨٠.
(٣) لسان العرب: ج١٣، ص١٨٥-١٨٦، (ركن).

وهذه المعاني من مصاديق الركن، وليست مرادفة على الاشتراك المعنوي، ولا مغايرة بتعدد الوضع على الاشتراك اللفظي؛ لما نميل إليه تبعاً لجمع من الأعلام من بطلان الترادف بمعناه المطابقي التام، والأصل عدم الاشتراك اللفظي مع إمكان الحمل على المعنى الواحد، ووجود الجامع الذي ينطبق على مصاديق عدة كالقوة والكبر.

ومن الواضح أن السكون في الرجل يعطيه قوة واحتراماً بين الناس، كما أن الشريف في قومه يعطيهم قوة بمكانته فيهم، كما يعطونه قوة وتأييداً ونصرة واحتراماً.

وحيث إن عظمة الله سبحانه وقوته وكمالاته تتجلى في مخلوقاته؛ لأن كل مخلوق مظهر من مظاهر عظمة الخالق وقدرته وكماله، ولعله عبّر بالأركان إما لأنها أهم شيء فيها؛ لأن بها قوامها وقوتها، أو لأنها أقوى ما فيها؛ لذا تصبح تجليات العظمة فيها أشد وأقوى.

ولا يخفى ما في هذه الفقرة من دلالة على توحيده سبحانه ذاتاً وصفة وفعلاً؛ لظهور آيات عظمته وجلاله وجماله في كل مخلوقاته؛ إذ ملأت آيات عظمته أركان الأشياء، وظهرت في كل جوانبها بلا خلل أو نقص أو اضطراب، وكل ركن من أركانها يشير إلى جهة من جهات العظمة، كما أن كل مظهر من مظاهر المخلوق آية من آيات العظمة والقدرة المطلقة، ولا يخفى أن (الشيء) مساوق للوجود فيشمل كل موجود بعوالم الوجود الثلاثة: العيني الخارجي والذهني والاعتباري النفسي.

وبذلك قد يقال بشمول الفقرة حتى للمعدومات وصور الممتنعات المتقررة في عالم الذهن، فلا يقال المعدومات والممتنعات ليست بشيء؛ لأن المتقرر في الذهن له حظ من الوجود فهو شيء من الأشياء. نعم الممتنع والمعدوم هو المصداق، وما موجود في الذهن فهو المفهوم أو الصورة -على الخلاف-، وما تقرر في الذهن فهو موجود.

ومن الواضح أن كل موجود وإن اختلفت رتبته الوجودية شدة وضعفاً أو تباين مع غيره مصداقاً فإن له أركاناً وقواماً فظهر وقام وتقرر في وعائه الخاص، ولولا ذلك لكان في كتم العدم، إذ إنه سبحانه أعطى كل شيء ما يستحقه من جهة القابلية والاستعداد للتقرر، كاستعداد الأشياء للحضور في عالم الذهن، ومن جهة الفاعل الذي أعطاه القابلية على تصوّر الأشياء وإحضارها في وعائه، وهو أيضاً من أدق آيات العظمة والقدرة الإلهية.

وبذلك تظهر عمومية القدرة الإلهية وعظمة شأنه وغلبته الحاكمة على الأشياء والظاهرة في وجوداتها، والسؤال بها لجوء إليه من أوسع جهة وأقواها وأمنعها.

﴿وَبِسُلْطانِكَ الَّذي عَلا كُلَّ شَيءٍ﴾

سلطان الله سبحانه

السلطان: مصدر مثل غفران وسبحان وطغيان، وقد ذكروا له معاني:

الأول: الغلبة والقوة. يقال تسلّط على الشيء أي تمكن وتحكم[1] كما في قوله تعالى: **﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾**[2] أي قوة، وكذا قوله تعالى: **﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾**[3] أي تسلطاً وقوة لأخذ الحق قصاصاً أو بالدية أو بالعفو عن القاتل، وقوله تعالى: **﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾**[4] أي بقوة من الله سبحانه أو سلطة منه، وحينئذ يكون معنى الفقرة: أن كل شيء مقهور مغلوب بسلطان قدرته، ولا يتخلف عنها مطلقاً.

الثاني: الحجة والبرهان، وفيه ورد قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾**[5] أي حجة بينة، وقوله تعالى: **﴿فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾**[6] أي حيثما كنتم شاهدتم حجةً لله تعالى وسلطاناً يدل على أنه واحد، وكل سلطان في القرآن حجة، وقوله تعالى: **﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾**[7] معناه ذهبت عني حجتي، والسلطان: الحجة، ولذلك قيل للأمراء

---

(١) ورد في مجمع البحرين: ج٤، ص٢٥٥، (سلط).

(٢) سورة القصص: الآية ٣٥.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٣.

(٤) سورة الرحمن: الآية ٣٣.

(٥) سورة غافر: الآية ٢٣.

(٦) سورة الرحمن: الآية ٣٣.

(٧) سورة الحاقة: الآية ٢٩.

سلاطين؛ لأنهم الذين تقام بهم الحجة والحقوق[١]... والسُلْطان: الوالي، والسُّلطان: قُدرة الملِك، .... وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[٢] أي حجته وبرهانه يعلو على كل حجة وبرهان، بحيث تقطع الأعذار.

فـ(علا) بمعنى تفوق وغلب كما في قوله تعالى: ﴿وكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾[٣] وورد عن الكاظم عليه السلام: ﴿أن الله أعلى وأجل...﴾[٤] ويحتمل أن (علا) بمعنى (لاح)[٥] أي ظهر وحينئذ يكون المعنى أن برهانه يلوح على كل شيء، ويدلّ على قدرته و كماله وألوهيته.

وتتجلى غلبة حجته سبحانه وعلو برهانه في آيات الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ففي قصة موسى عليه السلام وتغلبه على فرعون بآياته -مثلاً- ذكر القرآن المعنيين في آية واحدة، حيث قال سبحانه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[٦].

---

(١) لسان العرب: ج٧، ص٣٢١، (سلط).

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤٩.

(٣) سورة التوبة: آية ٤٠.

(٤) جاء في الكافي: ج١، ص١٠٢، ح٦؛ عن محمد بن حكيم قال: كتب أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام إلى أبي: ﴿أنّ الله أعلى وأجلّ وأعظم من أن يبلغ كنه صفته، فصفوه بما وصف به نفسه، وكفّوا عمّا سوى ذلك﴾.

(٥) المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٤٤، (لاح)؛ وانظر معجم مقاييس اللغة: ص٩٠٨، (لوح).

(٦) سورة القصص: الآية ٣٥.

قال في المجمع: سلطاناً أي حجة وقوة وبرهاناً؛ لذا لا يصل فرعون وقومه إلى الإضرار بكما بسبب ما نعطيكما من الآيات، وما يجري على أيديكما من المعجزات، فيخافكما فرعون وقومه لأجلها.

أنتما ومن اتبعكما الغالبون على فرعون وقومه، القاهرون لهم، وهذه الغلبة غير السلطان، فإن السلطان الحجة، والغلبة بالقهر حين هلك فرعون وقومه وملك موسى وقومه ديارهم[(١)].

وعن مولانا الباقرعَلَيْهِ السَّلَامُ في حديث طويل يشرح كيفية غلبة موسى وهارونعَلَيْهِمَا السَّلَامُ بآيات الله وسلطانه قال:

﴿أنه لما رجع موسىعَلَيْهِ السَّلَامُ إلى امرأته قالت: من أين جئت؟ قال: من عند رب تلك النار. قال: فغدا إلى فرعون، فو الله لكأني أنظر إليه طويل الباع، ذو شعر أدم، عليه جبة من صوف، عصاه في كفه، مربوط حقوه[(٢)] بشريط[(٣)]، نعله من جلد حمار، شراكها من ليف، فقيل لفرعون: إن على الباب فتىً يزعم أنه رسول ربّ العالمين، فقال فرعون لصاحب الأسد: خلّ سلاسلها -وكان إذا غضب على رجل خلّاها فقطعته- فخلّاها، فقرع موسى الباب الأول وكانت تسعة أبواب، فلما قرع الباب الأول انفتحت له الأبواب التسعة، فلما دخل جعلن تبصبصن[(٤)] تحت رجليه كأنهن جراء[(٥)]،

---

(١) مجمع البيان: ج٧، ص٤٣٦-٤٣٧، سورة القصص، (بتصرف).

(٢) الحقو: الخصر.

(٣) الشريط: خوص مفتول به السرير ونحوه.

(٤) بصبص الكلب: تحرك ذنبه.

جراء(١)، فقال فرعون لجلسائه: رأيتم مثل هذا قط؟! فلما أقبل إليه فقال: (ألم نربك فينا وليداً) إلى قوله: (وأنا من الضالين)... فقال: خلّوا عنه. قال: فأخرج يده فإذا هي بيضاء قد حال شعاعها بينه وبين وجهه، فألقى العصا فإذا هي حية، فالتقمت الإيوان بلحييها، فدعاه: أن يا موسى أقلني إلى غد، ثم كان من أمره ما كان﴾(٢).

ولكن السؤال الذي قد يخطر في الأذهان عن الفرق بين الحجة والبرهان(٣)؟

وربما يقال إنهما كالفقير والمسكين إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا، وحينئذ تكون الحجة ما يحتج به في مقام الجدل أو الخصومة ونحوهما، بينما البرهان ما يكون مقدمة للحجة، والحق أن الحجة أعم من البرهان من جهتين:

الأولى: أن الحجة تطلق على كل دليل مثبت عقلياً كان أو نقلياً.

والثانية: أن الحجة ما يحتج به سواء علمياً كان أو ظنياً، وأما البرهان

---

(١) الجراء: جمع جرو أولاد السباع.

(٢) راجع تتمة القصة في مجمع البيان: ج٧، ص٤٣٧، سورة القصص الآيات ٣٦-٤١.

(٣) جاء في كتاب لسان العرب: ج٢، ص٢٢٨، (حجج).

والحجة: البرهان، وقيل: الحجة: ما دُوفع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفرُ عند الخصومة... إنما سميت حجة لأنها تُحَجُّ أي تقتصد؛ لأن القصد لها وإليها، وكذلك محجَّة الطريق هي المقصد والمسلك... والحُجَّة: الدليل والبرهان....

جاء في كتاب التعريفات (للجرجاني): ص٦٧؛ الحجة: ما دُلَّ به على صحة الدعوى، وقيل: الحجة والدليل واحد.

فلا يطلق إلّا على الدليل العقلي القاطع، أو الوجداني الذي لا يقبل الشك، كما أنه الحجة القاطعة المفيدة للعلم[١]، ومن هنا عرفوه في المصطلح بالقياس المؤلّف من اليقينيات سواء كانت ابتداءً وهي الضروريات أو بواسطة وهي النظريات، والحد الأوسط فيه لابد أن يكون علة لنسبة الأكبر إلى الأصغر.

ولا شك أن برهانه سبحانه سواء في الضروريات أو النظريات من أصدق البراهين وأعلاها؛ إذ إن حده الأوسط يقيني وجداني فطري لاشك ولا شبهة فيه، ولذا قال سبحانه: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢] بلسان الاستفهام الاستنكاري أو التقريري.

الثالث: السلطة والحكم، وهو فيه سبحانه بمعنى الحاكم المطلق في كل شيء، وهو الوالي الحقيقي لمملكة الوجود[٣]، وهو المهيمن المستولي عليها بلا منازع ولا نظير، ومن أسمائه سبحانه الولي والوالي، ومن معاني الأول: المتولي لأمور الخلائق القائم بها، والولاية بالكسر السلطان.

ومن معاني الثاني: مالك الأشياء جميعها المتصرّف فيها كما في لسان العرب[٤].

وقال ابن الأثير: وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٩٧، (٣٨٩).

(٢) سورة إبراهيم: الآية ١٠.

(٣) راجع مجمع البحرين: ج٥، ص٢٩٠؛ وفي شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٥١. يا سلطان: أي والي مملكة الوجود.

(٤) لسان العرب: ج١٥، ص٤٠٦، (ولي).

يجتمع ذلك فيها لم يطلق عليه اسم الوالي[(١)].

إذ لا مؤثر في الوجود إلّا هو، ولا معبود يستحق العبادة إلّا هو تبارك وتعالى، وسيرد ذلك في بيان قوله عليه السلام: «ولا يمكن الفرار من حكومتك» فحكومته تبارك وتعالى المباشرة أو بالوسائط والأسباب كالملائكة والأنبياء والأولياء عليهم السلام، أو القوانين الطبيعية التي أودعها في الأشياء هي النافذة التي لا تضعف ولا تزول ولا تغفل، فكل ما يحدث في العالم فهو بعلمه وقدرته وإذنه. أما غيرها من الحكومات والسلطات فهي اعتبارية ضعيفة زائلة.

الرابع: الملك؛ إذ هو المالك، وملكه دائم لا يزول بعكس سائر الملوك، وسلطانه دائم باق، وكل شيء دونه مملوك له؛ إذ كل مملوك له سلطة خاصة ولو على نفسه، وهو المتيقن، وربما على غيره إما بعلمه، أو بماله، أو بقوته، أو بالاعتبار والتنصيب، أو بموقعه الاجتماعي ونحو ذلك، ولكن سلطان الله فوق كل هذه السلطات والقدرات، بل ملكه هو الحقيقي وسائر الأملاك فهي اعتبارية لا قوة لها ولا دوام، ولذا ينفي الخلائق ثم يخاطبهم في القيامة: **﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**[(٢)] وكذلك: **﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾**[(٣)] إذ ملكه لا يزول وملكهم يزول، وملكه حقيقي لأنه هو العلة، وملكهم اعتباري، وملكهم يزداد وينقص وملكه ثابت قائم، وملكهم محدود على

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ج٥، ص٢٢٧.

(٢) سورة غافر: الآية ١٦.

(٣) سورة التغابن: الآية ١.

بعض الأشياء وملكه واسع شامل لكل شيء تكويناً وتشريعاً وتدبيراً[١] .

ففي رواية يعقوب الأحمر قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام نعزيه بإسماعيل فترحم عليه ثم قال: «إن الله عزّ وجل نعى إلى نبيه صلى الله عليه وآله نفسه فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ » ثم أنشأ يحدث فقال: «إنه يموت أهل الأرض حتى لا يبقى أحد، ثم يموت أهل السماء حتى لا يبقى أحد إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرائيل وميكائيل عليهما السلام، قال: فيجيء ملك الموت حتى يقوم بين يدي الله عزّ وجل فيقال: من بقي؟ - وهو أعلم- فيقول: يا ربّ لم يبق إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل، فيقال له: قل لجبرئيل وميكائيل فليموتا، فيقول الملائكة عند ذلك: يا رب رسوليك وأمينيك؟ فيقول: إني قد قضيت على كل نفس فيها الروح الموت، ثم يجيء ملك الموت حتى يقف بين يدي الله عزّ وجل فيقال له: من بقي؟ -وهو أعلم- فيقول: يا ربّ لم يبق إلّا ملك الموت وحملة العرش، فيقال: قل لحملة العرش فليموتوا، قال: ثم يجيء كئيباً حزيناً لا يرفع طرفه فيقال له: من بقي؟ -وهو أعلم- فيقول: يا رب لم يبق إلّا ملك الموت، فيقال له: مت يا ملك الموت فيموت، ثم يأخذ الأرض والسماوات بيمينه ويقول: أين الذين كانوا يدعون معي شريكاً؟ أين الذين كانوا يجعلون معي إلهاً آخر؟»[٢] وفي رواية أخرى يقول

---

(١) انظر تفسير الميزان: ج٣، ص١٢٨-١٢٩، في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ سورة آل عمران: الآية ٢٦.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٥١٦، ح٣٠.

سبحانه: ﴿أين الجبارون؟ وأين المتكبرون؟ وأين الذين ادعوا معي إلهاً آخر؟ أين المنكرون ونخوتهم؟﴾(١) .

المعنى الجامع للسلطان

أقول: ولعل مرجع المعاني المتعددة المزبورة إلى معنى واحد وهو (الجامع) الذي ترجع إليه جميع المعاني، وهو القوة والغلبة التي بها يتسلط على الأشياء، والملك والقدرة والحجة ونحوها كلها من مصاديق السلطان، ولكن تختلف بالوجوه والاعتبارات، كما هو مبنى جماعة منهم الآخوند وسماحة السيد الشيرازي تبعاً للرضي نجم الأئمة في نفي الترادف(٢)، وهو

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٥١٤-٥١٥، ح٢٧.

(٢) جاء في كتاب (الأصول) للسيد محمد الحسيني الشيرازي -مباحث الألفاظ-: ج١، ص١٦٧، تحت عنوان (فصل في الأوامر):
الظاهر أن أكثر ما يرى مشتركاً في لغة العرب له جامع حتى فيما ذكروا أنه من ألفاظ الأضداد؛ لتبادر الجامع غالباً، مثل: النهار، وما أنهر الدم، والنهر، ونَهَره.
وجاء في نفس الكتاب: ج٤، ص٤٧٦ تحت عنوان (مفهوم الشرط): الظاهر أن (الشرط) له معنى واحد هو: (التبضيع) ومنه (المشرط) حيث يكون قاطعاً لاستفراغ الدم مثلاً، و(شرطة الخميس) لأنهم يشرطون الأجسام، ومنه الشرط في العقد؛ لأنه يبضع إطلاقه، وهكذا حال كل (مادة) في ألفاظ وإن قيل باختلاف المعاني، بل ربما التضاد بينها.
مثلاً (القرء) بمعنى الجمع، ومنه القراءة والقرية لجمع الكلمات في اللفظ والبيوت، فيطلق على الحيض لجمع الرحم نفسها لقذف الدم، وعلى الطهر لجمعها نفسها عن إخراجه.

الذي صرح به الطبرسي في مجمع البيان أيضاً[(١)].

وذلك لأن الغلبة إذا تحققت في مقام الكلام والمحاورات العلمية والعقلية تسمى حجة؛ لأنها الغاية والمقصد في الاحتجاج. قال الشيخ المظفر: إن أسمى هدف للمنطقي وأقصى مقصد له (مباحث الحجة) أي مباحث المعلوم التصديقي الذي يستخدم للتوصل إلى معرفة المجهول التصديقي، و(الحجة) عندهم عبارة عما يتألف من قضايا يتجه بها إلى مطلوب يستحصل بها، وإنما سميت (حجة) لأنه يحتج بها على الخصم لإثبات المطلوب، وتسمى (دليلاً) لأنها تدل على المطلوب، وتهيئتها وتأليفها لأجل الدلالة يسمى (استدلالاً)[(٢)].

ويمكن أن يكون من أسباب التسمية بـ(الحجة) أن المعلومات التصديقية توجب غلبة قول المتكلم فتكون أعم من الاحتجاج، وهذا المعنى تضمن معنى الغلبة، كما أن الولاية[(٣)] تتضمن الغلبة والتسليط؛ إذ لولا سلطته سبحانه النافذة على الأشياء لم تتحقق ولايته، ولم ينفذ عليها أمره وإرادته، وهكذا السلطان والملك.

فيتحصل: أن لفظ السلطان بجميع معانيه صادق النسبة إلى الله سبحانه؛ لأنه الغالب بقدرته وجلاله وكماله وأدلته وحججه وبراهينه، وآياته لائحة على كل شيء: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٣٤١-٣٤٢؛ تفسير الآية ٣٣ من سورة الرحمن.

(٢) المنطق: ج٢، ص٢٣٢.

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٥٥٣، (ولي).

يَعْلَمُونَ﴾[1] لكن الناس غافلون جاهلون بهذه الحقيقة في العمل وإن أذعنوا لها بالقول، والدليل عليه أنهم يستندون إلى قواهم وقدراتهم ووجاهاتهم في تنفيذ ما يريدون ظناً منهم أن الوقائع تحصل من دون الله سبحانه، وبهذا السلطان الواسع النافذ في الأشياء يسأله.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢١.

﴿وَبِوَجْهِكَ الْباقي بَعْدَ فَناءِ كُلِّ شَيءٍ﴾

معنى وجه الله الباقي

لا شك أنه سبحانه ليس بجسم وليس له خواص الجسم كما ليس بمادي وليس له خواص المادة، فما يرد في النقل من الآيات والروايات ونحوها التي ظاهرها اتصافه سبحانه بالجسمية ينبغي أن تؤوّل بما ينسجم مع حكم العقل بكونه سبحانه مجرداً ولا يحيطه مكان أو زمان أو شيء من خصوصيات الأجسام المادية كما هو المجمع عليه عند علمائنا خلافاً لأهل الظاهر من العامة الذين نسبوا إليه سبحانه الجسمية، وصفات الجسمية بل وقالوا بوقوع رؤيته في الآخرة كما هو معروف مشهور عنهم في كتب الكلام والتفسير[1].

وقد روى الصدوق﵀ بسنده عن أبي عبد الله﵇ أنه قال للزنديق حين سأله عن الله ما هو؟ قال: «هو شيء بخلاف الأشياء. أرجع بقولي شيء إلى إثبات معنى، وأنه شيء بحقيقة الشيئية غير أنه لا جسم ولا صورة»[2].

ومن معاني: «أنه شيء بخلاف الأشياء» أنه موجود إلّا أنه ليس كسائر الموجودات، فإن وجوده واجب وذاتي له بينما سائر الموجودات فهي ممكنات من حيث الذوات، ولا يجب لها الوجود إلّا بلحاظ نسبتها إليه تبارك وتعالى، ولا منافاة بين الإمكان الذاتي والوجوب بالغير، ومن الثابت أن حقيقة الوجود لا تقتضي حداً ولا نهاية، والحدود والنقائص إنما هي من

---

(١) راجع تفسير الرازي: ج٣٠، ص٢٢٦، معنى قوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ سورة القيامة: الآيتان ٢٢-٢٣.

(٢) معاني الأخبار: ص٨.

لوازم الماهيات الممكنة؛ لأن الممكن زوج تركيبي من ماهية ووجود، فجهة ما هويته هي جهة النواقص والحدود والاعدام، بينما الوجود فإنه شيئية محضة وإنّية بحتة فلا يقتضي حداً، ولا ينتهي إلى طرف؛ لأن كل ما نفرضه من الحدود والأطراف فهي أيضاً وجودات لذلك، فهو سبحانه شيء بحقيقة الشيئية المساوقة للوجود، إلّا أن كمال وجوده وتماميته واطلاقه من كل الجهات يأبى الجسمية والصورة وغيرها؛ لأنها نواقص، والنواقص منافيات للوجود المطلق، بخلاف وجود الممكنات، فحيث إن ذاته النقص والفقر والحاجة فيتصف بالجسمية والصور، ويتقيّد بالحدود الزمانية والمكانية، ويؤيّد هذا ما رواه الصدوق قدس سره بسنده المرفوع إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه سئل: أيجوز أن يقال: إنّ الله شيء؟ قال: «نعم، يخرجه من الحدّين: حد التعطيل وحد التشبيه»[(١)].

ولعل المراد من حد التعطيل هو عدم إثبات الوجود والصفات الكمالية والفعلية والإضافية له، والمراد من حد التشبيه هو الحكم بالاشتراك مع الممكنات في حقيقة الصفات وعوارض الممكنات، كما نسب هذا التفسير إلى العلامة المجلسي قدس سره[(٢)].

وعليه فلابد من حمل الوجه في الفقرة الدعائية على محامل أخرى لا تتنافى مع صفاته المجردة الوجوبية سبحانه، وهي عديدة:

---

(١) معاني الأخبار: ص٨-٩، ح٢.

(٢) معاني الأخبار: ص٩، الهامش.

الأول: الذات وهو متداول في الاستعمال العرفي كما صرح به جماعة من أهل اللغة[١]، وبه فسر بعض المفسرين التعبير بوجهه سبحانه الوارد في بعض الآيات[٢]، وسر التسمية يعود إلى أن الوجه هو ما يستقبل به، أو الجهة التي تتوجه الذات بها إليها، ويشهد له قوله تعالى: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**﴾[٣]، وفي العرف يطلق الوجه على صاحب الوجاهة والسيادة في قومه، فَإطلاق الوجه على الذات من باب إطلاق لفظ الجزء وإرادة الكل إما من باب دلالة الملازمة بينهما أو من باب شرفية الوجه على باقي أعضاء البدن، فوجه الله أي ذات الله سبحانه[٤]؛ لأنها هي الموصوفة بالبقاء؛ إذ هو واجب الوجود، والواجب ما يمتنع عليه القدم والفناء، فهو سبحانه لكونه واجب الوجود قديم ذاتاً باق دوماً لا يعرضه فناء أبداً.

نعم في الاصطلاح يختلف القدم عن البقاء بحسب الاعتبار واللحاظ؛ لأن صفاته عين ذاته، وما يرى من التغاير ففي المفهوم لا الواقع؛ إذ متى ما لاحظنا دوام ذاته بلحاظ الاستقبال نسميه الباقي[٥]، وهكذا هو في اللغة.

ففي لسان العرب (الباقي): هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ينتهي إليه، ويعبر عنه بأنه أبديّ الوجود، والبقاء ضد الفناء.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص١٠٤٤، (وجه)؛ مفردات الراغب: ص٨٥٦، (وجه).

(٢) انظر التفسير الكبير: ج٢٩، ص١٠٥، تفسير الآية ٢٧ من سورة الرحمن.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٤) جاء في مجمع البحرين: ج٦، ص٣٦٦، (وجه)، وفي الدعاء ﴿وأعوذ بوجهك الكريم﴾ أي بذاتك.

(٥) جاء في لسان العرب: ج١٤، ص٧٩، (بقي).

وإذا لاحظنا دوام ذاته بالآزال نسميه قديماً، وفي مجمع البحرين: والقديم من أسمائه تعالى، وهو الموجود الذي لم يزل، وإن شئت فسّرته بالموجود الذي ليس لوجوده ابتداء[١].

فالقدم والبقاء صفتان ذاتيتان له سبحانه، أولاهما بلحاظ الأولية والأخرى بلحاظ الأبدية كما في الدعاء الشريف: ﴿يا أول قبل كل شيء، ويا باقياً بعد كل شيء﴾[٢] فهما كالعلم والقدرة عين الذات، ومعنى العينية أن ذاته مصداق العلم والقدرة والقدم والبقاء بلا اعتبار زائد، كاتصاف زيد بالإنسانية؛ إذ الإنسانية عين ذات زيد وليست بشيء زائد عليه، بينما علم زيد بحاجة إلى صفة زائدة على الذات هي المبدأ الذي يتصف به حتى يصح الحمل بقولنا: زيد عالم[٣].

قال الشيخ الصدوق ﵀: القديم معناه أنه المتقدم للأشياء كلّها، وكلّ متقدَّم لشيء يسمى قديماً إذا بولغ في الوصف، ولكنه سبحانه قديم لنفسه بلا أوّل ولا نهاية، وسائر الأشياء لها أول ونهاية، ولم يكن لها هذا الاسم في بدئها، فهي قديمة من وجه ومحدثة من وجه[٤]، وبهذا يظهر الفرق بين الصفات الحقيقية الذاتية والأخرى الاعتبارية الوصفية.

---

(١) مجمع البحرين: ج٦، ص١٣٥، (قدم)؛ وفي شرح الأسماء الحسنى: ج ١، ص٨٥، فالعالم حادث حقيقي لا بقاءَ وثبات فيه، إنّما الثابت الباقي القديم (وجه الله) بعد فناء كل شيء.

(٢) مصباح المتهجد: ص٦٠٤.

(٣) حق اليقين: ج١، ص٧٦.

(٤) التوحيد: ص٢٠٩.

ففي حق اليقين: الصفات الكمالية كالعلم والقدرة والاختيار والحياة والإرادة والكراهة والسمع والبصر والسرمدية ونحوها هي عين ذاته تعالى وجوداً وعيناً وفعلاً وتأثيراً، بمعنى أن ذاته تعالى بذاته تترتب عليه آثار جميع الكمالات، ويكون هو من حيث ذاته مبدأ لانتزاعها منه، ومصداقاً لحملها عليه، وإن كانت هي غيره من حيث المفهوم والمعنى، وذلك لجواز أن توجد الأشياء المختلفة والحقائق المتباينة بوجود واحد، ونظير ذلك المخلوق، فإنه مع كونه واحداً يصدق عليه أنه مقدور ومعلوم ومحيي ومراد ومخلوق ومرزوق باعتبارات متعددة وحيثيات مختلفة.

وبالجملة فليست صفاتهُ تعالى مغايرة للذات كما في صفاتنا، فإن علمنا وقدرتنا وحياتنا مثلاً غير ذواتنا، بل زائدة عليها ضرورة، فإنا كنا معدومين ثم وجدنا، وكنّا جاهلين فعلمنا، وكنّا عاجزين فقدرنا، والله تعالى ليس كمثله شيء، ولا يشبه خلقه، فصفاته عين ذاته غير زائدة عليها كما ادعاه المشركون سبحانه وتعالى عما يصفون.

فالبقاء من صفات الكمال للواجب[١]، والواجب واجب من جميع الجهات، وإلّا كان ناقصاً محتاجاً خارجاً عن مقام الوجوب، ومن الجهات جهة البقاء؛ إذ الفناء صفة نقص وعجز وهو منزّه عنه، وبهذا المحمل يصبح معنى الفقرة: (أنه دائم باق بذاته، وكل شيء سواه زائل مضمحل)[٢].

---

(١) في حق اليقين: ج١، ص٥٧، (بتصرف).

(٢) التوحيد: ص٢٠٩.

صور الفناء

أما الفناء فهو في مقابل البقاء، ولعل المراد به في قوله عليه السلام ﴿وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء﴾ معان عديدة وإن كان بعضها أقرب:

منها: الفناء الذاتي الإمكاني، وفي قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(١) إذ كل نقص وعجز فناء، والممكن عين النقص فهو عين الفناء بل ذاته الفناء؛ لأن وجوده ليس من نفسه، بل من غيره، وما كان وجوده من غيره كان في نفسه محتاجاً له، فلولاه كان فانياً، والآية المباركة تتضمن دلالتين:

الأولى: دلالة على فناء المخلوقات في ذاتها.

والثانية: فناءها في مصيرها، فلا وجود ولا بقاء إلّا له سبحانه(٢)، وبهذا يتضح وجه السؤال به؛ لأن الفاني في ذاته ودوامه محتاج إلى الغني الباقي في ذاته، فلا يليق السؤال إلّا منه.

ومنها: الفناء بمعنى الموت والهلاك(٣)، وهو المعنى الذي قد يتبادر أولاً إلى الذهن من قوله سبحانه: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾(٤) أي كل من على الأرض من حيوان فهو هالك يفنون ويخرجون من الوجود إلى العدم(٥).

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) انظر تفسير الميزان: ج١٦، ص٩٠-٩١، في تفسير الآية المتقدمة.

(٣) مجمع البحرين: ج١، ص٣٣٢، (فنا)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٠٤، (فنى).

(٤) سورة الرحمن: الآيتان ٢٦-٢٧.

(٥) مجمع البيان: ج٩، ص٣٣٧.

وفي تصحيح الاعتقاد أنه قال: الموت هو يضادّ الحياة، يبطل معه النمو، ويستحيل معه الإحساس، وهو يحلّ محل الحياة فينفيها، وهو من فعل الله تعالى وليس لأحد فيه صنع، ولا يقدر عليه أحد إلّا الله تعالى[(١)].

وفي هذا المعنى ورد في بعض تعقيبات صلاة الصبح أو المشترك بين الصبح والمساء: ﴿اللهم إني أصبحت وأمسيت أشهدك وكفى بك شهيداً، وأشهد ملائكتك وحملة عرشك وسكان سبع سماواتك وأرضيك وأنبيائك ورسلك والصالحين من عبادك وجميع خلقك، فاشهد لي وكفى بك شهيداً، إني أشهد أنك أنت الله لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك صلواتك عليه وآله، وأنّ كُلَّ معبود مما دون عرشك إلى قرار أرضك السابعة السفلى باطل مضمحل ما خلا وجهك الكريم، فإنّه أعزّ وأكرم وأجل وأعظم من أن يصف الواصفون كنه جلاله، أو تهتدي القلوب إلى كنه عظمته، يا من فاق مدح المادحين فخر مدحه، وعدا وصف الواصفين مآثر حمده، وجلّ عن مقالةِ الناطقين تعظيم شأنه، صلِّ على محمد وآل محمد، وافعل بنا ما أنت أهلُه يا أهل التقوى وأهل المغفرة﴾[(٢)].

ومنها: الفناء في القيامة، بمعنى فناء أنانية الإنسان وسائر المخلوقات؛ إذ تظهر في ذلك اليوم الأشياء على حقائقها، ويعرف كل أحد عجزه ونقصه، وإنه لا شيء محض في قبال عظمة خالقه وجلاله وكبريائه، وإن السلطة الحقيقية لله سبحانه.

---

(١) تصحيح الاعتقاد: ص٩٤.

(٢) البلد الأمين: ص٥٥؛ وانظر المصباح: ص٧٢-٧٣؛ وانظر البحار: ج٨٣، ص١٦٥، ح٤٤.

ومن الواضح أن فناء النواقص والشرور التي تلازم حياة البشر وصفاته هو تجلٍ للخير والكمالات الإلهية؛ إذ بعد انعدام الشرور لا يبقى إلّا الخير، والخير المطلق هو الله سبحانه، كما أنه الكمال المطلق الذي إليه يتجه وبه يتوجه كل خير وكمال. هذا ولا يبعد إمكان إرادة الجميع، وما ذكرنا من المعاني مصاديق لمعنى جامع فتأمل.

معان أخرى لوجه الله سبحانه

الثاني: حقيقة كل شيء المعرّاة من التشخصات الخارجية، وهذه الحقيقة المجردة بسيطة وجوهر لطيف لا يتصف بالفناء والعدم كما في قوله عليه السلام: «إنّ خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء»[1] أي من جهة الحقائق والذوات؛ إذ إن التشخصات الخارجية زائلة فانية. هذا على أحد معاني هذا الحديث. نعم هذه الجواهر المجردة – أي الأرواح – قد ينسب لها الفناء بلحاظ تشخصاتها لا بلحاظ ذواتها الحقيقية؛ لأن المجرد مما لا تدركه الحواس، فلا يظهر إلّا بواسطة آثاره، وهي تتجلى في الجسم. هذا بناء على أن الأرواح مجردة فإن الذي يذهب إليه جمع من المحققين من كون الروح مادية أيضاً، إلّا أنها في مرتبة شفافة منها؛ إذ لا مجرد في الوجود إلّا الله سبحانه.

وباختصار: أن الفناء والعدم عارض على الجواهر والهويات الذاتية للأشياء بلحاظ تشخصاتها لا بلحاظ ذواتها، وربما قوله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ**

---

(١) الإرشاد: ج١، ص٢٣٨.

﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] يشير إليه إذا أرجعنا الضمير في ﴿وَجْهَهُ﴾ إلى الشيء؛ ليكون المعنى حينئذ كل شيء هالك إلّا وجه ذلك الشيء فإنه باق دائم؛ إذ الذات وذاتيتها لا تختلف ولا تتخلف كما يقول أهل المعقول[2].

إن قلت: في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[3] (كل) أداة عموم تدل على نفي وفناء كل شيء سواء مشخصاته أو حقيقته. نعم يستثنى منه وجه ربّك تعالى؛ لأنه واجب الوجود، وذات واجب الوجود يستحيل عليها العدم.

قلتُ: قد يقال: الآية ليست في مقام إثبات البقاء لوجه الله فقط ونفي البقاء عن غيره حتى بذاته، وإنما إضافة الوجه إلى الرب إضافة تشريفية لا تخصيصية، كإضافة البيت والعين واليد إليه سبحانه، فنقول: بيت الله وعين الله ويد الله وأمثالها، وكذلك في قوله عليه السلام: ﴿وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء﴾ إضافة الوجه إلى الكاف إضافة تشريفية، وإلّا فالمراد حقيقة كل شيء لا خصوصية وجهه تعالى فقط.

وبهذا يتضح أن مراد هذه الطائفة من العرفاء أن حقيقة كل شيء لا تتصف بالفناء. نعم الفناء يعرض مشخصاتها وحالاتها وتبدلاتها. أما الحقيقة فباقية، ومن هنا قالوا: إن في احتراق عود الثقاب لا تتبدّل الذات

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) انظر تفسير الميزان: ج١٦، ص٩٤ في تفسير الآية المتقدمة.

(٣) سورة الرحمن: الآيتان ٢٦-٢٧.

إنما المشخصات الخارجية تتبدل، فالصورة الثقابية تذهب وتتلبس بصورة الرماد. أما الحقيقة البسيطة لها فباقية وربما يؤيد هذا موضوع المادة المعدومة في صورتها المادية، والمتبدلة إلى طاقة، وشبهة الآكل والمأكول التي كانت من الشبهات العويصة، وأجاب عنها بعض أهل المعقول بأن الذوات باقية وإن تبدّلت الصور أو تداخلت في كيان حيوان آخر؛ لذلك يرجعه الله سبحانه يوم القيامة ولأهل المعقول توجيهات لذلك يمكن مراجعتها[١].

وورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنه سُئل عن الميت يبلى جسده؟ قال: ﴿نعم حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلّا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى تبقى في القبر مستديرة حتى يخلق منها كما خلق أول مرة﴾[٢] وقد وضحه العلامة المجلسيقدس سره بقوله:

توضيح: مستديرة أي بهيئة الاستدارة، أو متبدلة متغيرة في أحوال مختلفة ككونها رميماً وتراباً وغير ذلك، فهي محفوظة في كل الأحوال، وهذا يؤيد ما ذكره المتكلمون من أنّ تشخص الإنسان إنما هو بالأجزاء الأصلية، ولا مدخل لسائر الأجزاء والعوارض فيه[٣].

---

(١) انظر كشف المراد: ص٤٣١؛ الحكمة المتعالية: ج٥، ص٢٠٠.

(٢) الفقيه: ج١، ص١٩١، ح٥٨٠؛ البحار: ج٧، ص٤٣، ح٢١.

(٣) البحار: ج٧، ص٤٣، ح٢١؛ و ج٧، ص٤٧، بعنوان تذنيب (حول المعاد الجسماني) إلى ص٥٣، في باب إثبات الحشر.

ومن هنا فربما يقال إن قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ خصص بالذكر، وإن كان البقاء لا يختص بحقيقته سبحانه؛ لأنها أكمل مصاديق البقاء الدائم[١]، أو أن بقاءه ذاتي نفسي بينما بقاء غيره عرضي غيري والله العالم.

فإن قلت: إن هذا يستلزم تعدد القدماء.

قالوا: لا يلزم منه ذلك؛ لأن تعدد القديم الذاتي محال، وليس الزماني، وبقاء الذوات ودوامها مهما كانت فهي قديمة زمناً لا ذاتاً **هذا أولاً**.

وثانياً: أن النسبة بين ذات الواجب وذات الممكن لا تقاس؛ لأن قدم الواجب ذاتي، أما قدم الممكن بالعلة، وإنما نسميه قديماً لفظياً أو نسبياً وليس دقياً فلسفياً.

الثالث: المراد بالوجه الجهة المقصودة، والضمير لله، والمعنى: كل شيء هالك بجميع ما يتعلق به إلّا الجهة المنسوبة إليه تعالى، وهو الوجود الذي أفاضه الله تعالى عليه، فباعتبار دوام الفيض والاستفاضة عن الدائم الباقي فإنه لا ينقطع، فيكون دائماً لا يفنى.

---

(١) جاء في تفسير بيان السعادة (للسلطان علي شاه (محمد الجنابذي)): ج٤، ص١٣٣، في تفسير ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ...﴾ سورة الرحمن: الآيتان ٢٦-٢٧؛ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ على الأرض ﴿فان﴾ فإنّ الكل بحسب الحدود والماهيّات فانيات الذوات، وبحسب الوجود الذي هو وجه الله الباقي باقيات: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فإن الوجود لا يقبل الفناء والعدم أصلاً، وإلّا لزم اتصاف الشيء بضدّه، وإنما تقبل الموجودات العدم والفناء بحسب حدودها لا بحسب وجوداتها، ومن ههنا يستنبط أنّ الوجودات كلّها ظهور الحق الأول، وبحسب حقيقتها غير قابلة للفناء، ويستنبط أن كلّها متقوم بوجود الحق الواجب تعالى شأنه.

الرابع: المراد بالوجه جاهه تعالى الذي أثبته في الناس، ومعنى ذلك أن كل وجاهة وقدرة ونفوذ يكتسبها الناس زائلة فانية إلّا الوجاهة التي يعطيها الباري عزّ وجل لهم تكريماً وتشريفاً، أو مجازاة لأعمالهم الصالحة، كالوجاهة التي أعطاها للحسين عليه السلام وما يرتبط به من ذكر وعزاء وزيارة ومكانة في القلوب، فإنها لا تزول ولا تفنى مهما حاول الظلمة والطغاة محوها أو تضعيفها.

محمد وآل محمد عليهم السلام هم وجه الله

الخامس: وجه الله سبحانه الباقي هم محمد وآل محمد عليهم السلام، وذلك لأمرين:

أولهما: ذكرته العديد من الآيات والروايات وهو أن طائفة من الأولياء يبقون ولا يدنو ساحتهم الفناء إلّا الموت في حالته الظاهرية، وإلّا فإنهم أحياء حتى في البرزخ وفي يوم القيامة، كما يدل عليه الاستثناء في قوله سبحانه: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾(١) ولا شك أن الأولياء والأنبياء مما شاء الله أن يحييهم؛ لأنهم حجج على الخلق وشهود على أعمالهم وإليهم إيابهم وعليهم حسابهم كما هو مفاد الأخبار(٢)، فهم باقون لا يموتون بإذن الله، ولا يرد عليه إشكال تعدد القدماء؛ لأن بقاءهم بأمر الله وقدرته لا بقدرتهم.

وفي بحار الأنوار: ﴿**إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾ من الملائكة الذين يثبّت الله قلوبهم وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقيل: هم الشهداء، فإنهم لا يفزعون في ذلك اليوم(٣).

وفي مجمع البيان: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**﴾ وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل، ووجه الحكمة في ذلك أنها علامة جعلها الله ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٢) انظر بيان السعادة: ج٤، ص١٥؛ في تفسير الآية المزبورة.

(٣) البحار: ج٦، ص٣١٩.

في دار التكليف، ثم تجديد الخلق، فشبَّه ذلك بما يتعارفونه من بوق الرحيل والنزول، ولا تتصوره النفوس بأحسن من هذه الطريقة، وقيل إن الصُّور جمع صورة، فكأنه نفخ في صورة الخلق عن قتادة، وروي عنه أنه قرأ في الصُوَر بفتح الواو ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي يموت من شدّة تلك الصيحة التي تخرج من الصور جميع من في السماوات والأرض. يقال صعق فلان إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة العظيمة ﴿إِلَّا مَن شَاء اللهُ﴾ اختلف في المستثنى، فقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عن السري، وهو المروي عن حديث مرفوع، وقيل: هم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله عن سعيد بن جبير وعطا عن ابن عباس وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سأل جبرائيل عن هذه الآية من الذي لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: «هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش»[(1)].

ثانيهما: ما تضافر في الأخبار من أنهم عليهم السلام وجه الله سبحانه. منها ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[(2)]: «نحن والله وجهه الذي لن نهلك إلى يوم القيامة بما أمر الله من طاعتنا وموالاتنا»[(3)].

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٤١٦.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٣) البحار: ج٢٤، ص١٩٣، ح١١؛ وذيل الرواية: «طاعتنا وموالاتنا، فذلك والله الوجه الذي هو قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وليس منا ميّت يموت إلّا وخلفه عاقبة منه إلى يوم القيامة» وح١٢؛ انظر سفينة البحار: ج٨، ص٤١١؛ البحار: ج٢٤، ص٢٠٠، ح٣٠.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: «نحن والله وجه الله عز وجل»[(١)].

وفي مناقب آل أبي طالب وقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[(٢)] قال الصادق عليه السلام: «نحن وجه الله، ونحن الآيات، ونحن البينات، ونحن حدود الله»[(٣)] وفيه أيضاً عنه عليه السلام: «نحن الوجه الذي يؤتى الله منه»[(٤)].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «نحن المثاني التي أعطاها الله نبينا صلى الله عليه وآله، ونحن وجه الله نتقلّب في الأرض بين أظهركم، عرفنا من عرفنا، ومن جهلنا فأمامه اليقين»[(٥)] أي سيظهر له ذلك في البرزخ والآخرة، ويكون على يقين منه.

وفي تفسير القمّي: عن أبي جعفر عليه السلام، في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: «فيفنى كل شيء ويبقى الوجه، الله أعظم من أن يوصف، لا، ولكن معناها كل شيء هالك إلّا دينه، ونحن الوجه الذي يؤتى الله منه، لم نزل في عباده ما دام الله له فيهم روبة، فإذا لم يكن له فيهم روبة رفعنا إليه ففعل بنا ما أحبّ» قلت جعلت فداك: وما الروبة؟ قال: «الحاجة»[(٦)].

---

(١) جاء في البحار: ج٢٤، ص١٩٣، ح١٢.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٧.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج٣، ص٦٣؛ انظر البحار: ج٢٤، ص١٩٢، ح٦، تفسير الآية ٢٧ من سورة الرحمن.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج٣، ص٣٤٣؛ انظر البحار: ج٢٤، ص١٩٢، ح٧، ص١٩٦، ح٢١.

(٥) التوحيد: ص١٥٠، ح٦؛ انظر البحار: ج٢٤، ص١٩٦، ح٢٢.

(٦) تفسير القمي: ج ٢، ص١٤٧؛ انظر البحار: ج٢٤، ص١٩٣، ح١٣، ص٢٠٠، ح٣١.

وفي زيارة الحسينعليه السلام في النصف من شعبان ورد: ﴿أنك وجه الله الذي لم يهلك ولا يهلك أبداً﴾[(١)].

وعن خيثمة قال: سألت أبا عبد اللهعليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: ﴿دينه، وكان رسول اللهصلى الله عليه وآله وأمير المؤمنينعليه السلام دين الله ووجهه وعينه في عباده، ولسانه الذي ينطق به، ويده على خلقه، ونحن وجه الله الذي يؤتى منه﴾[(٢)].

وفي التوحيد: قال أبو عبد اللهعليه السلام: ﴿إن الله عزّ وجل خلقنا فأحسن خلقنا، وصوّرنا فأحسن صورنا، وجعلنا عينه في عباده، ولسانه الناطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرّأفة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابه الذي يدلّ عليه، وخزّانه في سمائه وأرضه. بنا أثمرت الأشجار، وأينعت الثمار، وجرت الأنهر، وبنا أُنزل غيث السماء، ونبت عشب الأرض، بعبادتنا عُبد الله، لولا نحن ما عُبد الله﴾[(٣)].

وفي التوحيد: عن الحارث بن المغيرة النصري قال: سألت أبا عبد

---

(١) البلد الأمين: ص٢٨٤؛ البحار: ج٩٨، باب ٢٦، ص٣٤٢، ح٢.

(٢) التوحيد: ص١٥١، ح٧.

(٣) التوحيد: ص١٥١-١٥٢، ح٨؛ انظر البحار: ج٢٤، ص١٩٧، ح٢٤؛ وجاء في التوحيد: ص١٥٠، ح٤، قال أبو عبد اللهعليه السلام: ﴿نحن وجه الله الذي لا يهلك﴾ انظر البحار: ج٤، ص٦، ح١٢؛ ج٢٤، ص٢٠١، ح٣٣؛ وجاء أيضاً في التوحيد: ص١٥٠، ح٥؛ عن أبي عبد اللهعليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: ﴿نحن﴾ انظر البحار: ج٤، ص٥، ح١٠.

الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: «كل شيء هالك إلّا من أخذ طريق الحق»[(١)].

وفي التوحيد: عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: «من أتى الله بما أقر به من طاعة محمد والأئمة من بعده صلوات الله عليهم فهو الوجه الذي لا يهلك، ثم قرأ: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[(٢)]»[(٣)].

وفي بصائر الدرجات: عن الحارث بن المغيرة قال: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجل عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فقال: «ما يقولون؟» قلت: يقولون: هلك كل شيء إلّا وجهه، فقال: «سبحان الله لقد قالوا عظيماً، إنما عنى كل شيء هالك إلّا وجهه الذي يؤتى منه، ونحن وجهه الذي يؤتى منه»[(٤)].

ولا يخفى أن ما ورد في الروايات الشريفة بعضه يفسر الوجه بمعناه الباطن وهم الأنبياء والحجج عليهم السلام، وبعضه حمله على المجاز في الكلمة حيث فسر الوجه بطريق الحق أو الدين أو الطاعة ونحوها، وبه يظهر

---

(١) المحاسن: ج١، ص٢١٩، ح١١٧؛ التوحيد: ص١٤٩، ح٢؛ انظر البحار: ج٤، ص٦، ح١٣؛ ج٢٤، ص٢٠١، ح٣٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٣) التوحيد: ص١٤٩، ح٣؛ انظر البحار: ج٤، ص٥، ح١١.

(٤) بصائر الدرجات: ص٨٤-٨٥، ح١؛ انظر البحار: ج٢٤، ص٢٠٠، ح٢٩؛ ج٤، ص٥، ح٩.

بطلان ما ذهب إليه بعض فرق المسلمين من التجسيم والتشبيه، وحملوا الآيات الشريفة على ظاهرها، فنسبوا إلى الله سبحانه ما لا يصح نسبته، والله الهادي.

جاء في شرح الأسماء: سأل المعصوم عليه السلام عن الراوي: «ما يقولون في (الوجه) الذي في الآية الشريفة؟» قال: يقولون (الوجه) ذاته. قال عليه السلام: «لا، بل وجهه غير ذاته، ونحن الوجه»[1].

وقوله ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾[2] أي: أوله، وقوله : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾[3] أي: قصدك، ووجهت وجهي أي قصدت بعبادتي، والوجه من الإنسان: ما دون منابت الشعر معتاداً إلى الأُذنين والجنبين والذقن.

وجاء في لسان العرب: وجه كل شيء: مُسْتَقْبَلُهُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[4][5].

ومن يُقبل على الله سبحانه بوجهه لابد وأن يعرف ربه وأدلته وبراهينه من الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ثم يأخذ أحكامه منهم؛ إذ هم (أدلّاء على الله...).

وفي التوحيد: عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ الله واحد أحد، متوحّد بالوحدانية، متفرد بأمره، خلق خلقاً ففوّض إليهم أمر دينه، فنحن هُم، يا

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ص٢٥٣، الهامش (٣).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٢.

(٣) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٤) سورة البقرة: ١١٥.

(٥) لسان العرب: ج١٣، ص٥٥٥، (وجه).

ابن أبي يعفور، نحن حجة الله في عباده، وشهداؤه على خلقه، وأمناؤه على وحيه، وخُزَّانه على علمه، ووجهه الذي يؤتى منه، وعينه في بريّتهِ، ولسانه الناطق، وقلبه الواعي، وبابه الذي يدل عليه، ونحن العاملون بأمره، والداعون إلى سبيله، بنا عُرِف الله، وبنا عُبِدَ الله، نحن الأدلاءُ على الله، ولولانا ما عُبِدَ الله﴾[١].

وفي دعاء الندبة: ﴿أين وجه الله الذي إليه يتوجه الأولياء؟﴾[٢] فليس معنى أنهم عليهم السلام وجه الله يعني وجهاً حقيقياً جسمياً كما قد يفهمه البعض، بل وجهاً معنوياً دلالياً، وبقاؤهم عليهم السلام بما أنهم حجج على الخلق وإليهم يعود الناس في الحساب؛ لما اعطاهم الله من الولاية في الحساب والجزاء فهو من الله سبحانه لا من أنفسهم، وبهذا تندفع الشبهات التي قد يتصورها البعض في المقام، ثم ذكر في التبيان معنى آخر لقوله سبحانه: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾[٣] قال: قيل معناه كل شيء هالك إلّا ما أريد به وجهه[٤]، فإن ذلك يبقى ثوابه، أي إليه أوجّه العمل، وعلى هذا يكون وجه الله ما وجّه إليه من الأعمال[٥]، إلّا أنه أيضاً من باب أحد أحد المصاديق كما عرفت.

---

(١) التوحيد: ص١٥٢، ح٩.

(٢) إقبال الأعمال: ج ١، ص٥٠٩؛ المزار (بن المشهدي): ص٥٧٩.

(٣) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٤) التبيان: ج٨، ص١٨٤.

(٥) مجمع البيان: ج٧، ص٤٦٦.

السادس: ذكر بعض أهل المعرفة[١] معنى آخر لبقاء الوجه[٢] فقال: إن هذه الفقرة إشارة إلى مقام الفناء الحاصل لأهل السلوك والمكاشفة لدى مشاهدة الحق تعالى؛ لأن السالك إذا شاهد مقام الحق تحصل له مراتب في الفناء هي:

الأولى: الفناء العلمي: بأن يعلم أن كل ما سوى الله معدوم فانٍ، والباقي هو الله وحده لا شريك له.

الثانية: الفناء العِياني بالكسر، وهو أرقى من الأول، ومعناه أنه يرى بعين الباطن وجود الحق، ولا يرى شيئاً سواه؛ إذ كل ما سواه ظهوره وتجليّاته ليس إلّا.

كما ورد عنهم عليهم السلام: ﴿لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، بل رأته القلوب بحقائق الإيمان﴾[٣].

وفي رواية عبد الله بن سنان عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر عليه السلام فدخل عليه رجل من الخوارج فقال له: يا أبا جعفر، أيَّ شيء تعبُدُ؟ قال: ﴿الله﴾ قال: رأيتَه؟ قال: ﴿لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس،

---

(١) جاء في شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٩٦ والعارف: مَنْ أشهده الله تعالى ذاته وصفاته وأفعاله، والعالِمُ إذا جعل مقابلاً له مَنْ أطلعه الله على ذلك لا عن شهودٍ، فهو في مقام (علم اليقين) والعارف في مقام (عين اليقين) أو حق اليقين.

(٢) بغض النظر عن صحة ذلك أو سقمه إلّا أننا نشير إليه لمزيد الاطلاع لأهل الفن والصناعة، والله الهادي.

(٣) روضة الواعظين: ص٣٣.

موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلّا هو﴾ قال: فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[(١)].

وفي رواية أخرى: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿جاء حِبر إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، هل رأيت ربّك حين عبدتَه؟ فقال: ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره. قال: وكيف رأيته؟ قال: ويلك لا تُدرِكه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان﴾[(٢)].

وعنه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: ﴿مَرَّ النبي صلى الله عليه وآله على رجل وهو رافع بصره إلى السماء يدعو، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: غضَّ بصرك فإنّك لن تراه، وقال: مرَّ النبي صلى الله عليه وآله على رجل رافع يديه إلى السماء وهو يدعو، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أقصر من يديك فإنّك لن تناله﴾[(٣)] تعليماً لهما في أن رؤية الحق تعالى تكون بالقلوب لا بالأبصار.

الثالثة: الفناء الذاتي، بأن لا يجد العبد لنفسه وجوداً ولا طاقة ولا أثراً، وكل ما لديه من الله سبحانه، ويغنيه في سبيله، وهو الحال الذي يكون عليه الخلّص من عباد الله سبحانه في عباداتهم وأعمالهم، وهذه المرتبة أرقى من السابقتين؛ لأنها جامعة لهما، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿**غاية اليقين الإخلاص**﴾[(٤)].

---

(١) التوحيد: ص١٠٨، ح٥.

(٢) التوحيد: ص١٠٩، ح٦.

(٣) التوحيد: ص١٠٧، ح١.

(٤) غرر الحكم: ص٥٠٣، فصل ٥٦، ح٢.

وفي مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام: «العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله، لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقاً إليه، والعارف أمين ودائع الله، وكنز أسراره ...فلا مؤنس له سوى الله، ولا نطق و إشارة ولا نفس إلّا بالله ومن الله ومع الله»(١).

السابع: وهناك من فسّرَ الوجه بالوجود المطلق، وقال وجه الله هو الوجود المطلق القديم وفيضه غير المنقطع العظيم، المحيط بجميع الأشياء، المشار إليه بقوله تعالى: **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾**(٢) الباقي، وفيضه الدائم، وهو كالمعنى الحرفي الربطي لا حكم له على حياله، فبقاؤه ببقائه لا باستقلاله(٣).

ولكن فضلاً عن أن الدليل لا يساعد عليه قام الدليل على بطلانه.

ويتحصل مما تقدم: أن أغلب المعاني التي ذكرت للوجه مبنية على تفسيرات مستندة إلى المباني الفلسفية والاحتمالات العقلية ولم يقم عليها دليل واف، وما قام عليه الدليل منها اثنان هما: الذات الإلهية وآل محمد عليهم السلام، والأول مستفاد من اللغة والاستعمال العرفي ويدل عليه الظهور، والثاني دل عليه متضافر النقل، ولا تنافي بينهما، وحينئذ يمكن أن يجمع بينهما بجعل السؤال ناظراً إلى السلسة الطولية ابتداءً من الوجه الذي يقبل به الباري عزّ وجل به على عباده، وهم أولياؤه الأطهار، أو كونهم

---

(١) مصباح الشريعة: ص٦٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٣) راجع أنيس الليل: ص٨٢، الهامش؛ وتفسير بيان السعادة: ج١، ص١٣٩.

مظاهر وجهه ومجلى صفاته وأفعاله سبحانه. نعم يختلف المعنيان بالرتبة، فإن بقاء الأول ودوامه بالذات، وأما الثاني فبالعرض، وهذه النتيجة تتوافق مع المضامين المتواترة في الآيات والروايات الدالة على أن لآل محمدعليهم السلام الولاية الكلية على كل ما سواه سبحانه، وأنهم خلفاؤه في التدبير والتقدير والقضاء والحساب والجزاء، فكما يصح سؤال الأصيل يصح سؤال الوسيط المفوض في العطاء والمنع، لاسيما إذا كان الوسيط شفيعاً، وقد أمر الباري عزّ وجل باتخاذه وسيلة إليه.

﴿وَبِأَسْمَائِكَ الَّتِي مَلأَتْ أَرْكَانَ

كُلِّ شَيْءٍ﴾

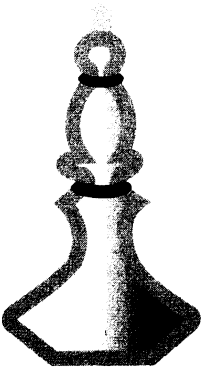

أسماء الله التي ملأت أركان الأشياء

تقدم أن الاسم مأخوذ من أصلين:

الأول: من السمو أي العلو

والثاني: من الوسم بمعنى العلامة[1]. وذكرنا وجه الجمع بينهما.

وينبغي أن نتعرض هنا لأمرين آخرين:

الأول: الفرق بين الاسم والصفة، ومنه يتضح السر في قوله: ﴿**وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء**﴾ ولم يقل (وبصفاتك) والبحث ليس في الفارق اللغوي لوضوحه، وإنما في الفارق الاصطلاحي، وقد ذكروا فروقاً كثيرة لهما، والاقوى -وربما إليه تعود سائر الفروق- أن الفارق اعتباري ناشئ من اللحاظ، فإن الوصف إذا لوحظ في نفسه من حيث كماله وآثاره وخصائصه كالعلم والقدرة أي أن يكون لحاظ الصفة موضوعياً كانت صفة، ولو لوحظت الذات أولاً بما أنها موصوفة به بأن يكون لحاظ الذات موضوعياً والوصف معرّف لها كان اسماً، أي سمة وعلامة لها، ولعل هذا ما يستفاد من كلمات بعض أعلام الحكمة[2]، ويمكن أن يقال أن الوصف إذا لوحظ في مقام الربوبية وتجلي كمالاتها كان صفة، وإذا لوحظ فيه جهة العبودية وتعلقه بها كان اسماً؛ لوضوح أن الأسماء مما يحتاجها

---

(١) لسان العرب: ج١٤، ص٤٠١، (سما)؛ وانظر مجمع البحرين: ج ١، ص٢٢٣، (سما).

(٢) انظر الشواهد الربوبية: ص٤٤.

العباد للتعبير عن المعاني، ومما يشهد له أن الباري عزّ وجل في مقام دعائه أمر بتوسيط الأسماء الحسنى لا الصفات كما في الآية، والفرق بين كون الملحوظ الصفة أولاً أو الذات ظاهر.

الثاني: أن الاسم في مصطلح المتكلمين والأدباء وغيرهم يختلف عنه في مصطلح أهل المعرفة، فإنه عند الأولين من شؤون العبارة والوجود اللفظي، وأما عند أهل المعرفة وهو المستفاد من النصوص الشريفة أنه وجود عيني، ويراد به الذات المتعيّنة بملاحظة صفات الجمال والجلال.

ومن هنا قال بعضهم: الاسم باصطلاحهم ليس هو اللفظ، بل هو الذات المسمّى باعتبار صفة وجودية، كالعليم والقدير والقديم، أو عدمية كالقدّوس والسلام[1] ومن هذا تظهر ثلاث نتائج:

الأولى: أن الاسم الأعظم لا ينحصر باللفظ، بل هو حقيقة وجودية عينية، وربما ينحصر بها كما قد يستفاد من الأخبار التي دلت على أن الأسماء الحسنى هم عليهم السلام، فربما يكون الاسم الأعظم أعظمهم عليه السلام وأعلاهم شرفاً ورتبة.

الثانية: أن ما ورد في بعض الأدعية والأخبار من النص على وجود اسم الاسم، يراد بالاسم الذات الملحوظة معها صفة من صفاتها، وهو من الأعيان والحقائق الواقعية وليس من الألفاظ، وأما اسم الاسم فيراد به اللفظ الذي يعبر به عنها، وعلى هذا فالحياة والعلم صفتان؛ لعدم ملاحظة الذات معهما، بينما الحي والعالم إسمان.

---

(١) الاصطلاحات (لعبد الرزاق القاساني): ص٢٨.

الثالثة: أن الصفة والاسم حقائق تكوينية، وأما اللفظ فيشير إليهما، ومن هنا كانت اسماؤه تعالى وسائط لفيوضاته، ويتوسل إليه بها كما تضافر في الأدعية والأخبار؛ لأن الاسم جامع للذات والصفات، بخلاف الصفة فضلاً عن اللفظ.

فما ورد في دعاء السمات مثلاً: «اللهم إنّي اسألك باسمك العظيم الأعظم الأعز الأجل الأكرم»(١) لا يراد به اللفظ؛ بداهة أنه من شؤون العبد ونتاج بيانه، ومثله لا يتصف بالأوصاف المذكورة، بل الوجود التكويني الواقعي للذات والصفة والعبارة الدالة عليهما؛. بداهة أن هذا الواقع التكويني هو سبب الإيجاد والإعدام والتبديل والتغيير والتصرف في الأشياء، وإذا كان للفظ من أثر فباعتبار ملازمته للحقيقة التكوينية أو تأثره بها، ومن هنا صح التعبد والذكر بذكر أسمائه بالألفاظ، وهي أدنى مراتب الذكر، والأرقى منها الارتقاء من الذكر اللساني إلى الذكر القلبي، والأرقى منها الارتقاء إلى الذكر العياني بالانقطاع إليه والتشبه به في الكمال والجلال كما سيأتي.

---

(١) مصباح المتهجد: ص٤١٦.

مصاديق الأسماء الإلهية

إنّ الأسماء الإلهية كثيرة ولها مصاديق عديدة، فمن مصاديقها الأسماء الملفوظة الدالة على معانيها الخاصة[1].

ففي التوحيد: عن الصادق عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً مئة إلّا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهي:

الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول، الآخِرُ، السميع، البصير، القدير، القاهر، العلي، الأعلى، الباقي، البديع، البارئ، الأكرم، الظاهر، الباطن، الحيّ، الحكيم، العليم، الحليم، الحفيظ، الحق، الحسيب، الحميد، الحفيّ، الربّ، الرحمن، الرحيم، الذارئ، الرزاق، الرقيب، الرؤوف، الرائي، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبر، السيد، السبوح، الشهيد، الصادق، الصانع، الطاهر، العدل، العفو، الغفور، الغني، الغياث، الفاطر، الفرد، الفتاح، الفالق، القديم، الملك، القدوس، القوي، القريب، القيّوم، القابض، الباسط، قاضي الحاجات، المجيد، المولى، المنّان، المحيط، المبين، المقيت، المصور، الكريم، الكبير، الكافي، كاشف الضر، الوتر، النور، الوهاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادي، الوفي، الوكيل، الوارث، البر، الباعث، التواب، الجليل، الجواد، الخبير، الخالق، خير الناصرين، الديّان، الشكور، العظيم، اللطيف، الشافي»[2].

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص٢٢٣، (سما).

(٢) التوحيد: ص١٩٤، ح٨، وفي ص٢١٩ موجود أيضاً المميت.

ومن مصاديقها الأسماء والصفات الإلهية[1] التي يعبّر عنها البعض بعالم

---

(١) جاء في التوحيد: ص١٩٠، ح٣.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق اسماً بالحروف وهو عزّ وجل بالحروف غير منعوت، وباللفظ غير مُنطَق، وبالشخص غير مُجَسَّدٍ، وبالتشبيه غير موصوف، وباللون غير مصبوغ، منفيٌّ عنه الأقطار، مُبَعَّدٌ عنه الحدود، محجوب عنه حس كل متوهم، مستتر غير مستور، فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معاً، ليس منها واحد قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثة أسماء؛ لفاقةِ الخلق إليها، وحجب واحداً منها، وهو الاسم المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التي أظهرت، فالظاهر هو الله تبارك وتعالى، وسخَّر سبحانه لكلِّ اسم من هذه أربعة أركان، فذلك اثنا عشر ركناً، ثم خلق لكلِّ ركن منها ثلاثين اسماً فعلاً منسوباً إليها فهو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، الخالق، البارئ، المصوّر، الحيّ، القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، العليم، الخبير، السميع، البصير، الحكيم، العزيز، الجبار، المتكبّر، العليّ، العظيم، المقتدر، القادر، السلام، المؤمن، المهيمن، الذارئ، المنشئ، المبدع، الرفيع، الجليل، الكريم، الرزاق، المحيّ، المميت، الباعث، الوارث، فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنى حتى تتمّ ثلاثمائةٍ وستين اسماً، فهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة، وهذه الأسماء الثلاثة أركان وحُجُب للاسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة، وذلك قوله عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ سورة الإسراء: الآية ١١٠».

وفي قوله تعالى: ﴿وَلله الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ سورة الأعراف: الآية ١٨٠؛ قيل: هي: الله، الرحمن، الرَحيم، الملك، القدوس، الخالق، البارئ، المصور، إلى تمام ثلاثمائة وستين اسماً.

وقال الشيخ أبو علي رحمه الله: ﴿وَلله الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ التي هي أحسن الأسماء؛ لأنها تتضمن معاني حسنة، بعضها يرجع إلَى صفات ذاته كالعالم والقادر والحيّ والإله، وبعضها يرجع إلى صفات فعله كالخالق والرازق والبارئ والمصور، وبعضها يفيد التمجيد والتقديس كالقدوس والغني والواحد. مجمع البحرين: ج١، ص٢٢٣، (سما).

الجبروت -أي عالم الأسماء والصفات وواقعياتها[١] ومن مصاديقها أيضاً أسماء إلهية أخرى هي في الحقيقة عبارة عن حقائق الأسماء التكوينية الشاملة (للكلمات التامّات)[٢] بمراتبها من الأنبياء والأولياء والكتب السماوية، والخلق والإيجاد الذي يوجدها بقوله سبحانه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[٣].

كما ورد: عن الجوادعَلَيْهِ السَّلَامُ في أعمال ليلة المبعث في رجب: «أن في رجب لليلة خيرٌ مما طلعت عليه الشمس، وهي ليلة سبع وعشرين من رجب، فيها نُبّيء النبيصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في صبيحتها، وأن للعامل فيها من شيعتنا أجر عمل ستين سنة، وهي اثنتا عشرة ركعة ...» ثم قال: «الحمد لله الذي لم يتخّذ ولداً ولم يكن له وليّ من الذل وكبرّه تكبيرا، اللهم إني أسألك بمعاقد عزّك

(١) جاء في شرح دعاء السحر: ص٦٣، ما يلي: وربما يطلق الجبروت على عالم الأسماء والصفات كما يطلق اللاهوت على عالم الذات بكل شأن، أي شأن لك عظيم وحده، أي منفرداً.

وفي شرح الأسماء الحسنى: ص٧٧، ومعنى الحادث الاسمي أن جميع ما سوى الله أسماء ورسوم حادثة، وإنها حديثة جديدة؛ إذ كان الله ولم يكن معه شيء ولا اسم ولا رسم له، فأوّل اسم ورسم حصل كان أسماؤه الحسنى وصفاته العليا المستلزمة للماهيات الإمكانية في مرتبة الفيض الأقدس، ثم أسماء رحمته في مقام الفيض المقدس المستتبعة لأسماء المرحومين برحمته، والأمر كائن وسيكون كما كان: ﴿أَلَا إلى اللهَ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ سورة الشورى: الآية٥٣ ﴿إِنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ سورة العلق: الآية ٨ ﴿وَأَنَّ إلى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ سورة النجم: الآية ٤٢.

(٢) شرح الأسماء الحسنى: ص١٣٣-١٣٤؛ وانظر ص١١١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١٧.

على أركان عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم الأعظم الأعظم، وذكرك الأعلى الأعلى الأعلى، وبكلماتك التامات أن تصلّي على محمد وآله، وأن تفعل بي ما أنت أهله﴾[١].

وفي المعوذات: ﴿اللهم ذا السلطان العظيم والمن القديم والوجه الكريم ذا الكلمات التامّات والدعوات المستجابات عافِ - فلان - من أنفس الجن وأعين الإنس﴾[٢].

وفي دعاء السمات: ﴿وبشأن الكلمة التامة وبكلماتك التي تفضّلت بها على أهل السموات والأرض وأهل الدنيا والآخرة﴾[٣].

كما يشمل أيضاً عالم العقل ومزاياه والنفوس وأسرارها، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿لمّا خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليَّ منك، ولا أكملتك إلّا فيمن أحبّ، أما إنّي إيّاك آمر، وإياك أنهى، وإيّاك أعاقب وإيّاك أُثيب﴾[٤] فالعقل بهذا المعنى يكون اسماً من أسمائه سبحانه؛ لأنه دال عليه وقائد لأهله إليه سبحانه، وهو ما تضافر في الأخبار، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل

---

(١) مصباح المتهجد: ص٨١٣-٨١٤، ح١٧، ح١٨؛ البلد الأمين: ص١٧١؛ انظر مفاتيح الجنان: ص٢٥٠-٢٥١.

(٢) المجتنى من دعاء المجتبى: ص٩٢-٩٣؛ المصباح: ص٢٢٠.

(٣) المصباح: ص٤٢٥؛ انظر مصباح المتهجد: ص٤١٨، ح١٤٨، من دعاء السمات.

(٤) الكافي: ج١، ص١٠، ح١.

أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل -أي خروجهِ من بلده طلباً للخير والثواب كالحج والجهاد أو تحصيل العلم ونحو ذلك- ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته، وما يضمر النبيﷺ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[1] ﴾[2].

و عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفرعليهما السلام: ﴿يا هشام، إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان، ودلّهم على ربوبيته بالأدلة فقال: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ* إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

يا هشام، ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلّا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(٢) الكافي: ج١، ص١٢، ح١١.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ١٦٣-١٦٤.

يا هشام، كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما عُبِدَ الله بشيء أفضل من العقل[(١)].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «دعامة الإنسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم، وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً حافظاً ذاكراً فطناً فهماً، فعلم بذلك كيف ولم وحيث، وعرف من نصحه ومن غشه، فإذا عرف ذلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانية لله والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك مستدركاً لما فات وواردًا على ما هو آت يعرف ما هو فيه، ولأي شيء هو ههنا، ومن أين يأتيه، وإلى ما هو صائر، وذلك كلّه من تأييد العقل»[(٢)].

كما أن الوسائط والأسباب في الخلق والتكوين من الأسماء الإلهية التي ملأت أركان الأشياء ووجوداتها، وهذه الأسماء المعبّر عنها بمجاري الفيض الإلهي على الخلق فبواسطتها تصل أرزاق الخلائق، وتجري عليهم المقادير.

---

(١) الكافي: ج ١، ص١٣-١٩، ح١٢؛ تحف العقول: ص٣٨٣.

(٢) الكافي: ج١، ص٢٥، ح٢٣.

مظاهر الأسماء الإلهية

وهي في السلسلة الطولية للعلل والأسباب على ثلاث مراتب كما هو المستفاد من مجموع الروايات والآيات:

الأولى: هم المعصومون عليهم السلام[(١)] كما ورد عنهم عليهم السلام: ﴿نحن الأسماء الحسنى﴾[(٢)] و﴿الكلمات التامة﴾ كما ورد في جواب الإمام الهادي عليه السلام

---

(١) في شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٢٣٢؛ كما أن الجواهر العقلية التي في السلسلة النزولية كلماته التامة وإحقاق الحق وإظهار جامعيته بها، كذلك الجواهر العقلية التي في السلسلة الصعودية من عقول الأنبياء والأولياء وغيرهم من الكاملين كلماتُه الجامعة التامة الوجودية، وكلمات العرفاء والحكماء مشحونة بإطلاق الكلمة على العقل والنفس، بل كل موجود، ومنها كلمات (ارسطاطاليس) في (إثُولُوجيا) وقال تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المسِيحُ﴾ سورة آل عمران: الآية ٤٥.

وفي أحاديث أئمتنا عليهم السلام أُطلق كثيراً عليهم (الكلمة) فبهم إحقاق الحق وإعراب عما في الضمير المكنون المطلق، كما قال خاتمة كتاب الله التكويني وفاتحته الذي أوتي (جوامع الكلم) صلى الله عليه وآله: ﴿من رآني فقد رأى الحق﴾ وقال كتاب الله الناطق وكلامه الفائق وسرّه السابق الذي كلامه فوق كلام المخلوق، ﴿معرفتي بالنورانية معرفة الله﴾.

وفي الأئمة جميعاً الذين هم أبواب الله جاء: ﴿من عرفهم فقد عرف الله﴾ و: ﴿لا يعرف الله أحدٌ إلّا بسبيل معرفتنا﴾ وغير ذلك مما لا يحصى، كيف وهم (المقامات) التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفه بها من عرفه، ولهم (مقام البيان) وهم (آدم الحقيقي).

جاء في البحار: ج٢٤، ص١٨٠، ح١٣؛ عن مالك بن عبد الله قال: قلت لمولاي الرضا عليه السلام: قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ سورة الفتح: الآية ٢٦. قال: ﴿هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام﴾ انظر كنز جامع الفوائد: ص٥٩٥، ح٨.

(٢) المحتضر: ص١٣٦، ح١٤٩.

ليحيى بن أكثم. حيث جاءت الرواية [١].

قال موسى بن محمد بن الرضا (هو أبو أحمد موسى المبرقع أخو أبي الحسن الهادي عليه السلام من طرف الأب والأم): لقيت يحيى بن أكثم في دار العامة فسألني عن مسائل فجئت إلى أخي علي بن محمد عليهما السلام فدار بيني وبينه من المواعظ ما حملني وبصرني طاعته، فقلت له: جعلت فداك إن ابن أكثم كتب يسألني عن مسائل لأفتيه فيها، فضحك عليه السلام ثم قال: «فهل أفتيته؟» قلت: لا، لم أعرفها. قال عليه السلام: «وما هي؟» قلت: كتب يسألني عن قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾**[٢] ما هذه الأبحر وأين هي؟

قال عليه السلام: «اكتب إليه» قلت: وما أكتب؟ قال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم وأنت فألهمك الله الرشد أتاني كتابك فامتحنتنا به من تعنتك لتجد إلى الطعن سبيلاً إن قصّرنا فيها، والله يكافيك على نيّتك، وقد شرحنا مسائلك فاصغ إليها سمعك، وذلّل لها فهمك، واشغل بها قلبك، فقد لزمتك الحجة والسلام.

سألت عن قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾** فهو كذلك، لو أن أشجار الدنيا أقلام والبحر يمدّه سبعة أبحر وانفجرت الأرض عيوناً لنفدت قبل أن

---

(١) تحف العقول: ص٤٧٦.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٧.

تنفد كلمات الله، وهي عين الكبريت، وعين النمر، وعين البرهوت، وعين طبرية، وحمة ماسيندان، وحمة إفريقية يدعى لسان، وعين بحرون، ونحن كلمات الله التي لا تنفد ولا تدرك فضائلنا»[1].

وعن أبي جعفر عليه السلام: « ﴿فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ قال: لو افتريت ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ﴾ يعني يبطله ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[2] يعني بالنبي وبالأئمة والقائم من آل محمد»[3].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[4] قال: «الكلمة: الإمام، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[5] يعني الإمامة» ثم قال: « ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾[6] يعني الذين ظلموا هذه الكلمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[7] » ثم قال: « ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾[8] يعني الذين ظلموا آل محمد حقّهم ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾[9] »[10].

---

(١) انظر الاحتجاج: ج٢، ص٢٥٨-٢٥٩؛ البحار: ج١٠، ص٣٨٦، ح١.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٤.

(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٢٧٥.

(٤) سورة الشورى: الآية ٢١.

(٥) سورة الزخرف: الآية ٢٨.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٧) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٨) سورة الشورى: الآية ٢٢.

(٩) سورة الشورى: الآية ٢٢.

(١٠) تفسير القمي: ج٢، ص٢٧٤؛ البحار: ج٢٤، ص١٧٤، ح٢.

وعن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام جعفر بن محمد عليهما السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾(١) ما هذه الكلمات؟ قال: «هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربه فتاب عليه، وهو أنّه قال: يا ربّ أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليّ، فتاب الله عليه. إنه هو التواب الرحيم» قلت له: يا بن رسول الله، فما يعني عزّ وجل بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؟ قال: «يعني فَأَتَمَّهُنَّ إلى القائم عليه السلام اثنا عشر إماماً، تسعة من ولد الحسين عليه السلام».

قال المفضل: فقلت له: يا بن رسول الله، فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾(٢) قال: «يعني بذلك الإمامة جعلها الله في عقب الحسين عليه السلام إلى يوم القيامة».

قال: فقلت له: يا بن رسول الله، فكيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن وهما جميعاً ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسبطاه وسيّدا شباب أهل الجنة؟ فقال عليه السلام: «إن موسى وهارون كانا نبيين مرسلين أخوين، فجعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى، ولم يكن لأحد أن يقول: لم جعل الله ذلك؟ وكذلك الإمامة خلافة الله في أرضه ولم يكن لأحد أن يقول: لم جعلها الله في صلب الحسين دون صلب الحسن؟ لأن الله عزّ وجل هو الحكيم في أفعاله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون»(٣).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٢٨.

(٣) الخصال: ص٣٠٤-٣٠٥، ح٨٤؛ البحار: ج٢٤، ص١٧٧، ح٨.

ووجه تسميتهم عليهم السلام بكلمات الله التامات يعود إلى وجوه:

الأول: الإرادة التكوينية ويراد بها الوجود التام الذي أنشأه الباري عزّ وجل بإرادته في مقابل ما يوجده بالواسطة.

الثاني: القول، ويعود إلى الأول؛ لأن القول فرع الإرادة ومبرز لها؛ إذ الخلق والإيجاد يكفي فيه تعلق الإرادة التكوينية، والتعبير عنها بالقول لتقريب الأمر غير المحسوس بالمحسوس لكي تدركه العقول، وليس للحاجة إليه لامتناع ذلك، ويشهد له ما ورد في الدعاء المأثور: «ومضت على إرادتك الأشياء، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة»[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2] من هذا القبيل، وقد ابتدأ الباري خلق أوليائه في الوجود الأوّل بذلك نظير محمد وآل محمد عليهم السلام في عالم الملكوت وآدم عليه السلام في عالم الملك، وبهذا الاعتبار يقال لهم كلمات الله سبحانه، ووصفوا بالتمام؛ لأنه أوجدهم تامين كاملين في وجودهم البدني والروحي، ولم يتدرجوا في مراقي الكمالات.

الثالث: الحقائق الإلهية التامة، لمحمد وآل محمد عليهم السلام، فإنه يطلق عليها كلمات باعتبار التعبير عنها بالأسماء القدسية والكلمات النورية كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[3] وقوله سبحانه:

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٦٧؛ إقبال الأعمال: ج ١، ص٢٥٢؛ المصباح: ص٢٣٣.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٧.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[١] وقد تضافر بطرق الفريقين أن الكلمات هي أسماء الخمسة الأطهار عليهم السلام، فسأل الباري عزّ وجل بها أن يتوب عليه فتاب عليه[٢].

وفي الدر المنثور عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سأله باسمه صلى الله عليه وآله[٣]، وفي الاحتجاج سأله بحق محمد وآل محمد عليهم السلام[٤]، وفي معاني الأخبار عن الصادق عليه السلام سأله بحق الأكرمين محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام[٥]، وفي الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ما هذه الكلمات؟ قال: «هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه وأتمهن إلى القائم اثنا عشر إماما تسعة من ولد الحسين عليه السلام »[٦].

الرابع: الذوات الكاملة الدالة على جمال الله سبحانه وجلاله، فتكون مشاركة للكلمة في الأثر، فإن الكلمة تدل على المعنى وتشير إليه كذلك هم عليهم السلام فإنهم الأدلاء على الله، وهم مجلى أسمائه وصفاته وأفعاله، وبهذا الاعتبار اطلقت الكلمة على كل ما يدل عليه سبحانه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) الكافي: ج٨، ص٣٠٤، ح٤٧٢؛ معاني الأخبار: ص١٢٥؛ الخصال: ج ١، ص ٣٠٤، ح٨٤.

(٣) انظر مواهب الرحمان: ج١، ص٢٧٠.

(٤) الاحتجاج: ص٤٧.

(٥) معاني الأخبار: ص١١٠.

(٦) الخصال: ص٣٠٤، ح٨٤.

الخامس: المعجزات الإلهية، وبهذا اعتبار سمي عيسى كلمة الله؛ لأنه سبحانه أوجده بالكلمة الإعجازية، وكذلك محمد وآل محمد عليهم السلام، فإن وجودهم المبارك في تكوينه البدني والروحي وكمالاتهم الشاملة إعجاز رباني لا شبيه له ولا عديل، ولذا وصفت بالكلمات التامات ولا تنافي بين المعاني المذكورة؛ لأنها مراتب أو مظاهر لحقيقة واحدة هي الدلالة التامة على جمال الله وجلاله سبحانه.

الثانية: الملائكة بأقسامها وأنواعها الذين يدبرون شؤون الكون كما قال سبحانه: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**﴾(١) ومن الواضح أنهم يعملون بأمرهم عليهم السلام، ومأمورون بطاعتهم وولايتهم، كما يأخذون منهم العبادة وطرق التسبيح والتهليل كما هو متضافر الأدلة.

فمن دعاء للإمام السجاد عليه السلام في الصلاة على حملة العرش وكل ملك مقرّب.

﴿اللهم وحملة عرشك الذين لا يفتُرون من تسبيحك، ولا يسأمون من تقديسك، ولا يستحسرون من عبادتك، ولا يؤثرون التقصير على الجِدِّ في أمرِكَ، ولا يغفلون عن الوله إليك، وإسرافيلُ صاحب الصور الشاخص الذي ينتظرُ منك الإذن وحُلُول الأمر فينبّهُ بالنفخةِ صرعى رهائن القبور، وميكائيل ذُو الجاهِ عندك والمكان الرفيع من طاعتك، وجبريلُ الأمين على وحيك، المطاع في أهل سماواتك، المكين لديك، المقرّب عِندك، والروح الذي هو على ملائكة الحجب، والروح الذي هو من أمرك.

---

(١) سورة النازعات: الآية ٥.

اللهم فصلّ عليهم وعلى الملائكة الذين من دونهم من سكان سماواتك، وأهل الأمانة على رسالاتك، والذين لا تدخلهم سأمة من دُؤوب، ولا إعياءٌ من لغوب، ولا فتُور، ولا تشغَلُهُم عن تسبيحك الشهوات، ولا يقطعُهُم عن تعظيمك سهو الغفلات، الخشَّع الأبصار، فلا يرومون النظر إليكَ، النواكس الأذقان الذين قد طالت رغبتهم فيما لديك، المستهترون[1] بذكر آلائك، والمتواضعون دون عظمتك وجلال كبريائك، والذين يقولون إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل معصيتك: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، فصل عليهم وعلى الروحانيين من ملائكتك، وأهل الزلفة عندك، وحُمّال الغيب إلى رُسُلِكَ، والمؤتَمَنين على وحيك، وقبائل الملائكة الذين اختصصتهم لنفسك، وأغنيتهم عن الطعام والشراب بتقديسك، وأسكنتهم بطون أطباق سماواتك، والذين على أرجائها إذا نزل الأمر بتمام وعدك.

وخزان المطر وزواجر السحاب، والذي بصوتِ زجره يُسمَع زجل الرعود، وإذا سبَّحَت به حفيفة السحاب التمعت صواعقُ البروق، ومشيّعي الثلج والبَرد، والهابطين مع قطر المطر إذا نزل، والقُوّام على خزائن الرياح، والموكّلين بالجبال فلا تزول، والذين عَرّفتهم مثاقيل المياه وكيل ما تحويه لواعج الأمطار وعوالجِها.

ورسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه ما ينزل من البلاء ومحبوب الرخاء، والسفرة الكرام البررة، والحفظة الكرام الكاتبين، وملك

---

(١) أي المولعون بذكر الله ونعمه، مجمع البحرين: ج٣، ص٣٥٤، (هتر).

الموت وأعوانه، ومنكر ونكير ورومان فتّان القبُور، والطائفين بالبيت المعمور، ومالك والخزنة ورضوان وسدنة الجنان والذين: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[١] والذين يقولون: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[٢] والزبانية إذا قيل لهم: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ**﴾[٣] ابتدروه سِراعاً، ولم يُنظروه، ومن اَوْهَمْنا ذِكْرَهُ ولم نعلم مكانه منك، وبأيِ أمرٍ وكَّلته، وسكان الهواء والأرض والماء ومن مِنْهُم على الخلق.

فصل عليهم يوم تأتي كُلُّ نفس معها سائق وشهيد، وصلِّ عليهم صلاة تزيدُهُم كرامةً على كرامتهم، وطهارة على طهارتهم، اللهم وإذا صَلّيت على ملائكتك ورسلك وبلَّغتهم صلاتنا عليهم فصلِ عليهم بما فتحت لنا من حسن القول فيهم. إنَّك جواد كريم﴾[٤].

والحديث عن هذا مفصل لا يسعنا هنا، وقد ذكر العلامة المجلسي قدس سره بعض التفاصيل عن ذلك في كتابه الشريف البحار بما يوضح الكثير من شؤونهم ووظائفهم.

ويتحصل: أن ملائكة الله سبحانه المنتشرة في كل الوجود والمدبرة لشؤونه ملأت أركان كل شيء، أي أقامته وقومته، فلا يوجد محل أو مقام إلّا وملأته الملائكة.

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٤.

(٣) سورة الحاقة: الآيتان ٣٠-٣١.

(٤) الصحيفة السجادية: ص٤٠، دعاء (١٢).

الثالثة: القوانين الطبيعية المنتظمة في نظام العلل والمعاليل والأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج فإنها واسطة التأثير في الوجود، كالمطر في إنبات الزرع، والجاذبية في حفظ توازن الكواكب وتماسك السماوات والأرض، والتزاوج في الإنجاب وهكذا.

فإن هذه الأسباب في بعض مراتبها تقع في سلسلة العلل الإلهية في الخلق والإيجاد كمظاهر للقدرة، وأوعية للمشيئة على اختلاف أنحاء السببية والعلية، بناء على الإعداد كما يقول الحكماء، أو التوافي في الخلق والإيجاد على مذهب قوم، أو التوليد على مذهب آخرين كما لخصها السبزواري في منظومته بقوله:

وهل بتوليد أو إعداد ثبت ... أو بالتوافي عادة الله جرت[1]

---

(١) شرح المنظومة: ج١، قسم المنطق (اللآلي المنتظمة): ص٢٩٠-٢٩١، وقال في شرح البيت: وهل الانتاج بتوليدٍ بناء على الأفعال التوليدية التي يقول بها المعتزلة، فإن المقدمتين مولِّدتان للنتيجة عندهم، أو إعداد ثبت من المقدمتين لا غير، والإفاضة من عالم القدس كما هو مذهب الحكماء أو لا لزوم عقلي واستلزام وجوبي، بل بالتوافي ومجرد المعية بين المقدمتين والنتيجة بلا عليّة عادة الله جرت بحصول النتيجة عقيبها مع جواز التخلف عقلاً، كما هو مذهب الأشاعرة، والحق مذهب الحكماء...

جاء في الهامش: قوله: (للإشارة إلى مذهب الحق) المذهب الحق أن الفكر مُعِد لحصول العلم عقيبه، وأما إفاضة العلم فإنما هو من عالم الذكر الحكيم، ولا مفيض في الحقيقة إلّا الله ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ سورة الرحمن: الآية ٢٩.

ولا يخفى عليك حسن صنيعته في النظم، حيث جعل المذهب الحق أمراً بين الأمرين التوليد والتوافي، والتوليد قول بالتفريط، والتوافي قول بالإفراط، فإن اليمين والشمال مضلّة، والطريق الوسطى هي الجادة، قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ
←

وربما يمكن القول بإمكان الصور الثلاث، ولعل وقوعها في الجملة بحسب الأسباب والمسببات مشار إليه في النصوص.

قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[١] وورد عنهم عليهم السلام: «أبى الله أن يجري الأشياء إلّا بالأسباب»[٢]. واتباع الأسباب يعني اتخاذ الوسائط تارة بجعلها علة التأثير طولاً، وتارة مظهراً له، والإفاضة منه سبحانه.

← شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ سورة البقرة: الآية ١٤٣، والمروي عن رسوله صلى الله عليه وآله: «خير الأمور أوسطها» فإن تفوّه الحكيم بأن القياس علّة للنتيجة فمراده من العلة العلّة المعدّة فتبصّر.

وأما التوليد والتوافي فذهب إليهما طائفتان من المتكلمة، فالأول ما ذهب إليه المعتزلة، والثاني ما ذهب إليه الأشاعرة.

قوله: (أو بالتوافي ومجرّد المعيّة) القول بصرف التوافي ومجرد المعيّة مبتن على إنكار العليّة والمعلولية بين الممكنات ولو على نحو الإعداد والاستعداد، والأشعَري قائل بأن عادة الله جرت في أن تحصل الحرارة من النار، والبرودة من الجمد، وجاز أن تحصل البرودة من النار والحرارة من الجمد، وكذا الأمر في مقدمتي القياس وانتاجهما، فإن سنة الله وعادته جرت على حصول النتيجة عقيب مجرد تصاحب المقدمتين بلا دخل عليه أو إعداد منهما في ذلك، بل جاز تخلف النتيجة عنهما.

أقول: الحق أن إلغاء الأسباب والوسائط وَهمٌ، وإسناد الأفعال إليها بالاستقلال والغفلة عن الفاعل الحقيقي ضلال، والتوحيد الصمدي الحقيقي الناطق بأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو في السماء إله وفي الأرض إله نجاة، والمأثور عن الإمام الصادق من آل محمد (صلوات الله عليهم): «أن الجمع بلا تفرقة زندقة، والتفرقة بدون الجمع تعطيل، والجمع بينهما توحيد».

(١) سورة الكهف: الآية ٨٥.

(٢) بصائر الدرجات: ص٢٦، ح١، وح٢، ص٥٢٥، ح٢؛ الكافي: ج١، ص١٨٣، ح٧.

ولا يرد أن الأئمة عليهم السلام والملائكة كذلك وسائط الفيض الإلهي ومجاريه؛ لأن مجاري الفيض مترتبة طولاً حسب المقامات المعنوية، وعرضاً حسب المسؤوليات والوظائف والتكاليف.

الأسماء التي تعلّمها آدم عليه السلام

وقد قال البعض في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾[(١)] إن الأسماء ليست أسماء الأشياء اللفظية؛ إذ كيف يعقل أن تكون الأسماء المعلَّمة هي اللفظية مع أنها راجعة إلى علم اللغة[(٢)]، وهل علم اللغة أشرف من علم التوحيد وشؤونه من معارف وعلوم حتى يستحق التعظيم والترقي حتى على الملائكة المقربين؟ وهل يصل اللغوي بعلم اللغة مرتبة أسمى من الملائكة المقربين حتى يسجدوا له كما سجدوا لآدم؟ وإنما المراد من الأسماء الحقيقية الدالة على ألوهية الخالق ولها مظهرية للمسمى، وبهذه يستحق العالم بها التفوق والسمو على مَنْ يجهلها ... والفرق يظهر في الدلالة والمضمون إذ دلالة الأسماء اللفظية بالوضع، أما دلالة الأسماء الحقيقية فبالعقل والقلب، ودلالة العقل والقلب أقوى وأعمق وأشرف؛ لذا يستحق صاحبها التعظيم، وكذلك أن الدلالة اللفظية لا تستلزم معرفة المسمى بحقيقته ومقامه، بينما الدلالة الحقيقية والاسم الحقيقي يتلازم مع

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣١.

(٢) ذكر السيد الطباطبائي في تفسيره الميزان: ج١، ص١١٦.

الدلالة على المسمى[١]، كما أن مضمون العلم بالأسماء الحقيقية يزيد العارف به كمالاً ومعرفة في الروح والعقل والجسد بخلاف مضمون معرفة اللغة.

---

(١) وجاء في تفسير بيان السعادة: ج١، ص٧٥-٧٦، في تفسير الآية ٣١ من سورة البقرة.
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ اعلم أن اسم الشيء ما دلّ عليه مطلقاً أو باعتبار بعض صفاته، سواء كانت الدلالة وضعية أو غير وضعية، وسواء كان الدال لفظاً أو نقشاً أو مفهوماً ذهنياً أو موجوداً عينياً، ولما كانت الدلالة مأخوذة في الإسمية فكلما كانت الدلالة أقوى كانت الإسمية أشد، فالدلالة الوضعية التي هي في الألفاظ والنقوش لما كانت محتاجة إلى أمر آخر هو وضع واضع كانت أضعف، فالإسمية في الدلالة الوضعية أضعف الإسميات، والمفهوم الذهني لضعفه في نفسه واختفائه عن المدارك بحيث أنكره بعض وقالوا: إن العلم الحصولي ليس بحصول صورة من المعلوم في ذهن العالم، بل هو بالإضافة بين العالم والمعلوم، وقال بعض المحققين إنه بشهود العالم صورة المعلوم في عالم المثال عن بعد، أو بشهوده ربّ نوع المعلوم عن بعد أضعف الأسماء أيضاً، فبقى أن يكون الموجود العيني المدرك لكل أحد الدال على غيره بالطبع كاملاً في الإسميّة، ونحن الأسماء الحسنى، ولا اسم أعظم منّي، وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء، وغير ذلك من كلماتهم تدل على اعتبار الإسميّة للأعيان الموجودة، وأهل العرف لما كان نظرهم إلى المحسوسات غير متجاوز عنها لا يعرفون من إطلاق الاسم سوى اللفظ والنقش؛ لغفلتهم عن حصول مفهوم من المسمّى في الذهن فضلاً عن اعتبار الإسمّية له، ولاحتجابهم عن دلالة الأعيان على غيرها، وعن كونها مرايا للحق الأول تعالى.

والاسم من حيث الإسمّية وكونه عنواناً ومرآة للمسمى لا حكم له، بل الحكم بهذا الاعتبار للمسمى، وقد يعتبر الاسم من حيث نفسه من غير اعتبار مرآة لغيره، وله بهذا الاعتبار حكمٌ في نفسه، ويحكم عليه وبه، والأخبار الدالة على أنه عابد الاسم كافرٌ، وعابد الاسم والمعنى مشرك، وعابد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه موحد ناظرة إلى الأسماء العينية أو الموهومات الذهنية، ومشيرة إلى هذين الاعتبارين.

وفي تفسير الصافي في معنى الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء ...﴾ قال الفيض الكاشاني: ليس المراد بتعليم الأسماء تعليم الألفاظ والدلالة على معانيها فحسب، كيف وهو يرجع إلى تعليم اللغة، وليس هو علماً يصلح لأن يتفاخر به على الملائكة، ويتفضّل به عليهم، بل المراد بالأسماء حقائق المخلوقات الكائنة في عالم الجبروت المسمّات عند طائفة بالكلمات، وعند قوم بالأسماء، وعند آخرين بالعقول.

وبالجملة: أسباب وجود الخلائق وأرباب أنواعها التي بها خلقت وبها قامت وبها رزقت فإنها أسماء الله تعالى؛ لأنها تدل على الله بظهورها في المظاهر دلالة الاسم على المسمّى، فإن الدلالة كما تكون بالألفاظ كذلك تكون بالذوات من غير فرق بينهما فيما يؤول إلى المعنى، وأسماء الله لا تشبه أسماء خلقه، وإنّما أُضيفت في الحديث تارة إلى المخلوقات كلها؛ لأنّ كلها مظاهرها التي فيها ظهرت صفاتها متفرّقة، وأخرى إلى الأولياء والأعداء؛ لأنهما مظاهرها التي فيها ظهرت صفاتها مجتمعة، أي ظهرت صفات اللطف كلها في الأولياء، وصفات القهر كلهّا في الأعداء، وإلى هذا أُشير في الحديث القدسي الذي يأتي ذكره في تفسير آية سجود الملائكة لآدمعليه السلام من قوله سبحانه: ﴿يا آدم، هذه أشباح أفضل خلائقي وبريّاتي. هذا محمدصلى الله عليه وآله وأنا الحميد المحمود في فعالي. شققت له اسماً من اسمي، وهذا عليّ وأنا العلي العظيم شققت له اسماً من اسمي﴾ وإلى آخر ما ذكر من هذا القبيل، فإن معنى الاشتقاق في مثل هذا يرجع إلى ظهور الصفات وإنباء المظهر عن الظاهر فيه، أو هما سببان للاشتقاق أو مسببان عنه، وإنّما

يقول بالسببيّة من لم يفهم العينية، والمراد بتعليم آدم الأسماء كلّها خلقه من أجزاء مختلفة وقوىً متباينة حتى استعدّ لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيّلات والموهومات، وإلهامه معرفة ذوات الأشياء وخواصّها وأصول العلم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها والتمييز بين أولياء الله وأعدائه، فتأتي له بمعرفة ذلك كلّه مظهريته لأسماء الله الحسنى كلّها، وبلوغه مرتبة أحديّة الجمع التي فاق بها سائر أنواع الموجودات، ورجوعه إلى مقامه الأصلي الذي جاء منه وصار منتخباً لكتاب الله الأكبر الذي هو العالم الأكبر كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وفيك انطوى العالم الأكبر»[(١)].

ما ورد عن آل البيت عليهم السلام في معاني الأسماء

وفي الأخبار عن آل محمد (عليهم الصلاة والسلام) أن الأسماء التي علَّمها آدم للملائكة هي أسماء الجبال والبحار والأودية وغيرها من موجودات.

فعن أبي العباس عن أبي عبد الله عليه السلام سألته عن قول الله: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾ ماذا علَّمه؟ قال: «الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط مما علّمه»[(٢)].

---

(١) تفسير الصافي: ج١، ص١١١-١١٢، تفسير الآية المزبورة.

(٢) تفسير العياشي: ج١، ص٣٢، ح١١؛ وانظر تفسير الصافي: ج١، ص١١٠؛ تفسير البرهان: ج١، ص١٦٨، ح١٠؛ تفسير الميزان: ج١، ص١١٩-١٢٠؛ مجمع البيان: ج١، ص١٥٢؛ البحار: ج١١، ص١٤٧، ح١٨.

وفي تفسير الصافي عن الإمام السجاد عليه السلام: ﴿علّمه أسماء كل شيء، وفيه أيضاً أسماء أنبياء الله وأوليائه وعتاة أعدائه﴾[(١)] [(٢)].

وفي تفسير البرهان: عن داود بن سرحان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدعا بالخوان فتغذينا، ثم جاؤوا بالطست والدست سنانه منه، فقلت جعلت فداك قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ الطست والدست سنانه منه؟ فقال: ﴿العجاج والأودية، وأهوى بيده كذا وكذا﴾[(٣)] كناية عن تسمية حتى الطست والسنانه.

والدست من الثياب: ما يلبسه الإنسان ويكفيه لتردده في حوائجه[(٤)].

---

(١) تفسير الصافي: ج١، ص١١١.

(٢) جاء في تفسير البرهان: ج١، ص١٦٨، ح١٠، عن الفضل بن عباس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ ما هي؟ قال: ﴿أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال من الأرض﴾.
انظر تفسير العياشي: ج١، ص٣٢، ح١٢؛ تفسير الميزان: ج١، ص١٢٠؛ البحار: ج١١، ص١٤٧، ح١٩.

(٣) تفسير البرهان: ج١، ص١٦٨، ح١١؛ انظر البحار: ج١١، ص١٤٧، ح٢٠؛ وجاء فيه: الفجاج وليس العجاج، والفجاج بمعنى: جمع الفج، الطريق الواسع الواضح بين الجبلين؛ لسان العرب: ج٢، ص٣٣٨، (فجج)؛ وجاء في تفسير القمي: ج١، ص٤٥: .. وأما قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ قال أسماء الجبال والبحار والأودية والنبات والحيوان ...؛ انظر تفسر الصافي: ج١، ص١١٠؛ البحار: ج١١، ص١٤٦، ح١٦.

(٤) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠، (دست).

والعجاج: -بالفتح- الغبار والدخان[١]. وقوله: سنانه منه يشير إلى سنان الطست وحافته المتعرجة مأخوذ من سن الرمح أي حده[٢]، والتعبير يشعر بتعليمه جميع أسماء الأشياء حتى دقائقها.

وفي تفسير البرهان: قال أبو محمد العسكري عليه السلام: «لما قيل لهم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾[٣] الآية قالوا متى كان هذا؟ فقال الله عز وجل: حين قال ربك للملائكة الذين كانوا في الأرض مع إبليس وقد طردوا عنها الجان بني الجان وخفت العبادة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ بدلاً منكم، ورافعكم منها، فاشتد ذلك عليهم؛ لأن العبادة عند رجوعهم إلى السماء تكون أثقل عليهم: ﴿فقَالُواْ ربنا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ كما فعلته الجن بنو الجان الذين قد طردناهم عن هذه الأرض: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ ننزهك عما لا يليق بك في الصفات ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نطّهر أرضك ممن يعصيك. قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ إنِّي أعلم من الصلاح الكائن فيمن أجعله بدلاً منكم ما لا تعلمون، وأعلم أيضاً أنّ فيكم من هو كافر في باطنه ما لا تعلمونه وهو إبليس لعنه الله، ثم قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ أسماء أنبياء الله، وأسماء محمد صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلهما، وأسماء خيار شيعتهم وعتاة أعدائهم: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ -عرض محمداً وعلياً والأئمة- عَلَى

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص١٢٤، (عجج).

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٥٣٥، (سنن).

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٩.

المَلاَئِكَةِ﴾ أي عرض أشباحهم وهم أنوار في الأظلة فقال: **﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** إنّ جميعكم تسبّحون وتقدّسون، وإن ترككم ههنا أصلح من إيراد من بعدكم، أي فكما لم تعرفوا غيب من في خلالكم فالحرّي أن لا تعرفوا الغيب الذي لم يكن، كما لا تعرفون أسماء أشخاص ترونها. قالت الملائكة: **﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** العليم بكل شيء، الحكيم المصيب في كل فعل. قال الله عز وجل: (يا آدم) أنبئ هؤلاء الملائكة بأسمائهم أسماء الأنبياء والأئمةعليهم السلام، فلما أنبأهم فعرفوها أخذ عليهم العهد والميثاق بالإيمان بهم، والتفضيل لهم. قال الله تعالى عند ذلك: **﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** -سرها- **وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾** وما كان يعتقده إبليس من الإباء على آدم إن أمر بطاعته وإهلاكه إن سلّط عليه، ومن اعتقادكم أنه لا أحد يأتي بعدكم إلّا وأنتم أفضل منه، بل محمد وآله الطيبون أفضل منكم الذين أنبأكم آدم بأسمائهم﴾[1][2].

ولا تنافي بين هذه المعاني والتفاسير لعدم مانعية الجمع بينها؛ إذ يمكن حمل المعاني والأسماء على اختلاف المراتب، فحيث إن الجميع من الأسماء لأنه سبحانه علّمه كل الأسماء، ومما لا شك فيه أن -أولياءه وخصوصاً محمداً وآل محمدعليهم السلام- من أظهر المصاديق وأشرف الأسماء

---

(١) تفسير الإمام العسكريعليه السلام: ص٢١٦-٢١٧، ح١٠٠؛ تفسير البرهان: ج١، ص١٦٣-١٦٤، ح١.

(٢) انظر تفسير فرات: ص٥٦؛ البحار: ج١١، ص١١٨، ح٤٨.

لفظاً ومضموناً؛ لأنهم أسماء الله الحسنى، وقد اشتقت أسماؤهم من أسمائه وصفاته سبحانه، كما هم أشرف الخلق وأعلى المخلوقات، ثم من بعدها تأتي سائر الأسماء الأخرى حتى تنزل إلى الشجر والنبات والعجاج والطست ونحوها.

ولعل سرّ تعليم أسماء الأعداء والطغاة لجهة التبرّي منهم في قبال الأنبياء والأولياء الذين هم جهة التولي، ولعله لجهة امتحان المؤمنين واختبارهم بهم، ويرى البعض لجهة أن كل مخلوق هو اسم وجودي تكويني يدل على كمالات الخالق وصفاته الحقيقية التكوينية. نعم الأنبياء والأولياء مظاهر صفات اللطف وكمالاته، والطغاة مظاهر صفات القهر، وهو محل نظر.

جاء في تفسير الصافي: فاعلم أن لكل اسم من أسماء الله الإلهية مظهراً من الموجودات باعتبار غلبة ظهور الصفة التي اشتمل عليها ذلك الاسم فيه، وهو اسم الله، باعتبار دلالته على الله من جهة اتصافه بتلك الصفة؛ وذلك لأن الله سبحانه إنّما يخلق ويدبّر كل نوع من أنواع الخلائق باسم من أسمائه، وذلك الاسم هو رب ذلك النوع، والله سبحانه رب الأرباب.

وإلى هذا أشير في كلام أهل البيت عليهم السلام في أدعيتهم عليهم السلام بقولهم: ﴿وبالاسم الذي خلقت به العرش، وبالاسم الذي خلقت به الكرسي، وبالاسم الذي خلقت به الروحانيين﴾[١] إلى غير ذلك من هذا النمط.

---

(١) المصباح: ص٣٠٣.

وعن مولانا الصادق عليه السلام: ﴿نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا﴾؛ وذلك لأنهم عليهم السلام وسائل معرفة ذاته، ووسائط ظهور صفاته، وأرباب أنواع مخلوقاته، ولا يحصل لأحد العلم بالأسماء كلّها إلّا إذا كان مظهراً لها كلّها، ولا يكون مظهراً لها كلها إلّا إذا كان في جبلّته استعداد قبول ذلك كله وهو ما ذكرناه[(١)].

حقيقة الاسم وأقسامه

والحاصل: أن الاسم ما يدل على المسمّى ويسوق إلى معرفته، وهو قسمان:

الأول: ما يدلّ على ذات المسمى وعلى صفاته، بل وكمالاته أيضاً. نعم بعضها يدل على جميع الصفات والكمالات كلفظ الجلالة (الله) ففي مجمع البحرين: الله: اسم علم للذات المقدسة الجامعة لجميع الصفات العليا والأسماء الحسنى، وفي الحديث سئل عن معنى (الله)؟ فقال: ((استولى على ما دَقَّ وجلَّ))[(٢)] وبعضها يدل على بعضها مثل الحي والقادر والعالم؛ لأن القدرة ترجع إليها جملة من الصفات كالرزق والإحياء والإماتة والإيجاد والإعدام، والعلم يرجع إليه جملة أخرى من الصفات كالحكمة والإرادة والاختيار والبداعة والخبرة والسمع والبصر ونحو ذلك؛ لذلك يقولون إن

---

(١) تفسير الصافي: ج١، ص١١٣.

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٣٤٠، (أله)؛ وفي لسان العرب: ج١٣، ص٤٦٩، (أله)، أنه مأخوذ من ألهَ يألَه إذا تحير؛ لأن العقول تألَه في عظمته.

الصفات الجمالية ترجع إلى ثلاثة هي العلم والحياة والقدرة، وبعضها يدل على واحدة أو أكثر مثل الرزاق والوارث.

قال الفاضل المقدادﷺ: (والله) وهو اسم للذات المقدسة لجريان النعوت عليه. وقيل هو اسم للذات مع جملة الصفات الإلهية فإذا قلنا (الله) فمعناه الذات الموصوفة بالصفات الخاصة، وهي صفات الكمال ونعوت الجلال، وهذا المفهوم هو الذي يعبد ويوحد وينزه عن الشريك والنظير والمثل والضد والند.

وأما سائر الأسماء فإن آحادها لا يدل إلّا على آحاد المعاني من علم وقدرة، أو فعل منسوب إلى الذات مثل قولنا (الرحمن) فإنه اسم للذات مع اعتبار الرحمة، وكذا (الرحيم) و(العليم) و(الخالق) اسم للذات مع اعتبار وصف وجودي خارجي[1].

والثاني: ما يدل على المسمى بلا دلالة على صفة من صفاته مثل (هو) وبهذا الاعتبار فالأسماء الملفوظة لا تعد أسماء بمعناها المقصود، بل تعد أسماء للأسماء، ويؤيد هذا ما روي عن الإمام الرضاعليه السلام في تعريف الاسم قال: ﴿صفة لموصوف﴾[2] فهناك ﴿ذات وصفات وموصوف﴾ والاسم صفة لهذه الذات الموصوفة، فهو اسم الاسم كما صرح به بعض أهل الحكمة أيضاً[3].

---

(١) نضد القواعد الفقهية: ص٣١٤.

(٢) الكافي: ج١، ص١١٣، ح٣؛ التوحيد: ص١٩٢، ح٥.

(٣) انظر الحكمة المتعالية: ج٨، ص٢٨٠؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٨.

بل عن هشام بن الحكم أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن أسماء الله عزّ وجل واشتقاقها فقال: «الله مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهاً، والاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد الإثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد، أفهمت يا هشام؟» قال: قلت: زدني. قال: «لله عزّ وجل تسعة وتسعون اسماً، فلو كان الاسم هو المسمّى لكان كل اسم منها هو إلهاً، ولكن الله عزّ وجل معنى يُدَلُّ عليه بهذه الأسماء، وكُلُّها غيرُهُ. يا هشام، الخبزُ اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمُحرِق، أفهمت يا هشام فهماً تدفع به، وتنافر أعداءنا والملحدين في الله والمشركين مع الله عزّ وجل غيره؟» قلت: نعم، فقال: «نفعك الله به وثبّتك يا هشام» قال هشام: فو الله ما قهرني أحد في التوحيد حينئذ حتى قمت مقامي هذا[(١)].

كما أن كل مخلوق من مخلوقات الله هو اسم من أسمائه؛ لأنه يشير إلى صفة من صفاته وظهور كماله، وكل اسم من هذه الأسماء الكونية هو مظهر للأسماء الحقيقية؛ إذ الواجب تعالى يدير أمر الكون عبر هذه الأسماء كل بجهته الخاصة وحيثيته المخصوصة.

---

(١) التوحيد: ص٢٢٠، ح١٣.

آل محمد عليهم السلام أسماء الله الحسنى

وبعد أن عرفت أن محمداً وأهل بيته عليهم السلام هم أسماؤه الحسنى يظهر لك أيضاً أن المراد من الأسماء التي ملأت أركان كل شيء هي أنوار محمد وآل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) إذ هي المصاديق الأتم لأسمائه، وهي ملأت أركان كل شيء إيجاداً وإكمالاً، وهم مجاري الفيض الإلهي، وبهم خلق الله سبحانه العالم ولأجلهم كما ورد في الروايات المتضافرة المعضودة بالأدلة العقلية، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لما خلق الله تعالى آدم أبا البشر ونفخ فيه من روحه التفت آدم يمنة العرش فإذا نور خمسة أشباح سجّداً وركعاً. قال آدم: يا رب هل خلقت أحداً من طين قبلي؟ قال: لا يا آدم. قال: فمن هؤلاء الخمسة الذين أراهم في هيئتي وصورتي؟ قال: هؤلاء خمسة من ولدك شققت لهم خمسة أسماء من أسمائي، ولولاهم ما خلقت الجنة ولا النار ولا العرش ولا الكرسي ولا السماء ولا الأرض ولا الملائكة ولا الإنس ولا الجن، فأنا المحمود وهذا محمد، وأنا العالي وهذا عليّ، وأنا الفاطر وهذه فاطمة، وأنا الإحسان وهذا الحسن، وأنا المحسن وهذا الحسين، آليت بعزّتي إنّه لا يأتيني بمثقال حبة من خردل من بغض أحدهم إلّا أدخلته ناري ولا أُبالي، يا آدم هؤلاء صفوتي بهم أنجيهم وبهم أهلكهم، فإذا كان لك حاجة فبهؤلاء توسّل، فقال النبي صلى الله عليه وآله: نحن سفينة النجاة من تعلّق بها نجا، ومن حاد عنها هلك، فمن كان له إلى الله حاجة فليسأل بنا أهل البيت»[1].

---

(١) الأربعين: (للماحوزي): ص٣٩٥-٣٩٦، ح٣١؛ شرح الأخبار: ج٢، ص٥٠٠، ح٨٨٤، باختلافٍ يسير.

وفي الخبر المتصل عن مولانا الصادقعليه السلام أنه سئل عن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال: «الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم ملك الله» قال: قلت: الله؟ قال: «الألف آلاء الله على خلقه من النعم بولايتنا، واللام إلزام الله خلقه بولايتنا» قلت: فالهاء؟ فقال: «هوان لمن خالف محمداً وآل محمد صلوات الله عليهم» قلت: الرحمن؟ قال: «بجميع العالم» قلت: الرحيم؟ قال: «بالمؤمنين خاصة»[1]، والأسماء التي يصح التعبد بها هي أسماؤه سبحانه.

أصناف الاسماء

إن ما يصح أن يطلق على الباري سبحانه من الأسماء وما لا يصح على أنحاء:

منها: ما يمتنع إطلاقه عليه تعالى، وذلك لتنزهه عنه؛ لأن الاسم يدل على معنى ولكن العقل قد يحيل نسبة بعض المعاني إلى ذاته تعالى، كالأسماء الدالة على الأمور الجسمانية، أو ما هو مشتمل على النقص مثل: الجهل والفقر والتركيب والظلم ونحوها من أسماء تدل على معان عدمية أو ناقصة لا تليق بمقام الغنى والوجوب، ولذا يعبرون عنها بصفات الجلال؛ لتنزهه سبحانه عنها.

ففي التوحيد: عن فتح بن يزيد الجرجاني قال: لقيته -أي الرضاعليه السلام- على الطريق عند منصرفي من مكة إلى خراسان وهو سائر إلى العراق

---

(١) معاني الأخبار: ص٣، ح٢.

فسمعته يقول: ﴿من اتقى الله يُتقى، ومن أطاع الله يُطاع﴾ فتلطّفت في الوصول إليه، فوصلت فسلّمت فردّ عليّ السلام، ثم قال: ﴿يا فتح، مَنْ أرضى الخالق لم يبُالِ بسخط المخلوق، ومن أسخط الخالق فَقَمِنٌ أن يسلّط عليه سخط المخلوق، وإن الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه، وأنّى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدَّهُ، والأبصار عن الإحاطة به؟ جَلَّ عما وصفه الواصفون، وتعالى عمّا ينعته الناعتون. نأى في قربه، وقرب في نأيه، فهو في بعده قريب، وفي قربه بعيد، كيّف الكيف فلا يقال له: كيف؟ وأيّن الأين فلا يقال له: أين؟ إذ هو مبدع الكيفوفيّة والأينونيّة.

يا فتح، كل جسم مغذّى بغذاءٍ إلّا الخالق الرزّاق، فإنه جَسَّم الأجسام وهو ليس بجسم ولا صورة لم يتجزأ ولم يتناه ولم يتزايد ولم يتناقص، مبرَّأٌ من ذات ما ركّب في ذات من جسَّمه، وهو اللطيف الخبير السميع البصير الواحد الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، منشئ الأشياء، ومجسّم الأجسام، ومصوّر الصور، لو كان كما يقول المشبّهةُ لم يعرف الخالق من المخلوق، ولا الرازق من المرزوق، ولا المُنشِئ من المُنشَأ، لكنّه المنشئ فَرقٌ بين من جسّمه وصوّره وشّياه وبيّنه؛ إذ كان لا يُشبهه شيء﴾.

قلت: فالله واحد والإنسان واحد فليس قد تشابهت الوحدانية؟

فقال: «أَحَلْتَ[١] ثبّتك الله إنّما التشبيه في المعاني، فأما في الأسماء فهي واحدة»[٢]

وقال في حديث آخر: «ولكن يدلّ على الله عزّ وجل بصفاته، ويدرك بأسمائه، ويستدل عليه بخلقه حتى لا يحتاج في ذلك الطالب المرتاد إلى رؤية عين، ولا استماع أذن، ولا لمس كفٍّ، ولا إحاطة بقلبٍ، فلو كانت صفاته جلّ ثناؤه لا تدُلُّ عليه وأسماؤه لا تدعو إليه والمَعْلَمَةُ من الخلق لا تُدركُه لمعناه كانت العبادة من الخلق لأسمائه وصفاته دون معناه، فلولا أن ذلك كذلك لكان المعبود الموحَّدُ غير الله تعالى؛ لأن صفاته وأسماءه غيرُهُ، أفهمت»[٣].

ومنها: ما يجوّز العقل إطلاقه، وورد النقل بتسميته به، فلا إشكال في صحة إطلاقه عليه سبحانه، بل يجب امتثال الصيغة الشرعية في إطلاقه بحسب الأحوال والتعبدات بلا زيادة ولا نقصان. مثل: الرحمن، والرحيم، والكريم، والخالق، والبارئ. قال سبحانه: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤].

---

(١) أحلت: أي أتيت بشيء محال.

(٢) التوحيد: ص٦١-٦٢، ح١٨.

(٣) التوحيد: ص٤٣٧-٤٣٨، ح١.

(٤) سورة الحشر: الآيتان ٢٣-٢٤.

وعن علي بن أبي طالب عليهما السلام أنه قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعون أسماً مائة إلّا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهي: الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول، الآخر، السميع، البصير، العظيم، اللطيف، الشافي﴾[1] والمراد بالإحصاء في المعنى والفقاهة والتعبد بها لا مجرد الحساب العددي كما هو واضح.

ومنها: ما ورد به النقل، والعقل يمنع إطلاقه؛ لوقوع الاشتباه والخلط فيه، نظير محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فإنهم أسماء الله الحسنى، ونصت الأخبار على أن الباري عزّ وجل وضع أسماءهم مشتقة من أسمائه سبحانه، وتضافرت الأدلة على أنهم مجلى صفاته وجماله وجلاله، ولا يصح إطلاق أسمائهم عليه سبحانه؛ لوجود التفاوت بين الخالق والمخلوق، فلا يصح التعبد بها إلّا بملاحظة جهة المظهرية أو التوسيط بينها وبين الخالق عز وجل.

ويتحصل: أن أسماءه سبحانه بأصنافها اللفظية والتكوينية قد ملأت أركان الأشياء وأقامتها وقامت عليها، وهي الواسطة بين العبد وربّه، فلا يمكن للعبد أن يلج عالم الربوبية وينال مقاصده إلّا بواسطتها؛ لذا قال عليه السلام: ﴿أسئلك بأسمائك التي ملأت أركان كل شيء﴾.

---

(١) التوحيد: ص١٩٤-١٩٥، ح٨.

﴿وَبِعِلْمِكَ الَّذي أحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ﴾

العلم الإلهي

وهي معطوفة على قوله: ﴿اللهم إني أسألك﴾

والظاهر أن المراد بالعلم هنا علمه الذاتي، ونحو إحاطته قد يتصور على نحوين:

أحدهما: علمه الحضوري بالأشياء وإحاطته التامة بها كما ستعرف في معناه. قال سبحانه: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[1] وقال سبحانه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾[2].

ثانيهما: إحاطته الفعلية، فإن من الواضح أن من شؤون علمه سبحانه بذاته علمه بأفعاله، وحيث إن أفعاله أحاطت بالأشياء إيجاداً أو اعداماً وتغييراً وتبديلاً؛ إذ لا مؤثر في الوجود سواه تبارك وتعالى فأحاط علمه بها أيضاً؛ لأن المحيط بالمحيط محيط، كما تدل عليه الحكمة والإتقان في الصنع والاختيار والإرادة في مختلف التصرفات كما ستعرف.

والعلم هو الكشف والظهور وهو على قسمين انطباعي وحضوري، والأول ممتنع عليه تعالى فتعيّن الثاني، فعلمه تعالى -على ما هو المشهور- عبارة عن ظهور الأشياء عنده وانكشافها لديه لا بمعنى أنها لم تكن ظاهرة ثم ظهرت، بل بمعنى أنها حاضرة لديه غير غائبة عنه.

---

(١) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣.

ففي النافع: من جملة الصفات الثبوتية كونه تعالى عالماً، والعالم هو المتبيّنة له الأشياء بحيث تكون حاضرة عنده غير غائبة عنه[(١)].

والفعل المحكم المتقن هو المشتمل على أمور غريبة عجيبة، والمستجمع لخواص كثيرة.

والبارئ تعالى عالم بكل ما يصح أن يكون معلوماً واجباً كان أو ممكناً، قديماً كان أو حادثاً، خلافاً للحكماء حيث منعوا من علمه بالجزئيات على وجه جزئي؛ لانه يوجب تغيّر العلم الذاتي فتكون الذات محلاً للحوادث، وهي دعوى ضعيفة؛ لأن المتغير هو التعلق لا العلم، وهو خارج عن الذات، ولذا قال الطريحي ﵀ في المجمع: شبههم ضعيفة لا تستحق الذكر[(٢)]، والدليل على ما قلناه أنه يصح أن يعلم كل معلوم فيجب له؛ لأن كل ما جاز أن يثبت له وجب لجامعيته المطلقة لكل صفات الكمال بتمامها وكمالها.

أما أنه يصح أن يعلم كل معلوم؛ فلأنه حيّ وكل حي يصح منه أن يعلم، ونسبة هذه الصحة إلى جميع ما عداه نسبة متساوية فتتساوى نسبة جميع المعلومات إليه أيضاً[(٣)].

ودلائل العلم أربعة:

---

(١) النافع يوم الحشر: ص٣٧.

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص١٢١، (علم).

(٣) النافع يوم الحشر: ص٣٩.

الأول: الإحكام والإتقان في الصنع. قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١].

الثاني: التجرّد.

الثالث: نظام الخلق والتكوين القائم على التوازن ووضع الأشياء في محلها.

الرابع: الاختيار أي اختيار الصانع في مخلوقاته دليل على علمه تعالى بها.

قال المجلسي ﷺ في بحار الأنوار: اعلم أن من ضروريّات المذهب كونه تعالى عالماً أزلاً وأبداً بجميع الأشياء كليّاتها وجزئياتها من غير تغيّر في علمه تعالى، وخالف في ذلك جمهور الحكماء فنفوا العلم بالجزئيات عنه تعالى، ولقدماء الفلاسفة في العلم مذاهب غريبة:

منها: أنه تعالى لا يعلم شيئاً أصلاً.

ومنها: أنه لا يعلم ما سواه ويعلم ذاته، وذهب بعضهم إلى العكس.

ومنها: أنه لا يعلم جميع ما سواه وإن علم بعضه.

ومنها: أنه لا يعلم الأشياء إلّا بعد وقوعها، ونسب الأخير إلى أبي الحسين البصري وهشام بن الحكم كما ورد في الأخبار أيضاً، ولعلّه كان مذهبه قبل اختيار الحق، أو اشتبه على الناقلين بعض كلماته، وجميع هذه المذاهب الباطلة كفر صريح مخالف لضرورة العقل والدين، وقد دلّت البراهين القاطعة على نفيها[٢].

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٢) البحار: ج٤، ص٨٧، بيان.

وفي التوحيد: العليم معناه أنه عليم بنفسه عالم بالسرائر، مطّلعٌ على الضمائر، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة. عَلِمَ الأشياء قبل حدوثها وبعدما أحدثها سرّها وعلانيتها، ظاهرها وباطنها، وفي علمه عزّ وجل بالأشياء على خلاف علم الخلق دليل على أنه تبارك وتعالى بخلافهم في جميع معانيهم، والله عالم لذاته، والعالم من يصحّ منه الفعل المحكم المتقن، فلا يقال: إنه يعلم الأشياء بعلم كما لا يثبت معه قديم غيره، بل يقال: إنه ذات عالمة، وهكذا يقال في جميع صفات ذاته[(١)].

وفي الأخبار الشريفة عن أيوب بن نوح أنه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله عزّ وجل أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكوّنها أو لم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها، فعلم ما خلق عندما خلق، وما كوّن عندما كون؟ فوقّع عليه السلام بخطه: «لم يزل اللهُ عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء»[(٢)].

---

(١) التوحيد: ص٢٠١-٢٠٢، ح٩؛ وانظر البحار: ج٤، ص١٩٣، (العليم)؛ وانظر الكافي: ج١، ص١٠٧، ح١.

(٢) التوحيد: ص١٤٥-١٤٦، ح١٣؛ وانظر البحار: ج٤، ص٨٨، ح٢٥.

حقيقة العلم

والعلم ما به ينكشف الشيء لدى العالم ويتم إما بحصول صورة المعلوم لدى العالم وهو العلم الحصولي[(١)]، أو بحضور نفس المعلوم لدى العالم وهو العلم الحضوري.

وقد عرف العلم بتعاريف عديدة:

منها: أنه نقيض الجهل[(٢)]، وهو تعريف للشيء بضده يراد به الإشارة إلى أثره.

ومنها: أنه إدراك الشيء بحقيقته، والمراد به إدراك الذات[(٣)].

ومنها: أنه اليقين الذي لا يدخله الاحتمال، وهو الأصل فيه لغة وشرعاً وعرفاً[(٤)]، ويأتي العلم بمعنى المعرفة، وما يناسب كمال الذات الإلهية وصف العلم دون غيره من المعاني كالإدراك واليقين والمعرفة، فالله تعالى عالم بكل معلوم على ما هو عليه من كونه واجباً وممكناً وممتنعاً، وكلياً

---

(١) ولابد في العلم الحصولي من الانطباع، كما قال في شرح التجريد أقول: اختلف العلماء في ذلك، فذهب جمهور الأوائل إلى أن العلم يستدعي انطباع المعلوم في العالم، وأنكره آخرون. احتج الأولون بأنا قد ندرك أشياء لا تحقق لها في الخارج، ولو لم تكن منطبعة في الذهن كانت عدماً صرفاً ونفياً محضاً فيستحيل الإضافة إليها. كشف المراد: ص٢٤١؛ وانظر المنطق: ص١٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٦٦٣، (علم).

(٣) مفردات الراغب: ص٥٨٠، (علم).

(٤) مجمع البحرين: ج٦، ص١٢٠-١٢١، (علم).

وجزئياً لنسبة ذاته إلى جميع الممكنات بالسوية، وكذا علمه بذوات الأشياء وآثارها وخواصها وحدوثها وبقائها وفنائها، ولم يعبر عنه بالإدراك؛ لأن الإدراك يحصل بالواسطة الحسية، ويختص بالموجودات المادية، بينما العلم يحصل بالمعدوم ولا يتوقف على الواسطة[١] ولم يعبّر عنه باليقين؛ لأنه مسبوق بالشك والحيرة، وأثره سكون النفس وثلج الصدر بما علم به بعد الشك، ويتم بالاستدلال، ولذا يجعلون الشك واليقين متقابلين[٢]، وهذه الأوصاف من خصائص العلم الحصولي عند البشر، فلا تليق بجنابه تعالى؛ لأنه سبحانه منزه عن سابقة الجهل والشك والاكتساب، بل يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن وكيف يكون، وهو صفة ذاته القديمة.

ولم يعبّر عنه بالمعرفة؛ لأنها أخص من العلم، وتحصل بمعرفة الشيء بآثاره، وتستند إلى الحس في الغالب؛ لذا خصصوها بإدراك الجزئيات، فكل معرفة علم وليس كل علم معرفة، وأيضاً تطلق المعرفة على إدراك الشيء بعد نسيانه، ولذا لا يقال للباري عزّ وجل عارف، ولا يسمى علمه معرفة، فقول بعض أهل الحكمة وجماعة من أهل اللغة وأرباب الأصول بالترادف بينهما على ما حكي[٣] غير سديد؛ لعدم وجود المقتضي كما قررناه من امتناع الترادف في اللغة، ووجود المانع؛ لما عرفت من أن المعرفة كمال للجاهل والقاصر فلا تليق بكماله سبحانه، وما ورد في دعاء سيد الساجدين عليه السلام:

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣١، (١١٧).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٣٧٤، (١٥١٠).

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٥٠٢، (٢٠٣٤).

﴿**وقد أحصيتهم بمعرفتك**﴾[1] إما ناظر إلى الإحصاء بواسطة أوليائه من باب المجاز في الإسناد، أو ناظر إلى التوسعة في معنى المعرفة لتشمل العلم من باب المجاز في الكلمة.

ويتحصل: أن العلم هو الصفة اللائقة بكمال الباري وجلاله دون غيرها من صفات تشترك معها في الأثر، وقد عرفت معناه، وما ذكرناه هو للإشارة إلى خواصه لا تعريف حقيقته؛ لأن إدراك الذات الإلهية وصفاتها فوق عقول البشر وطاقتهم المعرفية، فثبوت العلم له سبحانه في أعلى درجات الكمال ضروري، وكذا كونه علماً حضورياً لا حصولياً بناء على أن العلم اللدني من مراتب العلم الحضوري وإلّا كان قسماً ثالثاً كما لا يبعد، وقد حققناه في بعض أبحاثنا، بل هو ما يقتضيه كمال الخالق؛ لأن العلم الحضوري تابع لحضور المعلوم، ولازمه أن يختص بالموجود فيكون حادثاً. هذا فضلاً عن تضافر الأدلة النقلية على أن علمه لدنّي شهودي لا حضوري؛ إذ لم يزل تبارك وتعالى عالماً والعلم ذاته ولا معلوم[2].

وكيف كان، وبناء على التقسيم الثنائي للعلم فإن وجود العلم الحضوري -فضلاً عن الحصولي- بديهي يشهد به الوجدان قبل البرهان، وهو رتبتان:

إحداهما: تتعلق بالمخلوق والأخرى بالخالق.

---

(١) الصحيفة السجادية: ص١٣٤.

(٢) انظر الحقائق والدقائق: ج١، ص٣٥٣.

ولا شك في أن لنا علماً بأشياء لا يتوقف على حصول صورة منها في الذهن، بل نعلم بها لإحاطتنا الوجودية بها، كعلمنا بأنفسنا وعلمنا بالأشياء التي ندركها بالحواس الخمسة، وكذا علمنا بالصور الذهنية للأشياء الخارجية، فإن حصولها في الذهن يفيد علمين علماً حصولياً للشيء الخارجي؛ لأن العلم به متوقف على انطباع صورته في الذهن، وعلماً حضورياً بذات الصورة الحاصلة في الذهن، ومثلها الصورة التي يتخيلها الذهن ويحضرها لديه، فإن العلم بها ناشئ من حضورها في الذهن وإحاطة الذهن بها، ولا يتوقف على حصول صورة أخرى عنها، ولذا يدور وجودها وعدمها على الالتفات والحضور الذهني للمعلوم.

وأجلى مصاديق هذا العلم وأقواها وأوسعها هو العلم الإلهي، ويتحقق بحضور نفس المعلوم بوجوده الخارجي العيني للعالم، والشاهد عليه الوجدان، فإن الواحد منا يجد من نفسه أنه يعلم بنفسه وشؤونها ويدركها حق الإدراك، ولكن لا بانتقاش صورها، وإنما الشيء الموجود هو حاضر لذاته دائماً بنفس وجوده، وكذا المخلوقات حاضرة لخالقها بنفس وجودها.

والظاهر أن انقسام العلم إلى قسمين قسمة حاصرة، فحضور المعلوم للعالم إما بماهيته وهو العلم الحصولي، أو بوجوده وهو العلم الحضوري.

هذا ما يؤدي إليه النظر البدوي من انقسام العلم إلى الحصولي والحضوري، وإن كان البعض يرى أن الحصولي منه أيضاً ينتهي إلى علم حضوري حسب مبنى أصالة الوجود وتشكيكيته فتأمل[1].

---

(١) انظر نهاية الحكمة: ص٢٩٣-٢٩٤، (بتصرف)؛ المنطق: ص١٠، الهامش.

العلم الحضوري والحصولي

والفرق بين العلم الحصولي والحضوري يتم من وجوه عديدة[(١)]:

الأول: أن العلم الحصولي يحصل بحضور صورة المعلوم لدى العالم، والحضوري هو حضور نفس المعلوم لدى العالم.

الثاني: أن المعلوم بالعلم الحصولي هو صورة الشيء أولاً وبالذات ثانياً وبالعرض، بحسب التحليل العقلي والتفكيك الوجداني الذهني والخارجي، أما المعلوم بالعلم الحضوري فوجوده العلمي عين وجوده العيني.

الثالث: أن العلم الحصولي ينقسم إلى التصور والتصديق؛ لأنهما يتوقفان على الصور والإذعان بالنسبة والحمل. والحضوري لا ينقسم إلى ذلك، بل هو قسم واحد وليس له تصور بل تصديق.

الرابع: أن الحصولي يمكن أن تحصل فيه الغفلة والخطأ؛ لإمكان الخطأ في التصور، أو عدم مطابقة الصورة للمتصوَّر، وأما الحضوري فلا يمكن أن يحصل فيه ذلك؛ لأن المعلوم يحضر بنفسه فلا وجود للغفلة والخطأ فيه؛ لذا قد يبتلى العلم الحصولي بالجهل المركب أو لا يكون قطعياً جازماً، كما يتوقف على معلّم وتعليم وتعلّم، وبذلك تظهر أكملية وأشدية وأوسعية وأدقية العلم الحضوري على الحصولي؛ وبهذا يتضح أن علم أنبياء الله

---

(١) راجع نهاية الحكمة: ص٢٩٣، في المرحلة الحادية عشرة في العقل والعاقل والمعقول، الفصل الأول (في تعريف العلم وانقسامه الأولي وبعض خواصه).

وأوليائه سبحانه من اللدني الحضوري؛ لسعة نفوسهم الوجودية ونورانية قلوبهم التي تنكشف لها الأشياء بذاتها فلا يحتاجون إلى معلم وتعلم بغير ما علمهم ربهم وهداهم. هذا كلّه من حيث أصل العلم.

العلم الفعلي والعلم الانفعالي

وأما من حيث التأثير والتأثر بين العالم والمعلوم فينقسم العلم إلى فعلي وإنفعالي كما قال العلامةﭬ في شرح التجريد: العلم منه ما هو فعلي وهو المحصِّل للأشياء الخارجية، كعلم واجب الوجود تعالى بمخلوقاته، وكما إذا تصوَّرنا نقشاً لم نستفد صورته من الخارج ثم أوجدنا في الخارج ما يطابقه، ومنه انفعالي وهو المستفاد من الأعيان الخارجية، كعلمنا بالسماء والأرض وأشباههما، ومنه ما ليس أحدهما كعلم واجب الوجود تعالى بذاته[(١)].

والعلم الفعلي يأتي بمعنيين:

أحدهما: ما يقابل الانفعالي.

وثانيهما: ما يقابل الذاتي، والمراد به العلم بالفعل الإلهي دون مقام الذات، كما في العلم بعد الإيجاد، ومنه ما هو انفعالي، ومنه ما هو ليس بفعلي ولا انفعالي. أما العلم الفعلي فكعلم الباري تعالى بما عدا ذاته، وعلم سائر العلل بمعلولاتها، وأما العلم الانفعالي فكعلم ما عدا الباري بما ليس بمعلول له مما لا يحصل إلّا بانفعالٍ ما وتغيّر ما للعالم، وبالجملة بارتسام

---

(١) كشف المراد: ص٢٤٥؛ نهاية الحكمة: ص٣٢٢، في المرحلة الحادية عشرة في العقل والعاقل والمعقول، الفصل الخامس عشر (في انقسامات أخر للعلم).

صور تحدث في ذات النفس وآلاتها، والعلم الذي ليس بفعلي ولا انفعالي فكعلم الذوات العاقلة بأنفسها وبالأمور التي لا تغيب عنها، وبذلك يظهر وجه الفرق بين العلمين كما لا يخفى.

ثم إن العلم اللائق بالواجب تعالى هو العلم الفعلي الحضوري، وهو نقطة الجمع بين التقسيمين الأول والثاني، وهو نحو وجود كل شيء، ولأنه بسيط الحقيقة ومحض الوجود فهو عالم بكل الأشياء، كما هو واجد لكل كمالات الأشياء بنحو الواجدية من الاتصاف كالعلم والحياة، وواجدية الإحاطة كالقدرة على الإيجاد، فلا يقال (إن فاقد الشيء لا يعطيه) والله سبحانه منزه عن الجسم والجسمانية وخصوصيات المادة فكيف يعطيها؟ فإن المقصود بالفقدان الأعم من الاتصاف والإحاطة، وبذلك يظهر أن كلَّ كمال هو واجب الثبوت له فهو الكمال المطلق من كل الجهات.

وأنّه ليس ناقصاً كالأشياء، ومن الثابت في محله عند أهل المعقول أن بعد الوجود ليس إلّا العدم أو الماهية بناء على أنها الحالة الوسطى بين الوجود والعدم ولو في عالم نفس الأمر، والماهية لا تقال على الواجب للمحالية، فلم يبق مقابل الوجود إلّا العدم، فتكون نسبة حضور الأشياء لديه أشد من حضورها لدى أنفسها؛ لأنه العلة للأشياء وهي معلولة له، ونسبة الشيء إلى الفاعل فبالوجوب، وأما نسبته إلى قابله فبالإمكان، فكما لا يشذ عن حيطة وجوده وجود بعد أن أوجد كل الأشياء كذلك لا يعزب عن علمه مثقال ذرة؛ لأن علمه غائي وعلة للمعلولات[1] فتأمل.

---

(١) بداية الحكمة: ص٢٢٨.

ولعل من هنا قال بعض الحكماء في تفسير إحاطته العلمية بكل الأشياء: إن الواجب بسيط الحقيقة مجرد، وكل مجرد عالم بذاته، وذاته علة لجميع ما سواه، والعلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول[(١)].

قال في كشف المراد:

الوجه الثاني: أنه تعالى مجرد وكل مجرد عالم بذاته وبغيره، وقال القوشجي في بيان ذلك أن الباري مجرد وكل مجرد عاقل أي عالم، والثاني أن الله تعالى عالم بذاته، وإذا علم ذاتهُ علم ما عداه جميعاً. أما الأول فلأن العلم عبارة عن حصول المعلوم عند العالم، وهو حاصل في شأنه؛ لأن ذاته غير غائب عن ذاته تعالى، فيكون عالماً بذاته، وأما الثاني وهو علمه تعالى بما عداه وهو الموجودات؛ لأنه مبدأ بلا واسطة أو مع الواسطة، والعلم بالعلة يوجب العلم بالمعلول[(٢)].

هل يتمكن البشر من إدراك حقيقة صفاته سبحانه؟

ولعل التحقيق في ذلك هو القول بأن علمه تعالى ذاتي قديم؛ لهذا لا يتمكن أحد أن يصل إلى حقيقته وكيفية إحاطته إلّا بالتصورات والإشارات الإجمالية ولو من بعد كما تقدم؛ وذلك لأن علمه عين ذاته، ومعرفة الذات محال علينا، فإدراك علمه وإحاطته العلمية كذلك.

---

(١) بداية الحكمة: ص٢٠٤، الهامش ٤.

(٢) كشف المراد: ص٣٠٩.

نعم قد نتوصل إلى أصل المسألة بالتحليل العقلي بما يرفع عن الإدراك المحاذير فنقول: معنى علمه عين ذاته أن ذاته بما هي هي مبدأ انكشاف الأشياء بلا حاجة إلى صفة زائدة هي العلم؛ لأنه نور كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1] وحقيقة النور أنه الظاهر بنفسه والمظهر لغيره بلا حاجة إلى صفة أخرى زائدة؛ لأن الذاتي يعلل بالذات لا بغيرها، وإلّا لكان محتاجاً إلى صفة أخرى لاتصافه بالعلم أو القدرة أو غيرها من صفات الذات، فيلزم التسلسل، كما ويخرج الواجب عن كونه واجباً وهو خلف، مضافاً إلى إشكالات عقلية أخرى[2].

وهذه معرفة من وجه لا من كل الوجوه فما يصنعه البعض من بذل الجهد وتكليف النفس للمعرفة التامة من جميع الوجوه مما لا محصل له، ولذا أوقعهم في الكثير من المحاذير والتوالي الفاسدة التي لا مجال للالتزام بها، والله العاصم فتأمل تعرف.

صفاته تعالى عين ذاته

العقل يقضي بأن صفاته تبارك وتعالى عين ذاته من وجوه:

الأول: أنها لو كانت غير ذاته لكان تعالى محتاجاً في كامليته إلى صفاته، وإذا كان محتاجاً كان ممكناً فلا يكون واجباً صانعاً وهو باطل.

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

(٢) حق اليقين: ج١، ص٧٦.

الثاني: أن الصفة متأخرة عن الموصوف، فيلزم أن يكون الله تعالى عاجزاً جاهلاً في وقت ثم صار قادراً عالماً، تعالى الله عما يقول الجاهلون علوّاً كبيراً.

الثالث: أنها لو كانت غير ذاته فإما أن تكون قديمة أو حادثة قائمة بذاته تعالى أو بغيره، واللازم باطل فالملزوم مثله.

الرابع: أنها لو كانت زائدة على ذاته فلا يخلو إما أن تكون مستندة إلى غيره كيف وليس وراءه تعالى شيء، أو إلى ذاته كيف ومفيض الكمال لا يكون قاصراً عنه[(١)].

الخامس: أنها لو كانت غير ذاته لزم أن تكون ذاته تعالى من حيث هي بلا كمال، وكمالها مكتسب من الغير فإن كان الغير كاملاً في ذاته كان هو الخالق وان كان من غيره فإن كان الغير هو ذاته سبحانه كان دوراً، وإن كان غيره تسلسل والكل محال. فتعين أن تكون صفته عين ذاته.

قال أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿من وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله﴾[(٢)] يعني من وصف الله تعالى بصفة مغايرة لذاته فقد جعله مقارناً لغيره وهو الصفة، ومن جعله مغايراً لغيره من صفته فقد ثنّاه؛ إذ الموصوف أول والوصف ثان، ومن ثنّاه فقد جزّأه أي جعله ذا جزء مركب من ذات وصفة، ومن قال بأنه ذو جزء لم يعرفه؛ لأن الله واحد أحد.

---

(١) حق اليقين: ج١، ص٥٧-٥٨.

(٢) نهج البلاغة: ص١٨، الخطبة (١).

وقال عليه السلام: ﴿أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه﴾[(١)].

ولهذا كان الأفضل السكوت في أمثال هذه الموارد، وعدم الغور فيما هو محال علينا دركه بحقيقته وواقعيته.

ولذا ورد النهي عنه في الأخبار الشريفة، فمنها ما ورد أنه خطب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام يوماً خطبة بعد العصر فقال: ﴿الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه؛ لأنه كل يوم في شأن من إحداث بديع لم يكن الذي لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً، ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً، ولم يقع عليه الأوهام فتقدِّره شبحاً ماثلاً، ولم تدركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حائلاً. الذي ليست له في أوليته نهاية، ولا في آخريته حد ولا غاية .... وظهر في العقول بما يُرى في خلقه من علامات التدبير الذي سئلت الأنبياء عنه فلم تصفه بحدٍّ ولا بنقص، بل وصفته بأفعاله، ودلت عليه بآياته، ولا تستطيع عقول المتفكرين جحده .... انقادت لسلطانه وعزته، وكلّت عن إدراكه طروف العيون، وقصرت دون بلوغ صفته أوهام الخلائق، الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء﴾[(٢)].

وعن مولانا أبي جعفر عليه السلام: ﴿تكلّموا في خلق الله ولا تكلّموا في الله، فإن الكلام في الله لا يزيد إلّا تحيّرا﴾[(٣)].

---

(١) نهج البلاغة: ص١٧، الخطبة (١).

(٢) التوحيد: ص٣١-٣٣.

(٣) التوحيد: ص٤٥٤، ح١.

وعن مولانا أبي عبد الله عليه السلام: «خرج رسول الله صلى الله عليه وآله على أصحابه فقال: ما جَمَعَكم؟ قالوا: اجتمعنا نذكر ربنا، ونتفكر في عظمته، فقال: لن تدركوا التفكر في عظمته»[١] أي حقيقة العظمة وذاتها، ولكن التفكر في آثارها وآياتها فهو أمر ممكن وواقع، لذا أمرونا عليهم السلام به؛ وعليه فلا مجال لإطلاق العنان للفكر في أمثال هذه الموارد، فإنه لا يأمن فيه الإنسان من الزلل مهما أوتي من علم وعبقرية.

نعم إلّا إذا حكمنا عليه بالعلم والقدرة ونحوهما بعنوان الكمال الواقعي الذي ينبغي أن يكون له، وينسب إليه سبحانه، وإن كان دركه بمعناه الحقيقي محال علينا، بما أنه إله كل شيء، ورب كل شيء ولا رب غيره.

إذ نحن لا ندرك واقع علمه وقدرته؛ لأن معرفة الشيء متفرعة عن الإحاطة بذلك الشيء، ومحال علينا أن نحيط علماً بالواجب تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[٢] وعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حيّر مقل العقول من عجائب قدرته، وردع خطرات هماهم النفوس عن عرفان كنه صفته»[٣].

نعم نحن ندرك شيئاً واحداً وهو أنه عالم وليس بجاهل، ولنا أدلة على أنه عالم؛ إذ العلم صفة كمال، وكل كمال واجب الثبوت للواجب. أما درك كيفية هذا العلم ونحوه فهو غير ممكن لنا، كما ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) التوحيد: ص٤٥٥، ح٤.

(٢) سورة طه: الآية ١١٠.

(٣) نهج البلاغة: ص٣٠٦، الخطبة ١٩٥.

﴿فلسنا نعلم كنه عظمتك إلّا أنّا نعلم أنّك حيّ قيّوم، لا تأخذك سِنة ولا نوم، لم ينته إليك نظر، ولم يدركك بصر﴾[1] ولذا ورد في الأخبار عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿تكلّموا فيما دون العرش، ولا تكلّموا فيما فوق العرش، فإن قوماً تكلّموا في الله عزّ وجل فتاهوا حتى كان الرجل ينادى من بين يديه فيجيب من خلفه، وينادى من خلفه فيجيب من بين يديه﴾[2].

وعن عبد الرحيم القصير قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من التوحيد، فرفع يديه إلى السماء وقال: ﴿تعالى الله الجبار إن من تعاطى ما ثمَّ هلك﴾[3] لبيان محالية الوصول إلى كنه الحقيقة.

وعن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: **﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾**[4] قال: ﴿إذا انتهى الكلام إلى الله عزّ وجل فامسكوا﴾[5] وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿دعوا التفكر في الله، فإن التفكر في الله لا يزيد إلّا تيهاً؛ لأن الله تبارك وتعالى لا تدركه الأبصار، ولا تبلغه الأخبار﴾[6] ولعل قوله عليه السلام: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ واضح؛ لأنه سبحانه غير جسم ولا جسماني، والأبصار لا تدرك إلّا من كان كذلك.

---

(١) نهج البلاغة: ص٢٢٦، الخطبة ١٦٠؛ وشرح النهج: ج٩، ص٢٢٢.

(٢) التوحيد: ص٤٥٥، ح٧.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٥٦، ح٨

(٤) سورة النجم: الآية ٤٢.

(٥) التوحيد: ص٤٥٥، ح٩.

(٦) المصدر نفسه: ص٤٥٧، ح١٣.

وأما قولهعليه السلام: ﴿ولا تبلغه الأخبار﴾ فلعله للإشارة إلى لا محدودية عظمته وكماله وجلاله، ومهما أراد المتكلم من وصفه يعجز الكلام والمتكلم والكلمات من بلوغ ذلك، كيف والكل محدود وهو تبارك وتعالى لا محدود؟ ولا يخفى أن الاعتراف بالعجز عن المعرفة في مواردها من مظاهر العلم ورسوخه؛ لأن العلم يدعو إلى الاعتراف بالحقيقة، وما دام لا يقدر الإنسان على شيء فالعلم أن يقول لا أعلم؛ لأن الخوض في أمر ليس من شأنه إيصاله إلى الحقيقة مظهر من مظاهر الجهل، فضلاً عما فيه من مخاطر وزلات.

والتواضع للمعرفة من رسوخ العلم كما ورد عن مولانا أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿اعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لا يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً﴾(١).

وفي الدعاء الشريف: ﴿عجزت العقول عن إدراك كنه جمالك، وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سُبُحات وجهك، ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلّا بالعجز عن معرفتك﴾(٢).

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص١٦٢، الخطبة (٩١)؛ شرح النهج: ج٦، ص٤٠٣-٤٠٤.

(٢) الصحيفة السجادية: ص٤١٧؛ البحار: ج٩١، ص١٥٠.

ما هي الأدلة على علمه سبحانه؟

نعم لقائل أن يقول إن استحالة الوصول إلى كنه العلم لا يمنع من الاستدلال على أصله، فما هي الأدلة التي يمكن أن تقام على علمه سبحانه؟

والجواب: أن هناك طائفة من الأدلة[1] العقلية فضلاً عن النقلية ونحن

---

(١) وللحكماء وجوه في الاستدلال على العلم نذكر منها وجهين:

الوجه الأول: أنه تعالى مجرد وكل مجرد عالم بذاته وبغيره.

أما الصغرى: فلما ثبت في محله من أنه سبحانه ليس بجسم ولا جسماني، ولا يتصف بالمادة وغواشيها.

وأما الكبرى: فلأن كل مجرد فإن ذاته حاصلة لذاته لا لغيره، وكل مجرد حصل له مجرد فإنه عاقل لذلك المجرد؛ لأنا لا نعني بالتعقل إلّا الحصول، فإذن كل مجرد فإنه عاقل لذاته، وأما كل مجرد عالم بغيره فلأن كل مجرد أمكن أن يكون معقولاً، وكل ما يمكن أن يكون معقولاً وحدهُ أمكن أن يكون معقولاً مع غيره، وكل مجرد يعقل مع غيره فإنه عاقل لذلك الغير. أما ثبوت المعقولية لكل مجرد فظاهر؛ لأن المانع من التعقل إنما هو المادة لا غير، وأما صحة التقارن في المعقولية؛ فلأن كل معقول فإنه لا ينفك عن الأمور العامة، وأما وجوب العاقلية حينئذٍ فلأن إمكان مقارنة المجرد للغير لا يتوقف على الحضور في العقل؛ لأنه نوع من المقارنة فيتوقف إمكان الشيء على ثبوته فعلاً، وهو باطل، وإمكان المقارنة هو إمكان التعقل، وفي هذا الوجه أبحاث مذكورة في محلها.

الوجه الثاني: أن كل موجود سواه ممكن على ما يأتي في باب الوحدانية، وكل ممكن فإنه مستند إلى الواجب إما ابتداء أو بوسائط على ما تقدم، وقد سلف أن العلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول، والله تعالى عالم بذاته على ما تقدم فهو عالم بغيره و كونه تعالى عالماً يدل على عمومية علمه بكلّ معلوم.

وتقريره: أن كل موجود سواه ممكن، وكل ممكن مستند إليه فيكون عالماً به سواء كان ←

نكتفي بالعقلية هنا؛ لأنها الأساس للنقل في مثل هذه الموارد فنقول:

الأدلة العقلية على كونه عالماً كثيرة نذكر منها ثلاثة:

الأول: أنه مختار، وكل مختار عالم. أما الصغرى فلأن في مقابل المختار الموجَب، ولو لم يكن مختاراً كان موجباً، ولو كان موجباً لم يتخلف أثره عنه بالضرورة كالشمس ونور الشمس والنار والحرارة، وحينئذ يلزم إما قدم العالم وتنفيه أدلة التوحيد، أو حدوث الخالق سبحانه وتنفيه أدلة الوجوب، وأما الكبرى: فلأن فعل المختار تابع لقصده وإرادته، ويستحيل قصد شيء من دون العلم به.

الثاني: أنه فعل الأفعال المحكمة المتقنة، وكل من كان فعله كذلك فهو عالم بالضرورة. أما أنه فعل ذلك فظاهر لمن تدبّر مخلوقاته[1]، وأما من فعل الأفعال المحكمة المتقنة فعالم فهو بديهي لمن زاول الأمور وتدبرها.

قال العلامة في كشف المراد: إنه تعالى فعل الأفعال المحكمة، وكل من كان كذلك فهو عالم. أما المقدمة الأولى فحسية؛ لأن العالم إما فلكي أو

←

جزئياً أو كلياً، وسواء كان موجوداً قائماً بذاته أو عرضاً قائماً بغيره، وسواء كان موجوداً في الأعيان أو متعقلاً في الأذهان؛ لأن وجود الصورة في الذهن من الممكنات أيضاً فيستند إليه، وسواء كانت الصورة الذهنية صورة أمر وجودي أو عدمي ممكن أو ممتنع، فلا يعزب عن علمه شيء من الممكنات ولا من الممتنعات، وهذا برهان شريف قاطع؛ انظر كشف المراد: ص٣٩٧-٣٩٨.

(١) راجع الاقتصاد: ص٢٨، والباب الحادي عشر: ص٣٧-٣٨.

عنصري، وآثار الحكمة والإتقان فيهما ظاهرة مشاهدة، وأما الثانية فضرورية؛ لأن الضرورة قاضية بأن غير العالم يستحيل منه وقوع الفعل المحكم المتقن مرة بعد أخرى[١].

الثالث: أنه خلقنا وجعلنا عالمين بالقوة بأن أعطانا القابلية للعلم، وكذلك بالفعل بأن أعطانا العلم بنحويه الحضوري والحصولي كما تقدم، وهذه قضية يشهد بها الوجدان، ومن أعطى العلم وخلق العالم كان عالماً بالضرورة؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولو لم يكن كذلك كان المخلوق أكمل من الخالق، وهو محال.

هذا كله ما يقال في العلم، وأما الشيء فقد عرفت أنه يطلق على كل ما يصح أن يعلم ويصح الاخبار عنه موجوداً كان أو معدوماً، مادياً كان أو معنوياً[٢] واحتواء الشيء إما يراد به استيعابه من جميع جهاته كالحائط للدار والبستان، أو حفظه وصيانته والذب عنه وجذب مصالحه من الحياطة كما ورد في وصف أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أشهد أنك كنت احوطهم على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴾ أي أحفظهم وأحماهم له، وأحرص على مصالحه، وفي الدعاء: ﴿واجعلني في حياطتك﴾ أي في حفظك ورعايتك[٣] والأصل فيه الأول، وأما الثاني فهو من ملازماته؛ لوضوح أن الحفظ والرعاية يتوقفان على

---

(١) كشف المراد: ص٣٩٧.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٣٠٧، (١٢٣٣)؛ وانظر مفردات الراغب: ص٤٧١، (شيء).

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٤٣، (حوط)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢٠٨، (حوط).

الاحتواء والإحاطة، وإضافة كل إلى شيء تدل على غاية العموم، فلا يستثنى من حيطة علمه سبحانه شيء من الموجودات بالقوة أو بالفعل، أو من المعدومات، ومما تقدم من تفاصيل يظهر جلياً أن الفقرة الدعائية ﴿وبعلمك الذي أحاط بكل شيء﴾ تتضمن غاية الخضوع والتذلل أمام ساحة عظمته سبحانه؛ لأن السائل عاجز فقير محتاج، والمسؤول عالم ومحيط بكل شؤون مخلوقه ظاهرها وباطنها وخفيها وعلنيها، والسائل حينما يسأل العالم المحيط بكل شيء يكون قد أوكل أمره إليه، وهو عالم بما يصلحه وما ينفعه وما يضره، فيستجيب له حسب المصلحة، كما يستجيب له بما يقر به عينه وينفعه في دنياه وأخراه؛ لأنه العالم به وبحاجته، والمطلع على الأمور وعلى آثارها ونتائجها، حيث إن المؤمن الذي له حسن ظن بربه وواثق بقدرته وحكمته وعلمه، وأنه لا يحب ما يضره وما لا ينفعه واقعاً وإن جهل العبد بالضار والنافع، فربما سأل ما يضره متصوراً أنه نافعه، وربما سأل ما ينفعه جاهلاً أنه يضره.

ولكن علمه سبحانه المحيط بالأشياء وحكمته ولطفه ورحمته تستدعي أن يستجيب له بقدر المصلحة والمنفعة الواقعية لا حسبما يتوقعه الإنسان ويتصوره، وبهذا يتضح بعض السرّ في تأخير الاستجابة لبعض الأدعية، أو تأجيل الاستجابة إلى الآخرة، أو الإجابة بمقدار ما تقتضيه الحكمة، فربما يجاب بعض الدعاء أو يعوض عن الطلب بتحقيق مطلوب آخر لم يسأله العبد أو لم يلتفت إليه فتأمل.

﴿وَبِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي أضاءَ لَهُ
كُلُّ شيءٍ﴾

وجه الله سبحانه ومعانيه

الوجه: كل ما يواجه به، وهو ظاهر المعنى معروف.

ووجه كل شيء مستقبَلُه، وفي التنزيل: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[١] أي جهته التي أمر بها، والوجه والجهة بمعنى، ومصاديقه كثيرة.

فمنها: يقال لأشراف البلد وجوهه؛ لأنهم يقصدون في الرأي والحاجات

ومنها: القصد كما في قوله تعالى: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[٢] أي قصدت بعبادتي، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾[٣] أي مقصدك.

ومن مصاديقه الرضا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ﴾[٤] كناية عن قصد الرضا؛ لأن الشخص إذا أراد شيئاً أقبل بوجهه عليه، وإذا كرهه أعرض بوجهه عنه، فكأن الفعل إذا أقبل عليه بالوجه حصل الرضا به، فكان إطلاقه عليه من باب إطلاق السبب على المسبب.

ومن مصاديقه القدر والمنزلة. يقال فلان ذو وجاهة إي صاحب قدر وشأن بين قومه[٥].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٧٩.

(٣) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٧٢.

(٥) راجع لسان العرب: ج١٣، ص٥٥٥-٥٦٠، (وجه)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٣٦٥-٣٦٧، (وجه).

والوجه حينما ينسب إلى الله كما في قوله سبحانه: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[(١)] وغيره من النصوص الكثيرة لا يراد منه العضو البدني؛ لاستحالة الجسم عليه تبارك وتعالى، بل المعنى الكنائي إما عن الذات الإلهية سبحانه كما في الآية؛ لأن الذات أيضاً من مصاديق الوجه، كما يقال في إدارة الأعمال والمؤسسات (لقد تولت المناصب وجوه جديدة) أو: (فلان وجه فيهم) وفي قوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[(٢)] أي إلّا إيّاه سبحانه، وفي الدعاء: ﴿وأعوذ بوجهك الكريم﴾[(٣)] أي بذاتك، لأن الوجه هو محل التوجه فيطلق على الكل من باب إطلاق لفظ الجزء على الكل الذي هو أحد وجوه المجاز.

وحينئذ يصبح معنى الآية كما في مجمع البيان: ويبقى ربك الظاهر بأدلته ظهور الإنسان بوجهه[(٤)]، أو عن خلفائه؛ لأنهم أجلى مصاديق وجهه سبحانه وهم الأنبياء والأولياء لاسيما محمد وآل محمد عليهم السلام.

وأضاء: من الضوء والضياء، وهو ما أضاء لك كما في قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾[(٥)] وضاء وأضاء بمعنى أي استنارت وصارت مضيئة[(٦)]، واللام في (له) للغاية، أي أضاءت لأجله، وربما للملك أو

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٧.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٣) مصباح المتهجد: ص١٤٩.

(٤) مجمع البيان: ج٩، ص٣٣٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٠.

(٦) لسان العرب: ج١، ص١١٢، (ضوأ).

الاختصاص، ومعناها أن وجودها مملوك له ومختص به سبحانه، فلا يملكها أحد غيره إلّا بنحو من التجوز، وربما يقال إنها بمعنى الباء فتفيد السببية، وقيل إن الجملة في بعض النسخ وردت بالباء بدلاً عن اللام[1]، والأول أظهر، وعلى هذا فالمحتملات في معنى الجملة الشريفة عديدة:

الأول: نوره الذاتي الذي تنكشف له جميع الأشياء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، كما قال سبحانه: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[2] ويؤيّده قوله سبحانه: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾[3] حيث إن الأشياء مظلمة في ذاتها جميعاً؛ لأنها أعدام ونواقص، ولا تضيء إلّا بنوره سبحانه، ويرجِّح هذا الاحتمال التعدي بـ (له) حيث إن الأشياء أضاءت له لا به، فالنور هنا ليس نور العلية والإيجاد، بل نور العلم والإظهار فتأمل.

الثاني: أنه نور وجوده الذي أخرج الموجودات من ظلمة العدم، حيث تستفيض كل ماهية من الماهيات الإمكانية منه سبحانه وجودها، وتظهر على مسرح الحياة ظاهرة شاخصة، وعليه فاللام في (له) تكون بمعنى الباء، فيكون المعنى هكذا: وبنور وجهك الذي به أضاء كل شيء، فكل ماهية تقبل نور الوجود بحسب استعدادها وقابليتها، فتدل الجملة على عليته سبحانه للأشياء الذي به أشرقت الماهيات وظهرت إلى عالم

---

(١) انظر أسرار العارفين: ص١١٠.

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٩.

الوجود، ولولا ذلك لما وجدت، فإن الممكن مفتقر في ذاته إلى علة الوجود، ولا غني إلّا ذاته سبحانه، فبه الوجود ومنه الوجود تبارك وتعالى، وكل شؤونه كما قال سبحانه: ﴿مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ﴾(١) . ويمكن تقرير ذلك بوجه ألطف، خلاصته: أن كل ما سوى الله سبحانه ممكن لذاته، فلولا إيجاد الباري عزّ وجل له كان عدماً، والعدم ظلمة؛ لأنه غير ظاهر في نفسه ولا مظهر لغيره، بخلاف الوجود فإنه يحمل خصائص النور؛ لأنه ظاهر بنفسه ومظهر لغيره، فكل ما سوى الله سبحانه مظلم لذاته ومستنير به سبحانه في أصل وجوده وفي كمال وجوده؛ لأنه سبحانه هو الذي أفاض على الأشياء العلوم والمعارف والآثار والخصائص، ولولاه لم يظهر لها أثر ولا علم ولا خاصة.

والنكتة اللطيفة في التعبير أنهعليه السلام قال: «بنور وجهك» فنسب النور إلى وجهه سبحانه وليس إلى ذات النور؛ لأن وجهه ذاته هي المنيرة بالذات في أصل وجودها وكمالاتها، وأما النور الصادر منها فهو الآخر ممكن غارق في الظلمة، فنورانيته ليست من نفسه، بل مكتسبة من وجهه سبحانه وبهذا يتضح أن النور الحقيقي ليس إلّا هو سبحانه، وكل ما سواه فليس بنور وتسميته بالنور من باب المجاز، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٢) .

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٢.

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

المشيئة الإلهية

الثالث: ولعل المراد من نور وجهه هنا المشيئة -بناء على أن اللام بمعنى الباء - الأولى التي هي من صفات ذاته؛ لأنه سبحانه بنور المشيئة أوجد الأشياء وأظهرها إلى عالم الوجود، وقد ورد في الحديث: ﴿خلق الله المشيئة بنفسها، ثم خلق الأشياء بالمشيئة﴾[(١)] وذلك حسب قاعدة: (كل ما بالعرض لابد وأن ينتهي إلى ما بالذات)[(٢)].

وقد خلق المشيئة بنفسها لا بمشيئة أخرى دفعاً للدور والتسلسل فإن المشيئة بداية الصفات الفعلية كما يظهر من بعض الأخبار عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلّا بهذه الخصال السبع: بمشيّة وإرادة وقدر وقضاء وإذن وكتاب وأجل، فمن زعم أنّه يقدر على نقض واحدة فقد كفر﴾[(٣)].

وفي الكافي قال سئل العالم عليه السلام كيف علم الله؟ قال: ﴿علم وشاء وأراد وقدّر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى، وقضى ما قدّر، وقدّر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان

---

(١) الكافي: ج١، ص١١٠، ح٤؛ وانظر التوحيد: ص١٤٧، ح١٩، وورد أيضاً مثله في ص٣٣٩، ح٨، قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿خلق الله المشيئة قبل الأشياء ثم خلق الأشياء بالمشيئة﴾.

(٢) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٢٨.

(٣) الكافي: ج١، ص١٤٩، ح١؛ وانظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٦٢.

القضاء، وبقضائه كان الإمضاء، والعلم متقدِّم على المشيئة، والمشيئة ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء﴾[(١)].

والعلم من صفات الذات لا الفعل، ولذا تأتي المشيئة بعد العلم إلّا إذا أريد من العلم الفعلي الذي هو عبارة عن إيجاد الشيء على الوجه الأكمل فتأمل.

فالمشيئة هي الواسطة بين الخالق والمخلوق كما تبطل أيضاً قاعدة الواحد التي أثبتها الحكماء في الواجب؛ ولأجلها انتهوا إلى القول بنظرية العقول.

بطلان نظرية العقول العشرة

وقد ردّها المحقق الطوسيّ في التجريد، وقال أدلة وجوده مدخولة[(٢)]؛ إذ المشيّة تتعدد حيثياتها، وفي كل حيثية يخلق خلقاً ولا يلزم منه التركيب، وما ذكره الحكماء يصح في العلل المجبورة لا العلة المختارة؛ لأن المختار تتعدد آثاره، والاختلاف في جهة تعلق المشيئة والإرادة لا في ذات الإرادة والمشيئة حتى يلزم منه التركيب كما توهموا، ولذا قال العلامةﷺ في توضيح كلام الطوسيﷺ:

---

(١) الكافي: ج١، ص١٤٨-١٤٩، ح١٦.

(٢) جاء في تجريد الاعتقاد: ص١٥٥؛ الفصل الرابع: في الجواهر المجرّدة (العقل الفعّال)، أمّا العقل: فلم يثبت دليل على امتناعه، وأدلة وجوده مدخولة، كقولهم: الواحد لا يصدر عنه أمران.

بعد تسليم أصول دليل الحكماء فإنه إنما يلزم لو كان المؤثر موجباً، وأما إذا كان مختاراً فلا، فإن المختار تتعدد آثاره وأفعاله[١]، على أن نظرية العقول تنتهي إلى الجبر والعجز في الخالق، وبطلانهما ظاهر.

وعليه فمعنى الجملة حينئذ يكون هكذا: وبمشيتك التي أضأت بها الكائنات، وأنرت بها عوالم الإمكان، ولا يخفى أن الاحتمال الأول يشير إلى جهة العلم والاطلاع على خفايا الكائنات كبيرها ودقيقها، والفرق بين الاحتمال الثاني والثالث هو أن الثاني يشير إلى جهة الوجود الذاتي، فهو يشير إلى الذات، بينما الثالث يشير إلى المشيئة، وهي صفة فعل، وعليه فإن الثاني أعم من الثالث؛ لأنه يرجع الإيجاد إلى الذات بجميع صفاتها الكمالية ومنها المشيئة، بينما الثالث ناظر إلى صفة خاصة التي بواسطتها يوجد سبحانه الأشياء فتدبر.

الرابع: الهداية، فإنها تشارك النور في الأثر، وقد كثر إطلاق النور عليها في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾[٢] أي من ظلمة الجهل والكفر إلى نور العلم والهدى، فقوله عليه السلام: ﴿وبنور وجهك﴾ أي أقسم عليك بهدايتك التي أضاءت واهتدى بها كل شيء، ونتيجة هذا المعنى أن يحمل النور على المجاز[٣]، وبه وردت بعض الأخبار، ففي رواية العباس بن

---

(١) كشف المراد: ص١٨٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٣) انظر التوحيد: ص١٥٥-١٥٦؛ شرح أصول الكافي: ج٣، ص٥٦؛ أسرار العارفين: ص١١٠-١١١.

هلال قال: سألت الرضاعليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: «هاد لأهل السماء وهاد لأهل الأرض»[(١)].

أولياء الله وحججه هم وجه الله سبحانه

الخامس: وجهه سبحانه هم أنبياؤه وأولياؤه عليهم السلام كما في النصوص الشريفة، وأعلاهم مرتبة هم محمد وآل محمد عليهم السلام قال الصدوق قدس سره: وجه الله: أنبياؤه وحججه[(٢)].

وفي الرواية الشريفة عن أبي الصلت عن مولانا الرضاعليه السلام قال: قلت: يا بن رسول الله ما معنى الخبر الذي رووه أنّ ثواب لا إله إلّا الله ثواب النظر إلى وجه الله؟ فقال عليه السلام: «من وصف الله بوجه كالوجوه فقد كفر، ولكن وجه الله أنبياؤه ورسله وحججه عليهم السلام. هم الذين بهم يتوجّه إلى الله تعالى وإلى دينه ومعرفته... فالنظر إلى أنبياء الله ورسله وحججه عليهم السلام في درجاتهم ثواب عظيم للمؤمنين يوم القيامة»[(٣)].

وفي دعاء الندبة الشريف لمولانا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف: «أين وجه الله الذي إليه يتوجّه الأولياء؟»[(٤)] لأنه صدر الخلائق ذو البر والتقوى، والسبب المتصل بين الأرض والسماء، وباب الله الذي منه يؤتى، والحجة الإلهية التي ببقائها بقيت الدنيا، ولولاها لساخت الأرض بأهلها،

---

(١) الكافي: ج١، ص١١٥، ح٤؛ التوحيد: ص١٥٥؛ معاني الأخبار: ص١٥، ح٦.

(٢) الفقيه: ج١، ص٣٣٤، ح٩٧٩.

(٣) التوحيد: ص١١٧، ح٢١؛ أمالي الصدوق: ص٥٤٥، ح٧٢٨.

(٤) إقبال الأعمال: ص٥٠٩؛ المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٥٧٩.

ولا بقيت شمس مضيئة، ولا فلك يدور، ولا بحر يجري، ولا عابد يعبد[(١)] صلوات الله عليه وعلى آبائه ما طلعت شمس و بزغت نجوم.

وفي الزيارة الجامعة التي يدل قوة مضمونها على وثاقة صدورها فضلاً عن شهرة التزام الأعلام بها وغيرها من قرائن قوة الاعتبار: ﴿من أراد الله بدأ بكم، ومن وحّده قبل عنكم، ومن قصده توجّه بكم﴾[(٢)].

وقد ثبت في الأدلة بأنّ أوّل ما خلق الله أنوارهمعليهم السلام، كما ورد عن جابر بن يزيد قال: قال لي أبو جعفرعليه السلام: ﴿يا جابر، إنّ الله أوّل ما خلق خلق محمداًصلى الله عليه وآله وعترته الهداة المهتدين، فكانوا أشباح نور بين يدي الله﴾ قلت: وما الأشباح؟ قال: ﴿ظلُّ النور أبدان نورانية بلا أرواح، وكان مؤيّداً بروح واحدة وهي روح القدس، فبه كان يعبد الله وعترته، ولذلك خلقهم حلماء علماء بررة أصفياء يعبدون الله بالصلاة والصوم والسجود والتسبيح والتهليل، ويصلون الصلوات، ويحجّون ويصومون﴾[(٣)].

وعن أبي عبد اللهعليه السلام قال: ﴿إنّ الله كان إذ لا كان فخلق الكان والمكان، وخلق نور الأنوار الذي نورت منه الأنوار، وأجرى فيه من نوره الذي نوّرت منه الأنوار، وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً، فلم يزالا نورين أوّلين إذ لا شيء كوّن قبلهما، فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب

---

(١) ﴿فبيمنه رزق الورى، وببقائه بقيت الدنيا، وبوجوده ثبتت الأرض والسماء﴾، مشارق أنوار اليقين: ص١٥٧.

(٢) المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٥٣٢؛ وانظر عيون أخبار الرضاعليه السلام: ص٣٠٨، ح١.

(٣) الكافي: ج١، ص٤٤٢، ح١٠.

الطاهرة حتى افترقا في أطهر طاهرين في عبد الله وأبي طالب عليهما السلام ﴾[١].

وعن أبي خالد الكابلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجل: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[٢] فقال: ﴿يا أبا خالد، النور -والله- نور الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله إلى يوم القيامة، وهم -والله- نور الله الذي أنزل، وهم -والله- نور الله في السماوات وفي الأرض، والله يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم -والله-ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب الله عزّ وجل نورهم عمَّن يشاء فتظلم قلوبهم، والله يا أبا خالد لا يحبنا عبد ويتولانا حتى يطهّر الله قلبه، ولا يطهّر الله قلب عبد حتى يسلِّم لنا ويكون سلماً لنا، فإذا كان سلماً لنا سلّمه الله من شديد الحساب، وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر﴾[٣].

وعن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[٤] قال: ﴿يريدون ليطفؤا ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بأفواههم﴾ قلت: قوله تعالى: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾[٥] قال: ﴿يقول: والله متمُّ الإمامة، والإمامة هي النور، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ النور هو الإمام﴾[٦].

---

(١) الكافي: ج١، ص٤٤١-٤٤٢، ح٩؛ البحار: ج١٥، ص٢٤، ح٤٦.

(٢) سورة التغابن: الآية ٨.

(٣) الكافي: ج١، ص١٩٤، ح١.

(٤) سور الصف: الآية ٨.

(٥) سورة الصف: الآية ٨.

(٦) أصول الكافي: ص١٩٥-١٩٦، ح٦.

وبهذا يظهر مصداق آخر لفقرة الدعاء الشريف، ومن الواضح أن تعدد المصاديق لا يضر في المعنى شيئاً، كما لا يبعد أن يكون الجميع مقصوداً له عليه السلام؛ لأنها جميعاً مما يليق بالتوسل والالتماس وجعل الواسطة بين العبد وربه، نعم التفاوت في المراتب، والأدلة المتضافرة تدل على أنهم عليهم السلام أعلى مراتب النور الإلهي، حيث كرّمهم سبحانه وفضّلهم وجعلهم أبواب الخلق وهداتهم وشفعاءهم، وفوّض إليهم أمر التكوين والتشريع والحكومة في الدنيا، وأعطاهم ولاية الحساب والجزاء في الآخرة، ثم من بعدهم تأتي المراتب الأخرى.

ثم بواسطة أنوارهم خلق الخلق بأسره في مراتبه العلوية والسفلية؛ إذ هم مجاري الفيوضات الإلهية: «بكم فتح الله، وبكم يختم...»[1] كما في الزيارة الجامعة، وتقدم أنهم عليهم السلام: العلة الفاعلية للخلق، والعلة الغائية أيضاً الذي يدور عليها رحى الوجود.

فقد ثبت بالأدلة العقلية المستفيضة أنهم عليهم السلام الوسائط بين الخلق والحق في إفاضة جميع الفيوضات والعلوم والكمالات على جميع الخلق، ولولاهم لما خلق الله الأفلاك[2].

---

(١) الفقيه: ج٢، ص٦١٥، ح٣٢١٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٣٠٨، ح١؛ التهذيب: ج٦، ص٩٩، ح١٧٧.

(٢) إشارة إلى روايات كثيرة بهذا المعنى منها قول رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين صلوات الله عليه: «... يا علي، لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء، ولا الجنة ولا النار، ولا السماء ولا الأرض...» انظر علل الشرائع: ج١، ص٥، ح١.

ففي الزيارة الجامعة: ﴿مواليّ لا أحصي ثناءكم، ولا أبلغ من المدح كنهكم، ومن الوصف قدركم، وأنتم نور الأخيار، وهداة الأبرار، وحجج الجبار، بكم فتح الله، وبكم يختم، وبكم ينزل الغيث، وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، وبكم ينفّس الهم، ويكشف الضرّ، وعندكم ما نزلت به رسله، وهبطت به ملائكته، وإلى جدّكم بعث الروح الأمين....﴾[(١)] .

وعن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿ما جاء به علي عليه السلام آخذ به، وما نهى عنه أنتهي عنه. جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمد صلى الله عليه وآله، ولمحمد صلى الله عليه وآله الفضل على جميع من خلق الله عز وجل. المتعقّب عليه في شيء من أحكامه كالمتعقّب[(٢)] على الله وعلى رسوله، والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حدّ الشرك بالله، كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتى إلّا منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وكذلك يجري لأئمة الهدى واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجّته البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى، وكان أمير المؤمنين(صلوات الله عليه) كثيراً ما يقول: أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، أنا صاحب العصا والميسم، ولقد أقرّت لي جميع الملائكة والروح والرسل بمثل ما أقرُّوا به لمحمد صلى الله عليه وآله، ولقد حملت على مثل حمولتهِ وهي حمولة الرب، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله يدعى فيكسى وأُدعى فأُكسى، ويستنطق وأُستنطق فأنطق على حدّ منطقه، ولقد أُعطيت خصالاً ما سبقني

---

(١) الفقيه: ج٢، ص٦١٥، ح٣٢١٣؛ التهذيب: ج٦، ص٩٩، ح١٧٧.

(٢) المتعقِّب: الراد عليه والشاك فيه؛ انظر مجمع البحرين: ج٢، ص١٢٦، (ع ق ب).

إليها أحد قبلي. علمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب[١] فلم يفتني ما سبقني، ولم يعزب عني ما غاب عني، أُبشِّر بإذن الله، وأؤدّي عنه. كل ذلك من الله مكنّني فيه بعلمه﴾[٢].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ﴿لما خلق الله تعالى أبا البشر ونفخ فيه من روحه التفت آدم يمنة العرش فإذا نور خمسة أشباح سجداً وركعاً. قال آدم: يا رب هل خلقت أحداً من طين قبلي؟ قال: لا يا آدم. قال: فمن هؤلاء الخمسة الذين أراهم في هيئتي وصورتي؟ قال: هؤلاء خمسة من ولدك لولاهم ما خلقتك، ولولاهم ما خلقت الجنة ولا النار، ولا العرش ولا الكرسي، ولا السماء ولا الأرض، ولا الملائكة ولا الإنس ولا الجن، هؤلاء خمسة شققت لهم خمسة أسماء من أسمائي، فأنا المحمود وهذا محمد، وأنا العالي وهذا علي، وأنا الفاطر وهذه فاطمة، وأنا الإحسان وهذا الحسن، وأنا المحسن وهذا الحسين. آليت بعزّتي أنه لا يأتيني أحد بمثقال حبّة من خردل من بغض أحدهم إلّا أدخلته ناري ولا أبالي، يا آدم، هؤلاء صفوتي من خلقي، بهم أنجيهم وأهلكهم فإذا كان لك إليَّ حاجة فبهؤلاء توسل، فقال النبي صلى الله عليه وآله: نحن سفينة النجاة من تعلّق بها نجا ومن حاد عنها هلك، فمن كان له إلى الله حاجة فليسأل بنا أهل البيت﴾[٣].

---

(١) المنايا والبلايا: آجال الناس ومصائبهم، وفصل الخطاب: المفصول الغير المشتبه فلم يفتني ما سبقني: أي علم ما حظر، ما غاب عني: أي علم ما يأتي. انظر الكافي: ج١، ص١٩٧، الهامش؛ الوافي: ج٣، ص٥١٥.

(٢) الكافي: ج١، ص١٩٦، ح١.

(٣) خلاصة عبقات الأنوار: ج٤، ص٢١٣-٢١٤، الرقم ١٣؛ غاية المرام: ج١، ص٢٦، ح١.

التوسل بآل محمد عليهم السلام

ومن هنا نعرف أن التوسل إلى الله سبحانه يكتمل ويصل إلى غاياته إذا كان بطرقهم وبواسطتهم عليهم السلام، بل وبما ورد عنهم في الكيفية والطريقة، وكلما توسلنا بهم أكثر إلى الله شملتنا رحمته تبارك وتعالى، ودخلنا إلى ساحة قدسه، وفزنا بنيل عطاياه وفيوضاته؛ لأن لكل شيء باباً وهم عليهم السلام باب الله الذي منه يؤتى.

وبهذا يعرف السرّ في بطء إجابة بعض التوسلات وإن تمّت عن طريقهم؛ لأن الإجابة على قدر المعرفة، وإذا كانت المعرفة بمقاماتهم أقل كانت إجابة الدعاء أبطأ[1].

---

(١) أعيان الشيعة: ج١، ص٥٧٩، وفيه: «أن الحسين عليه السلام كان جالساً في مسجد جده رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاة أخيه الحسن عليه السلام، وكان عبد الله بن الزبير جالساً في ناحية المسجد، وعتبة بن أبي سفيان في ناحية أخرى، فجاء أعرابي على ناقة فعقلها بباب المسجد، ودخل فوقف على عتبة بن أبي سفيان فسلّم عليه، فرد عليه السلام، فقال له: الأعرابي: إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية، فهل لك أن تعطيني شيئا؟ فرفع رأسه إلى غلامه وقال: ادفع إليه مئة درهم، فقال الأعرابي: ما أريد إلّا الدية تماماً ثم تركه، وأتى عبد الله بن الزبير وقال له مثل ما قال لعتبة، فقال عبد الله لغلامه: ادفع إليه مئتي درهم، فقال الأعرابي: ما أريد إلّا الدية تماماً ثم تركه، وأتى الحسين عليه السلام فسلّم عليه وقال: يا بن رسول الله، إني قتلت ابن عم لي وقد طولبت بالدية، فهل لك أن تعطيني شيئاً؟ فقال له: «يا أعرابي، نحن قوم لا نعطي المعروف إلّا على قدر المعرفة، فقال: سل ما تريد، فقال له الحسين عليه السلام: يا أعرابي ما النجاة من الهلكة؟ قال: التوكل على الله عز وجل، فقال وما الهمة؟ قال: الثقة بالله، ثم سأله الحسين عليه السلام غير ذلك، وأجاب ←

كما ورد عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت محمداً صلى الله عليه وآله يقول: ﴿إن الله عزّ وجل يقول: يا عبادي أوليس من له إليكم حوائج كبار لا تجودون بها إلّا أن يتحمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامة لشفيعهم؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق عَلَيَّ، وأفضلهم لديّ محمد وأخوه علي، ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إليّ، ألا فليدعني من همته حاجة يريد نفعها أو دهته داهية يريد كشف ضررها بمحمد وآله الطيبين الطاهرين..﴾[1].

وكذلك نعرف السر في استجابة بعض الدعوات أو عدم استجابتها واستجابة شطر من الدعاء بقضاء بعض الحاجة لا جميعها، فإن ذلك منوط بمقام المعرفة والإيمان بهم عليهم السلام، والتمسك بمحبتهم وولايتهم، والتولي لمن يتولاهم، والتبريّ ممن عاداهم (عليهم أفضل الصلاة والسلام).

→

الأعرابي، فأمر له الحسين عليه السلام بعشرة آلاف درهم، وقال له هذه لقضاء ديونك، وعشرة آلاف درهم أخرى وقال: هذه تلم بها شعثك، وتحسن بها حالك، وتنفق منها على عيالك﴾. فأنشأ الأعرابي يقول:

طربت وما هاج لي معبق ... ولا لي مقام ولا لي معشق
ولكن طربت لآل الرسو ... ل فلذَّ لي الشعر والمنطق
هم الأكرمون هم الأنجبون ... نجوم السماء بهم تشرق
سبقت الأنام إلى المكرمات ... فقصر عن سبقك السُبَّق
بكم فتح الله باب الرشاد ... وباب الفساد بكم مغلق

؛ شرح إحقاق الحق: ج٣، ص٦٢٦؛ نهج السعادة: ج٨، ص٢٨٦-٢٨٨.

(١) عدة الداعي: ص١٥١.

فقد جاء في الوسائل عن أبي جعفرعليه السلام قال: «إن عبداً مكث في النار سبعين خريفاً، والخريف سبعون سنة، ثم إنه سأل الله بحق محمد وأهل بيته: لما رحمتني، فأوحى الله إلى جبرئيل أن أهبط إلى عبدي فأخرجه -إلى أن قال: عبدي كم لبثت في النار تناديني؟ قال: ما أحصي يا رب، فقال له: وعزتي وجلالي لولا ما سألتني به لأطلت هوانك في النار، ولكني حتمت على نفسي أن لا يسألني عبد بحق محمد وأهل بيته إلّا غفرت له ما كان بيني وبينه، وقد غفرت لك اليوم»[١].

وعن ابن عباس قال: سألت النبيصلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه؟ قال: «سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت علي فتاب عليه»[٢] وقد مر تفصيل ذلك.

اللهم اجعلنا من المتمسكين بهم في الدنيا والمحشورين في زمرتهم في الآخرة إنك سميع الدعاء.

ثم إن في قولهعليه السلام: أضاء له كل شيء الإضاءة مرة تأتي بمعنى المتعدي ومرة بمعنى اللازم، فالأولى كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ﴾[٣] ولعل اللازم هنا أقرب؛ لأن بمشيته أو إيجاده أو بأوليائه تظهر الأشياء وتكتسب نور الوجود فتضيء لهذه الثلاثة وتخرج من حيّز الاعدام إلى الوجودات، سواء في أصلها أم في كمالاتها: وهنا نلفت الأنظار إلى قضيتين:

---

(١) الوسائل: ج٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص٩٨، ح٨٨٤٢.

(٢) الوسائل: ج٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص٩٨-٩٩، ح٨٨٤٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧.

الأولى: أن فقرات الدعاء الشريف المتقدمة من قوله: ﴿اللهم إني أسألك برحمتك إلى وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء﴾ وردت بنحو التسلسل المنطقي في طرق أبواب الباري عزّ وجل والولوج إلى مقامه القربي بواسطة اسمائه وصفاته الطولية، فأول السؤال يبتدئ بالرحمة؛ لأنها صفة الذات والفعل، وبها يستميل الداعي رأفة المدعو وعطفه، ثم القوة تأتي بعد الرحمة؛ لأن أثر الرحمة تنشأ من القوة؛ لقصور العاجز عن الإجابة، والقوة وحدها تستلزم الجبروت؛ لإمكان أن يتمرد المقدور بسبب وجود المانع، كالقوة الأقوى، فما لم تكن القوة جبروتية لا يظهر أثرها، وبعدها لابد من بيان جهة العزة أي الاستغناء الذاتي والتنزه عن النقص؛ لدفع ما قد يتوهم من أن جبروته ناشئ من الاحتياج أو الجبر على الفعل، ومن كانت قوته غالبة وعزيزة كان عظيماً، وعظمته سارية في كل شيء؛ لأن الكل مقهور له خاضع لإرادته، وهو سمة السلطان المتسلط على الأشياء والحاكم فيها؛ لذا قال بعدها ﴿**وبسلطانك الذي على كل شيء**﴾ وهذه صفات الذات الغنية القادرة المنزهة عن العجز والنواقص، وبعد أن ذكرها ومجَّدها وأثنى عليها بالصفات العامة انتقل إلى جهة التخصيص في المسألة، فابتدأ بوجهه ليجلب توجه المسؤول وعنايته إليه، ثم اتخذ الواسطة بينه وبينه، وهي أسماؤه الحسنى التي أمر بدعائه بها، ثم ركن إلى علمه المحيط بالعبد وكل شؤونه وحاجاته لكي يستغني عن تفصيل المطالب، وهو إجمال في الطلب يقتضيه أدب الدعاء والعبودية، وهذه جهة الفاعل، ثم ختم بقوله: ﴿**وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء**﴾ وهي جهة القابل؛ إذ نسب الإضاءة إلى

الأشياء نفسها؛ لبيان حضورها لديه وعدم خفائها عليه، فهي ليست بعيدة عنه، ولا خافية عليه، ولا مستورة أو محجوبة، فلا يعلم بها؛ لأنها جميعاً معلومة وحاضرة عنده.

وبهذا التسلسل المنطقي في السؤال يظهر العمق المعرفي في كلمات المعصومين عليهم السلام، والترابط التكويني بين كلماتهم، ويفتح سراً من أسرار الغيب في طريقة الدعاء والأسلوب الأنسب لفتح مغاليق أبواب السماء بالإجابة.

الثانية: أنه عليه السلام انتقل في الفقرات التالية بلسان النداء قبل بيان الحاجات وتفصيل الحوائج لتحصيل أمرين:

أحدهما: إحراز الإجابة؛ لأنه سبحانه قال: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[١] وقال: ﴿**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[٢] وهذا وعد لا يخلفه الباري عز وجل.

ثانيهما: لانقطاع القلب وانصرافه إليه، فإن المنادي ينقطع إلى المنادى ويتوجه إليه بكله، فيوفر علة الاستفاضة والإفاضة بإيجاد المقتضي ونفي المانع.

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

﴿يا نُورُ يا قُدُّوسُ، يا أَوَّلَ الأَوَّلِينَ، وَيا آخِرَ الآخِرِينَ﴾

يا نور يا قدّوس

حيث إن الصفات والأسماء الأولى التي ابتدأ بها الدعاء كانت تشير إلى الصفات القهرية واللطفية معاً فربما يتوهم البعض النقص أو التشبيه، فجاء بالأسماء الأربعة الدالة على التقديس والتنزيه وهي (النور والقدّوس والأوّل والآخر) دفعاً لهذا التوهم كما ستعرف إن شاء الله تعالى، وقد ابتدأ بالنور؛ لأنه الذي تضيء له الأشياء وتضاء به، وهنا أمران:

الأمر الأول: ماذا يعني النور؟

النور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره[1] مطلقاً، سواء كان من ذاته أو مستفاداً من غيره، وبمعناه الضوء كما هو ظاهر بعض أهل اللغة[2] بل في معجم الفروق اللغوية: هما مترادفان لغة، وضعفه ظاهر[3] في المبنى والبناء.

وعن الراغب أن النور هو الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وهو ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي ضربان: معقول بعين البصيرة وهو ما انتشر من الأنوار الإلهية كنور العقل ونور القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ**﴾[4] ومحسوس بعين البصر وهو ما انتشر من الأجسام

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٥٠٤، (نور).

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٥٨٠، (ضوأ).

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٣٣٢، (١٣٢٥).

(٤) سورة المائدة: الآية ١٥.

النيّرة كالقمرين والنجوم النيّرات، ومنه قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا﴾[١] ومن النور الأخروي قوله سبحانه: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[٢][٣].

وفي الكليّات النور هو الجوهر المضيء، والنار كذلك، غير أن ضوء النار مكدّر مغمور بدخان محذور عنه بسبب ما يصحبه من فرط الحرارة والإحراق، فإذا صارت مهذّبة مصفاة كانت محض نور[٤].

والظاهر أن النور أعم من الضياء؛ لأنه يشمل المادي والمعنوي كما وصف القرآن الكريم رسول الله بالنور، والقرآن كذلك: ﴿وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[٦] كما أن العلم نور أيضاً، ولا يقال له ضياء، فما قاله أبو هلال العسكري في المعجم والطريحي في المجمع من أن النور ضوء عارضي والضياء ضوء ذاتي محل تأمل[٧].

بشهادة وصف الباري عزّ وجل بالنور، وهو ذاتي لا مكتسب، وربما يفرق بينهما بفوارق:

---

(١) سورة يونس: الآية ٥.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٢.

(٣) مفردات الراغب: ص٥٣٠، (نور).

(٤) تفسير البيضاوي: ج١، ص٢٩٦.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٦) سورة المائدة: الآية ١٥.

(٧) معجم الفروق اللغوية: ص٣٢٢، (١٣٢٥)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٥٠٤، (نور).

الأول: أن النور أعم من الضوء؛ لأنه يشمل المادي والمعنوي، بخلاف الضوء فإنه يختص بالمادي.

والثاني: أن النور يطلق في مقابل الظلمة المادية والمعنوية؛ لذا يوصف ضوء القمر بالنور، وكذا العلم بخلاف الضوء؛ لذا يقال ضوء النهار.

والثالث: أن الضوء كاشفية النور وظهوره أي أثره، فلذا يصح نسبة الضوء إلى النور فيقال أضاء نوره وضوء النور، ولا يصح العكس بأن يقال نور الضوء أو أنار ضوؤه؛ لأنه تحصيل للحاصل وقد ورد النور بمعنييه المادي والمعنوي عن سادة الخلق عليهم السلام كما في التوحيد للصدوق قدس سره: «النور معناه المنير، ومنه قوله عز وجل: ﴿**الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[1] أي منيرٌ لهم وآمرهم وهاديهم، فهم يهتدون به في مصالحهم كما يهتدون في النور والضياء، وهذا توسّع؛ إذ النور الضياء، والله عزّ وجل متعالٍ عن ذلك علواً كبيراً؛ لأنّ الأنوار محدثة، ومحدثها قديم لا يشبهه شيء، وعلى سبيل التوسع قيل: إنّ القرآن نورٌ؛ لأن الناس يهتدون به في دينهم كما يهتدون بالضياء في مسالكهم، ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وآله منيراً»[2].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ قال عليه السلام: بدأ بنور نفسه ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿**كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ والمشكاة جوف المؤمن، والقنديل قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه:

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

(٢) التوحيد: ص٢١٣.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ قال: الشجرة المؤمن ﴿زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: على سواد الجبل لا غربية أي لا شرق لها، ولا شرقية أي لا غرب لها، إذا طلعت الشمس طلعت عليها، وإذا غربت غربت عليها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ يكاد النور الذي جعله الله في قلبه يضيء وإن لم يتكلم ﴿نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فريضة على فريضة، وسنّة على سنّة ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يهدي الله لفرائضه وسننه من يشاء ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ فهذا مثل ضربه الله للمؤمن، ثم قال: فالمؤمن يتقلّب في خمسة من النور، مدخله نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، وكلامه نور، ومصيره يوم القيامة إلى الجنة نور، قلت لجعفر عليه السلام: إنهم يقولون مثل نور الرب؟

قال: «سبحان الله ليس لله مثل. قال الله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ﴾[1]»[2].

النور عند المتصوفة والعرفاء

والنور عند المتصوفة والعرفاء يعني الحقيقة السارية في جميع الأشياء المسمى (بالنور الأقدس) ونحوها حسب المبنى المعروف عندهم من وحدة الوجود والموجود وأن ماهيات الممكنات ليست إلّا أموراً اعتبارية، وحقائق الموجودات كلها مظاهر لتلك الحقيقة الواحدة، ويتمسّكون بقوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3] وبقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ

---

(١) سورة النحل: الآية ٧٤.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٦٠٥، ح١٧٩.

(٣) سورة النور: الآية ٣٥.

﴿رَبِّهَا﴾[(١)] لإثبات مدّعاهم، ولا دليل على صحة مبناهم[(٢)] وعدم دلالة الآيتين على مطلوبهم؛ لأن الأولى واصفة للباري عز وجل، والإضافة إلى السموات والأرض تفيد العلية لا الاتحاد، والثانية مجملة لاحتمال أن يكون إشراق الأرض بنور الشمس أو بنور الإمامعليه السلام، وكلاهما نوره، بل قرينة (ربها)يفيد أنه الإمام صلوات الله عليه؛ لأنه الذي يربي الأرض ومَن عليها بعلمه وهدايته وعدله، على أن الباء في قوله: ﴿بِنُورِ﴾ تفيد السببية، وهي تقتضي المغايرة بين السبب والمسبب لا الاتحاد ولا الوحدة، وللبحث تفاصيل لا تسعنا هنا.

مصاديق النور وآثاره

هذا والنور اسم من أسماء الفعل، وهو قسمان تكويني ومعنوي، والمراد بالتكويني ((المنوّر)) أي منوِّر الأشياء بإفاضة الوجود عليها وإخراجها من ظلمة العدم، وبهذا يصبح صفة فعل، والمراد بالمعنوي نور الحق والهدى وقد ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام تفسير قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(٣)] بأنّه المنوّر بهذا المعنى: أنه سبحانه نشر الحق في السماوات والأرض وما بينهما كي تستنير السماوات والأرض بنور الحق.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٩.

(٢) شرح الأسماء الحسنى: ص٤٧٥، كلام في تفسير ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سورة النور: الآية ٣٥؛ وانظر نهج الحق وكشف الحق: ص٥٧؛ شوارق الإلهام: ج١، ص٤١؛ كوهرمراد: ص٢٨٢-٢٨٣؛ أسرار العارفين: ص١١٤.

(٣) سورة النور: الآية ٣٥.

ففي التوحيد: عن العباس بن هلال قال: سألت الرضاعَلَيْهِ السَّلَامُ عن قول الله عز وجل: ﴿الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: «هادٍ لأهل السماوات وهادٍ لأهل الأرض...» وفي رواية: «هدى من في السماوات وهدى من في الأرض»[(١)]، وقد شرح ذلك بعض المفسرين فقال:

قد بيّن سبحانه بأن له تعالى نوراً عاماً تستنير به السموات والأرض، فتظهر به في الوجود بعد ما لم تكن ظاهرة فيه، فمن البيّن أن ظهور شيء بشيء يستدعي كون المظهر ظاهراً بنفسه، والظاهر بذاته المظهر لغيره هو النور، فهو تعالى نور يظهر السماوات والأرض بإشراقه عليهما، كما أن الأنوار الحسيّة تظهر الاجسام الكثيفة للحس بإشراقها عليها، غير أن ظهور الأشياء بالنور الإلهي عين وجودها، وظهور الأجسام الكثيفة بالأنوار الحسيّة غير أصل وجودها.

ونوراً خاصاً يستنير به المؤمنون، ويهتدون إليه بأعمالهم الصالحة، وهو نور المعرفة الذي ستستنير به قلوبهم وأبصارهم يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، فيهتدون به إلى سعادتهم الخالدة، فيشاهدون فيه شهود عيان ما كان في غيب عنهم في الدنيا[(٢)].

وبهذا يتضح أن النور هنا مصدر بمعنى اسم الفاعل، فهو (نور) بمعنى منوّر، كقولهم (زيد عدل) أي عادل ويقال (عدل) لا (عادل)

---

(١) التوحيد: ص١٥٥.

(٢) تفسير الميزان: ج١٥، ص١٢٠، (بتصرف).

للدلالة على شدة عدله، بل اتحاد ذاته بصفة العدالة حتى كأن كله عدل، فهو سبحانه منوّر السماوات بملائكته المقربين، والأرضين بأنبيائه وأوليائه عليهم السلام تكويناً وتشريعاً، ومنوّر قلوب الساكنين ما بينهما بأنوار المعرفة والتوحيد معنوياً كما أنه منوّر السموات والأرضين بالشمس والقمر والكواكب والنجوم تكويناً حسيّاً.

وعلى هذا فإن النور يرد بمعانٍ عديدة **منها**: المنوّر **ومنها**: الهادي، **ومنها**: المصداق الجلي له وهو النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار الأبرار (صلوات الله عليهم أجمعين) كما في قوله سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾**(١).

وقد شبَّهه سبحانه بالسراج، وعرَّف السراج في آية أخرى بالشمس، حيث قال سبحانه: **﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾**(٢) والفرق أنه صلى الله عليه وآله شمس معنوية تنتفع العقول والقلوب بأنواره وبركاته، والشمس سراج مادي يستضيء به العالم، وينتفع بخيراتها وبركاتها، وفي آية ثالثة جمع بينهما كما قال سبحانه: **﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾**(٣) للإشارة إلى كلا المصداقين.

كما ورد عن مولانا الصادق عليه السلام: أنه سئل عن قول الله عز وجل: **﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾** فقال: «هو مَثَل ضَرَبه الله لنا، فالنبي والأئمة (صلوات الله عليهم) من دلالات الله وآياته التي

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٤٥-٤٦.

(٢) سورة نوح: الآية ١٦.

(٣) سورة النبأ: الآية ١٣.

يهتدى بها إلى التوحيد ومصالح الدين وشرائع الإسلام والسنن والفرائض، ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم»[(١)].

ومنها: أن يكون النور هو الإمام المعصوم عليه السلام كما عن الإمام الكاظم عليه السلام في قوله تعالى: **﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾**[(٢)] «النور هو الإمام، والإمامة هي النور»[(٣)].

وعن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: **﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾** فهو محمد صلى الله عليه وآله **﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾** هو العلم **﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾** الزجاجة أمير المؤمنين عليه السلام وعلم نبي الله عنده»[(٤)].

وعن مولانا الصادق عليه السلام: « **﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** قال: كذلك الله عزّ وجل **﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾** قال: محمد صلى الله عليه وآله **﴿كَمِشْكَاةٍ﴾** قال: صدر محمد صلى الله عليه وآله **﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾** قال: فيه نور العلم يعني النبوة و **﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾** قال: علم رسول الله صلى الله عليه وآله صدر إلى قلب علي عليه السلام...»[(٥)].

كما أن النور وجود الحق تعالى؛ إذ وجوده أظهر الوجودات، وبه ظهرت سائر الموجودات، فوجوده موجود بنفسه وموجِد لغيره، كالنور

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٦٠٣، ح١٧٢.

(٢) سورة التغابن: الآية ٨.

(٣) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٤١، ح١٦.

(٤) بصائر الدرجات: ص٣١٤، ح١؛ الاختصاص: ص٢٧٨؛ البحار: ج١٦، ص٣٥٦، ح٤٤؛ تفسير البرهان: ج٤، ص٦٨، ح٦.

(٥) تفسير الصافي: ج٣، ص٤٣٥.

الظاهر بنفسه المظهر لغيره؛ إذ سائر الأشياء بلا وجوده عدم محض، فهو نور السماوات والأرض.

فالنور هنا حقيقة الوجود التي أنارت كل الظلمات الإمكانية من الأعلى إلى الأدنى، واستشرقت بها جميع الماهيات والجواهر والأعراض وما فوقها كما جاء في تفسير الصافي: الله نور السماوات والأرض الظاهر بنفسه المظهر لهما بما فيهما[١]، ولا يمتنع الجمع بين المعاني باختلاف المراتب والمصاديق.

الأمر الثاني: ماذا يعني القدّوس؟

القدّوس بضم القاف وتشديد الدال وضمّها، وكذلك السبوح (سبّوح قدّوس) بمعنى الطاهر المنزّه من العيوب والنقائص، وقد يفتح القاف فحينئذ تصبح دلالته على الفاعل أكثر من الصفة المشبهة.

وكيف كان ففي لسان العرب: قدس: التقديس: تنزيه الله عز وجل. وفي التهذيب: القدس تنزيه الله تعالى، وهو المتَقَدِّس، القدُّوس المُقدَّس. ويقال: القدّوس فعُّول من القُدس، وهو الطهارة، وكان سيبويه يقول: سَبّوح وقَدُّوس بفتح أوائلهما[٢]، ولكن الظاهر أنه لم يجئ في صفات الله تعالى غير القُدُّوس وهو الطاهر المُنَزَّه عن العيوب والنقائص.

والتقديس: التطهير والتبريك، وتقدَّس أي تطهّر. وفي التنزيل: ﴿وَنَحْنُ

---

(١) تفسير الصافي: ج٣، ص٤٣٤.

(٢) لسان العرب: ج٦، ص١٦٨، (قدس).

نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[١] أي نُطهّر أنفسنا لك، وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدِّسه أي نطهِّره.

وقوله سبحانه: ﴿الملِكُ الْقُدُّوسُ﴾[٢] الطاهر في صفة الله عز وجل، وقيل قَدّوس بفتح القاف. قال: وجاء في التفسير أنه المبارك، والقدُّوس: هو الله عز وجل[٣].

وفي التوحيد للصدوق‏: وحظيرة القدس موضع الطهارة من الأدناس التي تكون في الدنيا والأوصاب والأوجاع وأشباه ذلك، وقد قيل: إن القدوس من أسماء الله عزّ وجل في الكتب[٤].

وجاء في تفسير القمي: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الملِكُ الْقُدُّوسُ﴾[٥] قال القدوس هو البريء من شوائب الآفات الموجبات للجهل[٦].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٣) لسان العرب: ج٦، ص١٦٨-١٦٩، (قدس)؛ وفي مجمع البحرين: ج٤، ص٩٤، (قدس).

والقدوس من أسمائه تعالى من القدس، وهو الطاهر المنزّه عن العيوب والنقائص، ونظيره السبوح. قال تغلب نقلاً عنه: كل اسم جاء على فَعُّول فهو مفتوح الأول إلّا السبوح والقدوس فإن الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان.

(٤) التوحيد: ص٢١٠.

(٥) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٦) تفسير القمي: ج٢، ص٣٦٠، في تفسير سورة الحشر الآية ٢٣، وانظر ص٣٦٦، تفسير سورة الجمعة الآية ١.

فهو تبارك وتعالى منّزه عن جميع النقائص والعيوب حتى من جهة الماهيَّة (إذ ماهيته إنيّته) والماهيَّة مظهر النقص والحاجة كما قرر في محله من الحكمة؛ إذ لازمها الذاتي الإمكان أو الحدوث على اختلاف المبنى، وهما عين الحاجة إلى الغير.

ومنزّه في أوصافه عن صفات النقص -صفات الجلال- بل متحلّ بكل كمال -صفات الكمال- ومنزّه في أفعاله عن النقص والعيوب إذ ﴿**أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[1] و:﴿**أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾[2] إذ فعله موافق للحكمة ومتقن، ﴿**مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ**﴾[3] أي لا نقص ولا عيب في فعله.

فهو قدّوس ذاتاً ووصفاً وفعلاً، وقد ثبت بالأدلة أن آل محمد عليهم السلام هم القدسيّة الإلهية ومجلاها، وقد قدّسهم ربهم تبارك وتعالى وطهّرهم سبحانه من النقائص الذاتية والأوصافية والفعلية بعصمتهم ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ**﴾[4] فهم أكمل الناس خَلْقاً، وأرفعهم خُلُقاً، وأكثرهم حباً ومعرفة وطاعة، ثم جعلهم حججاً على الخلق ومناراً للهدى.

كما ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى طهّرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا لا نفارقه ولا يفارقنا»[5].

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٢) سورة السجدة: الآية ٧.

(٣) سورة الملك: الآية ٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٥) الكافي: ج١، ص١٩١، ح٥.

وعن مولانا أبي جعفر عليه السلام قال: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله بات آل محمد عليهم السلام بأطول ليلة حتى ظنّوا أن لا سماء تظلّهم، ولا أرض تقلّهم؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وتر الأقربين والأبعدين في الله، فبينما هم كذلك إذ أتاهم آت لا يرونه ويسمعون كلامه، فقال: السلام عليكم -أهل البيت- ورحمة الله وبركاته. إن في الله عزاء من كل مصيبة، ونجاة من كل هلكة، ودركاً لما فات ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[(١)] إن الله اختاركم وفضّلكم وطهّركم، وجعلكم أهل بيت نبيّه، واستودعكم علمه، وأورثكم كتابه، وجعلكم تابوت علمه، وعصا عزّه، وضرب لكم مثلاً من نوره، وعصمكم من الزلل، وآمنكم من الفتن، فتعزّوا بعزاء الله»[(٢)].

لماذا قال عليه السلام يا نور يا قدّوس؟

ربما يقال إن الياء في النداء يستعمل لمناداة البعيد فيتنافى مع الدعاء من وجهين:

أحدهما: قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[(٣)].

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[(٤)] وقوله تعالى:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

(٢) الكافي: ج١، ص٤٤٥، ح١٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٤) سورة ق: الآية ١٦.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[١] والجواب: أن البعد قسمان مكاني ومقامي، والآيات المباركة ناظرة إلى القرب المكاني الحقيقي، وأما القرب المقامي فمفقود من جهات: جهة الفقر والحاجة بالقياس إلى الغنى، وجهة العجز بالقياس إلى جهة القدرة، وجهة الذنوب والمعاصي بالقياس إلى جهة القدس والطهارة، إلى غير ذلك من جهات تُبعد العبد من ربه مقاماً. **هذا أولاً**.

وثانياً: أن الآيات المباركة دالة على قرب الخالق من عبده، وهذا ما يقتضيه مقام الربوبية، ولا تدل على قرب العبد كذلك حتى يستحق الإجابة من دون نداء واستغاثة.

هذا ولعله عليه السلام ناجاه سبحانه بقوله: (يا نور يا قدّوس) بعد اعترافه بالقدرة والقهر والإرادة والعلم ونحو ذلك من صفات الجمال والجلال في الفقرات السابقة عليها لجهات:

منها: لإظهار غاية الخضوع والتذلل أمام ساحة عظمته وكبريائه تبارك وتعالى، وإظهار جهة قدسيته وطهارته من أن يؤخذ العبد بذنبه التقصيري فضلاً عن القصوري، ويجازيه باستحقاقه، بل يدعوه من جهة القدس والطهارة أن يتعامل معه باللطف والرحمة لا بالقهر والغلبة؛ لذا عطف على هذه الفقرة طلب المغفرة والتجاوز كما ورد في: «سبحان من لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب، سبحان الرؤوف الرحيم»[٢].

---

(١) سورة الحديد: الآية ٤.

(٢) المصباح: ص١٩٨.

ومنها: لإظهار أنه سبحانه القوي الغالب والقاهر والمحيط علماً وإرادة بكل شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، إلّا أنه قدوس منَّزه عن القبائح، وهو أول الأشياء، وإليه تعود الأشياء؛ لأنه أول الأولين وآخر الآخرين.

وعليه فإن قهره حسن، وغلبته حسنة، وقوته حكيمة؛ لأن ذلك كله بالحق ليس فيه جهة نقص أو قبح أو ظلم أو إخلال أو حرمان. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها: لدفع توهم التشبيه الذي قد يقع فيه بعض العباد الذين يصعب عليهم التمييز بين الصفات الحقيقية والأخرى المجازية؛ وذلك لأنهم يطلقون بعض تلك الصفات على البشر أيضاً، فيقولون: فلان عالم، وفلان قوي، وهذا غني، وذاك قاهر وإلى آخره، فيغفلون عن جهة التسامح، والإطلاق في الإطلاق، أو الإطلاق النسبي في مثل هذه الصفات؛ لأن هذه الصفات ليست ثابتة بنحو الحقيقة والكمال إلّا فيه سبحانه، فكل كمال واجب الثبوت له، وإذا نسب إلى غيره فهو بالعرض والمجاز، أو بلحاظ النسبية؛ فإن الإنسان مهما بلغ من العلم فإنّ علمه من الله سبحانه؛ لأنّ العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء، كما أنه يبقى جاهلاً أمام علم الله سبحانه وإحاطته، ومهما أوتي من قوة وقهر وغلبة فإنه يبقى عاجزاً لا يقوى على حركة أو سكنة في نفسه أو في غيره إلّا بقوته سبحانه وقدرته؛ إذ لا حول ولا قوة إلّا به سبحانه، وهو القاهر فوق عباده.

وعليه فإنه سبحانه قدوس عن التشبيه، ويتنزه عن تشبيه البشر به، فهو القوة المطلقة الغنية من جميع الجهات بلا فقر ولا جهل ولا عجز ولا نقصان، وكل ما سواه فهو عين النقص والعجز، وإن امتلك بعض صفات الكمال فهي من عطائه سبحانه وإذنه.

﴿يا أوَّلَ الأوَّلِينَ، وَيا آخِرَ الآخِرينَ﴾.

الأوّل والآخر

في مجمع البحرين: والآخر -بكسر الخاء- خلاف الأول[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾[2] وسئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ فقال: «ليس شيء إلّا يبيد ويتغيّر أو يدخله التغيير والزوال إلّا رب العالمين، فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، هو الأول قبل كل شيء، وهو الآخر على ما لم يزل، لا تختلف عليه الصفات والأسماء كما تختلف على غيره، مثل الإنسان يكون تراباً مرة، ومرة لحماً، ومرة دماً، ومرة رميماً، وكالبسر الذي يكون مرة بلحاً، ومرة بسراً، ومرة رطباً، ومرة تمراً، فتتبدّل عليه الأسماء والصفات والله بخلاف ذلك»[3].

«والآخر في أسمائه تعالى هو الباقي بعد فناء خلقه، والمؤخر أيضاً هو الذي يؤخر الأشياء فيضعها مواضعها»[4].

وعن ميمون اللّبان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول وقد سئل عن الأول والآخر: «الأول لا عن أول قبله، ولا عن بدء سبقه، والآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين، ولكن قديم أول آخر لم يزل ولا

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٠٢، (أخر).

(٢) سورة الحديد: الآية ٣.

(٣) الكافي: ج١، ص١١٥، ح٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٢٣١، ح٧.

(٤) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٠٢.

يزول بلا بدء ولا نهاية، لا يقع عليه الحدوث ولا يحول من حال إلى حال، خالق كل شيء﴾[١].

وفي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: ﴿الحمد لله الأوّل قبل كلّ أولّ، والآخر بعد كلّ آخر، وبأوليّته وجب أن لا أوّل له، وبآخريته وجب أن لا آخر له﴾[٢].

وليست الأولية والآخرية[٣] في الباري عزّ وجل زمانيتين كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان المعتادة على درك الأشياء في حيطة الزمان والمكان، بل المراد الأولية والآخرية السرمدية الذاتية، أي الحقيقة الدائمة التي لا تنقطع.

ففي اللغة: السرمد كفرقد الدائم المستمر الذي لا ينقطع[٤].

وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾[٥] قال الزجاج: السرمد الدائم، وفي حديث لقمان: جواب ليل سرمد، أي الدائم الذي لا ينقطع، ويطلق على دوام الزمان من الليل والنهار[٦].

---

(١) الكافي: ج١، ص١١٦، ح٦؛ معاني الأخبار: ص١٢، ح١؛ تفسير البرهان: ج٥، ص٢٧٩، ح٢.

(٢) نهج البلاغة: ص١٤٦، الخطبة ١٠١؛ وانظر ص٢٣٢، الخطبة رقم ١٦٣.

(٣) راجع بعض ذلك في شرح الأسماء الحسنى: ص٧١٩.

(٤) مجمع البحرين: ج ٣، ص٦٩، (سرمد).

(٥) سورة القصص: الآية ٧٢.

(٦) لسان العرب: ج٣، ص٢١٢، (سرمد).

والموروث من القدماء: أن نسبة المتغيّر إلى المتغيّر (زمان) ونسبة المتغير إلى الثابت (دهر) ونسبة الثابت إلى الثابت (سرمدٌ) ثم الأشهر إطلاق (السرمدي) عليه تعالى، لكن لمّا لم يكن هناك ظرف ومظروف أُطلِقَ عليه اسم (السرمد) كما في الدعاء: «يا أزل يا أبد يا أزلي يا أبدي».

ويقول بعض الحكماء: أن السرمد وعاء وجود الحق سبحانه، في قبال وعاء وجودات العقول والنفوس المفارقة وهو الدهر، ووعاء الطبائع السيّالة وعوارضها هو الزمان[(١)(٢)]، ثم إن أوليته وآخريته سبحانه عين ذاته، وإحداهما عين الأخرى، وإنما اللحاظ يختلف كما عرفته مفصلاً في بيان صفات الذات، فهو أول الأولين؛ إذ منه بدأ وجود كل أوّل في السلسلة النزولية، وآخر الآخرين؛ إذ إليه ينتهي كل آخر في السلسلة الصعودية، وليس قبله ولا بعده تعالى شيء.

كما ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «الأوّل الذي لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينتهي»[(٣)] وفي الدعاء: «أوليتك مثل آخريتك، وآخريتك مثل أوليتك»[(٤)] وأيضاً: «الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، بأوليته وجب ألّا أوّل له، وبآخريته وجب ألّا آخر له»[(٥)].

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٢٧٢.

(٢) ولا يخفى وجود الخلاف في وجود المفارقات وعدمه، وأكثر المتكلمين على عدم وجود جوهر مجرد غير الباري عز وجل خلافاً للحكماء.

(٣) نهج البلاغة: ص ١٣٨-١٣٩، الخطبة (٩٤).

(٤) البحار: ج٩٢، ص٣٥٧، ح١٣.

(٥) نهج البلاغة: ص١٤٦، الخطبة (١٠١).

وفي الدعاء: «أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»(١).

إذ هو مبدأ كل شيء ومنتهاه، وهو مع كل شيء، وفي كل شيء، له آيات ومظاهر، وكل ممكن يستمد منه وجوده، وينتهي إليه نزولاً وصعوداً.

هذا وقد ذكرت تفسيرات أخرى لهذه الفقرة قد يقرب بعضها من هذا المعنى:

منها: أن وجود الحق أول الوجودات وسابق في الوجود على كل موجود وتفنى كل الوجودات ويبقى وجوده دائماً لا يزول، فهو الأول منذ الابتداء، وهو الآخر في العاقبة وهذا تفسير ينظر إلى التقدم والسبق، أي القدم والبقاء في الوجود كما ورد في الدعاء الشريف: «يا من هو قبل كل شيء، ويا من هو بعد كل شيء ويا من يبقى ويفنى كل شيء»(٢).

وعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس لأوليّته ابتداء، ولا لأزليّته انقضاء، هو الأوّل لم يزل، والباقي بلا أجل لا يقال له (متى) ولا يضرب له أمد بـ(حتى) قبل كل غاية ومدة وكل إحصاء وعدة»(٣).

ومنها: أوليّته باعتبار مبدئيّته لكل الموجودات، وآخريّته باعتبار مرجعيّته لكل الموجودات في كل الشؤون. قال سبحانه: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ

---

(١) الكافي: ج٢، ص٥٠٤، ح٦.

(٢) البلد الأمين: ص٤٠٤؛ البحار: ج٩١، ص٣٨٦.

(٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج٩، ص٢٥٢؛ نهج البلاغة: ج٢، ص٦٥-٦٦، الخطبة ١٦٣؛ والبحار: ج٤، ص٣٠٦-٣٠٧، ح٣٥.

الامُورُ﴾[١] وقوله سبحانه: ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[٣] فهو سببَ وجود العلل والأسباب، ومسبِّب الأَسباب، فكل علَّة وسبب في قبال عليته وسببيته آخر وعلّيته أول، ولعل هذا معنى: ﴿يا أول الأولين﴾ أي أول العلل والأسباب التي هي الأخرى أول بالنسبة لمعاليلها، وبه يعلم معنى يا آخر الآخرين أيضاً.

الفرق بين رجع وصار

ولعل الفرق بين معنى الآية الأولى والثانية هو أن الأولى تشير إلى جهة الخاتمة؛ إذ كل شيء في نهاية أمره يرجع إلى الله سبحانه، وفي كيفية رجوعه إليه سبحانه معان:

منها: أن الأمور تذهب بالفناء ثم يعيدها الله سبحانه للمجازاة، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَآئِكَةُ وَقُضِيَ الأمر وَإِلى اللهِ تُرْجَعُ الامُورُ﴾[٤] فإنّه سبحانه حينما يفرغ من المحاسبة ويجزي كل أمرئ بما عمل، يتجلى للجميع، وخصوصاً أولئك الذين كانوا غافلين وأغرتهم الدنيا بما خولّهم الله سبحانه، وملّكهم فيها، وسلّطهم على بعض مملكته في الأموال والحكومات، وأعطاهم القدرة والقوة، ومكّنهم

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٠.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢١٠.

في الأرض. أن الأمور في خاتمتها ترجع إلى الله سبحانه، وأنّهم ما كانوا إلّا في وهم في تجبرهم وطغيانهم؛ لأنه سبحانه سلّطهم للامتحان والاختبار: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[1] كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿وَلله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[2].

والآية الثانية تشير إلى جميع الحالات منذ البدء إلى الوسط إلى الخاتمة؛ فهي أعم دلالة من الأولى، فالصيرورة تشمل تبدّل الحالات أيضاً، فيقال صار الجنين ولداً، وصار الولد رجلاً، كما يقال صار الجاهل عالماً، ولا يقال رجع، فهي تشمل تغيّر الحالات إلى الكمال والنقص وتبدلها من حال لحال، كما يقال صار الشجر مثمراً، والماء بحراً وهكذا، بخلاف الرجوع كما قد يشير إليه صدر الآية الشريفة بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلى الله تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[3] فإن طريقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مستقيم؛ لأنه يوصل إلى الغاية لا التواء فيه ولا انحراف.

والطريق المستقيم هو الموصل إلى الغاية دون غيره، وهو صراط الله سبحانه خالق الأشياء، والله سبحانه مالك لما في السماوات وما في الأرض، ومالك لغاياتها أيضاً، ولازم ملكه لها ولغاياتها أن رجوع الأشياء وغاياتها وآثارها ومكوناتها وتبدّل حالاتها إليه سبحانه؛ لأنه سبّبها وأنشأها وقدّر

---

(١) سورة الانفال: الآية ٤٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٩.

(٣) سورة الشورى: الآية ٥٢-٥٣.

لها أقواتها، فكلّ شأن من شؤونها يرجع إليه؛ إذ لا مؤثّر في الوجود سواه، ولا خالق إلّا هو تبارك وتعالى، كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ بنحو المضارع الدال على الاستمرار في جميع الحالات.

وبذلك يظهر أن صراطه صلى الله عليه وآله من حيث الأصل والغاية يعود إلى الله سبحانه كما أنّ ما في السماوات والأرض كلّه يعود في أصله وفي غاياته وجميع حالاته إلى الله سبحانه، ولكن حيث إن الناس في الغالب تغرهم الدنيا ويأخذهم بالله الغرور فينسون هذه الحقيقة، ويغفلون عنها، فالآية تذكرهم بذلك، وتقرع قلوبهم وأسماعهم وعقولهم بأنّ كل شيء يعود إليه في مبدئه ووسطه ومنتهاه كما يشير إليه الابتداء بألا الاستفتاحية التنبيهية: ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ولعل مما يؤكّد هذا ما ورد في أصول الكافي: عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول: «وقع مصحف في البحر فوجدوه وقد ذهب ما فيه إلّا هذه الآية: ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[1]».

ومنها: أوليّته سبحانه باعتبار قدم وجوده، وآخريّته باعتبار استحالة العدم عليه، وكل ما سواه لا يستحيل عليه العدم.

وقد فسّرت الفقرة بتفاسير أخرى قد لا ينهض لها دليل من حيث المبنى وإن كان البناء صحيحاً؛ لوجود دليل آخر عليه.

كقولهم أنه أول الأولين من العقول العشرة في سلسلة النزول، وآخر الآخرين في سلسلة الصعود.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٣٢، ح١٨؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٥٩١، ح١٤٧.

وبيانه: أنه سبحانه لما كان في الإجادة والإفاضة على أهل مملكته هو المبدأ الأول والموجد الآخر على مذهب الحكماء ثم أفاض -حسب قاعدة الواحد- الوجود إلى العقل الأول، ومنه إلى الثاني وحتى العاشر في سلسلة العقول، ثم منه إلى هذا العالم، فهذه العقول العشرة هم الأوّلون بعد الحق، ووسائط جوده إلى العالم في مرتبة النزول، فهو أول الأولين، أي أول العقول.

وكذلك في الصعود إليه يصعد الكلم الطيب من البشرية إلى المَلَكية، ومنها إلى العقل الفعّال، وهو العاشر، ثم إلى العقول الأخر حتى يصل العقل الأول، ومنه إلى الفناء في الحضرة الواحدية، فهو آخر الآخرين صعوداً.

وقد عبّر بعض الحكماء عن هذا المعنى بهذا البيان فقال: إنه سبحانه أفاض الوجود إلى العقل ومنه إلى النفس، ومنها إلى المثال، ومنه إلى الأفلاك، ومنها إلى عالمنا الهيولاني، أو بقولهم ثم أفاض إلى الجبروت -عالم الأسماء والصفات- ثم إلى الملكوت- عالم المجردات بقسميها- ثم إلى الناسوت- الماديّات- وكذا في العود إليه.

فهو أول السلسلة الطولية ومبدأ المبادئ (كان الله ولم يكن معه شيء)[(١)] وغاية الغايات: ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ولكن قد عرفت فيما تقدم بطلان نظرية العقول العشرة فلا نطيل الكلام في ردّها هنا.

---

(١) الكافي: ج١، ص١١٦، ح٧؛ عن أبي جعفر الثاني عليه السلام أنه قال: «فمعاذ الله أن يكون معه شيء غيره، بل كان الله ولا خلق..»

نعم يصح تطبيق ذلك على سادة الخلق وحججهم وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، فإنهم أول ما خلق الله سبحانه، وبهذا المعنى يوصفون بالأولين وهم آخر الخلق كمالاً وبقاءً، وإليهم مرجع العباد في الآخر، وعليهم الحساب، وبهذا يوصفون بالآخرين، والله سبحانه قبلهم، فهو أول الأولين وبعدهم فهو آخر الآخرين، وأولويته وآخريته ليست زمانية بل ذاتية، وبهذا يتضح وجه النداء بذلك، فإن الدعاء يبدأ من العبد ويتخذ الوسائط، وهم الحجج الإلهية حتى يصل إلى المقصد الأول وهو الله سبحانه، وهو الاستمرار الصعودي، كما أن الإمداد النزولي يمر بطريق الوسائط حتى يصل إلى العبد، وربما يراد بالأولين سائر العلل التوسيطية بما فيها سلسلة الأجداد والآباء، وبالآخرين سائرها من جهة الأبناء، وكذا سلسلة الأسباب الطبيعية للإيجاد، وصيغة الجمع المذكر التي تطلق للعاقلين تصح فيها إما باعتبار أن جميع الأسباب حية عاقلة بنسبة من العقل يناسبها كما هو التحقيق، أو باعتبار غلبة أهل العقول فيها، وهم الحجج الإلهية والملائكة والبشر، ولا تنافي بين المعاني المذكورة، فالقول بها أجمع أوفق بالقواعد؛ لشمول المنطوق لها، ولعدم التنافي بين المثبتات، فإن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه إلاّ ما قام الدليل على نفيه.

لماذا لم يذكر الإمام عليه السلام حوائجه؟

وقد يخطر سؤال هنا حاصله لماذا لم يذكر الإمام عليه السلام حوائجه في الفقرات المتقدمة من الدعاء، واكتفى عليه السلام بذكر الصفات والأسماء الكمالية للحق تعالى مع أن عادة السائل المحتاج قاضية بذكر ما يريد؟

وفي الجواب وجوه:

الوجه الأول: أن المقام مقام الدعاء والتخضّع وإظهار الفقر والعبودية ومناجاة الحبيب وهذا هو المقصود الأصلي عند المقرّبين، وخصوصاً أولياءه وحججه عليهم السلام، فإنّهم عليهم السلام يناجون ربّهم ليلاً ونهاراً ليس لطلب الحاجة بل للتهجّد وإظهار الخضوع والأنس بذكر أوصاف وكمالات محبوبهم؛ إذ ليس من حاجة للحبيب أهم من ذكر المحبوب والتهجد بأوصافه والوصال به، وقد يكون جواب موسى عليه السلام المفصّل حينما سأله سبحانه: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾[1] من هذا الباب أيضاً لعلمه سبحانه بذلك، وقد نقول إن حاجته عليه السلام التهجد بذكره والتلذذ بمخاطبته ومناجاته؛ إذ هي فوق كل حاجة، وأسمى من كل طلب، فاستغنى بها عن ذكر الحاجة واكتفى بذكر الكمالات والأسماء والصفات[2]، وفيما أوحى الله عزّ وجل إلى داود عليه السلام: ﴿يا داود، بي فافرح، وبذكري فتلذذ، وبمناجاتي فتنّعم﴾[3].

---

(١) سورة طه: الآيتان ١٧-١٨.

(٢) عدة الداعي: ص٢٠٧؛ وانظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣٢.

(٣) أمالي الصدوق: ص٢٦٣، ح١؛ البحار: ج١٤، ص٣٤.

وقد كانت سيرة السادة من آل محمد عليهم السلام ومواقفهم عليهم السلام بين يدي ربهم ذلك، وما كانوا يسألون حاجة دنيوية إلّا طلب القرب ومزيد الحب والتهجّد والذكر.

ففي مناجاة مولانا زين العابدين عليه السلام: ﴿اللهمّ احملنا في سفن نجاتك، ومتّعنا بلذيذ مناجاتك، وأوردنا حياض حبك، وأذقنا حلاوة ودّك وقربك﴾[(١)].

وفي مناجاة أخرى يقول: ﴿فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك أقصى مقاصدهم حصّلوا﴾[(٢)].

وورد عن عروة بن الزبير في مناجاة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: كنا جلوساً في مسجد النبي صلى الله عليه وآله فتذاكرنا أحوال أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال، أبو الدرداء: يا قوم ألا أخبركم بأقل القوم مالاً؟ وأكثرهم ورعاً؟ وأشدهم اجتهاداً في العبادة؟ قالوا: من هو؟ قال: علي بن أبي طالب عليه السلام. قال فوالله إن كان في جماعة ذلك المجلس إلّا معرض عنه بوجهه، ثم انتدب له رجل من الأنصار يقال له: عويمر فقال: لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها، فقال أبو الدرداء: يا قوم إني قائل ما رأيت، وليقل كل واحد منكم ما رأى، رأيت وشاهدت علي بن أبي طالب بسويحات بني النجار وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه، وقد استتر بخفيلات النخل فافتقدته، وبعد علي مكانه فقلت: لحق بمنزله، فإذا

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٤١١؛ البحار: ج٩٤، ص١٤٧، المناجاة السادسة.

(٢) الصحيفة السجادية: ص٤١٢؛ البحار: ج٩٤، ص١٤٧، المناجاة الثامنة.

بصوت حزين ونغمة سحر شجي وهو يقول: «إلهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنعمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا راج غير رضوانك» فشغلني الصوت واقتفيت الأثر فإذا هو علي بن أبي طالب بعينه، فاستترت لأسمع كلامه، وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغابر، ثم فرغ إلى الدعاء والتضرع والبكاء والبث والشكوى، فكان مما ناجى به الله عزّ وجل أن قال: «اللهم إني أفكر في عفوك فتهون علي خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم علي بليتي» ثم قال: «آه إن قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها فتقول: خذوه، فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، ترحمه الملأ إذا أذن فيه بالنداء» ثم قال: «آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من غمرة في ملهيات لظى» ثم أمعن في البكاء فلم أسمع له حساً ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم بطول السهر أوقظه لصلاة الفجر. قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحركته فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون مات – والله- علي بن أبي طالب، فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام: «يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه وقصته» فأخبرتها الخبر، فقالت: «هي –والله- يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله تعالى»[(١)].

---

(١) روضة الواعظين: ص١١١.

وقال حماد بن حبيب العطاء الكوفي: خرجنا حجاجاً فرحلنا من زبالة ليلا، فاستقبلتنا ريح سوداء مظلمة، فتقطعت القافلة، فتهت في تلك الصحاري والبراري، فانتهيت إلى واد قفر، فلما أن جن الليل أويت إلى شجرة عادية، فلما أن اختلط الظلام إذا أنا بشاب قد أقبل عليه أطمار بيض، تفوح منه رائحة المسك، فقلت في نفسي هذا ولي من أولياء الله متى ما أحس بحركتي خشيت نفاره، وأن أمنعه عن كثير مما يريد فعاله، فأخفيت نفسي ما استطعت، فدنا إلى الموضع فتهيأ للصلاة، ثم وثب قائماً وهو يقول: ﴿يا من أحار كل شيء ملكوتاً، وقهر كل شيء جبروتاً أولج قلبي فرح الإقبال عليك، وألحقني بميدان المطيعين لك﴾ قال: ثم دخل في الصلاة، فلما أن رأيته قد هدأت أعضاؤه، وسكنت حركته، قمت إلى الموضع الذي تهيأ منه للصلاة فإذا بعين ماء تفيض بماء أبيض، فتهيأت للصلاة، ثم قمت خلفه، فإذا أنا بمحراب كأنه مثل في ذلك الوقت ! فرأيته كلما مر بآية فيها ذكر الوعد والوعيد يرددها بأشجان الحنين، فلما أن تقشع الظلام وثب قائماً وهو يقول: ﴿يا من قصده الطالبون فأصابوه مرشداً، وأمّه الخائفون فوجدوه متفضلاً، ولجأ إليه العابدون فوجدوه نوالا﴾ فخفت أن يفوتني شخصه، وأن يخفى عليّ أثره، فتعلقت به، فقلت له: بالذي أسقط عنك ملال التعب، ونحك شدة شوق لذيذ الرغب إلّا ألحقتني منك جناح رحمة وكتف رقة؟ فإني ضال، وبعيني كلما صنعت، ومناي كلما نطقت، فقال: ﴿لو صدق توكلك ما كنت ضالاً، ولكن أتبعني واقف أثري﴾ فلما أن صار تحت الشجرة أخذ بيدي، فخيل إلي أن

الأرض تمد من تحت قدمي، فكما انفجر عمود الصبح قال لي: ﴿ابشر فهذه مكة﴾ قال: فسمعت الضجة ورأيت المحجة، فقلت بالذي ترجوه يوم الأزفة ويوم الفاقة من أنت؟ فقال لي: ﴿أما إذا أقسمت علي فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام﴾[(١)].

وفي عدة الداعي ورد ما وصفه ضرار بن ضمرة الليثي من مقامات سيّد الأوصياء عليه السلام حين دخل على معاوية لعنه الله فقال: صف لي علياً، فقال: أوتعفيني من ذلك؟ فقال: لا أعفيك، فقال: كان -والله- بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلّب كفيه، ويخاطب نفسه، ويناجي ربّه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، كان -والله- فينا كأحدنا يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكنّا مع دنّوه منّا وقربنا منه لا نكلّمه لهيبته، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظّم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأنّي الآن أسمعه وهو يقول: يا دنيا يا دنيا

---

(١) الصحيفة السجادية: ص١٦٤.

أبي تعرضت؟ أم إليَّ تشوّقت؟ هيهات هيهات لا حان حينكِ غرّي غيري، لا حاجة لي فيكِ قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمركِ قصير، وخطركِ يسير، وأملكِ حقير، آهٍ آهٍ من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق، وعظيم المورد، فوكفت دموع معاوية لعنه الله على لحيته، فنشفها بكمّه، واختنق القوم بالبكاء، ثم قال: كان -والله- أبو الحسن كذلك، فكيف كان حبّك إياه؟ قال: كحب أمّ موسى لموسى وأعتذر إلى الله من التقصير. قال: فكيف صبرك عنه يا ضرار؟ قال: صبر من ذبح ولدها على صدرها، فهي لا ترقئ عبرتها، ولا تكن حرارتها، ثم قام وخرج وهو باكٍ، فقال معاوية: أما إنكم لو فقدتموني لما كان فيكم من يثني عليّ من هذا الثناء، فقال له بعض من كان حاضراً: الصاحب على قدر صاحبه[1].

ولذا تظهر آثار لذة المناجاة على وجوههم وأعمالهم وتوفيقاتهم، وهي كثيرة لا تحصى.

منها: حسن الوجه، كما ورد أنه سئل الصادق عليه السلام ما بال المتهجدين أنهم من أحسن الناس وجهاً؟ قال: «لأنهم خلوا بالله سبحانه فكساهم من نوره»[2] ولعل المراد من أحسنية الوجه مضافاً إلى المعنى الظاهر أن يكون لهم قوة وتأثير واحترام في الناس.

ومنها: نيل المقامات المعنوية العالية، كما ورد عن الصادق عليه السلام عن أبيه الباقر عليه السلام قال: «كان فيما أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام: كذب من

---

(١) عدة الداعي: ١٩٤-١٩٦.

(٢) أمالي الطوسي: ص٦٨٢، ح١٤٥٢.

زعم أنه يحبني فإذا جنّه الليل نام، يا بن عمران، لو رأيت الذين يصلّون لي في الدجى وقد مثلت نفسي بين أعينهم يخاطبوني وقد جليت عن المشاهدة، ويكلموني وقد عززت عن الحضور، يا بن عمران، هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ثم ادعني في ظلم الليالي تجدني قريباً مجيباً﴾[1].

وعن مولانا الصادقعليه السلام أنه قال يوماً للمفضل بن صالح: ﴿يا مفّضل، إنّ لله عباداً عاملوه بخالص من سرّه فعاملهم بخالص من برّه، فهم الذين تمرّ صحفهم يوم القيامة فرغاً، وإذا وقفوا بين يديه تعالى ملأها من سرّ ما أسرّوا إليه﴾ فقلت: يا مولاي ولم ذلك؟ فقال: ﴿أجلّهم أن تطلع الحفظة على ما بينه وبينهم. يا هذا لا تغفل عن هذه المقامات الشريفة التي هي أنفس من الجنة، كيف لا؟ وهي السبب في الوصول إليها، وإلى ما هو أكبر منها. إنها سبب لرضوان الله: **﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾**[2]، **﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[3]﴾[4].

ومنها: التنعّم بنعم الجنة فضلاً عن نعم المناجاة، كما ورد في الحديث القدسي: ﴿عبادي الصدّيقين تنعّموا بعبادتي في الدنيا فإنّكم بها تتنعمون في الجنة﴾[5].

---

(١) عدة الداعي: ص١٩٣؛ البحار: ج٨٤، ص١٧٢، ح٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٤) عدة الداعي: ص١٩٤.

(٥) المصدر نفسه.

الوجه الثاني: أن ذكر الحاجة لا يليق؛ لأن الخطاب لله سبحانه وهو عالم بالبواطن والأسرار والخفيّات، ويعلم ما في الضمائر بلا حاجة إلى كشف الحال وذكر الحاجة؛ إذ: «لا يعزب عنه عدد قطر الماء، ولا نجوم السماء، ولا سوافي الريح في الهواء، ولا دبيب النمل على الصفا، ولا مقيل الذّر في الليلة الظلماء، يعلم مساقط الأوراق وخفيّ طرف الأحداق»[(١)].

و: «لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة، ولا كرور لفظة، ولا ازدلاف ربوة، ولا انبساط خطوة في ليل داج ولا غسق ساج»[(٢)].

و: «عالم السر من ضمائر المضمرين، ونجوى المتخافتين، وخواطر رجم الظنون، وعقد عزيمات اليقين»[(٣)].

إن قلت: فكيف يجتمع هذا مع ما ورد في قوله سبحانه: **﴿وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ﴾**[(٤)] وقوله سبحانه: **﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾**[(٥)] الظاهر في في طلب الحاجة بذكرها؟ وما ورد عنهم عليهم السلام اسألوه سبحانه حتى المحقرات والصغائر؟ كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «سلوا الله عزّ وجل ما بدا لكم من حوائجكم حتى شسع النعل فإنه إن لم ييسّره لم يتيسر»[(٦)] وفي

(١) نهج البلاغة: ص٢٥٦، الخطبة ١٧٨.

(٢) نهج البلاغة: ص٢٣٢، الخطبة ١٦٣؛ البحار: ج٧٤، ص٣٠٦، ح١١.

(٣) نهج البلاغة: ص١٣٤، الخطبة ٩١.

(٤) سورة النساء: الآية ٣٢.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٧٧.

(٦) مكارم الأخلاق: ص٢٧٠؛ البحار: ج٩٠، ص٢٩٥، ح٢٣.

القدسي: ﴿يا موسى، سلني كل ما تحتاج إليه حتى علف شاتك وملح عجينك﴾[(١)].

وعن مولانا الباقر عليه السلام: ﴿لا تحقّروا صغيراً من حوائجكم، فإن أحب المؤمنين إلى الله أسألهم﴾[(٢)].

قلت: يجمع بتغاير الاعتبار، فإن ما ورد في فضل السؤال واستحباب ذكر الحاجة فهو في مقام إظهار العجز والفقر والخضوع، ومناجاة الله سبحانه من تجليات الغنى والرحمة والجود، فإن كل شيء منه كبيره وصغيره، وإذا لم ييسره سبحانه لا يتيسر. أما في مورد تجلي العلم والإحاطة بكل صغيرة وكبيرة فيكفي العبد الاعتماد على علمه ومناجاته به، ولا تنافي بين الموردين؛ لأن السؤال نوع خضوع وتسليم لبعض جهات الكمال الإلهي، وعدم السؤال نوع خضوع آخر وتسليم لبعض جهات الكمال الأخرى، والكل دليل على المحبوبية والعبادة والفقر.

نعم إذا كان السائل يسأله بذكر الحاجة اعتقاداً بأنه سبحانه إن لم يذكر حاجته لا يعلم بها فهذا باطل، وكاشف عن كفر أو شرك في ضمير صاحبه، كما أن عدم ذكر الحاجة إن كان لاعتقاد أنه لا يقدر على الحاجات كلّها أو بعضها فهذا أيضاً كالأول.

أما مناجاته سبحانه ودعاؤه تلذذاً بذكر كمالاته وأوصافه فبأي وصف

---

(١) المجتنى من دعاء المجتبى: ص٦؛ البحار: ج٩٠، ص٣٠٣، ح٣٩.

(٢) مكارم الأخلاق: ص٣١٧؛ البحار: ج٩٠، ص٣٤٦، ح٩.

ندعوه يتحقق الغرض، وتتحقق العبادة، ويظهر أثر الدعاء والمسألة.

كما يتعارف ذلك عند أهل المحاورة، فإن الذي يذكر من يحبه ويعتز به قد يناديه من جهة جماله، وقد يناديه من جهة كماله، وقد يناديه من جهة علمه، وقد يناديه من جهة رحمته وهكذا، والكل يشير إلى حقيقة واحدة هي الحب ووصال المحبوب وإشباع الحاجة والفقر. هذا في أصحاب الكمالات الناقصة والنسبية فكيف بالكمال الحقيقي والصفات الإلهية والأسماء الحسنى كما قال سبحانه: ﴿**أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى**﴾[(١)] فبأي اسم تعبّدناه وناجيناه سبحانه نكون قد أظهرنا له الخضوع والانقطاع إليه والحاجة له.

نعم لدى طلب الحاجات فإن الأفضل السؤال بواسطة الأسماء والصفات الخاصة التي أحب الله سبحانه أن يسأل بها فيجيب، فبواسطة بركة (الهادي) و(العالم) نسأله العلم، وبواسطة بركة (الوارث) و(الواهب) نسأله الولد، وبواسطة بركة (الجواد) و(الكريم) و(الغني) و(الرحيم) نسأله المال والغنى وهكذا، فتدبر.

الوجه الثالث: ولعل الفقرات الآتية هي المطلوبة؛ لذا تبتدئ بطلب الغفران؛ إذ لدى طلب الحاجة من المولى الكريم يقتضي التأدب في الطلب، ومن أدب الطلب ذكر كمالات المسؤول وأوصافه ومحاسنه،

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

وهو من آداب الدعاء[(١)].

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿إذا طلب أحدكم الحاجة فليثن على ربّه، وليمدحه، فإنّ الرجل منكم إذا طلب الحاجة من سلطان هيّأ له من الكلام أحسن ما يقدر عليه، فإذا طلبتم الحاجة فمجّدوا الله العزيز الجبار وامدحوه واثنوا عليه. تقول: يا أجود من أعطى، ويا خير من سئل، ويا أرحم من استرحم، يا واحد يا أحد، يا فرد يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، يا من لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، يا من يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويقضي ما أحب، يا من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثله شيء، يا سميع يا بصير، وأكثر من أسماء الله عز وجل، فإنّ أسماء الله تعالى كثيرة، وصلِّ على محمد وآل محمد وقل: اللهم أوسع عليّ من رزقك الحلال ما أكفِ به وجهي...﴾[(٢)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿إيّاكم إذا أراد أن يسأل أحدكم ربّه شيئاً من حوائج الدنيا حتى يبدأ بالثناء على الله عز وجل، والمدحة له، والصلاة على النبي وآله، ثم يسأل الله حوائجه﴾[(٣)].

وروى محمد بن مسلم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿إنّ في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ المسألة بعد المدحة، فإذا دعوت فمجّده﴾ قال: قلت: كيف نمجّده؟ قال: ﴿تقول: يا من هو أقرب إليّ من حبل الوريد، يا من يحول بين

---

(١) عدة الداعي: ص١٦٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٨٥، ح٦.

(٣) عدة الداعي: ص١٤٧؛ البحار: ج٩٠، ص٣١٤، ح١٩.

المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثله شيء﴾[١].

وعن الصادق عليه السلام قال: ﴿إنّما هي المدحة، ثم الثناء، ثم الإقرار بالذنب، ثم المسألة إنّه والله ما خرج عبد من الذنب إلّا بالإقرار﴾[٢].

أقول: لذا ابتدأ بتمجيده وذكر أسمائه وكمالاته، ثم شرع بذكر الحاجة، وحيث إن ذلك يستدعي وجود القابلية وتصفية العلاقة بين العبد وربه طلب المغفرة أولاً؛ لأنها تزيل موانع الإجابة، فقال ﴿اللهم أغفر لي الذنوب... ﴾.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٨٤، ح٢؛ عدة الداعي: ص١٤٨.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٨٤، ح٣؛ عدة الداعي: ص١٤٨.

﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي
تَهْتِكُ الْعِصَمَ﴾

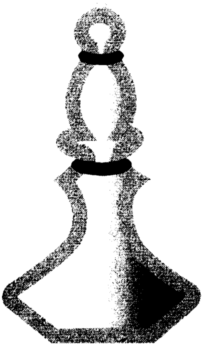

لماذا طلب المغفرة؟

والجواب لاحتمالات بعضها أقرب من بعض وإن كان الجمع بينها ممكناً وموافقاً للقاعدة:

الأول: لأن طلب المغفرة مقام التخلية وتنزيه القلب من الذنوب والآثام والصفات الرذيلة، وهو أهم من مقام التحلية والتزيين؛ لأنه يهيئ الاستعداد لظهور آثار الأعمال بالعبادات والمجاهدات؛ فإن التحلية إنما تؤثر أثرها إذا ترتبت على التخلية، وبلا تخلية لا يؤثر التنزيه الباطني خاصة على مبنى القائلين بأن التحلية ليس إلّا التنزيه والتزكية[1]، وهو وجيه؛ إذ كيف للمرآة المشوبة بالطين والأدران أن تعكس الأنوار والألوان والأشكال؟ وإذا عكست فليس إلّا القليل الباهت، بخلاف المرآة الصافية النقية، وقلب ابن آدم مثل المرآة، فكلما صفا ونقى انعكست عليه الأنوار الإلهية والفيوضات الربانية، وكلما كان أصفى وأنقى تجلت فيه آثار عظمة الخالق، وصار مظهر قدرته ووعاء مشيئته

وهذه إحدى أهم المزايا التي تتسم بها قلوب الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ويرى البعض أن تفاوت رتبهم ومقاماتهم أيضاً ناشئة من هذه الجهة، ولذا فإن طريق تحصيل العنايات الإلهية ونيل درجات القرب والحظوة بالكرامة والسعادة وقضاء الحاجات يتوقف على التخلية أولاً، وهي تتحقق بواسطة الاستغفار والعبادات المتواصلة.

---

(١) عدة الداعي: ص٢٦٤-٢٦٥.

فعن الرسول صلى الله عليه وآله: ﴿إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس فاجلوها بالاستغفار﴾[(١)].

وعن الصادق عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى. قال: الصوم يسوّد وجهه، والصدقة تكسر ظهره، والحب في الله والموازرة على العمل الصالح يقطعان دابره، والاستغفار يقطع وتينه، ولكل شيء زكاة، وزكاة الأبدان الصيام﴾[(٢)].

وعن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: ﴿قال أمير المؤمنين عليه السلام: تعطّروا بالاستغفار لا تفضحكم روائح الذنوب﴾[(٣)] وفيه دلالة صريحة على أن للأعمال آثاراً بعضها يرى بالعين وبعضها يشم بالأنف ولكن لا يدركه من اعتاد على الذنب أو شم ريحه؛ لذا لا يشعر بها إلّا الكمّلون من الناس.

ومعلوم أن محمداً وآل محمد (عليهم الصلاة والسلام) معصومون من الذنوب، وما ورد في أدعيتهم من كثرة الاستغفار وطلب العفو فلا يحمل على معناه الظاهر، أي الاستغفار من المعصية؛ لأن ما ثبت استحالته عقلاً يجب تأويله على وجه يرفع الاستحالة كما ثبت في محله؛ لذا ينبغي أن يحمل استغفارهم عليهم السلام على التأدب والاحترام، أو التعليم والتربية لغيرهم في أسلوب الخطاب مع الله سبحانه، أو لغير ذلك من جهات كما سنأتي إلى تفصيلها.

---

(١) عدة الداعي: ص٢٤٩؛ البحار: ج٧٤، ص١٧٢، ح٨.

(٢) أمالي الصدوق: ص١١٨؛ وانظر البحار: ج٩٠، ص٢٧٦، ح١.

(٣) أمالي الطوسي: ص٣٧٢؛ وانظر البحار: ج٩٠، ص٢٧٨، ح٧.

الثاني: أن الأولياء في مقام مناجاتهم وذكر كمالات الخالق تعالى تتجلّى في قلوبهم أنواره وعظمته وهيبته سبحانه، فيشعرون بنواقصهم الإمكانية وعجزهم في قبال تلك العظمة، فيقومون مستغفرين تائبين عائذين من تلك النواقص التكوينية القصورية؛ لذا أول ما يسألونه -سبحانه- المغفرة.

وهذ يفسّر سبب استغفارهم عليهم السلام مع أنهم لا يذنبون؛ إذ الاستغفار مرة من ذنب العمل، ومرة الاستغفار من ذنب النقص والعجز[1]، ولهذا فإن أول مسألة طلبها عليه السلام بعد ذكر أوصافه سبحانه ومجّد بكماله وجلاله هو طلب المغفرة.

الثالث: أن طلب المغفرة يقرِّب العبد إلى ربه أكثر، ويدنيه منه؛ إذ بغفران الذنوب تتحقق التوبة، ويقبل العبد عند ربّه، فإذا قبله وغفر ذنوبه لبّى حاجاته وقضاها له، فطلب المغفرة يكون وسيلة لإجابة الدعاء وقضاء الحاجة، وهذا المحمل يصح على تقدير حمل استغفارهم عليهم السلام على جهة التعليم والتربية.

وإليه تشير رواية زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا أكثر العبد من الاستغفار رفعت صحيفته وهي تتلألأ»[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «ما من عبد أذنب ذنباً فقام فتطهّر وصلّى ركعتين واستغفر الله إلّا وغفر له، وكان حقيقاً على الله أن يقبله؛ لأنه

---

(١) واقبال الأعمال: ص٦٣٧.

(٢) الكافي: ج٢، ص٥٠٤، ح٢؛ عدة الداعي: ص٢٥٠؛ البحار: ج٩٠، ص٢٨٤، ح٣٢.

سبحانه قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1] ﴾[2].

وقال: ﴿إن العبد ليذنب فيدخل به الجنة﴾ قيل وكيف ذلك يا رسول الله؟

قال: ﴿يكون نصب عينيه لا يزال يستغفر منه، ويندم عليه، فيدخله الله به الجنة، ولم أرَ أحسن من حسنة حدثت بعد ذنب قديم ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[3] ﴾[4].

نعم ينبغي للتوبة والاستغفار شروط، فالتوبة في الأخبار الشريفة على أربع خصال: ندم بالقلب، وعزم على ترك العود، وخروج من الحقوق، وترك بالجوارح.

والتوبة النصوح أن يتوب فلا يرجع فيما تاب عنه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمصرّ على الذنب مع الاستغفار يستهزئ بنفسه، ويسخر منه الشيطان.

وسمع أمير المؤمنين رجلاً يقول: أستغفر الله، فقال: ﴿ثكلتك أمّك أو تدري ما حدّ الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليّن، وهو اسم واقع على ستة معان:

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٠.

(٢) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام): ص٥٤٢؛ إرشاد القلوب: ج١، ص٤٦؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٤، ص٣٨٠، ح٢٨٦٨.

(٣) سورة هود: الآية ١١٤.

(٤) إرشاد القلوب: ج١، ص٤٦.

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن يؤدي إلى المخلوقين حتى تلقى الله أملس.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة ضيّعتها فتؤدي حقّها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت والمعاصي فتذيبه.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول أستغفر الله»[(١)].

ولا يخفى أن هذا الاحتمال يصح على تقدير حمل استغفارهم عليهم السلام على جهة التعليم والتربية وغيرها من الجهات التي لا تتنافى مع العصمة كما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

مراتب الذنوب وآثارها

قوله عليه السلام: «**اللهمَّ**» منادى بأداة محذوفة عوِّض عنها بالميم المشددة في آخره، وهو تركيب يستخدم للمبالغة في الاستعطاف والانقطاع والتضرع، والغاية منه طلب المغفرة، وحيث إن الطالب معصوم من الذنوب والمعاصي، يرد سؤالان:

الأول: ما هي المغفرة وما هو الذنب؟

والثاني: كيف يستغفر من لا يذنب ولم يرتكب معصية؟ والجواب عن ذلك يتم ببيان أمور:

---

(١) نهج البلاغة: ص٥٤٩، الحكمة ٤١٧؛ ارشاد القلوب: ص٤٧.

الأمر الأول: مفهوم الذنب والغفران

غَفَر في اللغة بمعنى ستر، ففي لسان العرب ومجمع البحرين أصل الغَفْر التغطية والستر. وقولهم: غفر الله ذنوبه أي سترها. والغفور والغفّار جل ثناؤه من أبنية المبالغة، ومعناهما الساتر لذنوب عبادِهِ، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم[(١)]، واغفر وإن كانت صيغة أمر إلّا أنها هنا دعاء؛ لأنها طلب من الداني إلى العالي على ما قرر في علمي البلاغة والأصول، والمعنى طلب التجاوز وستر الذنوب.

والذنوب جمع ذنب[(٢)] وهو الجريمة والخطيئة والمعصية والإثم، ولكن

---

(١) لسان العرب: ج٥، ص٢٥، (غفر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٢٧، (غفر).

(٢) ورد في لسان العرب: ج١، ص٣٨٩، (ذنب)، ((والذنب الإثم والجرم والمعصية)) وفي ج١٢، ص٩١، (جرم): ((والجرم: التعدّي، والجرم: الذنب، والجمع أجرام وجروم، وهو الجريمة ...وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ سورة الأعراف: الآية ٤٠؛ قال الزجاج: المجرمون ههنا -والله أعلم- الكافرون؛ لأن الذي ذكر من قصتهم التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها)).

وفي لسان العرب: ج١، ص٦٧، (خطأ).

((الخطيئة: الذنب على عمد، والخِطْءُ: الذنب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾ سورة الإسراء: الآية ٣١، أي إثماً، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ سورة يوسف: الآية ٩٧، أي آثمين، والخطيئة على فعيلة: الذنب، ولك أن تشدد الياء؛ لأن كل ياء ساكنة قبلها كسرة أو واو ساكنة قبلها ضمة وهما زائدتان للمدّ لا للإلحاق ولا هما من نفس الكلمة فإنك تقلب الهمزة بعد الواو واواً وبعد الياء ياءً وتُدغِم...))

وفي ج١٥، ص٦٧، (عصا) ((العصيان: خلاف الطاعة، عصى العبد ربه إذا خالف أمره، وعصى فلان أميره يعصيه عصياً وعصياناً ومعصية إذا لم يطعه فهو عاص وعصيّ)).

←

تتغاير بالمناسبات واللحاظات، والجامع هو مخالفة الإنسان بعمله لأحكام العقل أو الشرع، سواء في الأفعال أو التروك بناء على أن الترك حقيقة وجودية فعلية، فإذا افترقن فكل واحدة منها تدل على الأخريات، وإذا اجتمعن تتميز إحداهن عن الأخريات كالظرف والجار والمجرور، والفقير والمسكين.

فالذنب يقال على المعصية التي تقصد بذاتها ولنفسها شرعاً وعرفاً، ويسمى سيئة، ولكن الذنب بلحاظ ما له الأثر والسيئة بلحاظ مالها من الإساءة إلى النفس والغير، والسوء هو القبيح الذي يواجه به صاحبه. يقال ساءه يسوؤه إذا واجهه بقبيح يكرهه، ورجل سوء من شأنه أن يواجه الناس بالمكاره[١].

والخطيئة تقال على المعصية التي تقصد لا عن عمد، ولعلها بلحاظ الواقع تسمى خطيئة؛ لأنها مأخوذة من الخطأ، والخطأ ضد الصواب[٢].

قال تعالى: ﴿**بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[٣] فإن الإساءات لها آثار سلبية؛ لأنها انحراف عن

←

وفي مجمع البحرين: ج٢، ص٦٠، (ذنب) ((الذنب: الإثم، والجمع الذنوب بضم الذال، وفيه ((من طاف بالبيت خرج من ذنوبه، ومن وقف بالمشعر خرج من ذنوبه)) ونحو ذلك، ولعل الوجه في تكرر ذكر الخروج من الذنوب كما قيل تأكيد البعد عنها والتنصل عن تبعاتها، أو لأنه يحصل بأداء كل نسك من تلك المناسك الخروج من نوع من أنواع الذنوب.

(١) مجمع البيان: ج٣، ص١٨٥.

(٢) انظر لسان العرب: ج١، ص٦٥-٦٨، (خطأ).

(٣) سورة البقرة: الآية ٨١.

الفطرة، وتعاكس قوانين الله تعالى، وهي إساءة لنفسه وإساءة لربه ولسائر من يعيش معهم، وهو انحراف، فإذا استمر عليها الإنسان أحاطت به آثارها، وجعلته سجين ذنوبه؛ لأن الذنوب تبدأ على شكل فعل دفع إلى ارتكابه النزوة أو الشيطان، فإذا لم يندم عليها الإنسان ولا يستغفر يرتكبه مرة أخرى حتى يصبح حالة، ومع الاستمرار والإصرار يصبح ملكة، فإذا ظل مستمراً عليها تصبح جزء طبائعه وسجاياه، وحينئذ لا ينفع فيه نصح ولا رشد ولا موعظة، وهو الذي عبّر عنه القرآن مرة بقوله سبحانه: ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[(١)] وقوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾[(٢)] ولعل هذا أحد معاني قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[(٣)] بناء على معناها الظاهر من وجودها الفعلي في باطن الدنيا، ولكن لا يشعرون بها؛ لفقدان قوة إدراك عوالم ما وراء المادة، أو وجود الموانع منها، أو لعدم الإذن من الله سبحانه بظهور آثارها المباشرة فعلاً، ولكن حيث إن الكفار وأهل المعاصي المواصلون على ارتكابها محاطون بكفرهم وأعمالهم السيئة لا يتمكنون من الانفكاك منها؛ لأنها صارت جزء طبائعهم فلا يخرجون من ذنب إلّا ليقترفوا ذنباً آخر، وهذه رتبة من مراتب إحاطة نار جهنم بهم، وفي الآخرة يخلدون فيها فتأمل.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٩.

والعصيان خلاف الطاعة. يقال عصى العبد ربّه إذا خالف أمره ولم يطعه، والجريمة تطلق على الأعم من الذنب والخطيئة ولكنها بلحاظ العدوان الجارحي، والإثم يقال على الذنب المتعمد، وفرقه عن الخطيئة أنه بلحاظ نفس المذنب كما قال سبحانه: ﴿آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[1].

ولعل الآيات الشريفة تشير إلى بعض ما ذكرنا. قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[2].

هذا وقد قال البعض: الخطيئة تطلق على الذنوب الصغيرة والسيئة على الكبيرة بناء على مساواتها للذنب فتأمل.

وآخرون قالوا: الخطيئة الذنب الذي ينتهك فيه العبد حقوق ربّه، أما السيّئة فهي الذنوب التي تقع بين العبد وسائر الخلق، ولكن قد عرفت ما فيه.

ففي المجمع: والذنوب تتنوع إلى مالية وبدنية، وإلى قولية وفعلية، والفعلية تختلف باختلاف الآلات التي تفعل بها إلى غير ذلك، وتتنوع في الآثار الوضعية، فمنها ما يغيّر النعم، ومنها ما ينزل النقم، ومنها ما يقطع الرجاء، ومنها ما يديل الأعداء، ومنها ما يرد الدعاء، ومنها ما يستحق بها نزول البلاء، ومنها ما يحبس غيث السماء، ومنها ما يكشف الغطاء، ومنها

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٠-١١٢.

ما يعجّل الفناء، ومنها ما يظلم الهواء، ومنها ما يورث الندم، ومنها ما يهتك العصم، ومنها ما يدفع السقم -إلى غير ذلك-.

واعلم أن جميع الذنوب منحصرة في أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص، والحسد، والشهوة، والغضب، هكذا روي عنهم عليهم السلام[(١)].

وتتوزع الذنوب على جوارح الإنسان وجوانحه وإن كانت في المآل تتفق في أنها بالنسبة إلى أصل الشرع واحدة؛ لأنها مخالفة أمر المولى أو ملاك أمره كشرب الخمر والميسر والتجرّي وغيرها من الأعمال المحرّمة، فبعضها ذنب يقع في الجوارح كالزنا والغيبة، وبعضها يصير ذنباً بالنية والقصد كالتزيّن للزنا، والأكل للقوة على المعصية، والسفر للمعصية، وذنب يقع في القلوب كالحسد والحقد والشرك، ومنها ما يجمع الجوارح والجوانح معاً كالنفاق والدجل والخديعة، وكل منها إلى صغيرة وكبيرة.

كبائر الذنوب

اختلفت آراء الفقهاء وأهل المعرفة في الكبائر من الذنوب على أقوال شتى قد لا يطمئن القلب إلى العديد منها ولعل في اختفائها حكمة، وهي الحث على الاجتناب عن جميع المعاصي مخافة الوقوع فيها.

فقال قوم: هي كل ذنب توعد الله عليه في الكتاب بالعذاب والوعيد[(٢)].

---

(١) مجمع البحرين: ج٢، ص٦١، (ذنب)، (بتصرف).

(٢) الاجتهاد والتقليد: ج٢، ص٢٨٣.

وقال بعضهم: هي كل ذنب رتب عليه الشارع حداً، أو صرّح فيه بالوعيد[(١)].

وقال آخرون: إنّها كل خطيئة تؤذن بأن فاعلها قليل الاعتناء في دين الله تعالى[(٢)].

وقال جماعة: إنّها كل خطيئة ثبتت حرمتها بالبرهان[(٣)].

وقالت طائفة: هي كل ذنب أوعد الله تعالى فاعلها في القرآن الحكيم بالعذاب الأليم، أو أوعد حججه صلوات الله عليهم في سنتهم السديدة بالعقوبة الشديدة[(٤)].

وقال جماعة: الذنوب كلها كبائر؛ لاشتراكها في مخالفة الأمر والنهي، لكن قد يطلق الصغير والكبير على الذنب بالإضافة إلى ما فوقه وتحته، فالقُبلة صغيرة بالنسبة إلى الزنا، وكبيرة بالنسبة إلى النظر بشهوة.

قال الشيخ الطبرسي قدس سره وإلى هذا ذهب أصحابنا رضي الله عنهم، فإنهم قالوا: المعاصي كلّها كبيرة لكن بعضها أكبر من بعض، وليس في الذنوب

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الاجتهاد والتقليد: ج٢، ص٢٨٣.

(٣) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٨٣.

(٤) راجع مجمع البحرين: ج٤، ص١٠، (كبر)؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣٣، مع وجود تصرف في بعض الألفاظ من قبل الشارح والمعنى واحد؛ وهناك قول آخر نقله الشيخ الطبرسي قدس سره في تفسيره مجمع البيان: ج٣، ص٧١، ذيل تفسير آية ٣١ من سورة النساء.

صغيرة، وإنما تكون صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر، ويستحق العقاب عليه أكثر، انتهى[١].

وحكي عن الشيخ البهائي ﷺ أنه قال: ((ثم لا يخفى أن كلام الشيخ الطبرسي مشعرٌ أن القول بأن الذنوب كلها كبائر متفق عليه بين علماء الإمامية، وكفى بالشيخ ناقلاً[٢] ونسب هذا القول للشيخ المفيد والشيخ في العدة وابن البرّاج وأبي الصلاح وابن إدريس[٣]، وعن الشهيد في الدروس: ويظهر من كلام بعض الأصحاب أن الذنوب كلها كبائر[٤]، ويظهر من

---

(١) مجمع البيان: ج٣، ص٧٠؛ وانظر مجمع البحرين: ج٤، ص١٠، (كبر)؛ وقد نقل الحاج السبزواري في شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣٤، أقوالاً أخرى وصلت إلى عشرة نقلها عن الشيخ البهائي ﷺ عن كتابه الأربعين حديثاً: ص١٩٣.

(٢) انظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣٤؛ الحدائق الناضرة: ج١٠، ص٥٢.

(٣) الحبل المتين: ص٨٢؛ فقه الصادق: ج٩، ص١٨٠، الشرح؛ عدة الأصول: ج١، ص١٤٠؛ السرائر: ج٢، ص١١٨.

(٤) لكن لا يخفى أن المشهور قديماً وحديثاً على التفريق بين الكبائر والصغائر، وعن مفتاح الكرامة: ج٨، ص٢٨٢، نسبته إلى قاطبة المتأخرين، والإجماع المدعى مخدوش صغرى؛ لوجود المخالف، وكبرى؛ لوجود النص بتقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ سورة النساء: الآية ٣١. الظاهر في أن ما ينهى عنه كثير، فإذا اجتنب الناس كبائر المنهي عنه يكفر الله سبحانه عنهم سيئاتهم، ويدخلهم مدخلاً كريماً، ومنه قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ سورة النجم: الآية ٣٢. الظاهر في أن الإثم قسمان منه كبائر ومنه غير ذلك، ومنه قوله سبحانه: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ سورة آل عمران: الآية ١٩٣. حيث فسرت بالكبائر: ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ سورة آل عمران:

←

الصدوق دعوى الإجماع عليه[(١)]. قال في الوسائل: الأخبار في الكبائر ليست مختلفة؛ لأن كل ذنب بعد الشرك كبير بالنسبة إلى ما هو أصغر منه، وكل كبير صغير بالنسبة إلى الشرك بالله[(٢)]، وتفصيل الكلام عنه في الفقه[(٣)]. هذا وقد وردت النصوص أيضاً في بيان بعض الكبائر – في الجملة– لمراعاة حال السامع أو جواباً على مورد السؤال أو بياناً لأجلى المصاديق أو أشدها ونحو ذلك من الوجوه والمحامل.

منها: صحيحة عبد العظيم بن عبد الله المرويّة في الكافي عن أبي جعفر الثاني عن أبيه عن جده عليهم السلام يقول: «دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله عليه السلام، فلما سلم وجلس تلا هذه الآية: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ**﴾[(٤)] ثم أمسك، فقال له أبو عبد الله عليه السلام ما أمسكك؟ قال أن اعرف الكبائر من كتاب الله عز وجل، فقال عليه السلام: نعم يا عمرو. أكبر الكبائر: الاشراك بالله. يقول الله: ﴿**مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ**﴾[(٥)]

←

الآية ١٩٣. فسرت بالصغائر، أي اجعلها مكفرة عنا بتوفيقك لاجتناب الكبائر، دفعاً للتكرار وصيانة لكلام الحكيم من اللغوية؛ راجع مجمع البحرين: ج٢، ص٦٠، (ذنب)؛ فقه الصادق: ج٩، ص١٨٠، الشرح؛ ج٦، ص٢٦٩، الشرح.

(١) الخصال: ص٤١١-٤١٢، ح١٥.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٥، الباب ٤٦ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣٣٠-٣٣١، ح٢٠٦٦٢؛ وانظر المصدر نفسه والباب، ص٣٣٢٠، ح٢٠٦٦٤.

(٣) راجع كتاب الصلاة من العروة الوثقى وشروحها في صلاة الجماعة فصل عدالة الإمام.

(٤) سورة النجم: الآية ٣٢.

(٥) سورة المائدة: الآية ٧٢.

وبعده اليأس من روح الله؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِّ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[١] ثم الأمن لمكر الله؛ لأن الله يقول: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِّ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢] ومنها عقوق الوالدين؛ لأن الله تعالى جعل العاق جباراً شقياً في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[٣] وقتل النفس التي حرم الله إلّا بالحق؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[٤] (الآية) وقذف المحصنة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٥] وأكل مال اليتيم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٦] والفرار من الزحف؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِّ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٧] وأكل الربا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[٨] والسحر؛ لأن الله عزّ وجل يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾[٩] والزنا؛ لأن الله تعالى يقول:

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٢) سورة الاعراف: الآية ٩٩.

(٣) سورة مريم: الآية ٣٢.

(٤) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٥) سورة النور: الآية ٢٣.

(٦) سورة النساء: الآية ١٠.

(٧) سورة الانفال: الآية ١٦.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

(٩) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[1] واليمين الغموس الفاجرة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾[2] والغلول؛ لأن الله عزّ وجل يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[3] ومنع الزكاة المفروضة؛ لأن الله عزّ وجل يقول: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾[4] وشهادة الزور وكتمان الشهادة؛ لأن الله عزّ وجل يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[5] وشرب الخمر؛ لأن الله عزّ وجل نهى عنه كما نهى عن عبادة الاوثان، وترك الصلاة متعمداً وشيئاً مما فرضه الله؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من ترك الصلاة متعمداً فقد برئ من ذمة الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وآله، ونقض العهد وقطيعة الرحم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[6] قال: فخرج عمرو وبه صراخ من بكائه، وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم»[7].

ولا يبعد إمكان إرجاع الأقوال إلى معنى جامع بعد تحليل وتأمل، وكأن كل تعريف يشير إلى جهة من جهات الذنوب الكبيرة، والجامع هو

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان ٦٨-٦٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦١.

(٤) سورة التوبة: الآية ٣٥.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.

(٦) سورة الرعد: الآية ٢٥.

(٧) الأنظار التفسيرية: ص٨٨٦-٨٨٨؛ وانظر الكافي: ج٢، ص٢٨٥، ح٢٤.

مخالفة المولى عزّ وجل والجرأة عليه، ولعل من هنا جمعها الصدوق والطبرسي وصاحب الوسائل قدست أسرارهم بالإضافة؛ إذ كل ذنب في مقابل الله عظيم وكبير، وإنما يصغر أمام ما هو أكبر وأعظم منه.

نعم الذنوب في نفسها بعضها كبير وبعضها صغير، ولكن بالقياس إلى عظمة الخالق وحقوقه وغضبه وسطوته مع لحاظ عجز العبد وفقره وضعفه فهي جميعاً كبائر فتدبر.

وربما يشهد له قوله سبحانه: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ**﴾[1] إذ جعل النار جزاءً لكل معصية، ويؤيده اتفاقهم على أن الإصرار على الصغائر من الكبائر، بل ورد فيه النص كقولهم عليهم السلام: ﴿لا صغيرة مع الإصرار﴾[2] والإصرار لغة وعرفاً الإقامة والمداومة على الشيء وملازمته كما استظهره الشيخ الأنصاري قدس سره[3]، ولعل جهة حسبان الإصرار على الصغائر من الكبائر هو ما فيه من التجرؤ على المولى عزّ وجل والخروج عن آداب العبودية والطاعة، فإن العلة تعمم؛ لذا يمكن القول بأن كل ذنب فيه الجرأة والتحدّي للمولى فهو كبير وإن كان في نظر الناس صغيراً.

---

(١) سورة الجن: الآية ٢٣.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٨٨، ح١.

(٣) الأنظار التفسيرية: ص٨٨٩؛ وانظر رسائل فقهية: ص٤٩.

وجه تسمية المعاصي بالذنوب

وعلى أي حال فلعل المعصية تسمى ذنباً؛ لأنها تتابع الإنسان وتلاحقه كمتابعة الذنب للحيوان ومن هنا يقال للذنوب تبعات[١]، وبهذا اللحاظ يقول علماء الأخلاق:

إن تسمية المعاصي بالذنوب تشبيهاً بالذَنَب الحيواني إشارة إلى أن الإنسان العاصي صاحب الذنب تتابعه أعماله في الدنيا والآخرة بآثارها الوضعية، وتنعكس عليه، وربما على أولاده ومن يرتبط به، أو على أعماله فضلاً عن عقوبات الآخرة من جهة، ومن جهة أخرى أن الإنسان العاصي يخرج بمعصيته عن دائرة الإنسانية، ويدخل ضمن سيطرة القوة الحيوانية؛ إذ إن المعصية تقع من جرّاء استيلاء القوة الغضبية والشهوية على القوة العقلية؛ فإن العقل السليم مانع من ارتكاب القبائح والمساوئ؛ لأن العقل رباط النفس وكابح جماحها، وهذه إحدى جهات تسميته بالعقل؛ إذ العقل يدفع نحو سلامة العمل وسلامة الموقف، ولذا ورد: (العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان)[٢] وأصبح حجة على الخلق حتى في التكليف.

وفي الدعاء الشريف: ﴿والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة وأسبغ عليهم من نِعَمه المتظاهرة

---

(١) راجع لسان العرب: ج١، ص٣٨٩، (ذنب)؛ ومجمع البحرين: ج٢، ص٥٩، (ذنب)؛ تفسير الأمثل: ١٦، ص٤٢٠.

(٢) الكافي: ج١، ص١١، ح٣؛ معاني الأخبار: ص٢٣٩، ح١.

لتصرّفوا في مننه فلم يحمدوه، وتوسَّعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حدِّ البهيمية، فكانوا كما وصف في محكم كتابه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[(١)] ﴾[(٢)].

وجهة أضليتهم عن البهائم أن البهائم لا تملك عقلاً فتتيه في نزوات نفوسها وشرهها في الأكل والنزو ونحو ذلك، وهو شأنها. أما الإنسان الذي من شأنه الكمال والسمو والرفعة ببركة قوة العقل إذا صارت حياته حياة البهائم يأكل ويشرب ويتمتع ويلهيه الأمل دون أهداف سامية وأعمال نافعة في دنياه وأخراه فهو أضل من البهيمة من حيث الصفة وإن تميّز عنها في الشكل فتدبر.

الأمر الثاني: ﴿تهتك العصم﴾ ماذا يعني؟

العصم بالكسر جمع العصمة، وهي بمعنى المنع، ففي لسان العرب: عصمه: منعه ووقاه[(٣)]، ولعل المراد منه هنا احتمالات:

أحدها: الوقاية من الذنوب كما في الدعاء الرجبي: ﴿واعصمنا من الذنوب خير العصم﴾[(٤)].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

(٢) الصحيفة السجادية: ص١٨، الدعاء الأول.

(٣) ورد في لسان العرب: ج١٢، ص٤٠٣، (عصم)، ((العصمة في كلام العرب: المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه، عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه)).

(٤) مصباح المتهجد: ص٨٠٤، دعاء (٩).

ثانيها: المنع من نزول العقوبات والمكاره التي تسببها الذنوب؛ لأن كل ذنب له حساب وله أثر، والحساب في الآخرة، إلّا أن الآثار السيئة في الدنيا يعجِّل فيها الله سبحانه على العباد، كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[(١)] .

ثالثها: المنع من إطلاع الملائكة على أفعال العبد حتى لا يهتك أمامها.

رابعها: رفع المنعة بين العبد وربّه، فيكون العبد قليل الحياء ولا يستحي من ربّه، فيرتكب كلّ ما هو قبيح وحرام ولا يبالي.

خامسها: يمنع إطلاع الناس عليها ستراً على العبد وحفظاً لماء وجهه في الدنيا والآخرة كما ورد في الدعاء الشريف: ﴿ولا تفضحني على رؤوس الأشهاد﴾[(٢)] والهتك: لغة وعرفاً عبارة عن خرق الستر عما وراءه[(٣)] .

والظاهر أن الهتك فيه زيادة على معنى الخرق، وليسا بمعنى مترادف واحد؛ إذ في الهتك لوحظ اعتبار الفضيحة. أما الخرق فلا، ويساعده التبادر فضلاً عن الاستقراء من اللغة؛ إذ قالوا: الهتيكة بمعنى الفضيحة، ورجل هتّاك إذا بالغ في هتك أعراض الخلق وخرق أستار حرماتهم، فكل هتك خرق ولا عكس.

---

(١) سورة الزلزلة: اية ٨.

(٢) البحار: ج٩٤، ص٢٢٩.

(٣) جاء في لسان العرب: ج١٠، ص٥٠٢، (هتك)، ((الهتك: خرق الستر عما وراءه، والاسم الهُتكة بالضم، والهتيكة: الفضيحة.. تهتّك: افتضحَ... هَتَكَ السِّترَ والثوب يهتكه هتكاً فانهتك وتهتّك: جذبه فقطعه من موضعه، أو شقَّ منه جزءاً فبدا ما وراءه)).

والعصم من معانيه أيضاً رباط كل شيء؛ إذ هو كما في النهاية جمع عصام وليس جمع عصمة كما يرى البعض، والعصام رباط كل شيء[١]، وبهذا يصبح معنى الجملة الشريفة:

اللهّم اغفر لي الذنوب التي توجب خرق أستاري وانفصام رباط أموري المؤدي إلى افتضاحي في دنياي وآخرتي، وخروجي عن رباط العبودية، وبعدي عن الرحمة.

والفضيحة من أشد الحالات على العبد؛ لأنها تقطع علاقة المحبّة بين الخالق والمخلوق، وتفصم رباط العبد بمولاه، فيكون ضائعاً موكلاً إلى نفسه في جميع شؤونه، وما بعد هذا الضياع طرد من رحمة الله سبحانه.

ومن الواضح أن بلوغ العبد إلى هذه الدركات الكبيرة من الخسران يتم بقطع ارتباطه بالله سبحانه، وقطع الرباط له مظاهر وأشكال، ومن أبرز مظاهره الابتعاد عن أهل بيت النبوةعليهم السلام والتخلي عنهم قلباً في الاعتقاد، وروحاً في التولي والتبري، وعملاً في الاقتداء والتأسي؛ لأنهمعليهم السلام الوسيلة التي أمرنا الله سبحانه بابتغائها: إذ قال سبحانه: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٢] وباب الله التي منها يؤتى، وهم الصراط الأقوم، والعروة الوثقى، والسبيل إلى رضوانه تبارك وتعالى، فما دامت هذه العلقة موجودة بيننا وبينهم يصبح العبد في فوز ونجاة، وإلّا فلا: «الراغب عنهم مارق، والمتأخر عنهم

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ج٣، ص٢٥٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٥.

زاهق، واللازم لهم لاحق﴾[١] ولعل هذا أحد المعاني المحتملة في تفسير الروايات التي نصّت على أن عبودية العبد بولايته لآل محمدعليهم السلام لا بصلاته وحجه وصيامه[٢].

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الإسلام عريان فلباسه الحياء، وزينته الوقار، ومروءته العمل الصالح، وعماده الورع، ولكل شيء أساس، وأساس الإسلام حبّنا أهل البيت﴾[٣].

وعن أبي جعفر الثاني عليه السلام عن أبيه عن جدّه صلوات الله عليهم قال: ﴿قال أمير المؤمنين عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله خلق الإسلام فجعل له عرصة، وجعل له نوراً، وجعل له حصناً، وجعل له ناصراً، فأمّا عرصته فالقرآن، وأمّا نوره فالحكمة، وأمّا حصنه فالمعروف، وأمّا أنصاره فأنا وأهل بيتي وشيعتنا، فأحبّوا أهل بيتي وشيعتهم وأنصارهم، فإنّه لمّا أُسري بي إلى السماء الدنيا فنسبني جبرئيل عليه السلام لأهل السماء استودع الله حبّي وحب أهل بيتي وشيعتهم في قلوب الملائكة، فهو عندهم وديعة إلى يوم القيامة، ثم هبط بي إلى أهل الأرض فنسبني إلى أهل الأرض، فاستودع الله عزّ وجلّ حبّي وحبّ أهل بيتي وشيعتي في قلوب مؤمني أمّتي، فمؤمنو أمتي يحفظون وديعتي في أهل بيتي إلى يوم القيامة، ألا فلو أنّ الرجل من أمتي

---

(١) مصباح المتهجد: ص٣٩٣.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٦، ح٣.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٦، ح٢.

عَبَدَ الله عزّ وجلّ عمره أيام الدنيا ثم لقي الله عزّ وجل مبغضاً لأهل بيتي وشيعتي ما فرّج الله صدره إلّا عن النفاق»[1] وفي هذا الحديث دلالة على أن المبغض لشيعتهم أيضاً لا ينفعه عمل ولا عبادة.

وفي أصول الكافي عن أبي جعفر عليه السلام: «حبّنا إيمان، وبغضنا كفر»[2] ومن الحب حب من يحبه المحبوب وبغض أعدائه ومناوئيه.

والأدلة النقلية والعقلية على هذا المعنى متضافرة.

الأمر الثالث: ما هي الذنوب التي تهتك العصم؟

لعل من أعظم ما له أثر في كشف الستر وهتك العصم بحكم العقل والشرع هو الكشف عن عيوب الناس وخرق أستارهم؛ لأن الله سبحانه ستّار يحب الساترين، ومن أجلى صفاته سبحانه وآدابه في التعامل مع خلقه هو الستر عليهم، وأمنهم من الفضيحة تكويناً وتشريعاً، وقد بلغت ستاريّته أقصى غاياتها عندما ستر عيوب العباد في الخلق والتكوين، فغطى ما يعابون منه، وكذلك أمر بسترها في التشريع.

فتكويناً جعل مفاتيح بدن العبد التي تستقبحها العيون مستورة في باطنه، مغطاة بجمال ظاهره، فكم بين باطن العبد وظاهره في النظافة والقبح والجمال من فرق؟

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٦، ح٣.

(٢) الكافي: ج١، ص١٨٧، ضمن ح ١٢.

وكذلك جعل مستقر خواطره ونواياه المذمومة وأسرار قلبه من الكوامن التي لا يطّلع عليها أحد، ولو انكشف للناس ما يخطر ببال الإنسان أحياناً من وساوس وما ينطق في ضميره من الغش والخيانة وسوء الظن ونحوه لمقتوه، بل وسعوا في هلاكه، ومن هنا ورد في الحديث: «لو تكاشفتم ما تدافنتم»[1] كما حرّم على العباد أن يفضح بعضهم عيوب بعض، ويهتك ستره، وجعل من الآثار الوضعية للستارين أن يستر هو سبحانه عليهم، ولا يفضحهم فيما يكرهون -تبارك وتعالى ربنا الكبير المتعال- ليس في الدنيا فقط، بل وفي الآخرة أيضاً.

فعن معاوية بن وهب قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله، فستر عليه في الدنيا والآخرة» فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: «ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي إلى بقاع الأرض اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[2].

وفيه دلالة على وجود ذنوب تستر في الآخرة حتى على الجوارح، وهو مخصص لعموم يوم تشهد عليهم أرجلهم وأيديهم[3].

---

(١) أمالي الصدوق: ص٥٣١، ح٩؛ البحار: ج٧٤، ص٣٨٣، ح١٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٣٠، ح١.

(٣) إشارة إلى مضمون الآية ٦٥ من سورة يس.

وعن جميل بن صالح عن ذريح المحاربي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «أيّما مؤمن نفّس عن مؤمن كربة وهو معسر يسّر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة» قال: «ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة» قال: «والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه، فانتفعوا بالعظة، وارغبوا في الخير»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «يجب للمؤمن على المؤمن أن يستر عليه سبعين كبيرة»(٢) واللام في قوله (للمؤمن) يدل على أن الستر من الحقوق التي يجب أداؤها.

ومن هذه الذنوب ما ورد عن الصادق عليه السلام: «شرب الخمر واللعب بالقمار وتعاطي ما يضحك الناس من اللغو والمزاح وذكر عيوب الناس ومجالسة أهل الريب»(٣).

أما شرب الخمر لأن شاربها ملعون؛ والملعون مطرود من رحمة الله تعالى. أما اللعب بالقمار واللهو فإنه يهتك العصم(٤).

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الذنوب التي تغيّر النعم البغي، والذنوب التي تورث الندم القتل، والتي تنزل النقم الظلم، والتي تهتك الستر شرب

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٠٠، ح٥.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٠٧، ح٨.

(٣) معاني الأخبار: ص٢٧١، ح٢؛ عدة الداعي: ص١٩٩.

(٤) راجع البحار: ج٧٠، ص٣٧٥، ح١٢.

الخمر، والتي تحبس الرزق الزنا، والتي تعجّل الفناء قطيعة الرحم، والتي تردّ الدعاء وتُظلِم الهواء عقوق الوالدين»[(١)].

ولعل في هذه الأعمال مناسبة خارجية أيضاً فضلاً عن الآثار الوضعية والعقوبات الأخروية كهتك الستر؛ لأن الخمر يذهب بالعقل فيفضح الإنسان في تصرفاته، والزنا يحبس الرزق؛ لأنه يجر الإنسان لصرف أوقاته في المفاسد، ويصيبه بالأمراض، ودفع أمواله في المحّرمات، وقطيعة الرحم تنشأ في الغالب من الأزمات الاجتماعية والغضب والعصبية والحسد ونحوها من الأسباب التي تؤدي إلى إمراض الإنسان نفسياً وعصبياً، فتعجل في موته، كما أن عقوق الوالدين يسبب عدم رضاهم عنه، وحيث إن رضا الله من رضا الوالدين فلا يستجب له دعاء، كما أن عقوق الوالدين يسدل على جو البيت والأسرة ظلام الروابط والعلاقات، فيكدر الأجواء ويوترها، فتكون حياتهم مظلمة؛ لأن الولد قرة عين الأبوين، كما أن الأبوين قرة عين الولد[(٢)].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي، ثلاث يقسين القلب: استماع اللهو، وطلب الصيد، وإتيان باب السلطان»[(٣)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٤٧، ح١.

(٢) راجع تفسير الميزان: ج٢، ص١٩١-١٩٩؛ والتفسير الصافي: ج١، ص٢٤٨-٢٤٩، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾.

(٣) روضة الواعظين: ص٤١٤؛ مكارم الاخلاق: ص٤٤٠.

وقال صلى الله عليه وآله: ﴿أربعة يفسدن القلب، وينبتن النفاق في القلب كما ينبت الماء الشجر: استماع اللهو، والبذاء، وإتيان باب السلطان، وطلب الصيد﴾[١] ومن أجلى مصاديق طلب الصيد المقسي للقلب هو الصيد المحرّم، وكذا الذي لا فائدة منه، كما كان يصنع الملوك؛ إذ يتلهون بصيد الحيوانات.

وكيف كان، فإن أوثق رباط بين العبد وربّه وبين العبد ومجتمعه هو رباط الطاعة؛ إذ بالطاعة تظهر محاسن الإنسان، وتتجلى كمالاته فتزداد محبوبيته، فيكون قريباً من ربه، مستجاب الدعاء، كثير التوفيق، له تأثير في الناس، بخلاف الذنوب فإنها تهتك عصمته مع ربه ومع مجتمعه أيضاً، وتجعله مطروداً من الرحمة، بعيداً عن القلوب، مفضوح العيوب، ظاهر المساوئ والآثام.

الأمر الرابع: لماذا يستغفر المعصوم عليه السلام؟

إن الاستغفار من الذنوب متأخر عن وقوع الذنب والمعصية؛ لأن الاستغفار لمحو الذنوب أو سترها، ولكن الأنبياء والأئمة عصمهم الله من الذنوب كما هو مقتضى الأدلة العقلية والنقلية والضرورة والإجماع عند أهل الحق، ولكن المتتبع لبعض الآيات والروايات والأدعية يجد أنهم عليهم السلام يستغفرون الله، ويعلنون التوبة، ويظهرون الخوف والخشية من الله تبارك وتعالى بالتوسل والبكاء، وفي حديث مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: ﴿وابكِ على خطيئتك﴾[٢].

---

(١) الخصال: ص٢٢٧، ح٦٣؛ روضة الواعظين: ص٤١٤.

(٢) أمالي المفيد: ص٢٢١، ح١؛ أمالي الطوسي: ص٧، ح٨.

وفي الكافي في باب الاستغفار عن الصادقعليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يقوم من مجلس وإن خفّ حتى يستغفر الله عزّ وجلّ خمساً وعشرين مرة»[١] والظاهر أن قوله: «وإن خفّ» يعني أن زمان جلوسه صلى الله عليه وآله كان قليلاً.

وفيه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يستغفر الله عزّ وجلّ في كل يوم سبعين مرة، ويتوب إلى الله عزّ وجلّ سبعين مرة. قال: قلت: كان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه؟ قال: «كان يقول: أستغفر الله أستغفر الله سبعين مرّة، ويقول: وأتوب إلى الله وأتوب إلى الله سبعين مرة»[٢].

وفي الحديث المسند عن حذيفة قال: كنت رجلاً ذرب اللسان على أهلي فقلت: يا رسول الله، إني لأخشى أن يدخلني لساني النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فأين أنت من الاستغفار إنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[٣].

وكيف كان، فإن ما ورد في الدعاء الشريف وفي غيره من الأدعية والروايات صريح في استغفارهم، وظاهر الاستغفار أنه عن ذنب، وهذا يتنافى مع قواعد الإمامية القائلين بالعصمة.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٥٠٤، ح٤.

(٢) الكافي: ج٢، ص٥٠٤، ح٥؛ الوسائل: ج٤، الباب ٢٥ من أبواب الذكر، ص١٢٠١، ح١.

(٣) مرآة العقول: ج١٢، ص١٥٦.

فلماذا يستغفرون إذن؟[(١)] ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بوجوه بعضها أوجه من بعض:

الأول: المراد من استغفارهم ليس محو الذنوب أو سترها؛ إذ لا ذنوب في الواقع، وإنما المراد المعنى الكنائي لتعليم العصاة وأهل الذنوب طريق الرجوع والتوبة إلى الله تعالى كما ورد ذلك في العديد من خطابات القرآن الكريم لأنبياء الله وأوليائه عليهم السلام، كقوله سبحانه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[(٢)] مع أنه صلى الله عليه وآله معصوم من العصيان والخطأ فضلاً عن الشرك، ولكن ورد في شرح مثل هذه الآيات أن القرآن نزل في لغة -إياك أعني واسمعي يا جارة- أي للتعليم والتربية، وكذا الكلام في مناجاتهم وأدعيتهم واستغفارهم عليهم السلام، فإنهم مع شدة قربهم من ربهم وعلو شأنهم يستغفرون ويبكون ويظهرون الفقر والعبودية، فكيف بسائر الناس الذين لا يصلون إلى ما هم عليه من الفضل والكرامة؟

---

(١) تفسير الميزان: ج٥، ص٧٢، في تفسير الآية ١٠٦ من سورة النساء.

((قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سورة النساء: الآية ١٠٦، الظاهر أن الاستغفار ههنا هو أن يطلب من الله سبحانه الستر على ما في طبع الإنسان من إمكان هضم الحقوق والميل إلى الهوى ومغفرة ذلك، وقد مرَّ مراراً أن العفو والمغفرة يستعملان في كلامه تعالى في شؤون مختلفة يجمعها جامع الذنب، وهو التباعد من الحق بوجه... فأمره أن يستغفر ليس لصدور ذنب ذي وبال وتبعة منه، ولا لإشرافه على ما لا يحمد منه، بل ليسأل من الله أن يظهره على هوى النفس، ولا ريب في حاجته في ذلك إلى ربه وعدم استغنائه عنه وإن كان على عصمة، فإن لله سبحانه أن يفعل ما يشاء...)).

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٥.

وهذا المعنى أورده العلامة المجلسي‏ في مرآة العقول، فقال: دعاؤه واستعاذتهُ واستغفاره‏ مع معافاته وعصمته إنما هو تعليم للخلق، وإبلاغ في العبودية والخوف[(١)] .

ولكنه لا ينسجم كثيراً مع الابتهالات والتضرعات الكثيرة التي يظهرها الأنبياء والأئمة‏ في ساحة العبودية، خاصة وأن الأصل الحقيقة لا المجاز، والتوجيه المذكور يوجب حمل الاستغفار على المجاز وأن يكون الدعاء والتضرع شكلياً.

الثاني: المراد من الاستغفار ليس محو الذنوب بل إظهار التواضع والخضوع والتذلل أمام الله سبحانه، كما قال‏ حينما سئل عن سبب كثرة عبادته: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

ويشهد له ما ورد أنّ فاطمة بنت علي‏ أتت إلى جابر بن عبد الله فقالت له: يا صاحب رسول الله إن لنا عليكم حقوقاً، ومن حقنا عليكم أن إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهاداً أن تذكّروه الله، وتدعوه إلى البقيا على نفسه، وهذا علي بن الحسين‏ بقية أبيه الحسين‏ قد انخرم أنفه، ونقبت جبهته وركبتاه وراحتاه. أذاب نفسه في العبادة، فأتى جابر إليه فاستأذن، فلما دخل عليه وجده في محرابه قد أنصبته العبادة، فنهض علي فسأله عن حاله سؤالاً خفياً، ثم أجلسه بجنبه، ثم أقبل جابر يقول: يا بن رسول الله، أما علمت أن الله إنّما خلق الجنة لكم ولمن أحبكم؟ وخلق النار

---

(١) مرآة العقول: ج١٢، ص١٥٤.

لمن أبغضكم وعاداكم؟ فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك؟ قال له علي بن الحسين: «يا صاحب رسول الله، أما علمت أن جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد، وتعبد هو -بأبي وأمي- حتى انتفخ الساق وورم القدم؟ وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال أفلا أكون عبداً شكوراً؟»[1].

وعليه فإن استغفارهم عليهم السلام لا يحمل على معناه الحقيقي، بل على المجاز أيضاً؛ لإرادة الخضوع والتواضع منه، ولذا يقال فيه ما قيل في الأول فتأمل.

الثالث: وهو ما أفادهُ الفاضل الجليل بهاء الدين بن عيسى الأربلي قدس سره في كشف الغمّة.

وحاصله: أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام تكون أوقاتهم مشغولة بالله تعالى، وقلوبهم مملوءة به، وخواطرهم متعلّقة بالملأ الأعلى، وهم أبداً في المراقبة كما قال عليه السلام: «اعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تره فإنّه يراك» فهم أبداً متوجهون إليه، ومقبلون بكلّهم عليه، فمتى انحطوا عن تلك الرتبة العالية والمنزلة الرفيعة إلى الاشتغال بالمأكل والمشرب والتفرّغ إلى النكاح وغيره من المباحات عدّوه ذنباً، واعتقدوه خطيئة، واستغفروا منه، ألا ترى أنّ بعض عبيد أبناء الدنيا لو قعد وأكل وشرب ونكح وهو يعلم أنه بمرأى من سيّده ومسمع لكان ملوماً عند الناس، ومقصراً فيما يجب عليه من خدمة سيده ومالكه، فما ظنّك بسيّد السادات وملك الأملاك؟ وإلى هذا أشار عليه السلام:

---

(١) أمالي الطوسي: ص٦٣٧، ح١٣١٤، وقد ورد في كتاب المناقب: ج٣، ص٢٨٩.

﴿إنه ليران على قلبي وإني لأستغفر بالنهار سبعين مرة﴾ وقوله: ﴿حسنات الأبرار سيّئات المقربين﴾[١].

والرين: الحجاب الكثيف. يقال: رانت نفسه ترين أي خبثت، ويحصل من غلبة الذنوب، وفي الحديث عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿ما من عبد مؤمن إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السواد، وإذا تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير ابداً، وهو قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢]﴾[٣].

وفي بعض المصادر يغان، والغين: لغة الغيم، وغان على قلبي أي غشيه وغطّاه كما في المعجم ومجمع البحرين[٤]، وفي لسان العرب مثله[٥]، وقال القاضي في تفسير معنى الحديث الشريف: لما كان قلب النبي صلى الله عليه وآله أتمّ القلوب صفاء وأكثرها ضياءً وأعرفها عرفاناً وكان صلى الله عليه وآله مبيِّناً مع ذلك لشرائع الملّة وتأسيس السنّة ميسِّراً غير معسر، لم يكن له بد من النزول إلى الرخص، والالتفات إلى حظوظ النفس مع ما كان متمتعاً به من أحكام البشرية، فكأنه إذا تعاطى شيئاً من ذلك أسرع كدورة ما إلى القلب؛ لكمال رقته، وفرط

---

(١) كشق الغمة: ج٣، ص٤٧-٤٨.

(٢) سورة المطففين: الآية ١٤.

(٣) مجمع البحرين: ج٦، ص٥٢٩، (رين).

(٤) معجم مقاييس اللغة: ص٧٨٠، (غين)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٢٨٩، (غين).

(٥) مستدرك الوسائل: ج٥، الباب ٤٠ من أبواب الذكر، ص٣٧٥، ح٦١٣١؛ البحار: ج٦٠، ص١٨٣، الهامش؛ لسان العرب: ج١٣، ص٣١٦، (غين).

نورانيّته، فإنّ الشيء كلّما كان أصفى كانت الكدورة عليه أبين وأهدى، وكان عليه السلام إذا أحسّ بشيء من ذلك عدّه على النفس ذنباً فاستغفر منه[١].

أقول: وكذا الكلام ذاته يجري في الأئمة عليهم السلام من آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين)؛ لأنهم من نور واحد، مطّهرون من كل رجس ودنيّة، وقلوبهم أزكى القلوب وأصفاها، وحكم الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد.

الرابع: أن المعصومين عليهم السلام على رغم علوّ درجاتهم وسموّ ذواتهم ونورانية قلوبهم إلّا أنهم بشر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٢] والبشر بمقتضى بشريّته يمارس وظائف البشر في عالم الدنيا وشوائبها في الأكل والشرب ونحو ذلك من متطلبات البدن أو المجتمع لدى معاصرتهم الناس، وممارسة اللذة ونحوها تتنافى مع الدرجات المعنوية الرفيعة؛ لأنها نوع هبوط في الرفعة والتجرّد، خصوصاً مثل الجماع والطعام والشراب؛ لذا يستغفرون الله من وجودهم في عالم الدنيا الذي هو في النتيجة نوع من البعد عن ساحة العبودية والروحانية والانقطاع إلى الربوبية.

وقد أورد العلامة المجلسي قدس سره في مرآة العقول ما يقرب من هذا الجواب، قال: وقيل سببه النظر في مصالح أمته وأمورهم ومحاربة العدو ومداراتهم وتأليف المؤلفة ونحو ذلك من معاشرة الأزواج والأكل والشرب والنوم، وذلك مما يحجبه ويحجزه عن عظيم مقامه، فرآه ذنباً بالنسبة إلى ذلك المقام العلي وهو حضوره في حضرة القدس ومشاهدته

---

(١) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٩٠، (غين).

(٢) سورة الكهف: الآية ١١٠.

ومراقبته وفراغه مع الله مما سواه، فيستغفر لذلك وإن كانت تلك الأمور من أعظم الطاعات[(١)].

والفرق بين الجوابين أن الأول يشير إلى جهة المادة التي تقيّد الروح في عالم الدنيا، وتمنعها من الانطلاق في عالم الماورائيات المجردة من نواقص المادة وشرورها.

بينما الثاني يشير إلى جهة العمل والضرورات البدنية والاجتماعية والقيادية التي تفرض على أولياء الله سبحانه وحججه معاشرة أهل الدنيا بطبعهم البشري وحاجاتهم القهرية، وهي أمور من شأنها أن تشغل الولي الذي لا يرى وظيفة أسمى من الانشغال بذكر ربه وعبادته والتوجه إلى ساحة جماله وجلاله فتدبر.

الخامس: ما ذكره بعض المحققين من أن استغفارهم ليس طلباً للمغفرة من الذنب الذي ارتكب في الماضي، وإنما بالقرينة العقلية -وهي العصمة- يقتضي أن نفسّر الفقرة بالحفظ من الذنب في جميع الحالات، فقوله عليه السلام: ﴿اللهمَّ اغفر لي﴾ بمعنى (اللهمَّ أعذني من الذنوب) إذ بحسب الذات بما هو إنسان ربما له ميل إلى الدنيا، وقد غرزت فيه الشهوات، وربما يميل حسب هذا الطبع إلى المعصية والشهوة -وإن كان هذا في المعصوم محال وقوعي-، ولهذا يستغفر الله ليحصّنه منها دائماً، والعصمة اختيارية لا جبرية.

---

(١) مرآة العقول: ج١٢، ص١٥٤؛ وانظر شرح أصول الكافي: ج١٠، ص٢٩٣ -٢٩٤؛ شرح مسلم: ج١٧، ص٢٤؛ إمتاع الأسماع: ج٢، ص٣٢١، الهامش.

وربما يؤيّده ما ورد في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[1] بناء على أن معنى ﴿هَمَّ بِهَا﴾ ميله لها بمقتضى طبعه البشري، خصوصاً وأن يوسف عليه السلام كان شاباً لم يتزوج وامرأة العزيز في غاية الجمال والدلال، ولكنه عليه السلام معصوم فرأى برهان ربه، ولولا ذلك لهمّ بها ووقع المحذور بالفعل، وهذا التعبير مستعمل كثيراً في لغة العرب. يقال: قصد فلان قتلي ولو لا مخافة الله لقتلته[2]، وعلى هذ التفسير تصبح الآية من أدلة العصمة لا العكس كما قد يتصوّره البعض.

وقد ورد عن مولانا الرضا عليه السلام حينما سأله المأمون العباسي قائلاً: ألا تقولون إن الأنبياء معصومون؟ فقال الإمام عليه السلام: «بلى» فقال: فما تفسير هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فقال الإمام عليه السلام: «لقد همّت به ولو لا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها كما همّت لكنّه كان معصوماً، والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه، ولقد حدّثني أبي عن الصادق عليه السلام أنه قال: همّت بأن تفعل وهمّ بأن لا يفعل» فقال: المأمون: لله درّك يا أبا الحسن[3].

أقول: ومن هنا كان الأنبياء والأولياء عليهم السلام دائماً في مقام الخوف والرجاء، وقد ورد: «ولكم القلوب التي تولّى الله رياضتها بالخوف

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٢) انظر مجمع البيان: ج١٢، ص٢٢٤، تفسير سورة يوسف، (بتصرف).

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص١٧٩، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٤١٩، ح٤٢.

والرجاء، وجعلها أوعية الشكر والثناء، وأمّنها من عوارض الغفلة، وصفّاها من شواغل الفترة﴾[(١)].

فيتحصل: أن من مقتضيات خوفهم ورجائهم وصفائهم من شواغل الفترة كانوا دائماً يستغفرون ويستعيذون من الشيطان تحصناً من الذنوب.

السادس: ما قد يبدو من أنهم لشدة انقطاعهم إليه سبحانه تتجلّى عظمته وهيبته في قلوبهم فيقومون له مستغفرين تائبين من هيبة العظمة والكبرياء.

فالاستغفار لا من الذنب، بل من الهيبة والخشية وتجلّي عظمة الخالق في قلوبهم[(٢)]. قال المحاسبي: خوف المقرّبين خوف إجلال وإعظام[(١)]، وفي

---

(١) المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٢٩٣-٢٩٤، ح١٤؛ مفاتيح الجنان: ص٦٣٠.

(٢) جاء في الدعاء الشريف: ﴿... أشهدُ يا إلهي بحقيقة إيماني، وعقد عزمات يقيني وخالص صريح توحيدي، وباطن مكنون ضميري، وعلائق مجاري نور بصري، وأسارير صفحة جبيني، وخرق مسارب نفسي، وخذاريف مارِن عرنيني، ومسارب صماخ سمعي، وما ضمَّت وأطبقت عليه شفتاي وحركات لفظ لساني، ومغرز حنكِ فمي وفكّي، ومنابت أضراسي... أن لو حاولت واجتهدت مدى الأعصار والأحقاب -لو عمّرتها- أن أؤدّي شكر واحدة من أنعمك ما استطعت ذلك إلّا بمنّك الموجب عليّ به شكرك أبداً جديداً، وثناءً طارفاً عتيداً... اللهم اكشف كربتي، واستر عورتي، واغفر لي خطيئتي، واخسأ شيطاني، وفك رهاني ... أنت الذي مننت، أنتَ الذي أنعمت، أنت الذي أحسنت، أنت الذي أجملت، أنت الذي أفضلت، أنت الذي أكملت، أنت الذي رزقت، أنت الذي وفقت، أنت الذي أعطيت، أنت الذي أغنيت، أنت الذي أقنيت، أنت الذي آويت، أنت الذي كفيت، أنت الذي هديت، أنت الذي عصمت، أنت الذي سترت، أنت الذي غفرت... ثم أنا يا إلهي المعترف بذنوبي ←

دعاء مولانا سيد الشهداء عليه السلام في يوم عرفة: ﴿يا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بين يده مستغفرين﴾[(٢)] .

السابع: ما ذكره بعض أهل المعرفة

وخلاصته: أن العبد الحقيقي في كل حال يرى نفسه مذنباً؛ لأنه فقير في ذاته، وعاجز في نفسه، والفقر والعجز نقص وقصور، والقصور ذنب في قبال الكامل الغني المطلق من كل الجهات، كما يقول بعضهم: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب[(٣)]، ولعل إلى هذه الرتبة أشار الحديث الشريف: ﴿وهلك العابدون إلّا العالمون ... وإن الموقنين لعلى خطر عظيم﴾[(٤)] لأن أكبر خطر للمخلص هو أنانيّته وقصوره الذاتي والعبادي فقيام الأولياء بالاستغفار والتضرع ناشئ من قصورهم ومن إنيّتهم لا من الذنب

→

فاغفرها لي، أنا الذي أسأت، أنا الذي أخطأت، أنا الذي هممت، أنا الذي جهلت، أنا الذي غفلت، أنا الذي سهوت، أنا الذي، اعتمدت أنا الذي تعمّدت، أنا الذي وعدت، أنا الذي أخلفت، أنا الذي نكثت، أنا الذي أقررت، أنا الذي اعترفت بنعمتك عليّ وعندي، وأبوءُ بذنوبي فأغفرها لي..﴾ انظر إقبال الأعمال: ج٢، ص٧٦.

(١) مرآة العقول: ج١٢، ص١٥٤؛ شرح أصول الكافي: ج١٠، ص٢٩٤، ح٦؛ سبل الهدى والرشاد: ج٧، ص٦٤.

(٢) البحار: ج٩٥، ص٢٢٦، ح٣؛ مفاتيح الجنان: ص٤٢٧، دعاء يوم عرفة.

(٣) شرح الأسماء الحسنى: ج١. ص٣؛ ج٢، ص١٤؛ تفسير ابن عربي: ج١، ص١١٦، وفيه: ((كما قيل: إذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة   وجودك ذنب لا يقاس به ذنب))

(٤) راجع البحار: ج٦٧، ص٢٤٥، ح١٨.

والمعصية، فبالاستغفار يطلبون من المولى الستر على هذه النواقص بتكميلها، وتبدّل الرذائل بالفضائل، والنواقص بالكمالات؛ ليليقوا بالاتصال بعالم القدس والعظمة، فعلى هذا يكون الذنب هنا بمعنى رفع النواقص وإكمال الاستعدادات؛ ليقوم العبد بوظائف العبودية الحقّة بما تليق بشأن المولى وشأن المعبود تبارك وتعالى[(١)].

---

(١) جاء في الصحيفة السجادية الجامعة: ص١٠٠ من دعائه في الاستقالة والتضرع في طلب العفو - رقم ٤٩- ما ربما يشير إلى هذه الجهة. يقول عليه السلام: ﴿قد ترى يا إلهي فيض دمعي من خيفتك، ووجيب قلبي من خشيتك، وانتفاض جوارحي من هيبتك، كلُّ ذلك حياء مني بسوء عملي، ولذلك خمد صوتي عن الجأر إليك، وكلّ لساني عن مناجاتك. يا إلهي فلك الحمد، فكم من عائبة سترتها عليّ فلم تفضحني، وكم من ذنب غطيّته عليّ فلم تشهرني، وكم من شائبة ألممت بها فلم تهتك عنّي سترها، ولم تقلّدني مكروه شنارها، ولم تبدِ سوأتها لمن يلتمس معايبي من جيرتي وحسدة نعمتك عندي، ثُمَّ لم ينهني ذلك عن أن جريتُ إلى سوء ما عهدتَ منّي.

فمن أجهل مني يا إلهي برشده؟ ومن أغفل مني عن حظه؟ ومن أبعد مني من استصلاح نفسه حين أُنفق ما أجريت عليّ من رزقك فيما نهيتني عنه من معصيتك؟ ومن أبعد غوراً في الباطل؟ وأشدّ إقداماً على السوء مني حين أقف بين دعوتك ودعوة الشيطان فاتبّع دعوته على غير عمىً مني في معرفة به؟ ولا نسيان من حفظي له؟ وأنا حينئذ موقن بأن منتهى دعوتك إلى الجنة، ومنتهى دعوته إلى النار.

سبحانك ما أعجب ما أشهد به على نفسي وأُعدّدُهُ من مكتوم أمري، وأعجب من ذلك أناتك عني وإبطاؤك عن معاجلتي، وليس ذلك من كرمي عليك، بل تأنيّاً منك لي، وتفضّلاً منك علي، لأن أرتدع عن معصيتك المسخطة، وأقلع عن سيئاتي المخْلقة، ولأن عفوك عني أحبّ إليك من عقوبتي.

←

الثامن: ويتضمن الإجابة من جهات ثلاث:

الأولى: الولاية لما ثبت في محله من علم الكلام وقامت عليه الأدلة العقلية والنقلية المتضافرة من أن المعصومين عليهم السلام لهم مقام الولاية الكلية على الخلق في العالمين العلوي والسفلي، وهم مجاري الفيوضات الإلهية والوسائط ما بين الخالق والمخلوقين، فهم مقوّمون للمخلوقات في أصل الوجود وكمالاته، والمقوّم للشيء أولى بالشيء من نفس الشيء بذاته؛ لأن العلّة أولى بالمعلول من نفس المعلول بنفسه كما قد يشير إليه قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

ومن هنا يقومون للاستغفار من ذنوب العباد؛ لأنهم محسوبون عليهم، ومنسوبون إليهم، فيستغفرون من ذنوبهم ومعاصيهم، كما أن كبير القوم يتأثر من معاصي قومه، والنبي يتأثر من معاصي أمته، والأب يتأثر من معاصي أولاده، كذلك هم عليهم السلام، بل وأشدّ؛ لأنهم وسائط الخلق وعلله الغائية والتوسيطية، فكل ما يصدر من الخلق يحسب عليهم خصوصاً

←

بل أنا يا إلهي أكثر ذنوباً، وأقبح آثاراً، وأشنع أفعالاً، وأشدّ في الباطل تهوراً، وأضعف عند طاعتك تيقضاً، وأقلّ لوعيدك انتباها وارتقاباً من أن أحصي لك عيوبي، أو أقدر على ذكر ذنوبي، وإنما أوبخ بهذا نفسي طمعاً في رأفتك التي بها صلاح أمر المذنبين، ورجاء لرحمتك التي بها فكاك رقاب الخاطئين.

اللهم وهذه رقبتي قد أرّقتها الذنوب فصلِّ على محمد وآله، واعتقها بعفوك، وهذا ظهري قد أثقلته الخطايا فصلِّ على محمد وآله، وخفف عنه بمنك».

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦.

شيعتهم ومواليهم، ولعل هذا أحد أسباب عرض الأعمال عليهم عليهم السلام كل خميس وإثنين، وخصوصاً مولانا صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

الثانية: ما ورد في متضافر الأدلة من أن شيعتهم خلقوا من فاضل طينتهم، وعجنوا من ماء ولايتهم، فيفرحون لفرحهم، ويحزنون لحزنهم؛ لذلك فإنهم عليهم السلام أقرب الناس إليهم، وأخصهم بهم، كما أنهم أحب الخلق إلى شيعتهم، وطالما تحمّل شيعتهم الآلام والمصاعب بسبب حبّهم وولائهم، وبذلوا دماءهم وأموالهم في سبيل هذه المودة والحب العميق الكامن في قلوب الشيعة وأتباع أهل البيت عليهم السلام، كما ورد عنهم عليهم السلام: «من أحبّنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً»[1] فهم أصل الشيعة حيث خلقوا من فاضل طينتهم، وعجنوا بماء ولايتهم.

والإنسان يحنّ إلى أصله كما أن الأصل يحنّ إلى فرعه، وكل منهما يفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، ويتأثر بما يناله من خير أو شر؛ لذلك فإن مما لا شك فيه أن ما يصيب الشيعة يصيبهم عليهم السلام، وما يصيبهم يصيب شيعتهم أيضاً كما هو ملحوظ في مظاهر المواساة والمحبة التي يظهرها الشيعة في مختلف المناسبات، وعلى كرور الليالي والأيام في الأفراح والأحزان، وكذلك في مظاهر الزيارات والاحتفاف بمشاهدهم عليهم السلام والدفاع عنهم وبذل المال والأنفس لأجل إحياء أمرهم، وفي المقابل يعتز الأئمة عليهم السلام بشيعتهم يحبونهم ويتحننون عليهم ويغمرونهم بأنواع الكرامات والعنايات الدائمة، وتظهر في حفظهم من الضياع، وقضاء

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٨٨، الحكمة ١١٢.

حوائجهم، وتثبيت كيانهم على رغم العداء المستمر وتكالب القوى المختلفة على هدمه، إلى غير ذلك من مظاهر اللطف والكرامة.

ولكن حيث إن الشيعة غير معصومين فربما يفعلون ما يتنافى مع نسبتهم إلى المعصومين عليهم السلام، أو يبعث على تألمهم عليهم السلام وتأذيهم مما يصيب شيعتهم من الذنوب والمعاصي وسيّئات الأعمال؛ لذلك يستغفرون لهم لإنقاذهم من المكاره وتبعات المعاصي في الدنيا والآخرة.

ومما يزيد الداعي لاستغفارهم عليهم السلام للشيعة أن شيعتهم يتحمّلون الأذى والمكاره في سبيل محبتهم ومودتهم مع ضعف بعضهم أو جهله بالمصالح ونحو ذلك، وهذا يكون أبعث على الرقة ومقابلة ذلك بالجزاء الأوفى كما قد يدل عليه ما ورد في الكافي: عن أبي عبد الله عليه السلام قال أبي: «يا أم فروة إنّي لأدعو الله لمذنبي شيعتنا في اليوم والليلة ألف مرة، لأنّا نحن فيما ينوبنا من الرزايا نصبر على ما نعلم من الثواب، وهم يصبرون على ما لا يعلمون»[(١)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن حواري عيسى عليه السلام كانوا شيعته، وإن شيعتنا حواريونا، وما كان حواري عيسى بأطوع له من حوارينا لنا، وإنما قال عيسى عليه السلام للحواريين: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن انصار الله، فلا والله ما نصروه من اليهود، ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا -والله- لم يزالوا منذ قبض الله عز ذكره رسوله صلى الله عليه وآله ينصروننا ويقاتلون دوننا، ويحرقون ويعذّبون ويشرّدون في البلدان، جزاهم الله عنّا خيراً»[(٢)].

---

(١) الكافي: ج١، ص٤٧٢، ح١.

(٢) الكافي: ج٨، ص٢٦٨، ح٤٩٦، في المصدر: (ينصرونا).

الثالثة: ما ورد في بعض الأخبار من أن بعض شيعتهم يذنبون لا للاستهانة بالذنب، ولا لعدم الخشية من الباري عزّ وجّل، بل لأنّهم يحسّون بالثقة والاطمئنان بنجاتهم في الآخرة ببركة شفاعة أئمتهم عليهم السلام؛ لأنهم شفعاء أهل المحشر، وبيدهم ولاية الجزاء والحساب كما ورد في متضافر الأخبار. منها ما ورد من أن فاطمة عليها السلام إنما سميت فاطمة لأنها فطمت شيعتها من النار[1].

كما ورد أنها صلوات الله عليها تلتقط شيعتها يوم المحشر كما يلتقط الطائر الحب الجيّد من الرديء[2]، وورد في الحديث القدسي: «ولاية علي بن أبي طالب حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»[3] وغير ذلك من الأدلة المتضافرة المتواترة في هذا المعنى، ولذا يستغفرون عليهم السلام لشيعتهم من تلك الذنوب التي يفعلونها اتكالاً على حبهم ومودتهم وولايتهم.

ومن هنا يستغفر مولانا صاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف من ذنوب شيعته كما روي عن السيد ابن طاوس أنه سمع من السرداب المقدّس وفي مقام المناجاة يقول عليه السلام: «اللهّم إنّ شيعتنا خلقت من شعاع أنوارنا وبقيّة طينتنا، وقد فعلوا ذنوباً كثيرة اتكالاً على حبّنا وولايتنا، فإن كانت ذنوبهم بينك وبينهم

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص١٧٨، ح١؛ ص١٧٩، ح٥؛ معاني الأخبار: ص٣٩٦، ح٥٣؛ البحار: ج٤٣، ص٤، ح٣.

(٢) انظر شرح الأخبار: ج٣، ص٦٣، ح٩٨٥.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٤٦، ح١؛ البحار: ج٣٩، ص٢٤٦، ح١.

فاصفح عنهم فقد رضينا، وما كان منها فيما بينهم فاصلح بينهم، وقاص بها عن خمسنا، وأدخلهم الجنة، وزحزحهم عن النار، ولا تجمع بينهم وبين أعدائنا في سخطك﴾[(١)].

وورد أيضاً قوله عليه السلام: ﴿اللهم إن شيعتنا منا خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بماء ولايتنا، اللهم اغفر لهم من الذنوب ما فعلوه اتكالاً على حبنا﴾[(٢)].

والظاهر أن قوله: ﴿فقد رضينا﴾ إشارة إلى الحديث المعتبر: ﴿رضا الله رضانا أهل البيت﴾[(٣)] فحيث إن رضاهم سبب لرضا الله أو مظهر له فقد أظهر رضاهم لكي يرضى الله عن شيعتهم فيغفر ذنوبهم.

وقاص في قوله: ﴿وقاص بها عن خمسنا﴾ ظاهر في المقاصة، أي تصفية الدين مقابل الدين[(٤)]، ويحتمل معاني عمدتها معنيان:

الأول: أن يبيحوا حقهم في الخمس المتعلق بذمة غير المؤمنين من عباد الله سبحانه في مقابل العفو عن ذنوب شيعتهم ولو كانت بعضها تتعلق بالأموال. هذا في الدنيا؛ لتكون ذمة الغير بريئة من حقهم مقابل أن تبرأ ذمة الشيعة من حق الله سبحانه في الذنوب.

---

(١) انظر البحار: ج٥٣، ص٣٠٢، الحكاية الخامسة والخمسون.

(٢) راجع تفصيل ذلك في البحار: ج٥٣، ص٣٠٣.

(٣) مثير الأحزان: ص٢٩؛ شرح الأخبار: ج٣، ص١٤٦، الهامش؛ البحار: ج٤٤، ص٣٦٧.

(٤) المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٣٩، (قصت)؛ وانظر مجمع البحرين: ج٤، ص١٨٠، (قصص).

الثاني: أنهم في الآخرة لا يطالبون بحقهم في الخمس المتعلق برقاب العباد مقابل أن لا يؤاخذ الباري شيعتهم بذنوبهم، وفي ذلك حكمة بالغة تظهر في أمرين:

أحدهما: أنه يستميل صاحب الحق على المعاملة بالمثل، فلو هو بادر بالتنازل عن حقه يوجد الداعي عند الأكمل والأغنى أن يتنازل هو أيضاً عن حقه بالأولوية.

ثانيهما: أن عباد الله صنفان الشيعة وغيرهم، والشيعة يربيهم الأئمةعليهم السلام وهم المعنيون بشؤونهم بما أنهم أتباعهم، وأما غيرهم فلا إمام لهم فيعودوا إلى الله سبحانه في شؤونهم.

والخمس حق الأئمةعليهم السلام مجعول على ذمم جميع العباد بصنفهم، ولكن غير الشيعة أكلوا هذا الحق ولم يوصلوه إليهم؛ لذا يكون ديناً في ذمتهم، كما أن في الشيعة مذنبين عصاة يكون لله سبحانه دين في ذمتهم، فسألعليه السلام أن يسقط الباري عزّ وجل دينه المتعلق بذمة الشيعة بسبب المعاصي والذنوب في مقابل إسقاطهعليه السلام دينه المتعلق بذمة غير الشيعة، وهذا التوجيه أظهر من الأول؛ لقرينة قوله: ﴿وأدخلهم الجنة وزحزحهم عن النار﴾.

كما أن قوله: ﴿ولا تجمع بينهم وبين أعدائنا في سخطك﴾ فيه غاية الرقة والإباء والحمية؛ إذ لا يحب أن تجتمع شيعته مع أعدائه في النار؛ لأن ذلك باعث على شماتة الأعداء بهم، أو ظهور ما لا يتوقعه الشيعة منهمعليهم السلام في أن يجمع الله بين أحبائهم وأعدائهم مع ما لهم من الفضل والكرامة عند

الله سبحانه، وهذا أمر يشعر به أصحاب النبل والسمو وأهل النفوس الكبيرة؛ إذ أدنى ما يفيد الصاحب صاحبه في وقت الشدة، وكيف يرضى أصحاب النفوس الأبية والحمية أن يعذّب أهلهم وأصحابهم كما يعذّب الأعداء؟ فأيّ فرق يبقى إذن بينهم؟ وأي أثر للمودة والحب؟ وأين يظهر أثر الانتساب لهم وتحمل الأذى بسبب حبهم؟

وربما يشير إليه ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[1] أي أن الله سبحانه يغفر لك ما تقدم من ذنب أمتك وما تأخر بشفاعتك، وحسنت إضافة الذنب إليه هنا؛ للإشارة إلى الإتصال الوثيق بينه وبين أمته، فيكون فعل الأمة كأنه فعله؛ لأنّه نبيّها ومعلّمها ومهذبها وهاديها، ويؤيّده ما ورد عن مولانا الصادق عليه السلام: «والله ما كان له ذنب، ولكن الله ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي ما تقدّم من ذنوبهم وما تأخر»[2].

ومن هنا كان الأنبياء والأولياء وخصوصاً الأئمة عليهم السلام يتحمّلون المصائب والابتلاءات الكثيرة ليصلوا إلى مقام الشفاعة لأممهم ومحبيهم؛ لأن الخلق بمنزلة أبنائهم وأقرب[3].

وفي جواب من سأل عن معنى قوله سبحانه: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾[4] قال: «نحن والله

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢.

(٢) تفسير البرهان: ج٥، ص٨٦، ح٩؛ البحار: ج١٧، ص٧٦.

(٣) الكافي: ج١، ص٤٣٥، ح٩١؛ وص٤٧٢، ح١.

(٤) سورة النبأ: الآية ٣٨.

المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صواباً﴾ قلت: ما تقولون إذا تكلّمتم؟ قال: ﴿نمجّد ربّنا، ونصلّي على نبيّنا، ونشفع لشيعتنا فلا يردّنا ربّنا﴾[(١)].

وهذا يكشف عن بعض الحكمة في تحملهم المصائب وصبرهم وشدّة رحمتهم وشفقتهم على الناس حتى إن رسول الله صلى الله عليه وآله بكى على قومه وهم يضربونه بالحجارة حتى أدموه، وكان يدعو لهم ويقول: ﴿اللهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون﴾[(٢)].

التاسع: أن استغفارهم عليهم السلام لاعن ذنب، بل عن شعورهم بالقصور عن أداء حقوق الباري تعالى في العبادة والطاعة والانقياد والانقطاع؛ لأنهم عليهم السلام أعرف الناس بقصور البشر، وأعرفهم بحقوق الخالق على المخلوق؛ إذ لا يعرف الله حق معرفته إلّا هم عليهم السلام، وكلّما ازداد الإنسان فضلاً وسمواً ومعرفة ازداد شعوره بأنه مهما أدّى من عمل في سبيل الخالق الواهب المنان الجواد الغني الكريم الذي بدأ بالنعم قبل استحقاقها لا يؤدي حقه وإن كان ما لا يؤدّيه قاصراً عنه لا مقصّراً فيه؛ لذلك يستغفر من هذا القصور؛ لعدم تمكنه من أداء حقه سبحانه كما يفعل ذلك في العرف، فإن الكمّلين وأصحاب المكانة يعتذرون حتى من القصورات في حق الآخرين، وقد ورد هذا المعنى في جملة من الروايات.

منها: ما ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في صفة الملائكة ﴿وإنّهم على مكانهم منك ومنزلتهم عندك واستجماع أهوائهم فيك وكثرة طاعتهم

---

(١) الكافي: ج١، ص٤٣٥، ح٩١.

(٢) الخرائج والجرائح: ج١، ص١٦٤، ح٢٥٢.

لك وقلّة غفلتهم عن أمرك لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقّروا أعمالهم، ولرزوا على أنفسهم، ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك﴾[١].

وإذا كان الملائكة هكذا يشعرون فكيف بالأنبياء والأئمة من آل محمد عليهم السلام وهم أشرف من الملائكة وأسمى رتبة ومعرفة.

ففي مناجاة مولانا زين العابدين عليه السلام: ﴿إلهي لولا الواجب من قبول أمرك لنزّهتك عن ذكري إيّاك على أنّ ذكري لك بقدري لا بقدرك، وما عسى أن يبلغ مقداري حتى أجعل محلاً لتقديسك، ومن أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا، وإذنك لنا بدعائك وتنزيهك وتسبيحك﴾[٢].

وفي دعاء يوم عرفة يقول مولانا سيد الشهداء عليه السلام: ﴿فأيُّ نعمك يا إلهي أحصي عدداً وذكراً؟ أم أي عطاياك أقوم بها شكراً وهي يا ربّ أكثر من أن يحصيها العادون؟ أو يبلغ علماً بها الحافظون؟

ولو حرصت أنا والعادون من أنامك أن نحصي مدى إنعامك سالفه وآنفه ما حصرناه عدداً، ولا أحصيناه أمداً.

هيهات أنى ذلك وأنت المخبر في كتابك الناطق والنبأ الصادق: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها؟﴾[٣].

---

(١) نهج البلاغة: ص١٥٩، الخطبة ١٠٩.

(٢) الصحيفة السجادية: ص٤١٨، مناجاة الذكرين.

(٣) إقبال الأعمال: ج٢، ص٧٦-٧٨؛ وانظر مفاتيح الجنان: ص٤٨٧-٤٨٩.

العاشر: أن المراد من الذنب هو الذَنَب بالتحريك، أي المؤخر في مقابل الرأس، وجمعه أذناب، أي المآخير والعواقب أو الحظ والنصيب؛ لأنه يكون في آخر العمل كما في اللغة، ففي الصحاح ولسان العرب والمجمع: الذنب -بالتحريك- جمع أذناب، كالسبب والأسباب، أي الأتباع، كأنهم في مقابل الرؤوس وهم المقدّمون، وقولهم عليهم السلام: «كن ذنباً ولا تكن رأساً» كنّى بالرأس عن العلو والرفعة، وبالذنب عن التأخر عن ذلك، والمعنى أن المتقدِّم محل الخطر والهلاك كالرأس الذي يخشى عليه القطع، بخلاف المتأخر فإنه كالذنب، وأذناب الأمور: مآخيرها، ومنه يقال للفرس: الذَنوب: أي الوافر الذنب وطويله وفي حديث ابن عباس: كان فرعون على فرس ذَنوب، أي وافر شعر الذنب، ويوم ذنوب: طويل الذنب لا ينقضي طول شرّه، كأنّه طويل الذنب وذنب كل شيء آخره، وجمعه ذناب، وذناب كل شيء: عقبه ومؤخره[(١)].

كما أنه بمعنى النصيب كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ**﴾[(٢)] أي لهم نصيب من العذاب مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون المهلكة[(٣)]، وعليه فإن المعنى حينئذ له احتمالات ثلاثة:

---

(١) الصحاح: ج١، ص١٢٨، (ذنب)؛ لسان العرب: ج١، ص٣٩٠-٣٩١، (ذنب)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٥٩-٦١، (ذنب).

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٩.

(٣) مجمع البحرين: ج٢، ص٦٠، (ذنب)؛ لسان العرب: ج١، ص٣٩٢، (ذنب).

الأول: أن استغفارهم عليهم السلام نوع دعاء ومسألة من الباري عزّ وجل أن يستر عليهم توالي الأمور وتبعاتها، أي العواقب التي تقع في قلوب مناوئيهم وحسّادهم جرّاء دعوتهم إلى الإيمان، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فيضمرون لهم العداء، ويظهرونه كلّما حانت لهم الفرص في الإيذاء والظلم والقتل والسجن، فيستغفرون الله طلباً منه سبحانه أن يمحو آثار ما يقومون به من وظائف وأعمال تقع في نفوس شرار الخلق من حسادهم ومناوئيهم، وهذا ما ورد في كتاب سعد السعود قال: وأما لفظ ما تقدم من الذنب وما تأخر فالذي نقلناه من طريق أهل بيت النبوة صلوات الله عليهم أن المراد منه ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند أهل مكة وقريش. بمعنى ما تقدم قبل الهجرة وبعدها، فإنك إذا فتحت مكة بغير قتل لهم ولا استيصال ولا أخذهم بما قدموه من العداوة والقتال غفروا ما كانوا يعتقدونه ذنبا لك عندهم متقدماً أو متأخراً، وما كان يظهره من عداوتهم في مقابلة عداوتهم له، فلما رأوه قد تحكم وتمكن ولا استقصى ولا استصفى غفروا ما ظنوه من الذنوب المتقدمة والمتأخرة[1].

وفي عيون الأخبار بإسناده إلى علي بن محمد الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام، **فقال المأمون: يا بن رسول الله، أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون؟ قال: ﴿بلى﴾ قال: فما معنى قول الله عزّ وجل ﴿ليغفر** لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ قال الرضا عليه السلام: ﴿لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنهم كانوا يعبدون من دون الله

---

(١) سعد السعود: ص٢٠٨؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٦، ح١٧.

ثلاثمائة وستين صنماً، فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ فلما فتح الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله مكة قال له: يا محمد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ مكة ﴿فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر؛ لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم» فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن[(١)].

وما وقع على الأئمة عليهم السلام من الظلم والاضطهاد يؤكد هذا المعنى، وقد أقر بذلك حتى خصومهم، فلما قتل يزيد الحسين عليه السلام وأصحابه وسبى أهل بيته عليهم السلام أنشد:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لست من خندف إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزل[(٢)]

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٧٤-١٨٠، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٦-٥٧، ح١٨.

(٢) انظر روضة الواعظين: ص١٩١؛ مدينة المعاجز: ج٤، ص١٤٠؛ الاحتجاج: ج٢، ص٣٤.

فالحكم عندهم دنيا وملك لا خلافة ونبوة، والحرب عندهم انتقام وتشفي مما صنعه بأجدادهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام حينما دعوهم إلى التوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد.

وحينما عرّف الحسين عليه السلام عتات جيش الشام ومردتهم وجهالهم بنفسه وبموقفه من رسول الله والإسلام قالوا: نعرفك ونقاتلك بغضاً مناّ لأبيك وبما فعله بأشياخنا يوم بدر وحنين[١].

وكان هذا جزاء الأئمة عليهم السلام أجمع حيث تعرضوا إلى القتل والسجن والتشريد هم وشيعتهم؛ لأنهم معدن العلم ومهبط الوحي والدعاة المخلصون إلى الله، فيخافهم السلطان، وبوجودهم تتقوّض أركانه وسلطانه فيكن لهم العداء حتى ينتقم منهم بالقتل العلني والخفي.

وفي الخبر عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام وقد سأله رأس اليهود كم يمتحن الله الأوصياء في حياة الأنبياء وبعد وفاتهم؟ وذكر حديثاً طويلاً، وفيه يقول عليه السلام: «وأما السادسة يا أخا اليهود فتحكيمهم الحكمين ومحاربة ابن آكلة الأكباد وهو طليق ابن طليق، معاند لله عزّ وجل ولرسوله وللمؤمنين منذ بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله إلى أن فتح الله عليه مكة عنوة، فأخذت بيعته وبيعة أبيه لي معه في ذلك اليوم وفي ثلاثة مواطن بعد، وأبوه بالأمس أول من سلم علي بإمرة المؤمنين، وجعل يحثني على النهوض في أخذ حقي من الماضين قبلي، يجدد لي بيعته كلما أتاني»[٢].

---

(١) مؤتمر علماء بغداد: ص١٧٨.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٧-٥٨، ح٢٤.

ومن الواضح أن هذه الانتصارات الإلهية لا تعجب الكفار فتغيضهم، ويكنون العداوات لأولياء الله حتى ينتقموا منهم، وفي دعاء الندبة الشريف ما يشير إلى موقف الأعداء من مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وذريته الطاهرة عليهم السلام حيث كان عليه السلام: «يقاتل على التأويل ولا تأخذه في الله لومة لائم، قد وتر فيه صناديد العرب، وقتل أبطالهم، وناوش ذؤبانهم، فأودع قلوبهم أحقاداً بدرية وخيبرية وحنينية وغيرهن، فأضبت على عداوته، وأكبت على منابذته حتى قتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ولما قضى نحبه وقتله أشقى الأشقياء من الأولين والآخرين لم يمتثل أمر رسول الله صلى الله عليه وآله في الهادين بعد الهادين، والأمة مصرة على مقته، مجتمعة على قطيعة رحمه وإقصاء ولده إلّا القليل ممن وفى لرعاية الحق فيهم، فقتل من قتل، وسبي من سبي، وأقصي من أقصي، وجرى القضاء لهم بما يرجى له حسن المثوبة؛ إذ كانت الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»[1].

وفي تفسير نور الثقلين قال المأمون للإمام الرضا عليه السلام هل فضل الله العترة على سائر الناس؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إن الله تعالى أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه» فقال له المأمون: أين ذلك من كتاب الله تعالى؟ فقال له الرضا عليه السلام: «في قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾** وقال عزّ وجل في موضع آخر: **﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ**

---

(١) إقبال الأعمال: ج١، ص٥٠٧-٥٠٨؛ المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٥٧٧-٥٧٨؛ مفاتيح الجنان: ص٩١٩-٩٢٠.

إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ ثم رد المخاطبة في أثر هذا إلى سائر المؤمنين فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يعني الذين قرنهم بالكتاب والحكمة، وحسدوا عليهما، فقوله عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ يعني الطاعة للمصطفين الطاهرين، فالملك ههنا هو الطاعة»[(١)].

الثاني: أنّه دعاء لمحو آثار الحسد والحقد عليهم من قلوب أعدائهم جراء ما أعطاهم الله سبحانه من الفضل والكرامة والشرف، وهذا من أقوى دواعي الحسد عند أهل القلوب القاسية والطباع اللئيمة؛ إذ لا يقدرون أن يروا ما لآل محمد عليهم السلام من الفضل والكرامة، وما لهم من الدنو والوضاعة، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[(٢)].

وقد ورد عنهم عليهم السلام أنهم هم المحسودون[(٣)] ففي نور الثقلين عن أبي الصباح الكناني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الأنفال، ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال الله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ »[(٤)].

وفي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام: «إن أهل الكتاب والحكمة والإيمان آل إبراهيم بيّنه الله لهم فحسدوا، فأنزل الله جل ذكره: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج١، ص٤٩٢، ح١٠.
(٢) سورة النساء: الآية ٥٤.
(٣) الكافي: ج١، ص٢٠٦، ح٢.
(٤) تفسير نور الثقلين: ج١، ص٤٩١، ح٣٠١.

مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ فنحن آل إبراهيم فقد حسدنا كما حسد آباؤنا﴾(١).

وفي تفسير علي بن إبراهيم قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ قال: هم الذين سموا أنفسهم بالصدّيق والفاروق وذي النورين، وقوله: ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ قال: القشرة التي تكون على النواة، ثم كنى عنهم فقال: ﴿انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ وهم هؤلاء الثلاثة. قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾ قال: نزلت في اليهود حين سألهم مشركو العرب فقالوا: أديننا أفضل أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم أفضل، وقد روي فيه أيضاً أنها نزلت في الذين غصبوا آل محمد حقهم، وحسدوا منزلتهم، فقال الله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ يعني النقطة التي في ظهر النواة، ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ يعني بالناس ههنا أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ وهي الخلافة بعد النبوة، وهم الأئمة عليهم السلام(٢).

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٢٢٤؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٤٩٢، ح٣٠٨.

(٢) تفسير القمي: ج١، ص١٤٠؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٤٨٩، ح٢٩٧.

الثالث: إنه دعاء لمحو نصيبهم من البلاء والمحنة التي يلاقونها في طريق التوحيد، وتثبيت أركان الشريعة أو سترها في قلوب أعدائهم؛ لكيلا تكبر وتزداد، أو ستر أعمالهم عليهم السلام عن أعين الأعداء؛ لكيلا يتخذوها داعياً لقتلهم أو أذاهم، إلى غير ذلك من المحتملات والمعاني التي قد عرفت بعضها مما تقدم، ولعل المعنى الجامع لها ما ورد منصوصاً عليه في الزيارة الجامعة الخامسة لأئمة المؤمنين عليهم السلام التي وردت في المزار.

﴿يا سادتي يا آل رسول الله إني بكم اتقرب إلى الله جلّ وعلا بالخلاف على الذين غدروا بكم، ونكثوا بيعتكم، وجحدوا ولايتكم، وأنكروا منزلتكم، وخلعوا ربقة طاعتكم، وهجروا أسباب مودتكم، وتقربوا إلى فراعنتهم بالبراءة منكم والإعراض عنكم، ومنعوكم من إقامة الحدود، واستئصال الجحود، وشعب الصدع، ولم الشعث، وسد الخال، وتثقيف الأود، وإمضاء الأحكام، وتهذيب الإسلام، وقمع الآثام، وأرهجوا عليكم نقع الحروب والفتن، وأنحوا عليكم سيوف الأحقاد، وهتكوا منكم الستور، وابتاعوا بخمسكم الخمور، وصرفوا صدقات المساكين إلى المضحكين والساخرين؛ وذلك بما طرقت لهم الفسقة الغواة، والحسدة البغاة أهل النكث والغدر والخلاف والمكر، والقلوب المنتنة من قذر الشرك، والأجساد المشحنة من درن الكفر الذين أضبوا على النفاق، وأكبوا على علائق الشقاق.

فلما مضى المصطفى صلوات الله عليه وآله اختطفوا الغرة، وانتهزوا الفرصة، وانتهكوا الحرمة، وغادروه على فراش الوفاة، وأسرعوا لنقض

البيعة، ومخالفة المواثيق المؤكدة، وخيانة الأمانة المعروضة على الجبال الراسية، وأبت أن تحملها وحملها الإنسان الظلوم الجهول ذو الشقاق والعزة بالآثام المؤلمة والأنفة عن الانقياد لحميد العاقبة.

فحشر سفلة الأعراب وبقايا الأحزاب إلى دار النبوة والرسالة، ومهبط الوحي والملائكة، ومستقر سلطان الولاية، ومعدن الوصية والخلافة والإمامة حتى نقضوا عهد المصطفى في أخيه علم الهدى، والمبين طريق النجاة من طرق الردى، وجرحوا كبد خير الورى في ظلم ابنته، واضطهاد حبيبته، واهتضام عزيزته، وبضعة لحمه، وفلذة كبده، وخذلوا بعلها، وصغروا قدره، واستحلوا محارمه، وقطعوا رحمه، وأنكروا أخوته، وهجروا مودته، ونقضوا طاعته، وجحدوا ولايته، واطمعوا العبيد في خلافته، وقادوه إلى بيعتهم مصلتة سيوفهم، مشرعة أسنتها، وهو ساخط القلب، هائج الغضب، شديد الصبر، كاظم الغيظ، يدعونه إلى بيعتهم التي عم شؤمها الإسلام، وزرعت في قلوب أهلها الآثام، وعقت سلمانها، وطردت مقدادها، ونفت جند بها، وفتقت بطن عمارها، وحرفت القرآن، وبدلت الأحكام، وغيرت المقام، وأباحت الخمس للطلقاء، وسلطت أولاد اللعناء على الفروج والدماء، وخلطت الحلال بالحرام، واستخفت بالإيمان والإسلام، وهدمت الكعبة، وأغارت على دار الهجرة يوم الحرة، وأبرزت بنات المهاجرين والأنصار للنكال والسورة، وألبستهن ثوب العار والفضيحة، ورخصت لأهل الشبهة في قتل بيت الصفوة، وإبادة نسله، واستئصال شأفته، وسبي حرمه، وقتل أنصاره، وكسر منبره، وقلب مفخره، وإخفاء دينه، وقطع ذكره.

يا موالي فلو عاينكم المصطفى وسهام الأمة مغرقة في أكبادكم، ورماحهم مشرعة في نحوركم، وسيوفها مولغة في دمائكم، يشفى أبناء العواهر غليل الفسق من ورعكم وغيظ الكفر من إيمانكم، وأنتم بين صريع في المحراب قد فلق السيف هامته، وشهيد فوق الجنازة قد شكت أكفانه بالسهام، وقتيل بالعراء قد رفع فوق القناة رأسه، ومكبل في السجن قد رضت بالحديد أعضاؤه، ومسموم قد قطعت بجرع السم أمعاؤه، وشملكم عباديد تفنيهم العبيد وأبناء العبيد.

فهل المحن يا سادتي إلّا التي لزمتكم، والمصائب إلّا التي عمتكم، والفجائع إلّا التي حفتكم، والقوارع إلّا التي طرقتكم صلوات الله عليكم وعلى أرواحكم وأجسادكم ورحمة الله وبركاته»[١].

الحادي عشر: أن استغفارهم عليهم السلام لا من الذنوب، بل مما تحصل لهم من فترات وغفلات عن الذكر الذي شأنهم الدوام عليه، حيث يعدون ذلك ذنباً فيستغفرون منه.

هذا ما ذكره العلامة المجلسي قدس سره في مرآة العقول كأحد الأقوال[٢]؛ لأن قلوبهم عليهم السلام أوعية معرفة الله، وألسنتهم مظاهر ذكره؛ لذا لا يغفلون أبداً عن الانقطاع إليه سبحانه، فإن عرض لهم في وقت ما عارض بشري يشغلهم في أمور الأمة ومصالحها السياسية أو الاجتماعية ونحو ذلك عدّوا ذلك ذنباً وتقصيراً، فيفزعون إلى الاستغفار والتوبة والتذلل.

---

(١) المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٢٩٥-٢٩٩؛ مفاتيح الجنان: ص٩٥٥-٩٥٨.

(٢) مرآة العقول: ج١٢، ص١٥٤.

ومن الواضح أن انشغالهم بأمور الرعية ومصالحها وإن كان هو الآخر من العبادات التي ينالون بها القربات إلّا أنه لا يمنع الكامل الذي يجد أن كماله وما ينبغي أن يؤديه من حقوق ربّه يتحقق في الانقطاع إليه والانشغال بذكره من أن يعد كل انشغال آخر ولو كان في طريق خدمته تقصيراً، كما يرى العبد الذي يعشق مولاه أن انشغاله عن مناجاته والكون في خدمته تقصير في حقه، فيتأسف ويتعذر ويطلب العفو والرضا وإن كان انشغاله في شؤون المولى نفسه؛ لأن كل تلك الانشغالات مهما كانت يعدها بعداً منه وانشغالاً بما هو أقل مما يستحقه الخالق المنّان تبارك وتعالى، وفي مناجاة سيد الساجدين عليه السلام: «وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء وقابلها بالتقصير، وشهد على نفسه بالإهمال والتضييع، وأنت الرؤوف الرحيم، والبر الكريم الذي لا يخيّب قاصديه»[1].

وفي مناجاة الذاكرين: «إلهي فألهمنا ذكرك في الخلاء والملأ، والليل والنهار، والإعلان والإسرار، وفي السراء والضراء، وآنسنا بالذكر الخفي، واستعملنا بالعمل الزكي والسعي المرضي، وجازنا بالميزان الوفي، إلهي... أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أنسك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل شعل بغير طاعتك، إلهي أنت قلت وقولك الحق: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ وقلت وقولك الحق: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ فأمرتنا بذكرك، ووعدتنا عليه أن

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٤٠٩؛ مفاتيح الجنان: ص٢٤٢.

تذكرنا تشريفاً لنا وتفخيماً وإعظاماً، وها نحن ذاكروك كما أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا يا ذاكر الذاكرين ويا أرحم الراحمين﴾[(١)].

ولعل هذا أحد معاني قولهعليه السلام: ﴿أنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم سبعين مرة﴾[(٢)] وفي مناجاة سيد الساجدينعليه السلام: ﴿ورين قلبي لا يجلوه إلّا عفوك﴾[(٣)].

الثاني عشر: أن استغفارهمعليهم السلام نوع دعاء وذكر؛ لطمأنينتهم النفسية، فإنّ بذكر الله تطمئن القلوب، وبالاستغفار يأمن العبد ويستقر برضا ربّه، وكلما كان العبد أتقى عملاً وأنقى قلباً وأزكى لساناً وروحاً يستقر أكثر ويطمئن. قال سبحانه: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[(٤)].

وفي مناجاة الإمام سيد الساجدين ما يؤيّد هذا. يقولعليه السلام: ﴿إلهي بك هامت القلوب الوالهة، وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة، فلا تطمئن القلوب إلّا بذكراك، ولا تسكن النفوس إلّا عند رؤياك﴾[(٥)].

وفي مناجاة الخائفين يقولعليه السلام: ﴿وليتني علمت أمن أهل السعادة جعلتني وبقربك وجوارك خصصتني فتقرَّ بذلك عيني وتطمئن له نفسي﴾[(٦)].

---

(١) الصحيفة السجادية: ص ٤١٩؛ مفاتيح الجنان: ص٢٥٢-٢٥٣.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٥، الباب ٤٠ من أبواب الذكر، ص٣٧٥، ح٦١٣١؛ شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج١١، ص١٨٤، وفيه: ((إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة)).

(٣) الصحيفة السجادية: ص٤١٦، مناجاة المفتقرين.

(٤) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٥) الصحيفة السجادية: ص٤١٩، مناجاة الذاكرين.

(٦) الصحيفة السجادية: ص٤٠٤، مناجاة الخائفين.

وفي مناجاة التائبين يقول عليه السلام: ﴿إلهي إن كان الندم على الذنب توبة فإني وعزتك من النادمين، وإن كان الاستغفار من الخطيئة حطة فإني لك من المستغفرين، لك العتبى حتى ترضى﴾[١].

فالرضا هو الغاية، والاستغفار طريق إليه؛ لأن فيه طمأنينة النفس ونيل القربى من المولى الحنان المنّان التي لا تنال إلّا بالرضا.

الثالث عشر: أن في الاستغفار وإظهار التوبة وإن لم يكن عن ذنب إلّا أن فيه مؤانسة وأدباً في مناجاة المولى عزّ وجل، وكلما ازداد كمال العبد واتسعت معرفته ظهرت فضائله، وتجلت في حركاته وسكناته آدابه.

وأجلى ما تظهر فيه الكمالات والآداب هو اللسان والبيان، فإن كلام المرء كاشف عن سريرته، ودال على باطنه وجوهره، والاستغفار وإعلان التوبة من أجلى ما يدل على كمال الأدب والمؤانسة والتواضع والتملّق، ولعمري أن هذا واضح ظاهر في مخاطبة البشر لبعضهم، فكيف بمخاطبة المولى عز وجل؟ ولذا تجد تجلي هذا المضمون في أكثر أدعيتهم عليهم السلام ومناجاتهم لربهم تبارك وتعالى.

ففي دعاء عرفة يقول مولانا سيد الشهداء عليه السلام: ﴿يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملّقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بين يديه مستغفرين﴾[٢].

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٤٠٢، مناجاة التائبين.

(٢) البحار: ج٩٥، ص٢٢٦-٢٢٧؛ مفاتيح الجنان: ص٤٢٧.

وفي مناجاة المحبّين يقول مولانا سيد الساجدينعَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً؟ ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً؟ إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوّقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك وقلاك، وبوأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادتك، وهيمّت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرّغت فؤاده لحبك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطلعتك، وصيرته من صالحي بريتك، واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك.

اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك.

يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا سنى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين، أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصلني إلى قربك﴾[١].

والخلاصة: أن في الاستغفار والتوبة غاية الأنس والمحبة والقربة إلى المولى عز وجل.

---

(١) مفاتيح الجنان: ص٢٤٦-٢٤٧.

الرابع عشر: أن في الاستغفار إظهار مزيد الانقياد والإذعان بالعبودية والتواضع لعظمة المولى عز وجل، وهي من أجلى صفات الأنبياء والأولياءعليهم السلام، وفي تتمة دعاء عرفة ما يدل على ذلك. يقولعليه السلام: ﴿إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري، إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي، إلهي إن اختلاف تدبيرك وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء، واليأس منك في بلاء، إلهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك﴾[(١)].

ويقول: ﴿إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي علمني من علمك المخزون، وصني بسترك المصون، إلهي حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسلك أهل الجذب، إلهي أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري، وباختيارك عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري. إلهي أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي. بك انتصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني، وبجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني﴾[(٢)].

---

(١) البحار: ج٩٥، ص٢٢٥؛ مفاتيح الجنان: ص٥٠٢.

(٢) البحار: ج٩٥، ص٢٢٦ مفاتيح الجنان: ص٥٠٤-٥٠٥.

الخامس عشر: وهو جواب من وجهين أوردهما العلامة المجلسي ﷺ في مرآة العقول، وقال إنهما أحسن الوجوه.

الأول: أنّهم لما كانوا أبداً مترقين في مراتب القرب والحب والعرفان والإيقان ولعله يحصل لهم ذلك في كل يوم سبعين مرة أو أكثر، فكلما صعدوا درجة استغفروا من الدرجة السابقة وإن كانت فوق متمنيات جميع العارفين والواصلين.

والثاني: أنه لما كان الممكن وأعماله وأحواله كلها في درجة النقص وكل كمال حصل فيهم فهو من مفيض الخيرات والسعادات، فإذا نظروا إلى عظمته سبحانه على ما تجلت لهم في مراتب عرفانهم وإلى عجزهم عن الإتيان بما يليق بذاته الأقدس عدوا أنفسهم مقصرين في المعرفة والعبادة، فقالوا: ﴿سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، وما عبدناك حق عبادتك﴾ وأوقفوا أنفسهم الكاملة في حد التقصير، واستغفروا لجميع ذلك من العليم الخبير، ولي في ذلك تحقيقات جلية لا تناسب فهم أكثر الخلق، فاكتفيت بالقليل عن الكثير، وأستغفر الله سبحانه مما أبديته في هذا المقام الخطير[(١)].

السادس عشر: ما أورده الميرزا حبيب الله الخوئي في منهاج البراعة، **وحاصله**: أن الظلم فيه محمول على ترك الأولى، كما في حق آدم صلوات الله عليه حيث قال: ربنا ظلمنا أنفسنا، وبالجملة: ما ورد في القرآن والأخبار مما يوهم صدور الذنب عن الأنبياء وخلفائهم الحق محمول على ترك الأولى جمعاً بين ما دل العقل عليه وبين صحة النقل؛ لأن المتبع في أصول العقائد

---

(١) مرآة العقول: ج١٢، ص١٥٥.

هو العقل، وهو الأصل فيها، وكل ما ثبت بدليل قاطع فلا يجوز الرجوع عنه، على أن لتلك الآيات والأخبار ذكرت وجوه ومحامل أتى بها العلماء في مواضعها، وعليك في ذلك بكتاب ((تنزيه الأنبياء)) للسيد المرتضى علم الهدى فإنه شفاء العليل.

ومن أحسن ما قيل في المقام: أن تلك الظواهر دالة على عظم شأنهم، وعلو مرتبتهم؛ إذ معاتبة الحكيم لهم على تلك الأفعال التي هي في الحقيقة لا توجب العصيان والمخالفة دليل على أنهم في محل يقتضي تلك المعاتبة تنزيها لهم، وتفخيماً لأمرهم، وتعظيماً لشأنهم عن ملابسة ما لا يليق بمراتبهم؛ إذ هم دائما في مرتبة الحضور الموجبة؛ لعدم التفاتهم إلى غير الحق، وكان وقوع ذلك منهم في بعض الحالات أو مع شيء من الاشتغالات البدنية والانجذاب في بعض الأحيان إلى الأمور الطبيعية والمادية موجبا لتلك المعاتبة.

وبالجملة: أن الحجج الإلهية لما كانوا في نهاية القرب من الله تعالى وكمال الاتصال بجنابه وتمام الحضور إلى حضرته، وكانوا أيضاً مع تلك المرتبة الشامخة في العوائق والعلائق البدنية اللازمة للبشرية رين مع الرعية للإرشاد والتبليغ قد تعرض لهم في تلك الاطوار والشؤونات البشرية أمور يعدونها سيئات وإن لم تكن في الحقيقة بقبائح وسيئات، فيتضرعون إلى الله تعالى بقولهم: ربنا ظلمنا أنفسنا، أو سبحانك إني كنت من الظالمين، فإن المخلصين على خطر عظيم وبذلك ظهر سر الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿حسنات الأبرار سيئات المقربين﴾[(١)].

---

(١) منهاج البراعة: ج١٦، ص٥١.

ولعل ما ورد في دعاء عرفة عن مولانا سيد الشهداءعليه السلام ما يؤكد هذا. يقولعليه السلام: ﴿إلهي من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ؟ ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاواه دعاوى﴾[١].

وليس المراد أن ما صدق عليها أنها محاسن عقلاً وشرعاً وعرفاً تعد مساوئ حقيقة، وكذا الكلام في كون الحقائق دعاوى؛ لأن الشيء لا ينقلب عما هو عليه، وإنما المراد أنها مساوئ ودعاوى بالقياس والإضافة فتدبر جيداً.

هذا وهناك أجوبة أخرى قد لا تخفى على من تتبع الأدعية والمناجاة فضلاً عن الروايات، وبعض الأجوبة المذكورة وإن كانت أقرب من بعض وأوفق بالقواعد وربما أنسب بمقاماتهمعليهم السلام إلّا أنه لا يبعد أن يكون الجميع صحيحاً بلحاظات مختلفة، خصوصاً وأن تجلّيات أحوالهم في أدعيتهم ومناجاتهمعليهم السلام تختلف، فمرة تتجلّى عندهم عظمة الخالق فيستغفرون من صغرهم أمام ربهم تبارك وتعالى، ومرة تتجلى هيبته فيستغفرون من الرهبة، ومرة يتجلى قصورهم فيستغفرون من تقصيراتهم القصورية، ومرة تتجلى أمامهم ذنوب الناس من أمتهم وشيعتهم فيستغفرون منها وهكذا، ولعل إطلاق الاستغفار واختلاف الحالات الروحية يؤيد ما ذكرنا، والله العالم بأحوال أنبيائه وأوليائهعليهم السلام، وجعلنا من التابعين والمقتدين بهم بحق محمد وآله الطاهرين.

---

(١) مفاتيح الجنان: ص٥٠٣؛ صحيفة الحسينعليه السلام: ص٢١٢.

﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ﴾

نزول النقمات

لعل التكرار لقوله عليه السلام: «اللهم» في هذه الجمل الشريفة ينشأ من وجوه:

منها: المبالغة في التبتّل والخضوع والتواضع.

ومنها: لغرض استنزال الرحمة، فإنّ التكرار يركّز الذهن ويوجه القلب نحو الحاجة والطلب بما يسبب الانقطاع الذي هو من أهم أسباب الاستجابة.

ومنها: التلذذ بذكر اسم الله سبحانه كما ورد في الحديث: «لذّة النداء أزال تعب العبادة والعناء»[1] ولا إشكال في أن ذكر المحبوب يوجب أنس المحب ولذته.

ومنها: أن تكرار الاسم موجب لمزيد العناية الموجبة لاستماع النداء، ثم الإجابة، ولعل هذا أحد أسرار استحباب تكرار الأذكار والأوراد إلى سبعين أو مائة أو ألف ونحو ذلك، وتكرر ذكر: «يا ربّ» في هذا الدعاء وفي مثل دعاء أبي حمزة الثمالي وغيره فضلاً عن احتمال الموضوعية في العدد؛ لأن العدد مفتاح من مفاتيح الغيب وإلّا بطلت خصوصيته[2].

ومنها: تركيز الانقطاع والتوجه؛ لأن النداء يستدعي إحضار المنادى في القلب واللسان فتنعكس صفاته وآثاره القدسية على نفس الداعي، فتتهيأ في نفسه الاستعدادات لنيل الفيض والتخلّق بأخلاقه.

---

(١) التفسير الصافي: ج١، ص٢١٨؛ التفسير الأصفى: ج١، ص٨٥، تفسير الأمثل: ج١، ص٥١٨، وفيه: ((لذة ما في النداء – أي يا أيها الذين أمنوا – أزال تعب العبادة والعناء)).

(٢) البحار: ج٩٠، ص٣٧٨-٣٧٩.

ومنها: للإلحاح في الطلب، وقد ورد في الأخبار أن الإلحاح في المسألة من موارد الإجابة، فإن من أكثر طرق الباب يوشك أن يفتح له، وأن الله سبحانه يحب من عباده الملحاحين كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله[(١)]، وعن أبي جعفر عليه السلام: ﴿والله لا يلح عبد مؤمن على الله في حاجته إلّا قضاها له﴾[(٢)] وعن الصادقين عليهما السلام أنهما قالا: ﴿والله لا يلح عبد مؤمن على الله إلّا استجاب له﴾[(٣)].

وفي التوراة: ((يا موسى من أحبني لم ينسني، ومن رجا معروفي ألح في مسألتي، يا موسى إني لست بغافل عن خلقي، ولكن أحب أن تسمع ملائكتي ضجيج الدعاء من عبادي، وترى حفظتي تقرّب بني آدم إلي بما أنا مقويهم عليه، ومسببه لهم، يا موسى قل لبني إسرائيل: لا تبطرنكم النعمة فيعاجلكم السلب، ولا تغفلوا عن الشكر فيقارعكم الذل، وألحوا في الدعاء تشملكم الرحمة بالإجابة، وتهنئكم العافية))[(٤)].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿إنّ العبد ليدعو الله وهو يحبه، فيقول لجبرئيل: اقض لعبدي هذا حاجته وأخّرها، فإنّي أحبّ أن لا أزال أسمع صوته﴾[(٥)].

---

(١) البحار: ج٩٠، ص٣٧٤، ح١٦؛ وص٣٧٨، ح٢٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٧٥، ح٣؛ البحار: ج٩٠، ص٣٧٤، ح١٦، وفيه: (في حاجة).

(٣) البحار: ج٩٠، ص٣٧٨، ح٢٠.

(٤) البحار: ج٩٠، ص٣٧٥، ح١٦.

(٥) عدة الداعي: ص٢٥؛ انظر الوسائل: ج٧، الباب ٢١ من أبواب الدعاء، ص٦٣، ح٨٧٣٢.

وعن البزنطي قال: قلت للرضا عليه السلام: جعلت فداك إني قد سألت الله تبارك وتعالى حاجة منذ كذا وكذا سنة، وقد دخل قلبي من إبطائها شيء، فقال: «يا أحمد، إياك والشيطان أن يكون له عليك سبيلا حتى يعرضك. إن أبا جعفر صلوات الله عليه كان يقول: إن المؤمن يسأل الله الحاجة فيؤخر عنه تعجيل حاجته حبا لصوته واستماع نحيبه»[1].

وعن محمد بن جعفر التميمي قال: قال الصادق عليه السلام: «بينا إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام في جبل بيت المقدس يطلب مرعى لغنمه إذ سمع صوتاً، فإذا هو رجل قائم يصلي طوله اثنا عشر شبراً، فقال له: يا أبا عبد الله لمن تصلي؟ قال: لإله السماء، فقال إبراهيم عليه السلام: هل بقي أحد من قومك غيرك؟ قال: لا. قال: فمن أين تأكل؟ قال: أجتني من هذا الشجر في الصيف وآكله في الشتاء. قال له: فأين منزلك؟ قال: فأومأ بيده إلى جبل، فقال له إبراهيم عليه السلام: هل لك أن تذهب بي معك فأبيت عندك الليلة؟ فقال: إن قدامي ماء لا يخاض. قال: كيف تصنع؟ قال: أمشي عليه. قال: فاذهب بي معك فلعل الله أن يرزقني ما رزقك.

قال: فأخذ العابد بيده فمضيا جميعاً حتى انتهيا إلى الماء فمشى ومشى إبراهيم عليه السلام معه حتى انتهيا إلى منزله، فقال له إبراهيم: أي الأيام أعظم؟ قال له العابد: يوم الدين، يوم يدان الناس بعضهم من بعض. قال: فهل لك أن ترفع يدك وأرفع يدي فندعو الله عزّ وجل أن يؤمننا من شر ذلك

---

(١) البحار: ج٩٠، ص٣٦٧، ح١.

اليوم؟ فقال: وما تصنع بدعوتي؟ فوالله إن لي لدعوة منذ ثلاث سنين ما أجبت فيها بشيء؟ فقال له إبراهيمعليه السلام: أولا أخبرك لأي شيء احتبست دعوتك؟ قال: بلى. قال له: إن الله عزّ وجل إذا أحب عبداً احتبس دعوته ليناجيه ويسأله، ويطلب إليه، وإذا أبغض عبداً عجل له دعوته، أو ألقى في قلبه اليأس منها، ثم قال له: وما كانت دعوتك؟ قال: مر بي غنم ومعه غلام له ذؤابة، فقلت: يا غلام، لمن هذا الغنم؟ فقال: لإبراهيم خليل الرحمن، فقلت: اللهم إن كان لك في الأرض خليل فأرنيه، فقال له إبراهيمعليه السلام: فقد استجاب الله لك، أنا إبراهيم خليل الرحمن، فعانقه، فلما بعث الله محمداًصلى الله عليه وآله جاءت المصافحة»[١].

وفي فقه الرضاعليه السلام: «إن الله يؤخر إجابة المؤمن شوقاً إلى دعائه، ويقول: صوت أحب أن أسمعه، ويعجل إجابة دعاء المنافق، ويقول: صوت أكره سماعه»[٢].

والنقم جمع نقمة، مثل نعم جمع نعمة، وفي المجمع انتقم منه أي عاقبه، والاسم منه النقمة، وهي الأخذ بالعقوبة، والجمع نقمات[٣].

والنعمة ضدها، وقد جاءت الأخبار في ذكر بعض الذنوب الباعثة على نزول النقم، وبعضها الآخر جاء في بيان آثارها في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية.

---

(١) البحار: ج٩٠، ص٣٦٩، ح٥.

(٢) البحار: ج٩٠، ص٣٨٠، ح٧.

(٣) مجمع البحرين: ج٦، ص١٨٠، (نقم).

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿خمس بخمس﴾ قالوا يا رسول الله وما خمس بخمس؟ قال صلى الله عليه وآله: ﴿ما نقض العهد قوم إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلّا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلّا حبس عنهم القطر﴾(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خمس إن أدركتموهنّ فتعوّذوا بالله منهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يعلنوها إلّا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أُخذوا بالسنين وشدّة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة إلّا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم، وأخذوا بعض ما في أيديهم، ولم يحكموا بغير ما أنزل الله عزّ وجل إلّا جعل الله عزّ وجل بأسهم بينهم﴾(٢).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿وجدنا في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة، وإذا طفّف المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كلّها، وإذا جاروا في الأحكام تعاونوا على الظلم والعدوان،

---

(١) المعجم الكبير: ج١١، ص٣٨؛ البحار: ج٧٠، ص٣٧٠، ح٣؛ مجمع الزوائد: ج٣، ص٦٥.

(٢) الكافي: ج٢، ص٣٧٣، ح١.

وإذا نقضوا العهد سلّط الله عليهم عدوّهم، وإذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يتّبعوا الأخيار من أهل بيتي سلّط الله عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم﴾(١).

والترابط بين عالم المعنى وعالم الظاهر وثيق، فكما تؤثر المعنويات في الماديات فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وصلة الرحم تطيل العمر، وتزيد في الرزق، والمحبة تورث السعادة والسرور، كذلك تؤثر الماديات في المعنويات، وهذا شاهد على تطابق العالمين الروحي والمادي وإن كان أحدهما أقوى وأعظم وأكثر أثراً كما هو شاهد على وحدة الخالق ووحدة الخلق والنظام الحاكم في الوجود، ومن هنا يظهر الوجه في آثار الذنوب ونتائجها، كما يظهر بعض السر في العلاقة بين الذنوب والمعاصي وسعادة الإنسان وشقائه.

وعن الإمام السجادعليه السلام: ﴿الذنوب التي تنزل النقم: عصيان العارف بالبغي، والتطاول على الناس والاستهزاء بهم والسخرية منهم﴾(٢).

ولعل المراد من العصيان مطلق الذنب، ثم الثلاثة ما بعده من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ لأهميته أو خطورته أو شدة آثاره أو أظهريته أو ما أشبه ذلك.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٧٤، ح٢؛ الوسائل: ج١٦، الباب ٤١ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما، ص٢٧٣، ح٢١٥٥٠.

(٢) معاني الأخبار: ص٢٧٠، ح٢؛ البحار: ج٧٠، ص٣٧٥، ح١٢.

أو المراد منه الذنب الذي يتجاوز فيه العبد على ربّه وأحكامه، والاستهزاء والسخرية، بمعنى إذا اجتمعا، وإذا افترقا فالأول الاستخفاف والانتقاص من الآخر في النفس، والثاني ظهوره على الجوارح، وفيما نحن فيه ذكر للاثنين[١]، والتطاول على الناس ظلمهم بمنع صاحب الحق من حقه، أو التجاوز عليه، وهو من باب أظهر المصاديق؛ لأن التطاول قد يكون على الخالق أيضاً، أو على غير الإنسان من المخلوقات، ولكن حيث يندرجان في عنوان العصيان خصص التطاول بالناس لخطورته.

والبغي: الطلب، والباغي الذي يطلب الشيء الضال، ويطلق على الفجور، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[٢] وفي قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾[٣] أي الفجور، كما يطلق على التعدّي وبغى الرجل علينا

---

(١) جاء في لسان العرب: ج١، ص١٨٣، (هزأ).

((هزأ: الهزء والهزؤ: السخرية. هزئ به ومنه واستهزأ به: سخر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ* اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ سورة البقرة: الآيتان ١٤-١٥.

وفي مجمع البحرين: ج١، ص٤٧٧، (هزأ).

((قوله تعالى: ﴿لاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾ سورة البقرة: الآية ٢٣١، أي بالإعراض والتهاون عن العمل بما فيها، من قولهم لمن لم يجدّ في الأمر ((أنت هازئ))... والهزء والهزؤ: السخرية والاستخفاف... فما معنى استهزائه بهم؟ قلت: معناه إنزال الهوان والحقارة بهم؛ لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة عليه..))

(٢) سورة مريم: الآية ٢٨.

(٣) سورة النور: الآية ٣٣.

بغياً عدل عن الحق واستطال، ومنه أيضاً الظلم والفساد، والفئة الباغية أي الظالمة الخارجة على الإمام العادل وأصل البغي مجاوزة الحد، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء بغي[(١)]، كما قال سبحانه: ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[(٢)] والتطاول: هو الاستطالة، والمتطاول المستعلي الذي له على الناس فضل في القدر[(٣)]، وفي الحديث: «أربى الربا الاستطالة في عرض الناس» أي استحقارهم والترفع عليهم والوقيعة فيهم[(٤)].

والاحتمالات التي يمكن أن تقال في بيان العلاقة بين الذنوب وآثارها عديدة:

أحدها: أنها نوع من الآثار الوضعية التي تترتب على الأعمال في الدنيا سواء كانت بنحو المقدمات والنتائج أو بنحو المجازاة، والفرق بينهما أن الأول تكويني واقعي لا يتخلّف؛ لأنّ بين العمل وبين أثره كالعلة والمعلول، بينما الثاني يتقوّم بفعل الله سبحانه عقوبة أو مثوبة لما يقوم به العامل تفضّلاً أو جزاءً مع إمكان التخلّف فيهما في الدنيا وإن كان يستحيل تخلف الجزاء الحسن في الآخرة؛ لأنه بمقتضى الوعد الإلهي، ومخالفة الوعد قبيح يتنزّه الباري عزّ وجل عنه، بخلاف العقوبة فإنه يجوز أن يعفو عنها البارئ عز وجل؛ لأنه مقتضى الفضل والرحمة، ولذا قالوا (بوجوب الوفاء بالوعد دون الوعيد).

---

(١) لسان العرب: ج١٤، ص٧٦-٧٨، (بغا).
(٢) سورة ص: الآية ٢٤.
(٣) لسان العرب: ج١١، ص٤١٢، (طول).
(٤) لسان العرب: ج١١، ص٤١٢، (طول).

ولعلنا نمثّل للنحو الأول بمثل شرب الخمر والإسكار والدواء والعلاج، فإن السكر أثر وضعي يحصل نتيجة شرب الإنسان للخمر، فإذا شرب العاصي خمراً فإنه يسكر، كما أنه إذا شرب الدواء يشفى من مرضه؛ لأن الشفاء أثر وضعي لشرب الدواء.

كما قد يمثّل للثاني بالجعالة في المسابقات ومجازاة الأستاذ التلاميذ، فإنه إذا جعل الأستاذ جائزة لمن درس وتفوق في تحصيله كما جعل الحرمان لمن تخلّف عن ذلك، فإنه سيفي بالتزامه مع كل متفوق وفاشل، فيتقدم المتفوق، ويتراجع الفاشل، وكل ينال جزاء عمله.

وفي هذا المثال لا ملازمة بين العملين من حيث السببية والمسببية التكوينية وإن كانت بينهما ملازمة من حيث الاعتبار وجعل الجاعل.

وكيف كان، فلا يمنع أن تكون بعض آثار الذنوب مترتبة عليها بنحو المقدمات والنتائج كالزنا وموت الفجأة، وبعضها بنحو المجازاة كقطيعة الرحم وقصر الأعمار وتقدير الأرزاق، كما يمكن أن يجتمعا معاً في العمل الواحد؛ لما يمكن أن يقال من علاقة السببية والمسببية بين المقدمات والمجازاة، بمعنى أن يكون البارئ عزّ وجل جعل النتائج السلبية تترتب على الذنوب، والأخرى الإيجابية تترتب على الطاعات ترتباً تكوينياً حقيقياً كنوع من المجازاة مثوبة أو عقوبة.

وفي الحديث: «ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما

الظلم المغفور فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات - يعني الصغائر من الزلّات- وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً»(١).

ومن هنا لا يغفل الله سبحانه عنه: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾(٢) بمعنى أن لا يتجاوز عنه من باب خذ الغايات واترك المبادي؛ لاستحالة نسبة النقص إليه سبحانه.

وكلّما ارتفعت درجة المظلوم يصبح ظلمه أقبح وأفظع، واستحقاقه للعقوبة أشدّ؛ إذ لابد من المناسبة بين الفعل والجزاء في الأصل وإن كانت الرحمة والعفو تستثني منه شيئاً.

وعليه فإن الظلم الذي يتوجّه إلى المعصومين أشدّ أنواع الظلم، ولعل من هنا يعد ظلم الأمويين للحسين عليه السلام من أكبر المظالم، ولذا قال سبحانه لموسى عليه السلام: «يا موسى، لو سألتني في الأولين والآخرين لأجبتك ما خلا قاتل الحسين بن علي فإنّي أنتقم له من قاتله»(٣).

وبهذا يظهر الجواب على من زعم أن أذى رسول الله صلى الله عليه وآله في سبيل الدين ربما لم يصل إلى أذى غيره من الأنبياء الذين قتلوا ونشروا بالمناشير، وأحرقوا بالنيران، فكيف قال صلى الله عليه وآله: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت»(٤) فإنه

---

(١) نهج البلاغة: ص٢٥٥، الخطبة ١٧٦؛ انظر الكافي: ج٢، ص٣٣٠-٣٣١، ح١.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٢.

(٣) البحار: ج١٣، ص٣٤٥، ح٣٠.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج٣، ص٤٢؛ البحار: ج٣٩، ص٥٦.

وفضلاً عن كل ما يمكن أن يقال في جوابه فإنه يكفي تفاوت الدرجة في تفاوت الظلم والأذى وأن أذاه المعنوي أشد من عذاب غيره، فتأمل.

ويؤيده ما جاء في روضة الواعظين: قال صلى الله عليه وآله: ﴿من آذى شعرة منّي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل، ومن آذى الله لعنه الله ملء السماء وملء الأرض﴾[(١)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي أو قاتلهم أو أعان عليهم أو سبّهم، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلّمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم﴾[(٢)].

وقد ورد عنهم عليهم السلام في نصيحة من استصغر ذنبه: ﴿لا تنظر إلى الذنب وصغره، ولكن انظر من تعصي به، فإنه الله العلي العظيم﴾[(٣)].

ثانيها: أنها نوع من تجسم الأعمال الذي دلت عليه الآيات والروايات وأقره العقل، فإنّ أعمال البشر لها صورة جسمية تسانخها وتناسبها، ولكن حيث إن الإنسان يفقد الحس الكافي لدركها أو يغفل عن آثارها لا يلتفت إليها؛ لعجز في الجسد، أو لانشداد الروح وتعّلقها بالمادة، ولذّاتها وقصوراتها، فإذا تحررت روحه من قيود البدن رآها مجسدة أمامه، فالكذب يراه أفعى، والغيبة عقرباً، والصلاة تظهر له بصورة رجل جميل المنظر

---

(١) روضة الواعظين: ص٢٧٣؛ أمالي الصدوق: ص٤٠٩، ح٥٣٠.

(٢) روضة الواعظين: ص٢٧٣.

(٣) تحف العقول: ص٥.

يؤانسه في وحشته، وكذا القرآن وأعمال الخير التي ينجزها، وإنما يعرفها بعد الموت؛ لأنه في ذاك العالم تتجرد روحه عن الجسم فتنطلق إلى عالم الملكوت، وترى الأشياء على حقيقتها.

وقد أورد الشيخ الصدوق‌ﷺ في كتاب ثواب الأعمال وعقاب الأعمال جملة من الروايات الدالة على ذلك[(١)]، وتعرّض له جمع من الأعلام قديماً وحديثاً بما يكفينا عن مزيد البيان[(٢)].

هذا وفي الظواهر الطبيعية ما قد يقرب هذه الفكرة إلى الأذهان، ونضرب لذلك أمثلة:

الأول: الجاذبية، فإنها حقيقة كونية حاكمة على الأشياء في الوجود الكوني إلّا أننا لا نراها، ولكن نعرف آثارها، وبواسطتها توصلنا إلى معرفتها.

الثاني: الهواء، فإننا لا نراه ولكن نرى آثاره في اهتزاز الأشجار وملامسة الشعر والعواصف وغيرها.

الثالث: الكهربائية، فإننا نعرف وجودها إذا أشعلت المصابيح، وتؤكد هذه الحقيقة أعمال الحواسيب والفضائيات، فإننا لا نرى الإشعاعات ولا الذبذبات ولا شحنات التواصل والعمل فيها إلّا من خلال آثارها.

---

(١) انظر ثواب الأعمال: ص٢٢٠، ص٢٢٣، ص٢٢٦.

(٢) انظر كشكول الشيخ البهائي: ج٢، ص١٩٢؛ نور البراهين، ج١، ص٣٠٨، ص٣١٢؛ رسالة الزوراء (للمحقق الدواني): ص٨٧-٨٩؛ وكشف المراد، ص٤٥٢؛ حق اليقين: ج٢، ص١٦٧-١٦٨؛ الأصول (للشيرازي): ج١، ص٣٠٣؛ المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية: ج١، ص١٢٩-١٣٧.

ولعل من هذا القبيل أعمال الإنسان وذنوبه وطاعاته، فإنه قد لا يرى الصورة الواقعية للعمل فيتصوره عبارة عن حركات وسكنات كشرب الخمر والزنا وقطيعة الرحم، إلّا أنها في الواقع لها حقائق كونية موجودة لها صور وآثار تنعكس على حياته، وتصيبه خيراً أو شراً. نعم سوف يراها مجسدة أمامه بعد اتصاله بعالم الآخرة، ويجني ثمارها في البعدين.

ويتحصل: أن الأعمال لها صورتان صورة دنيوية ملكية عبارة عن أفعال يُرى شكلها ويحس أثرها و يُرى واقعها، وصورة واقعية مجسمة في عالم الملكوت يراها بعد خروجه من الدنيا، والكلام عن هذا طويل ومفصل نكتفي منه بهذا القدر.

تجسم الأعمال من زاوية تحليلية

ما ذكرناه ليس بدعاً من الأمر، وفضلاً عن قيام الأدلة المتضافرة من الآيات والروايات عليه فإنه من مقتضيات حكم العقل أيضاً؛ لضرورة تطابق عمل الإنسان مع الواقع في الآثار والخصوصيات، وحيث إن الواقع أمر تكويني مجسّد كذلك ما يصدر من الإنسان على ساحة الواقع، وهذا ما ربما يستفاد من ظاهر العديد من الآيات والروايات الدالة على الحركة في الكون، وملازمة الحس والشعور للأشياء بجميع أصنافها، فحتى ما نتصوره جامداً هو حي وشاعر ومتحرك **﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا**

جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[١] وبعضه يستمع الوحي الإلهي كما قال سبحانه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[٢] وبعضه يستجيب له: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[٣] وبعضه يشهد على أهله في الآخرة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾[٤] وبعضه يتكلم ويعبر عن خوفه ورجائه: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[٥].

والحس والشعور والحركة تلازم النمو والتكاثر سواء في الأفعال أو الأقوال، وهذا ما قد يقرب كيفية تجسم الأعمال، فمثلاً إذا نظرنا إلى الكون الذي نعايشه بما فيه من عناصر وأجزاء وتركيبات نظرة تأمل وتدقيق:

فإنه مؤسسة نامية لا تفارق التطور والصعود أبداً، ويتجلى ذلك في أمرين هما: النمو والتكاثر، فكل شيء في الكون يكبر ويولِّد إذا بقي في مكانه الذي وضعه الله فيه.

وهذان -أي النمو والتكاثر- شكلا أبرز مظاهر عالم الحيوانات بأنواعها، والنباتات بفصائلها، ولا يختصان بالحيوانات والنباتات، وإنما هما موجودان في كل شيء من هذا الكون، فذرات الرمال تنمو وتتكاثر مع آلاف السنين، والجبال تنمو وتتضخم مع ملايين السنين، وهكذا كل شيء

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٢) سورة الزلزلة: الآية ٥.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٨.

(٤) سورة النور: الآية ٢٤.

(٥) سورة النمل: الآية ١٨.

في الكون دائب في النمو والازدياد مادام الكون -بصورة إجمالية- دائباً في التوسع بل والتكاثر، فنموه ذاتي وعددي، إذ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

وكما أنَّ للكون (حركة النمو) و(حركة التكثر) له حركة أخرى هي: (حركة التطور) فجزيئاته تتفاعل مع مثيلاتها، وهذا التفاعل يؤدي إلى التنسيق والتكامل والصعود؛ لترتقي إلى وجود أكمل وأكثر أثراً، فالتراب يغادر صيغته الترابية عندما يصبح نباتاً، والنبات يسلخ صيغته النباتية عندما يصبح حيواناً وإن كانت العناصر شبه الأولية لا تتطور، فالأوكسجين -مثلاً - يبقى هو هو في الهواء وفي الماء وفي النبات وفي الحيوان، وإنَّما تتطور المركبات، فالتراب المركب من مجموعة معينة من العناصر شبه الأولية لا يتطور نباتاً إلّا بعد أن ينحل تركيبه الترابي ويركب تركيباً نباتياً.

والنبات المركب من مجموعة معينة من العناصر شبه الأولية لا يتطور حيواناً إلّا بعد أن ينحل تركيبه النباتي ويركب تركيباً حيوانياً، وهي عملية (الحياة الدنيا) وظاهرة الكون والفساد الحاكمة على عالم التكوين.

ولا يخفى أن حركتي: (النمو والتطور) تتبعان نشاط الروح المسلطة على كل مخلوق، فبمبدأ نشاط تلك الروح يقدر مدى قدرة المخلوقات على النمو والتطوير.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٤٧.

(٢) سورة النحل: الآية ٨.

وهذه الحركة والسلطة لا يستثنى منها عمل الإنسان؛ لأنه حركة تجري في الكون وخاضعة لقوانينه وسننه الإلهية.

فعمل الإنسان -فكرياً كان أم عضلياً- عبارة عن حركة تنطلق في الكون فتحدث حركات وتفاعلات متسلسلة باقية تلتقي مثيلاتها وتنمو وتتطور وتؤتي أكلها في الآثار والخواص كل حين بإذن ربها.

كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1].

وفي الآيات شاهدان على ما ذكرنا هما الكلمة الطيبة والأخرى الخبيثة، فإن الكلمة الطيبة تجسد شجرة طيبة في الآثار والخواص إذا حملنا الكاف في قوله سبحانه: ﴿كَشَجَرةٍ﴾ على المثلية، والفرق بينهما في الظاهر والباطن، فإن الشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين في المادة المحسوسة والأبدان، والكلمة الطيبة تؤتي أكلها في القلوب وفي المعنويات؛ لأن من وراء الألفاظ معاني هي الباطن، وهي التي تؤثر أثرها، وتعطي الألفاظ خواصها وآثارها، بينما الألفاظ مظاهر وقشور.

وعلى هذا تتأكد حقانية الواقعيات، وأن الواقع للباطن، وأما الظاهر فهو مظاهر وصور وأشكال، وعليه فإنه على هذا المعنى قد يحمل تشبيه

(١) سورة إبراهيم: الآيات ٢٤-٢٦.

الشجرة المادية الظاهرية على الشجرة الباطنية الواقعية دون العكس، بمعنى أن الشجرة المادية التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها مثلها مثل الكلمة الطيبة، نعم قد تختلف الآثار من كلمة لأخرى، ومن متكلم لآخر، فبعض الكلمات تظهر آثارها سريعاً مثل كلمة التوحيد ((لا إله إلّا الله)) وبعض الكلمات تظهر آثارها بعد حين، وبهذا وردت الروايات أيضاً، فعن الصدوق قدس سره في ثواب الأعمال بسنده المرفوع إلى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله قال: ﴿قال النبي صلى الله عليه وآله من قال: لا إله إلّا الله غرست له شجرة في الجنة من ياقوتة حمراء منبتها في مسك أبيض أحلى من العسل، وأشد بياضاً من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك، فيها ثمار أمثال أثداء الأبكار تفلق عن سبعين حلة﴾[1].

وبإسناده عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿ما من عبد مسلم يقول لا إله إلّا الله إلّا صعدت تخرق كل سقف لا تمر بشيء من سيئاته إلّا طمستها حتى تنتهي إلى مثلها من الحسنات فتقف﴾[2].

كما أن بعض المتحدثين يؤثر كلامهم في النفوس أسرع وأبلغ من غيرهم كالأنبياء والأولياء عليهم السلام ومن يليهم في المنزلة والشرف؛ لذا يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وفي هذا دلالة جلية على حقانية الباطن، وواقعية عوالم ما وراء المادة، وأن الآثار الحقيقية لتلك العوالم لا لعالم المادة،

---

(١) ثواب الأعمال: ص٣؛ الكافي: ج٢، ص٥١٧، ح٢، (مع اختلاف يسير).

(٢) ثواب الأعمال: ص٣؛ التوحيد: ص٢١، ح١٢؛ وفيها: (إلّا طلستها).

وهو الذي يتفق مع الآيات والروايات الدالة على أن الحياة الدنيا ظواهر ومظاهر، وأن الواقع هو الآخرة كما قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[١].

وفي الحديث الوارد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[٢] أي نيام عن الباطن؛ لأنهم لا يحسونه و يدركونه -على بعض التفاسير- نعم إذا حملنا الكاف في قوله ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ على التشبيه فإنه قد يفيد الأعم من التجسيد الحقيقي أو تشبيه اللامحسوس بالمحسوس.

وكيف كان، فإن في الآية دلالة صريحة على الفرق الواسع بين آثار الكلام الطيب والآخر الخبيث، فإن مصائر الطيبات إلى الازدهار والنمو وقيادة الحياة نحو الكمالات والفضائل، بينما مصير الخبائث إلى الانهيار والاندراس عن صفحة الوجود، وهكذا جرت السنن الإلهية في الكون، فإن الزبد يذهب جفاء، وأما الذي ينفع الناس فيمكث في الأرض: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾[٣] لتقوى بذلك عزائم الطيبين وأهل الكلمات العليا وإن رأوا للباطل جولة أو جولات، وأنه كثير الأعوان، وقد أخذ عرض الحياة وطولها ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة الروم: الآية ٧.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص٦٦؛ عوالي اللآلئ: ج٤، ص٧٣، ح٤٨؛ خصائص الأئمة: ص١١٢.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٥.

(٤) سورة هود: الآية ٤٩.

ثم إن الكلمة تطلق على كل ما في الوجود لفظاً كان كالكلام اللفظي وهو المتبادر منها أولاً، أو خلقاً فإن المخلوقات الإلهية تسمى كلمات أيضاً كما قال سبحانه: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[2] وفي الزيارة الشريفة في وصف الأئمة عليهم السلام: «كلمة التقوى وأعلام الهدى»[3].

وكيف كان، فإن الشيء الطيب إنساناً كان أو عملاً من أعمال الخير والإحسان أو كلاماً يكون كالشجرة الطيبة، فكما أن الشجرة الطيبة زاكية نامية ضاربة بجذورها في أعماق الأرض، ومستقرة في وقار وسكينة وثقة، وسامقة أغصانها وفروعها إلى عنان السماء، وتعطي ثماراً طيبة، كذلك الخيرون من الناس والصالحات من الأعمال والطيبات من الأقوال والكلمات فإن أصولها ثابتة في الأرض وفروعها وآثارها سامقة في الحياة الإنسانية وفي النفوس والعقول تعطي ثماراً طيبة، وهذا ما تدل عليه الحياة الاجتماعية للبشر؛ إذ نرى الإنسان الطيب قوي الجذور في المجتمع، كثير البقاء، عظيم المنزلة، وخطير الأثر، تحبه النفوس، وتركن إليه الضمائر، وتناصره وتدافع عنه وتحميه.

وإن كان الباطل منتفخاً في الشكل براقاً في الألوان والمظاهر ضيّق على الصالحين دروب الحياة ولكن سرعان ما يزول ويخمد، وهكذا الأمر بين

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٣) مصباح المتهجد: ص٧٢١.

كل حق وباطل، وطيب وخبيث، وهذا ما يفسّر لنا سر بقاء الأنبياء والصالحين على مدى الدهر هداة راسخين ينهل من عطائهم الجميع؛ لأنها أشجار طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربهم.

بينما الكلمة الخبيثة وأصحابها الخبثاء اجتثوا من فوق الأرض ما لهم من قرار: ﴿**وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾(١) وهذه الحقيقة الثابتة والقيمة الواقعية التي تتجلى في حياة كلا الطائفتين، فإن غالب الناس -في كثير من الأحيان ولأن عقولهم في عيونهم كما في الأخبار الشريفة- ينخدعون بالباطل، أو ينبهرون بما له من ألوان ورعيد وبريق، وفي المقابل يرون استضعاف أهل الحق والتضييق عليهم فيظنون أن الحق قد انهزم واضمحل، إلّا أن في عالم الواقع والحقائق ومستقبل الأمور ليس كذلك؛ لأن الحق راسخ الأقدام، عالي البنيان، لا تزعزعه الأعاصير، ولا تهزه العواصف، ولا تزلزله القواصف، وإنما يبقى ليثمر ويعطي الناس فوائده الطيبة وآثاره العظيمة كما قال سبحانه: ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾(٢) وقال تبارك وتعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾(٣) فإن للباطل جولة، وللحق دولة، وهذا سر من أسرار بقاء محبة الأنبياء والأولياء في القلوب، والذكر على الألسنة، والسيرة والسنّة في العمل، والانتشار في مختلف بقاع الأرض.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٦.

(٣) سورة محمد: الآية ٧.

وزوال الظالمين ومن لف لفهم عن القلوب وعن الألسنة سيرة وعملاً حتى ما وجد الكثير منهم أشباراً من الأرض يدفن فيها، وإذا وجد فلم يبق له اليوم ذكر ولا أثر، بينما تتعالى بركات آثار أقدام أولياء الله وقطرات دمائهم ولمسات أيديهم ومواضع سجودهم وانقطاعهم إلى ربهم، وينتفع بها الناس في كل حين بإذن ربهم[١] كما هو ملحوظ مشهور ومنتشر في مختلف بقاع الأرض، وأي مثل يضربه الله سبحانه للناس أعظم من هذا ليدل على تجسد الأعمال ونموها وتكاثرها في كل آن وزمان وبقعة ومكان.

---

(١) انظر خواطري عن القرآن: ج٢، ص١١١، (بتصرف)؛ تفسير الأمثل: ج٧، ص٥٠٢-٥٠٦.

﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي

تُغَيِّرُ النِّعَمَ﴾

الذنوب التي تغيّر النعم

النعم: جمع نعمة، وهي في الأصل تلك الحالة الحسنة[1] أو القوة التي بها يستنفع الإنسان من الطيّبات، وهي مشتقة من نَعَم أي النعومة، ولكن في العرف واللغة تستعمل في أنواع الطيّبات، وفي مجمع البحرين: النعمة: اليد والصنيعة والمنة وما أنعم الله به عليك[2]، ولعل ذلك من جهة العلة، والجامع ما يوجب سعة العيش ونعومة الحال، ولعل المراد من فقرة الدعاء في المعنى الأول غفران ما يؤدي إلى عدم عافية الإنسان، وفي الثانية قلّة أرزاقهم. وتغيّر النعم يتحقق بزوالها أو تبدلها بالأسوء، أو انتقالها إلى من يستحقها؛ لأن التغيّر تارة يكون بالجوهر وتارة في المظهر[3]، وتارة يكون التغير بالمنع من الاستفادة منها على وجه النفع والانتفاع، فتكون متغيرة على صاحبها كالثري المريض الذي لا يستطيع أن يستثمر ثروته في الطعام الطيب والعيش الرغيد، وردت به النصوص.

ففي الاختصاص عن الباقر عليه السلام: «أن العبد يسأل الحاجة من حوائج الدنيا فيكون من شأن الله قضاؤها إلى أجل قريب، أو وقت بطيء، فيذنب العبد عند ذلك ذنباً فيقول الله للملك الموكل بحاجته: لا تنجز حاجته، وأحرمه إيّاها، فإنه تعرّض لسخطي، واستوجب الحرمان منّي»[4].

---

(١) مفردات الراغب: ص٤٩٩، (نعم).

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص١٧٩، (نعم).

(٣) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٦٩، (غاره).

(٤) الاختصاص: ص٣١- ٣٢؛ وانظر الكافي: ج٢، ص٢٧١، ح١٤.

وفي شرح النهج: قال أمير المؤمنينعليه السلام: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلّا الدعاء..»[١].

وعنهعليه السلام: «وأيم الله، ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلّا بذنوب اجترحوها؛ لأنّ الله تعالى ليس بظلاّم للعبيد»[٢].

وفي الأخبار الشريفة الذنوب التي تغيّر النعم ما تقترف بالجوانح والجوارح، ففي عدة الداعي عن السجادعليه السلام: «أن الذنوب التي تغير النعم البغي على الناس، والزوال عن العادة في الخير، واصطناع المعروف، وكفران النعم وترك الشكر»[٣].

وعن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «الذنوب التي تغيّر النعم البغي، والذنوب التي تورث الندم القتل، والتي تنزل النقم الظلم، والتي تهتك الستر شرب الخمر، والتي تحبس الرزق الزنا، والتي تعجّل الفناء قطيعة الرحم، والتي تردّ الدعاء وتُظلم الهواء عقوق الوالدين»[٤].

والبغي في اللغة تجاوز الحدّ، ويطلق غالباً على التكبّر والتطاول، وعلى الظلم[٥]. قال الله تعالى: ﴿**يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾[٦] وقال: ﴿**إِنَّمَا بَغْيُكُمْ**

---

(١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج٢٠، ص٢٥٩، الرقم ٣٣.

(٢) نهج البلاغة: ص٢٥٧، الخطبة ١٧٨.

(٣) عدة الداعي: ص١٩٩؛ البحار: ج٧٠، ص٣٧٥، ح١٢.

(٤) الكافي: ج٢، ص٤٤٧، ح١.

(٥) مفردات الراغب: ص٥٥، (بغى)؛ لسان العرب: ج١٤، ص٧٨، (بغا).

(٦) سورة الشورى: الآية ٤٢.

عَلَى أَنفُسِكُم﴾[١] وقال: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ﴾[٢] و: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾[٣] و: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾[٤].

والبغي نوعان: بغي في الأعمال وبغي في الأفكار، وأجلى مصاديق الأول الخروج على إمام الحق، والثاني الرد على الأئمة عليهم السلام، ومن بعده الرد على نوابهم، وهم علماء الحق أي الفقهاء العدول، والرد عليهم في طول الرد على الأئمة عليهم السلام؛ لأن مقامهم في طول مقام الأئمة عليهم السلام، وهو مقام النيابة عنهم بالجعل الخاص، كما في مقبولة عمر بن حنظلة: «انظروا من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فارضوا به حكماً، فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما بحكم الله استخف، وعلينا رد، والرادّ علينا كالرادّ على الله تعالى، وهو على حد الشرك بالله»[٥].

ووجه الشرك هو أن الراد نفسه يجعل رأيه وشيطانه حاكماً وطاعته في عرض حكم الله سبحانه وطاعته، وهو بالمحصلة رد على الله سبحانه، وكفران لنعمه ونعم أوليائه، فيوجب زوالها.

---

(١) سورة يونس: الآية ٢٣.

(٢) سورة الحج: الآية ٦٠.

(٣) سورة القصص: الآية ٧٦.

(٤) سورة الحجرات: الآية ٩.

(٥) انظر الكافي: ج١، ص٦٧، ح١٠؛ الاحتجاج: ج٢، ص١٠٦.

وفي تفسير قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا﴾[(١)] ورد عن الصادق عليه السلام: «نحن -والله- نعمة الله التي أنعم بها على عباده، وبنا فاز من فاز»[(٢)] فإنكارهم في العقيدة أو في الاقتداء أو الرد عليهم في قول أو حكم مساوق لكفران النعمة، بل من أجلى مراتبه.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[(٣)] تواتر النقل في تفسير أهل البيت عليهم السلام أنهم النعيم المسؤول عنه[(٤)].

وفي رواية العياشي في حديث طويل قال: سأل أبو حنيفة أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية؟ فقال له: «ما النعيم عندك يا نعمان؟» قال: القوت من الطعام، والماء البارد، فقال: «لئن أوقفك يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها وشربة شربتها ليطولنّ وقوفك بين يديه» قال: فما النعيم جعلت فداك؟ قال: «نحن – أهل البيت – النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء، وبنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم الله به عليهم، وهو النبي صلى الله عليه وآله وعترته»[(٥)].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.

(٢) تفسير القمي: ج١، ص٨٦، ص٣٨٨.

(٣) سورة التكاثر: الآية ٨.

(٤) تفسير القمي: ج٢، ص٤٤٠؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص١٣٦، ح٨.

(٥) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٤٣٣، تفسير الآية ٨ من سورة التكاثر؛ تفسير البرهان: ج٥، ص٧٤٩، ح١٨.

وفي رواية الشيخ المفيد بإسناده إلى محمد بن السائب الكلبي في جواب سؤاله: قال: «النعيم نحن الذي أنقذ الله الناس بنا من الضلالة، وبصّرهم بنا من العمى، وعلّمهم بنا من الجهل»[(١)].

وكونهم عليهم السلام النعيم إما من باب الكناية على سبيل المجاز؛ لأنهم سبب النعيم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مكانه، كما يعضده أنهم المسؤول عنهم وعن ولايتهم في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[(٢)] أي عن ولايتهم عليهم السلام، أو من باب الحقيقة؛ لكونهم عليهم السلام المصداق الباطن[(٣)] أو أظهر مصاديق النعمة أو أكملها؛ لشمولها للنعم الظاهرة والباطنة.

ولعل الوجه في كون الرد على العالم الرباني يزيل النعم هو أنّ العلماء كالمصابيح في الأمة، فمن لا يهتدي بهم يكون كمن يمشي في الظلام لا يبصر طريقاً، وهذا بحسب الأسباب الطبيعية والعلل التكوينية يؤدي إلى أذاه وفشله، أو لأن ذلك من الآثار الوضعية للتكبر والظلم المتجسد في الرد عليهم، أو لأن نعمة وجودهم في الناس امتداد لنعمة وجود الأئمة عليهم السلام، فالرد عليهم كفران.

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ج٢، ص٨٥٢، ح٨؛ تفسير البرهان: ج٥، ص٧٤٩، ح١٧.

(٢) سورة الصافات: الآية ٢٤.

(٣) تأويل الآيات الظاهرة: ج٢، ص٨٥٣، ذيل ح٩؛ وانظر المحاسن: ج٢، ص٤٠٠، ح٨٣.

كفران النعم

وأما الكفر فهو في اللغة ستر الشيء[١] وتغطيته[٢]، ومنه جاء وصف الزرَّاع؛ لسترهم البذر في الأرض، وفي قوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[٣] عنى بالكفار الزرّاع؛ لأنهم يغطّون البذر بالتراب، بدلالة قوله: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[٤][٥].

وفي حديث الصادق عليه السلام الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه: كفر الجحود وهو على وجهين: جحود بالربوبية وأن لا جنة ولا نار كما قال صنف من الزنادقة والدهرية الذين يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[٦] والوجه الآخر جحود العناد والمكابرة، بأن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق واستقر عنده كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[٧] والثالث كفر النعمة. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٨] الرابع ترك ما أمر الله به، وعليه قوله تعالى:

---

(١) مفردات الراغب: ص٤٣٣، (كفر).

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٧٥، (كفر).

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٠.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٥) انظر مفردات الراغب: ص٤٣٣، (كفر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٧٥، (كفر).

(٦) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

(٧) سورة النمل: الآية ١٤.

(٨) سورة إبراهيم: الآية ٧.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1] الخامس كفر البراءة، وعليه قوله تعالى في قوم إبراهيم ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾[2] وبحسب المعنى اللغوي يمكن التوسعة في معنى الكفر ليشمل ما هو أكثر من ذلك، وحينئذ يحمل ما ورد في الرواية الشريفة على ما ورد في الكتاب العزيز كما هو الظاهر، أو يحمل على بيان المصداق أو أظهر المصاديق، وبذلك يظهر أن المراد من كفران النعم الكفران العملي والحالي والقولي، وكلها تنطبق على الكفر بالمنعم سواء كان كفراً بذاته كمن قال بالصدفة في الخلق، أو الكفر بالربوبية مثل اليهود حيث قالوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾[3] أو ككفر المعتزلة القائلين بالتفويض بالتفويض وأن العباد مستقِلّون في أفعالهم، أو الكفر بالتوحيد كالمشركين، أو الكفر بالنبوة أو بالإمامة بنحو عام أو خاص، كالكفر بإمامة أحد الأئمة عليهم السلام كما في متضافر الأخبار[4].

وكذا الكفر بالمعاد، والكفر بنعم المنعم، وكفران النعم بصرف العبد إيّاها في معصية المنعم، وسمي بكفران النعمة؛ لأنه يرجع إلى نحوين من الكفر هما الكفر العملي والربوبي، وكلاهما يسببان له التعاسة، ويبدلان

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٥.

(٢) الكافي: ج٢، ص٣٨٩، ح١؛ وانظر مجمع البحرين: ج٣، ص٤٧٥-٤٧٦، (كفر).

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٤) الكافي: ج١، ص٤١٢، باب (فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية)؛ مجمع البحرين: ج٣: ص٤٧٥، (كفر).

سعادته إلى شقاء، ونعمته إلى بوار على خلاف الشكر[(١)]، وأما الشرك فهو الأعم من الجلي والخفي، وهو بحسب الآثار والنتائج كالكفر[(٢)].

هذا وروي أن الذنوب التي تدفع القسم وتغير نعمة الإنسان ما يشمل المكروه والمحرم، ففي البحار عن سيد الساجدين عليه السلام هي: «إظهار الافتقار والنوم عن صلاة العتمة، وعن صلاة الغداة، واستحقار النعم، وشكوى المعبود عز وجل»[(٣)].

---

(١) الكافي: ج١، ص٢١، ح١٤، ((... والشكر وضدّه الكفران ...)).

(٢) الإشراك بمعنى اتخاذ الشريك لله سبحانه، وله مراتب مختلفة بحسب الظهور والخفاء، نظير الكفر والإيمان، فالقول بتعدد الإله واتخاذ الأصنام والشفعاء شرك ظاهر، وأخفى منه ما عليه أهل الكتاب من الكفر بالنبوة، وخاصة أنهم قالوا: عزير ابن الله، أو المسيح ابن الله، وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وهو شرك، وأخفى منه القول باستقلال الأسباب والركون إليها وهو شرك، إلى أن ينتهي إلى ما لا ينجو منه إلّا المخلصون، وهو الغفلة عن الله، والالتفات إلى غير الله عزّت ساحته، فكل ذلك من الشرك، غير أن إطلاق الفعل غير إطلاق الوصف والتسمية به، تفسير الميزان: ج٢، ص٢٠٢، في تفسير الآية ٢٢١ من سورة البقرة، (بتصرف).

(٣) عدة الداعي: ص١٩٩؛ البحار: ج٧٠، ص٣٧٥، ح١٢.

﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لي الذُّنُوبَ الَّتي
تَحْبِسُ الدُّعاءَ﴾

في أسباب حبس الدعاء

تضافرت الأدلة النقلية والبراهين العقلية على أن كل دعاء له إجابة إذا وصل إلى ساحته عز وجل؛ إذ لا يتخلف الجواب عن السؤال عند الغني الكريم لو توفرت سائر الشروط؛ لأنّه من شؤون الوعد المتفق على لزوم الوفاء به، فإذا لوحظ عدم الاستجابة في بعض الأحيان فإن ذلك يرجع إلى حبس الدعاء وعدم صعوده إما لجهة عدم وجود المقتضي كما لو كان الداعي غير لائق بمخاطبة الباري وطرق بابه، أو افتقاره لشروط الدعاء، فإنه على ذلك يفقد الدعاء قابلية الصعود إليه تبارك وتعالى حتى تتحقق الإجابة، وإما لجهة وجود المانع المقارن أو السابق أو اللاحق على ما عرفته فيما تقدم، ويأتي إن شاء الله تعالى.

هذا وقد حقق في الحكمة أن كل دعاء إذا توفرت شرائطه له مقتض للإجابة لولا المانع وهي المعصية، فالمانع يمنع من الاستجابة مطلقاً، أو يؤخرها عن توقع العبد، وقد ورد عن الباقرعليه السلام: «إن العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب، أو إلى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً فيقول الله تعالى للملك: لا تقض حاجته، واحرمه إيّاها، فإنه تعرّض لسخطي، واستوجب الحرمان منّي»[1] وعن الذنوب التي تحبس الدعاء ورد عن السجادعليه السلام: «سوء النية، و خبث السريرة،

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧١، ح١٤.

والنفاق مع الأخوان، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها﴾[١].

وبالتأمل نجد أن بعضها يعود إلى المقتضي وبعضها إلى المانع، ومما أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: ﴿هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع في ظلم الليل، وادعني فإنك تجدني قريباً مجيباً﴾[٢] هذا وقد تقدم في بحث الدعاء وشروطه من الفصل التمهيدي ما يغني عن التفصيل هنا.

---

(١) البحار: ج٧٠، ص٣٧٦، ح١٢؛ عدة الداعي: ص٢٠٠، وفيه: (الصلوات المفروضة).

(٢) أمالي الصدوق: ص٤٣٨، ح١؛ الوسائل: ج٧، الباب ٣٠ من أبواب الدعاء، ص٧٨، ح٨٧٧٨.

﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ الْبَلاءَ﴾

في معنى البلاء وأسباب نزوله

المعاني المحتملة للبلاء عديدة:

منها: الغم. سمّي بلاء؛ لكونه يبلي الجسم. قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1].

ومنها: التكليف. قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ﴾[2] وسمّي التكليف بلاء؛ لما فيه من مشقة وكلفة على المكلَّف.

ومنها: النعمة. قال سبحانه: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ﴾[3] فإن معاجز موسى عليه السلام كفلق البحر وتظليل الغمام ونزول المن والسلوى نعم ظاهرة.

ومنها: الاختبار والامتحان، ولعله الأصل فيه[4]، ولذا يستعمل في الخير والشر. قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[5] فإن الله سبحانه يختبر العباد بالنعم تارة ليشكروا، وبالمضار أخرى ليصبروا، ومنه قول سيد الشهداء عليه السلام: «نصبر على بلائه فيوفينا أجور الصابرين»[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٩؛ سورة الأعراف: الآية ١٤١؛ سورة إبراهيم: الآية ٦.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٠٦.

(٣) سورة الدخان: الآية ٣٣.

(٤) انظر مجمع البيان: ج١، ص٢٠٤، تفسير الآية ٤٩ من سورة البقرة.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٦) مثير الأحزان: ص٢٩؛ البحار: ج٤٤، ص٣٦٧.

وبذلك يظهر أن ما قيل فيه من معان هو من باب الاستعمال مجازاً، أو يرجع في جوهره إلى معنى جامع هو الحقيقة فيه، كما لا يخفى على المتأمل. هذا بحسب اللغة، وأما في الفهم العرفي والمرتكز الشرعي فيطلق البلاء على ما يوجب الأذى والضرر أكثر، وهذا هو الأنسب بفقرة الدعاء؛ لعدم الملازمة بين الذنب والامتحان؛ لكون الذنب من آثار الامتحان ونتائجه، وإنّما هي بين الذنب والعقوبة عقلاً وشرعاً؛ ولذا استوجب سؤال المغفرة قبل نزول العقوبة.

وفي الخبر عن الصادقعليه السلام: «أما إنّه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلّا بذنب، وذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾[1] »[2].

وعليه فكل ذنب له جزاء يساوقه ويشابهه، وما لم يغفره الباري عزّ وجل للعبد فإنه يقع في آثاره السيئة، ويبتلي بعواقبه الوخيمة، وأما أسباب تعجيل نزول البلاء من الذنوب فعديدة، ومن أهمها ما ورد عن السجادعليه السلام: «ترك إغاثة الملهوف، وترك معاونة المظلوم، وتضييع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[3].

والمسانخة بين هذه الأعمال والبلاء جلية؛ بداهة أن في إغاثة الملهوف وإعانة المظلوم رفعاً للأذى، وفي تركهما الإصابة به، فكان جزاء المرتكب لها

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٢) راجع الكافي: ج٢، ص٢٦٩، ح٣. ثم قال: وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به.

(٣) عدة الداعي: ص١٩٩؛ معاني الأخبار: ص٢٧١، ح٢؛ البحار: ج٧٠، ص٣٧٥، ح١٢.

ما يشابهه ويساوقهُ، وكذا في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا فرق بين ما كان رافعاً للبلاء الفردي كالأولين أو الاجتماعي كالثالث، وهذا تجسيد لقولهم عليهم السلام: «كما تدين تدان»[(١)].

وقول الشاعر:

من يزرع الشوك لا يحصد به العنبا[(٢)]

لذا يقال من لا يكف البلاء عن الناس يبتلى به.

وبذلك يعرف وجه الجمع بين ما تقدم وما ورد في متضافر الأخبار من أن المؤمن مبتلى، وأن الله سبحانه إذا أحب عبداً ابتلاه، فعن أبي عبد الله عليه السلام: «كلّما ازداد العبد إيماناً إزداد ضيقاً في معيشته»[(٣)].

وعنه عليه السلام: «لولا إلحاح المؤمنين على الله في طلب الرزق لنقلهم من الحال التي هم فيها إلى حال أضيق منها»[(٤)].

وعنه عليه السلام: «ما أعطي عبد من الدنيا إلّا اعتباراً، وما زوي عنه إلّا اختباراً»[(٥)].

«سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وآله من أشد الناس بلاء في الدنيا؟ فقال: النبيّون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلي المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صحّ إيمانه

---

(١) الكافي: ج٥، ص٥٥٣، ح١؛ أمالي الصدوق: ص٥٠٥، ح٦٩٧.

(٢) مجمع الأمثال: ج٢، ص٢٧٤.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٦١، ح٤.

(٤) الكافي: ج٢، ص٢٦١، ح٥.

(٥) الكافي: ج٢، ص٢٦١، ح٦.

وحسن عمله اشتدَّ بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه﴾[(١)].

وفي رواية محمد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلّا عرض له أمر يحزنه يذكرّ به﴾[(٢)].

لان المنظور في ذلك هو الجزاء والنتيجة؛ بداهة أن أثر الابتلاء هو غفران الذنوب، أو رفعة الدرجات معنوياً، وزيادة التجارب وتقوية النفس والإرادة مادياً، وهما من أهم عناصر راحته وسعادته في الدارين.

ومن الواضح أن طلب الغفران والعفو لا يتعلق بمثلها؛ لكونها سالبة بانتفاء الموضوع، بل المراد غفران ما كان سبباً للنقمة الإلهية وسوء العاقبة أو الوقوع في حبائل الشيطان أو السلطان ونحوها من المعاصي والشرور[(٣)]،

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٥٢، ح٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٥٤، ح١١.

(٣) في الكافي: ج٢، ص٤٤٩، ح١.

عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال الله عز وجل: إن العبد من عبيدي المؤمنين ليذنب الذنب العظيم مما يستوجب به عقوبتي في الدنيا والآخرة فأنظر له فيما فيه صلاحه في آخرته فأعجّل له العقوبة عليه في الدنيا لأُجازيه بذلك الذنب، وأُقدّر عقوبة ذلك الذنب وأقضيه وأتركه عليه موقوفاً غير ممضى، ولي في إمضائه المشيئة، وما يعلم عبدي به فأتردد في ذلك مراراً على إمضائه، ثم أُمسك عنه فلا أُمضيه كراهةً لمساءته وحيداً عن إدخال المكروه عليه، فأتطوّل عليه بالعفو عنه والصفح، محبة لمكافأته لكثير نوافله التي يتقرّب بها إليّ في ليله ونهاره، فأصرف ذلك البلاء عنه وقد قدّرته وقضيته وتركته موقوفاً، ولي في إمضائه المشيئة، ثم أكتب له عظيم أجر نزول ذلك البلاء وأدّخره وأُوفّر له أجره ولم يشعر به، ولم يصل إليه أذاه، وأنا الله الكريم الرؤوف الرحيم﴾.

ولعل من لطائف ما روي أنه قيل لبعضهم كيف أنت في دينك؟ فقال: أخرقه بالمعاصي، وأرقعه بالاستغفار[(١)]، وضعفه ظاهر ولعل إلى جوابه ورد قول الشاعر:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربّه ... وجاد بدنياه لما يتوقع[(٢)]

---

(١) تاريخ بغداد: ج١، ص٢٨٤؛ كشكول البهائي: ج٢، ص٣٣٨.
(٢) محاسبة النفس: ص١٥٦؛ مجموعة ورام: ص١٤٤؛ كشكول البهائي: ج٢، ص٣٣٨.

﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي
تقطع الرَّجاءْ﴾

في أسباب قطع الرجاء

هذه الفقرة وردت في مصباح الكفعمي[1] والرجاء هو توقع حصول ما فيه نفع أو مسرّة بتوفير أسبابه، ومتى ما توقعه بلا تهيئة الأسباب يعد حمقاً.

وفي حديث أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿يدعي (بزعمه) أنه يرجو الله، كذب والعظيم، ما باله لا يتبيّن رجاؤه في عمله؟﴾[2] فذمّ من يرجو الله بلا عمل، لأن من يرجو الشيء ولا يأخذ بالأسباب الموصلة إليه كاذب فيما يتمنى

وفي جامع السعادات:

لابد أن يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره، كتوقع الحصاد ممن ألقى بذراً جيّداً في أرض طيبة يصلها الماء، وأما انتظار ما لم يحصل شيء من أسبابه فيسمى غروراً وحماقة، كتوقع من ألقى بذوراً في أرض سبخة لا يصلها الماء، وانتظار ما كان أسبابه مشكوكة يسمى تمنياً، كما إذا صلحت الأرض ولا ماء[3].

وبهذا فرّق بعضهم بين الرجاء والأمنية[4]، وقال بعضهم: رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد، فقلت: يرحمك الله إنّ رحمة

---

(١) مصباح الكفعمي: ص٥٥٥.

(٢) نهج البلاغة: ج٢، ص٥٦، الخطبة ١٦٠.

(٣) جامع السعادات: ج١، ص٢٤٥.

(٤) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٤١-٢٤٢.

الله واسعة، فغضب وقال: هل رأيت ما يدل على القنوط؟ إنّ رحمة الله قريب من المحسنين، فأبكاني -والله- كلامه[(١)].

وقال الشيخ البهائي قدس سره: ولينظر العاقل إلى حال الرسل والأبدال والأولياء واجتهادهم في الطاعات، وصرفهم العمر في العبادات لا يفترون عنها ليلاً ولا نهاراً، أما كان لهم حسن ظن بالله؟ بلى والله إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله، وأحسن ظناً بجوده من كل ظان، ولكن علموا أن ذلك بدون الجد والاجتهاد أمنية محضة، وغرور بحت فأجهدوا أنفسهم في العبادة والطاعة ليتحقق لهم الرجاء الذي هو من أحسن البضاعة[(٢)].

وكيف كان، فدلالة ما ورد على الملازمة بين بعض الذنوب وانقطاع الرجاء بيّنة، وسببها الابتعاد عن ساحة الرحمة الإلهية والعناية الربانية، وهي نتائج قهرية لمن عاش اليأس في وجدانه، وفقد الثقة بالله العظيم.

قال بعض أهل المعرفة: إن آكل الحرام والشبهة مطرود عن الباب بغير شبهة، ألا ترى أن الجنب ممنوع عن دخول بيته، والمحدِث محرَّم عليه مس كتابه، مع أن الجنابة والحدث أثران مباحان، فكيف بمن هو منغمس في قذر الحرام وخبث الشبهات؟ لا جرم أنه أيضاً مطرود عن ساحة القرب غير مأذون له في دخول الحرم[(٣)]. هذا وربما يفسّر الرجاء بالخوف ليس من

---

(١) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٤٢.

(٢) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٤٢.

(٣) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٤١.

العقاب بل من السقوط عن عين الحبيب والابتعاد عن ساحته. قال سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[(١)] قيل أي لا تخافون عظمة الله[(٢)].

ومنهُ قول الشاعر:

لعمرك ما أرجو إذا متَّ مسلماً   على أيِّ جَنْب كان في الله مصرعي[(٣)]

ووجه ذلك أن الرجاء والخوف يتلازمان عادة، ولذا عد أهل المعرفة حالة العبد بين الخوف والرجاء من مقامات العبودية، والعلاقة بين الذنوب وقطع الخوف واضحة، ولذا طلب محوها وسترها؛ لكي لا يقع ذلك الأثر، ويكون العبد دائماً في خشية الله سبحانه، والخوف من طرده من رحمته.

هذا وما ورد في بعض الأخبار يشهد للأوّل.

فعن السجادعليه السلام أنّها: «اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والثقة بغير الله، والتكذيب بوعد الله عز وجل»[(٤)] واليأس والقنوط وإن رأى البعض ترادفهما، ولكن التحقيق على خلافه؛ لعدم وجود ترادف بالمعنى التام في لغة العرب فضلاً عن ألفاظ الشرع، كما أن ظاهر العطف التعدد لا الاتحاد، ولذا اجتمعا في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾[(٥)] وهو من عطف

---

(١) سورة نوح: الآية ١٣.

(٢) انظر مفردات الراغب: ص٣٤٦، (رج و).

(٣) مجمع البحرين: ج١، ص١٧٦، (رجا).

(٤) معاني الأخبار: ص٢٧١، ح٢؛ البحار: ج٧٠، ص٣٧٦، ح١٢؛ وانظر مجمع البحرين: ج١، ص١٧٨، (رجا).

(٥) سورة فصلت: الآية ٤٩.

الخاص على العام والظاهر أنهما انقطاع الأمل، والقنوط انقطاعه في المعنويات واليأس في الماديات والمعنويات فهو أعم، وربما يقال بالمساوقة بينهما ويختلفان في المتعلق؛ إذ قد يقال إن متعلق اليأس هو الرحمة الدنيوية الرحمانية. أما القنوط فمتعلقه الرحمة الأخروية الرحيمية، ولعل قوله عز وجل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[(١)] يشير إلى ذلك.

وفي إرشاد القلوب: قالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى ليعجب من يأس العبد من رحمته وقنوطه من عفوه مع عظيم سعة رحمته»[(٢)] والحق ما ذكرنا؛ لأن الرحمة الإلهية تشمل الماديات والمعنويات، بينما القنوط تعلق بالعفو وهو في المعنويات، ويؤيده ما صرح به بعض أهل اللغة من الأخصية[(٣)] وتعريف بعضهم للقنوط باليأس من الخير خاصة[(٤)].

ولعل الوجه في أن الثقة بغير الله سبحانه تقطع الرجاء هو الشرك؛ لأنه مآلها أو معلولها، ففي اللغة: الثقة السكون إلى الشيء والائتمان به ركوناً.

وفي مفردات الراغب: وثقت به أثق ثقة: سكنت إليه، واعتمدت عليه[(٥)].

---

(١) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٢) إرشاد القلوب: ج١، ص١٠٩.

(٣) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٤٣٦، (١٧٥١).

(٤) مفردات الراغب: ص٢٢٠، (قنط).

عليه[١].

وفي المعجم: وثق بفلان: ائتمنه فهو واثق به[٢] ودلالتها على ما تقدم ظاهرة، وإطلاقه يشمل ما كان في السراء والضراء.

وفي الحديث: ﴿ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيّته إلّا قطعت أسباب السماوات والأرض من يديه، وأسخت الأرض من تحته﴾[٣] ولعل المراد بقطع أسباب السماوات الكناية عن عدم استجابة الدعاء، أو عدم التوفيق والعناية الإلهية في شتى مجالات حياته؛ لأن كل ما يناله الإنسان من النعم ينزل بأمر الله من السماوات العلى.

وفي دعاء الصحيفة السجادية:

﴿فمن حاول سدّ خلَّته من عندك ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته في مظانّها، وأتى طلبته من وجهها، ومن توجّه بحاجته إلى أحد من خلقك، أو جعله سبب نُجحها دونك فقد تعرّض للحرمان، واستحق من عندك فوت الإحسان﴾[٤].

---

(١) مفردات الراغب: ص٥٤٨، (وثق).

(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠١١، (وثق).

(٣) الكافي: ج٢، ص٦٣، ح١؛ الوسائل: ج١٥، الباب ١٠ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٢١١، ح٢٠٣٠٤.

(٤) الصحيفة السجادية: ص٨٤.

وأما سيخان الأرض فهو انخسافها[١]، إما يراد منه تشبيه غير المحسوس بالمحسوس لعظم الذنب، أو يراد به المعنى الحقيقي بإنزال العبد في باطن الأرض فلا يقدر بعدها على نهوض أو حركة، فكلما أراد شيئاً انعكست به الأمور، وفاته النجاح.

أو غاصت نفسه وضميره بترابه وشهواته الجسدية ليشقى، والقضية ليست مانعة الجمع، فحمل المعنى على الجميع بلا مانع.

وفي دعاء الصحيفة السجادية:

﴿طلب المحتاج إلى المحتاج سفه من رأيه، وضلة من عقله، فكم -قد رأيت- يا إلهي من أناس طلبوا العزّ بغيرك فذلّوا، وراموا الثروة من سواك فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فاتّضعوا﴾[٢] وقيل لأعرابي: إن الله محاسبك

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص٤٦٧، (ساخت).

(٢) الصحيفة السجادية: ص١٥١؛ وجاء أيضاً في الصحيفة السجادية: ص٧٢-٧٤.

﴿اللهم ولي إليك حاجة قد قصّر عنها جُهدي، وتقطّعت دونها حيلي، وسوّلت لي نفسي رفعها إلى من يرفع حوائجه إليك، ولا يستغني في طلباته عنك، وهي زلّة من زَلَل الخاطئين، وعثرة من عثرات المذنبين، ثم انتبهت بتذكيرك لي من غفلتي، ونهضت بتوفيقك من زلّتي، ورجعت ونكصتُ بتسديدك عن عثرتي، وقلت سبحان ربي كيف يسأل محتاجٌ محتاجاً؟ وأنّى يرغب مُعدِمٌ إلى مُعدِمٍ؟ فقصدتك يا إلهي بالرغبة، وأوفدت عليك رجائي بالثقة بك، وعلمت أنّ كثير ما أسألك يسير في وجدك، وأنّ خطير ما استوهبك حقير في وسعك، وأن كرمك لا يضيق عن سؤال أحد، وأن يدك بالعطايا أعلى من كل يد...﴾.

غداً، فقال: سررتني يا هذا إذن إنّ الكريم إذا حاسب تفضَّل[(١)].

وفي الحديث أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: ﴿وعزتي وجلالي لأقطعنّ أمل كل آمل أمل غيري بالإياس، ولأكسونّه ذل ثوب المذلّة في الناس، ولأبعدنّه من فَرَجي وفضلي، أيأمل عبدي في الشدائد غيري والشدائد بيدي؟ ويرجو سواي وأنا الغني الجواد؟﴾[(٢)].

وفي بعض التواريخ: سخط كسرى على بوذر جمهر فحبسه في بيت مظلم، وأمر أن يصفَّد بالحديد، فبقي أياماً على تلك الحال، فأرسل إليه من يسأله عن حاله، فإذا هو منشرح الصدر، مطمئن النفس، فقالوا له: أنت في هذه الحالة من الضيق ونراك ناعم البال؟ فقال: اصطنعت ستة أخلاط وعجنتها واستعملتها، فهي التي أبقتني على ما ترون. قالوا: صف لنا هذه الأخلاط لعلّنا ننتفع بها عند البلوى، فقال: نعم، أما الخلط الأول فالثقة بالله عز وجل، وأما الثاني فكل مقدَّر كائن، وأما الثالث فالصبر خير ما استعمله الممتحن، وأما الرابع فإذا لم أصبر فماذا أصنع؟ ولا أعين على نفسي بالجزع، وأما الخامس فقد يكون أشد مما أنا فيه، وأما السادس فمن ساعة إلى ساعة فرج، فبلغ ما قاله كسرى فأطلقه وأعزَّه[(٣)].

ودخل بعض أصحاب الشبلي وهو يجود بنفسه فقالوا له قل: (لا إله إلّا

---

(١) كشكول البهائي: ج٢، ص٢١١.

(٢) أمالي الطوسي: ص٥٨٤، ح١٣؛ البحار: ج٩٠، ص٣٠٣، ح٣٩.

(٣) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٥٠؛ الأنوار البهية: ص٣٢١؛ مستدرك سفينة البحار: ج٦، ص١٦٣.

الله) فأنشأ يقول:

إنَّ بيتـاً أنـت ساكنـه غـير محتاج إلى السـرج
وجهـك المأمـول حجتنـا يوم تـأتي النـاس بالحجـج
لا أتـاح الله لي فرجـاً يـوم ادعـو منـك بالفـرج[(١)]

أمّا تكذيب وعده فإطلاقه يشمل ما كان في القول أو العمل، ووجه قطعه الرجاء هو الكفر؛ لأنه ستر وتعام عن الحق؛ بداهة أن التكذيب بوعده عزَّ وجل من أجلى مراتبه، وحيث إن جزاء الكفر مثله يحرمه الله سبحانه من فضله ورحمته.

(١) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٣٧؛ تاريخ مدينة دمشق: ح٦٦، ص٧٧.

﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لي كُلَّ ذَنْب أَذْنَبْتُهُ،
وَكُلَّ خَطيئَة أَخْطَأتُها﴾

الخطايا والذنوب

في الصحاح والمجمع الخطيئة على وزن فعيلة: الإثم، والجمع خطايا[1]، وهي والذنب من قبيل الظرف والجار والمجرور، وفي صورة الاجتماع يفترقان باللحاظ.

فإن الخطأ في اللغة: العدول عن الجهة كما في المفردات[2]، ولكن ينبغي تقييدها بالمناسبة، أو تعريفها بتخطي الجهة ليكون تاماً، وفي مجمع البيان: العدول عن الغرض الحكمي بقصد أو غير قصد[3]، ويتحقق ذلك في الاعتقادات، والأفعال، والأقوال، وفي مقام العمل له مراتب ثلاث:

الأولى: المعصية، وهو ما يقع عن علم وعمد. قال: **﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾**[4] وقال سبحانه: **﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾**[5] وفي إقرار أخوة يوسف عليه السلام بما فعلوا قال عز وجل: **﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾**[6] وهذا المعنى هو ما يتفق فيه مع الذنب.

---

(١) الصحاح: ج١، ص٤٧، (خطأ)؛ مجمع البحرين: ج١، ص١٢٥، (خطأ)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢٤٢، (خطئ)؛ مختار الصحاح: ص١٠١، (خ ط أ).

(٢) مفردات الراغب: ص١٥١، (خطا).

(٣) مجمع البيان: ج٥، ص٣٨٩، تفسير الآية ٢٩ من سورة يوسف.

(٤) سورة النساء: الآية ١١٢.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٣١.

(٦) سورة يوسف: الآية ٩١.

الثانية: الخطأ في العمل، وهو ما يصطلح عليه الفقهاء بالخطأ في التطبيق، ويراد به أن الفاعل يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه خلاف ما يريد جهلاً كمن رمى صيداً لطعامه فأصاب إنساناً، فالنية والإرادة حسنتان، ولكن أخطأ في الفعل وهو المقصود بالرفع في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[(١)] وقوله ﷺ: ﴿رفع عن أمتي تسعة الخطأ والنسيان...﴾[(٢)] وقولهم: ﴿من اجتهد فأخطأ فله أجر﴾[(٣)] هذا من حيث التكليف، وأما من حيث الوضع فقد اختلفوا فيه. قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مؤمنة﴾[(٤)].

الثالثة: التجرّي، ويراد به العدول في النية والإرادة عن الصواب، ولا يطابق الواقع، كمن شرب السائل بنية الخمرة قاصداً لها فتبيّن أنه ماء، وحيث إنه يتضمن الجرأة على المولى وهتك حرمته عبّر عنه بالتجّري، وفاعله مذموم بقصده هذا، وفعله قبيح، ولكن في عدِّه من الذنوب أو لا خلاف بين الفقهاء والأصوليين، فجماعة منهم ذهبوا إلى الحرمة[(٥)]، بل

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥.

(٢) التوحيد: ص٣٥٣، ح٢٤؛ الخصال: ص٤١٧، ح٩.

(٣) مفردات الراغب: ص١٥١، (خطأ)؛ تفسير الآلوسي: ج١٢، ص٢٢٥.

(٤) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٥) كفاية الأصول: ص٢٥٩، حقائق الأصول: ج٢، ص١٠؛ وانظر الأصول: ج٥، ص٨٢؛ أجود التقريرات: ج٢، ص٥٥؛ والأصول في علم الأصول: ج٢، ص٢١٧.

ادعي عليه الإجماع[١]، وذهب جماعة إلى العدم بعد الاتفاق على الذم والتقبيح[٢]، ولعل هذا المعنى هو الذي أراده الشاعر في قوله:

أردت مساءتي فأجْرَتْ مسرّتي وقد يحسن الإنسان من حيث لا يدري[٣]

والحق هو الأول، وتحقيق الحال فيه في الأصول. هذا إذا أخذت من الخطأ وهو نقيض الصواب[٤].

وربما تكون من الخطو أي المشي، مأخوذ من خطو القدم من مكان إلى مكان حتى يبلغ مقصده، وجمعه خطوات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[٥] أي أعماله، وقيل وساوسه، وقيل خطاياه[٦]، وعليه تكون أقوى من الذنب، فإن الذنب إذا مشى به صاحبه وصار مستحكماً فيه وعد من ملكاته يكون خطيئة، وفي الأخبار الشريفة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان أبي عليه السلام يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة. إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله»[٧].

---

(١) فرائد الأصول: ج١، ص٣٧-٣٨.

(٢) فرائد الأصول: ج١، ص٣٩، الأصول: ج٥، ص٨٧.

(٣) مفردات الراغب: ص١٥١، (خطأ).

(٤) مجمع البيان: ج٣، ص١٥٥، تفسير الآية ٩٢ من سورة النساء.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٦٨.

(٦) انظر مجمع البيان ج١، ص٤٦٧-٤٦٨، تفسير الآية ١٦٨ من سورة البقرة؛ مجمع البحرين: ج١، ص١٢٥، (خطا).

(٧) الكافي: ج٢، ص٢٦٨، ح١.

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً»[١].

وأما الذنب فلوحظ فيه العاقبة أيضاً في اللغة، ولعله في الشرع كذلك، فهو في الأصل الأخذ بذنب الشيء اعتباراً لما يحصل من عاقبته[٢]. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾[٤] وقال وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾[٥] بفتح الذال -كرسول- أي نصيب من العذاب مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون المهلكة نحو قوم نوح وعاد وثمود[٦].

ومن ذلك يعرف أن المراد من الذنب هو الرتبة الأولى من الخطيئة لا جميع مراتبها. إما لعدم صدق الذنب عليها، أو للعفو عنها؛ لكونها غير متعمدة، ويعرف أيضاً وجه عطف الخطيئة على الذنب دون العكس فتأمل.

هذا وقد ذكروا فروقاً عديدة بين الخطيئة والذنب، والأرجح ما ذكرنا[٧].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧١، ح١٣؛ البحار: ج٧٠، ص٣٢٧، ح١٠.

(٢) مفردات الراغب: ص١٨١، (ذنب).

(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٢.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٠.

(٥) سورة الذاريات: الآية ٥٩.

(٦) مجمع البيان: ج٩، ص٢٦٩، تفسير الآية ٥٩ من سورة الذاريات.

(٧) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٢٢١، (٨٥٨).

والحاصل: أن لفظة (كل) والإطلاق في قوله: ﴿**كل ذنب أذنبته**﴾ يشمل جميع الذنوب بأصنافها وأنواعها، فبعضها مالية كالربا، وبعضها بدنية كالزنا، وبعضها قلبية كسوء الظن والنفاق، كما أنها تتوزع على أعضاء البدن وجوارحه، فبعضها يتعلق بالعين، وبعضها باللسان، وبعضها بالأنف إلى غير ذلك. هذا من حيث وقوعها، وأما من حيث الآثار فبعضها يغير النعم، وبعضها ينزل النقم، وبعضها يقطع الرجاء، وبعضها يحبس الدعاء وينزل البلاء، وقد تقدم شرحها، وبعضها يحبس غيث السماء، وقد فسرها الإمام زين العابدين عليه السلام بجملة من الأعمال منها: جور الحكّام، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، ومنع الزكاة، والقرض والماعون، والمعاونة على الظلم، وقساوة القلب على الفقراء وظلم الأرملة واليتيم(١)، وبعضها ما يكشف الغطاء، أي يفضح المستور، وفسرت بالإستدانة بغير نيّة الأداء، والإسراف في النفقة على الباطل، والبخل على الأهل والولد وذوي الرحم، وسوء الخلق، وقلة الصبر، واستعمال الضجر والكسل، والاستهانة بأهل الدين(٢).

وبعضها يظلم الهواء وهي السحر والكهانة والإيمان بالنجوم والتكذيب بالقدر وعقوق الوالدين(٣) إلى غير ذلك من الذنوب الناشئة إما

---

(١) معاني الأخبار: ص٢٧١.

(٢) معاني الأخبار: ص٢٧١.

(٣) المصدر نفسه.

من الحرص أو الحسد أو الشهوة أو الغضب[(١)] ومثله يقال في قولهعليه السلام: ﴿**وكل خطيئة أخطأتها**﴾.

وأما عطف هذه الفقرة الشريفة على ما تقدمها مع أنهعليه السلام ذكر الذنوب التي استغفر منها فربما يعود لوجوه.

منها: أنه لما سأل الله سبحانه المغفرة من الذنوب بالأوصاف المذكورة انصرف عن التوصيف، فقال: ﴿**اللهم اغفر لي كل ذنب أذنبته**﴾ في كل عمري صغيراً أو كبيراً، عمداً أو سهواً، وقولاً أو فعلاً؛ لينقى من كل شائبة، ويتبرأ من كل ما لا يليق به كعبد.

ومنها: لأن جميع الذنوب تشترك في إبعاد العبد عن ربّه، فأعاد الابتهال بالاستغفار منها جميعاً؛ لضمان العفو عنها طراً.

ومنها: لأن تخصيص بعض الذنوب بالذكر قد يوهم انحصار الذنوب، فذكر العام بعدها للدلالة على أنّ معاصيه أكثر؛ لذا يستغفر منها جميعاً من باب ذكر العام بعد الخاص، وهو شائع في الخطابات العرفية، كما يقول القائل أتبرأ من كذب فلان وظلمه وكل أعماله وأقواله ونحو ذلك.

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٢، ص١٠٦، (ذنب).

وهنا ينتهي الجزء الأول ويليه الجزء الثاني ويبدأ بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿اللّهُمَّ إنّي أتَقَرَّبُ إلَيْكَ بِذِكْرِكَ، وَأسْتَشْفِعُ بِكَ إلى نَفْسِكَ﴾.

فهرس الكتاب

فهرس الجزء الأول

كلمات في البدء.. ١١
الفصل التمهيدي ٢٧
المَبْحَثُ الأَوَّلُ: كُمَيْلُ بِنْ زِيَادِ الصَّحَابِيُّ الجَلِيْلُ.................... ٢٩
اسمه الشريف ٣١
نسبه.. ٣٢
لقبه.. ٣٣
علمه وبعض ما جاء من أسئلته للإمامعليه السلام........................ ٣٤
وثاقته رضوان الله تعالى عليه ٣٨
إنه كان ممن سيّرهم عثمان إلى الشام فسمّوا بـ(المسيّرين)................ ٤١
بعض ما كان بينه وبين سرايا معاوية.. ٤٣
نصرته لأمير المؤمنينعليه السلام وثباته.. ٤٦
من روى عنهم ومن روى عنه.. ٤٧
بعض وصايا وإرشادات أمير المؤمنينعليه السلام له (رضوان الله تعالى عليه) ٤٩
استشهاده رضوان الله تعالى عليه.. ٦٤
مكان قبره ومزاره.. ٦٧
دعاؤه سنداً ومتناً ٦٨

المَبْحَثُ الثَّانِي: حَقِيْقَـةُ الدُّعَـاءِ وأهميته وآثاره........ ٧١
أولاً: هل الدعاء عمل مشروع؟........ ٧٣
ثانياً: ما هي الثمار التي تترتب على الدعاء؟ ٨١
ثالثاً: إذا كان التقدير الإلهي هو الحاكم على نظام الكون والإنسان فلماذا الدعاء؟........ ٨٧
فقه الدعاء........ ٩٠
شروط الدعاء........ ٩٥
المَبْحَثُ الثَّالِثُ: في آدَابِ الدُّعَاءِ........ ١٠١
مَتْنُ الدُعاء........ ١٠٧
بسم الله الرحمن الرحيم........ ١١٩
البسملة وأدب الابتداء بها وآثاره........ ١٢١
الاسم........ ١٢٤
الله........ ١٢٧
الرحمن الرحيم........ ١٣٥
﴿اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ١٤٥
رحمة الله الواسعة مفتاح الإفاضة والاستفاضة ١٤٧
﴿وَبِقُوَّتِكَ الَّتي قَهَرْتَ بِها كُلَّ شَيْءٍ، وَخَضَعَ لَها كُلُّ شَيءٍ، وَذَلَّ لَها كُلُّ شَيءٍ﴾........ ١٦١
القوة والقهر........ ١٦٣
دوام القدرة........ ١٧٢

﴿وَخَضَعَ لَهَا كُلُّ شَيءٍ، وَذَلَّ لَهَا كُلُّ شَيءٍ﴾........................ ١٧٥
خضوع الأشياء له سبحانه ١٧٧
﴿وَبِجَبَرُوتِكَ الَّتي غَلَبْتَ بِها كُلَّ شَيءٍ﴾ ١٨٧
جبروت الله سبحانه........................ ١٨٩
﴿وَبِعِزَّتِكَ الَّتي لا يَقُومُ لَهَا شَيءٌ﴾ ١٩١
العزة الإلهية........................ ١٩٣
﴿وَبِعَظَمَتِكَ الَّتي مَلأَتْ (أرْكانَ) كُلَّ شَيءٍ﴾ ١٩٧
معاني العظمة الإلهيّة........................ ١٩٩
تجليات العظمة في أركان الأشياء ٢٠٢
﴿وَبِسُلْطانِكَ الَّذي عَلا كُلَّ شَيءٍ﴾ ٢٠٥
سلطان الله سبحانه........................ ٢٠٧
المعنى الجامع للسلطان........................ ٢١٤
﴿وَبِوَجْهِكَ الْباقي بَعْدَ فَناءِ كُلِّ شَيءٍ﴾........................ ٢١٧
معنى وجه الله الباقي........................ ٢١٩
صور الفناء ٢٢٤
معان أخرى لوجه الله سبحانه........................ ٢٢٦
محمد وآل محمد عليهم السلام هم وجه الله........................ ٢٣١
﴿وَبِأَسْمائِكَ الَّتي مَلأَتْ أرْكانَ كُلِّ شَيءٍ﴾........................ ٢٤٣
أسماء الله التي ملأت أركان الأشياء........................ ٢٤٥
مصاديق الأسماء الإلهية........................ ٢٤٨
مظاهر الأسماء الإلهية ٢٥٤

الأسماء التي تعلّمها آدم عليه السلام ٢٦٥
ما ورد عن آل البيت عليهم السلام في معاني الأسماء........................ ٢٦٨
حقيقة الاسم وأقسامه........................ ٢٧٣
آل محمد عليهم السلام أسماء الله الحسنى........................ ٢٧٦
أصناف الاسماء........................ ٢٧٧
﴿وَبِعِلْمِكَ الَّذي أحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ﴾ ٢٨١
العلم الإلهي ٢٨٣
حقيقة العلم ٢٨٧
العلم الحضوري والحصولي ٢٩١
العلم الفعلي والعلم الانفعالي........................ ٢٩٢
هل يتمكن البشر من إدراك حقيقة صفاته سبحانه؟ ٢٩٤
صفاته تعالى عين ذاته........................ ٢٩٥
ما هي الأدلة على علمه سبحانه؟ ٣٠١
﴿وَبِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي أضاءَ لَهُ كُلُّ شيءٍ﴾ ٣٠٥
وجه الله سبحانه ومعانيه ٣٠٧
المشيئة الإلهية........................ ٣١١
بطلان نظرية العقول العشرة........................ ٣١٢
أولياء الله وحججه هم وجه الله سبحانه ٣١٤
التوسل بآل محمد عليهم السلام ٣٢٠
﴿يا نُورُ يا قُدُّوسُ، يا أوَّلَ الأوَّلِينَ، وَيا آخِرَ الآخِرينَ﴾ ٣٢٥

يا نور يا قدّوس........ ٣٢٧
الأمر الأول: ماذا يعني النور؟........ ٣٢٧
النور عند المتصوفة والعرفاء........ ٣٣٠
مصاديق النور وآثاره........ ٣٣١
الأمر الثاني: ماذا يعني القدّوس؟........ ٣٣٥
لماذا قال عليه السلام يا نور يا قدّوس؟........ ٣٣٨
﴿يا أَوَّلَ الأَوَّلِينَ، وَيا آخِرَ الآخِرينَ﴾........ ٣٤٣
الأوّل والآخر........ ٣٤٥
الفرق بين رجع وصار........ ٣٤٩
لماذا لم يذكر الإمام عليه السلام حوائجه؟........ ٣٥٤
﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ﴾........ ٣٦٧
لماذا طلب المغفرة؟........ ٣٦٩
مراتب الذنوب وآثارها........ ٣٧٣
الأمر الأول: مفهوم الذنب والغفران........ ٣٧٤
كبائر الذنوب........ ٣٧٨
وجه تسمية المعاصي بالذنوب........ ٣٨٥
الأمر الثاني: ﴿تهتك العصم﴾ ماذا يعني؟........ ٣٨٦
الأمر الثالث: ما هي الذنوب التي تهتك العصم؟........ ٣٩٠
الأمر الرابع: لماذا يستغفر المعصوم عليه السلام؟........ ٣٩٤
﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ﴾........ ٤٣٣
نزول النقمات........ ٤٣٥

تجسم الأعمال من زاوية تحليلية........................ ٤٤٧
﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّرُ النِّعَمَ﴾ ٤٥٧
الذنوب التي تغيّر النعم........................ ٤٥٩
كفران النعم........................ ٤٦٤
﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لي الذُّنُوبَ الَّتي تَحْبِسُ الدُّعاءَ﴾ ٤٦٧
في أسباب حبس الدعاء........................ ٤٦٩
﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ الْبَلاءَ﴾ ٤٧١
في معنى البلاء وأسباب نزوله........................ ٤٧٣
﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تقطع الرَّجاءْ﴾........................ ٤٧٩
في أسباب قطع الرجاء........................ ٤٨١
﴿اللّهُمَّ اغْفِرْ لي كُلَّ ذَنْب أذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ خَطيئَة أخْطَأتُها﴾ ٤٨٩
الخطايا والذنوب........................ ٤٩١
فهرس الكتاب........................ ٤٩٩
فهرس الجزء الأول ٤٩٩
فهرس الجزء الثاني........................ ٥٠٥
فهرس الجزء الثالث........................ ٥١٣

فهرس الجزء الثاني

﴿اللّهُمَّ إنّي أتَقَرَّبُ إلَيْكَ بِذِكْرِكَ، وَأسْتَشْفِعُ بِكَ إلى نَفْسِكَ﴾ ١٣
التقرّب بذكر الله سبحانه ١٥
المواظبة على الذكر ١٩
مراتب الذكر ٢٣
﴿وَأَسْأَلُكَ بِجُودِكَ أَنْ تُدْنِيَني مِنْ قُرْبِكَ، وَأنْ تُوزِعَني شُكْرَكَ، وَأنْ تُلْهِمَني ذِكْرَكَ﴾ ٣٧
الشكر والذكر ٣٩
آثار دوام الشكر ٤٣
أقسام الشكر ٤٦
منازل الذاكرين ٥٣
مراتب الذكر ٥٤
﴿اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ سُؤالَ خاضِعٍ مُتَذَلِّلٍ خاشِعٍ أنْ تُسامِحَني وَتَرْحَمَني﴾ ٥٧
سؤال الخاشعين ٥٩
﴿أنْ تُسامِحَني وَتَرْحَمَني﴾ ٦٥
في التنزيه والتحلية ٦٧
﴿وَتَجْعَلَني بِقِسْمِكَ راضِياً قانِعاً، وَفي جَميعِ الأَحْوالِ مُتَواضِعاً﴾ ٦٩
الرضا بالمقدّرات الإلهية ٧١
الرضا بقضاء الله وقدره ٧٢

في القناعة.. ٧٥
حقيقة القناعة وحدودها.. ٧٧
﴿وَفي جَميعِ الْأَحْوالِ مُتَواضِعاً﴾.. ٨٣
دوام التواضع.. ٨٥
﴿اللّٰهُمَّ وَأَسْأَلُكَ سُؤالَ مَنِ اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ﴾.. ٨٩
الفقر إلى الله سبحانه.. ٩١
﴿وَأَنْزَلَ بِكَ عِنْدَ الشَّدائِدِ حاجَتَهُ﴾.. ٩٩
الدعاء عند الشدائد.. ١٠١
﴿وَعَظُمَ فيما عِنْدَكَ رَغْبَتُهُ﴾.. ١٠٥
في الرغبة ومنازل السالكين.. ١٠٧
﴿اللّٰهُمَّ عَظُمَ سُلْطانُكَ﴾.. ١١١
خصوصيات السلطنة الإلهية.. ١١٣
﴿وَعَلا مَكانُكَ﴾.. ١١٥
في علو المراتب الإلهية.. ١١٧
﴿وَخَفِي مَكْرُكَ﴾.. ١٢٣
في المكر الإلهي.. ١٢٥
ما معنى خفاء المكر؟.. ١٢٨
﴿وَظَهَرَ أَمْرُكَ﴾.. ١٣٣
في علو أمر الله سبحانه.. ١٣٥
﴿وَغَلَبَ قَهْرُكَ، وَجَرَتْ قُدْرَتُكَ﴾.. ١٤١

قهر الله وقدرته.. ١٤٣
﴿وَلا يُمْكِنُ الْفِرارُ مِنْ حُكُومَتِكَ﴾ ١٤٥
الحكومة الإلهية.. ١٤٧
﴿أللّهُمَّ لا أجِدُ لِذُنُوبي غافِراً، وَلا لِقَبائِحي ساتِراً، وَلا لِشَيءٍ مِنْ عَمَلِي الْقَبيحِ بِالْحَسَنِ مُبَدِّلاً غَيْرَكَ﴾.. ١٤٩
في تبديل السيئات إلى حسنات.. ١٥١
في إمكان تبديل الصفات الإنسانية ١٥٨
الطريق إلى تغيير الأخلاق.. ١٦٣
﴿لا إلـهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ﴾ ١٦٩
في كلمة التوحيد وآثارها القدسية.. ١٧١
آثار التسبيح المعنوية.. ١٧٨
﴿ظَلَمْتُ نَفْسي، وَتَجَرَّأْتُ بِجَهْلي، وَسَكَنْتُ إلى قَديمِ ذِكْرِكَ لي وَمَنِّكَ عَلَيَّ﴾ ١٨٣
الإقرار بالذنوب وعلو المراتب ١٨٥
﴿وَمَنِّكَ عَلَيَّ﴾.. ١٩٥
المنن الإلهية.. ١٩٧
﴿اللّهُمَّ مَوْلاي كَمْ مِنْ قَبيحٍ سَتَرْتَهُ، وَكَمْ مِنْ فادِحٍ مِنَ الْبَلاءِ أقَلْتَهُ (أمَلْتَهُ) وَكَمْ مِنْ عِثارٍ وَقَيْتَهُ، وَكَمْ مِنْ مَكْرُوهٍ دَفَعْتَهُ، وَكَمْ مِنْ ثَناءٍ جَميلٍ لَسْتُ أهْلاً لَهُ نَشَرْتَهُ﴾.. ٢٠٣
أصناف المنن الإلهية ٢٠٥
الثناء الجميل.. ٢١٧

﴿اللّهُمَّ عَظُمَ بَلائي وَأفْرَطَ بي سُوءُ حالي، وَقَصُرَتْ (قَصَّرَتْ) بي أعْمالي، وَقَعَدَتْ بي أغْلالي، وَحَبَسَني عَنْ نَفْعي بُعْدُ أمَلي (آمالي)، وَخَدَعَتْنِي الدُّنْيا بِغُرُورِها، وَنَفْسي بِجِنايَتِها (بِخِيانَتِها) وَمِطالي﴾ ٢٢١
معالجة القصور الذاتي للبشر ٢٢٣
معالجة الأمراض الروحية ٢٣٢
حقيقة النفس وتجرّدها ٢٥٤
﴿يا سَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أنْ لا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعائي سُوءُ عَمَلي وَفِعالي﴾ ٢٥٩
أسباب موانع الدعاء ٢٦١
موانع إجابة الدعاء ٢٦٩
في طلب المحال ٢٧٣
تصنيف موانع الدعاء ٢٨١
﴿وَلا تَفْضَحْني بِخَفِي مَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ سِرّي﴾ ٢٨٣
الستر والفضيحة ٢٨٥
أصناف الناس ٢٨٦
علامة ذي الوجهين ٢٨٧
﴿وَلا تُعاجِلْني بِالْعُقُوبَةِ عَلى ما عَمِلْتُهُ في خَلَواتي مِنْ سُوءِ فِعْلي وَإساءَتي، وَدَوامِ تَفْريطي وَجَهالَتي، وَكَثْرَةِ شَهَواتي وَغَفْلَتي﴾ ٢٩٣
أثر الولاية والنصب في تبديل الأعمال وانقلابها ٢٩٥
سوء الفعل والإساءة ٣٠٠

أسباب الذنوب.. ٣٠٣
شروط تبدّل الأعمال.. ٣١٣
﴿وَكُنِ اللّهُمَّ بِعِزَّتِكَ لي في كُلِّ الأحْوالِ (فِي الأحوالِ كُلِّها) رَؤوفاً، وَعَلَيَّ في جَميعِ الأُمُورِ عَطُوفاً﴾.. ٣١٩
رأفة الله وعطفه (التوفيق).. ٣٢١
﴿إلـهي وَرَبّي مَنْ لي غَيْرُكَ أَسْأَلُهُ كَشْفَ ضُرّي وَالنَّظَرَ في أمْري﴾ ٣٢٥
مفتاح التوفيق والعناية الإلهية.. ٣٢٧
﴿إلهي وَمَوْلاي أجْرَيْتَ عَلَي حُكْماً اتَّبَعْتُ فيهِ هَوى نَفْسي وَلَمْ أحْتَرِسْ فيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوّي، فَغَرَّني بِما أهْوى وَأسْعَدَهُ على ذلِكَ الْقَضاءُ، فَتَجاوَزْتُ بِما جَرى عَلَي مِنْ ذلِكَ بَعْضَ حُدُودِكَ، وَخالَفْتُ بَعْضَ أوامِرِكَ﴾ ٣٣١
أثر القضاء والقدر في مصير العبد.. ٣٣٣
العلم والقضاء والقدر.. ٣٣٦
﴿فَلَكَ الْحَمْدُ (اَلْحُجَّةُ) عَلَيَّ في جَميعِ ذلِكَ﴾.. ٣٤١
كمال الحجة وفلسفة الابتلاء.. ٣٤٣
﴿وَلا حُجَّةَ لي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُكَ، وَأَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ﴾.. ٣٤٧
الحجة التامة.. ٣٤٩
﴿وَقَدْ أَتَيْتُكَ يا إلـهي بَعْدَ تَقْصيري وَإسْرافي على نَفْسي مُعْتَذِراً نادِماً مُنْكَسِراً مُسْتَقيلاً مُسْتَغْفِراً﴾.. ٣٥٣
أثر التوبة في سعادة الإنسان.. ٣٥٥
مراتب التوبة.. ٣٥٨

خصوصيات التوبة الصادقة........................٣٦٢
﴿مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِناً مُعْتَرِفاً﴾ ٣٧١
التوبة عهدٌ بين العبد وربّه........................٣٧٣
﴿لا أجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنّي وَلا مَفْزَعاً أتَوَجَّهُ إلَيْهِ في أمْري غَيْرَ قَبُولِكَ عُذْري وَإدْخالِكَ إيّايَ في سَعَةٍ (مِنْ) رَحْمَتِكَ﴾........................٣٧٥
الفرار إلى الله ومراتبه........................٣٧٧
﴿اللّـهُمَّ (إلـهي) فَاقْبَلْ عُذْري، وَارْحَمْ شِدَّةَ ضُرّي، وَفُكَّني مِنْ شَدِّ وَثاقي﴾ ٣٨١
قاعدتان للوصول إلى مقام القرب........................٣٨٣
﴿يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَني وَرِقَّةَ جِلْدي وَدِقَّةَ عَظْمي﴾........................٣٨٧
العبوديّة والربوبيّة........................٣٨٩
﴿يا مَنْ بَدَأَ خَلْقي وَذِكْري وَتَرْبِيَتي وَبِرّي وَتَغْذِيَتي﴾ ٣٩٥
مراحل إنشاء الخلق وتربيته........................٣٩٧
﴿هَبْني لِابْتِداءِ كَرَمِكَ وَسالِفِ بِرِّكَ بي﴾ وفي بعض النسخ: ﴿ومنّك عليّ﴾
........................٤٠٥
الربوبية والعبودية نزولاً وصعوداً........................٤٠٧
﴿يا إلـهي وَسَيِّدي وَرَبّي، أتُراكَ مُعَذِّبي بِنارِكَ بَعْدَ تَوْحيدِكَ﴾ ٤١١
مراتب التوحيد والموحدين........................٤١٣
﴿بَعْدَ تَوْحيدِكَ﴾........................٤١٩
درجات التوحيد........................٤٢١

التوحيد الفطري ٤٢٥
وحدة التشريع وربوبيّته ٤٢٨
توحيد المحبّة ٤٣٠
﴿وَبَعْدَ مَا انْطَوى عَلَيْهِ قَلْبي مِنْ مَعْرِفَتِكَ، وَلَهِجَ بِهِ لِساني مِنْ ذِكْرِكَ، وَاعْتَقَدَهُ ضَميري مِنْ حُبِّكَ﴾ ٤٣٣
أبواب العبودية وصفات العابدين ٤٣٥
الذكر وأقسامه ٤٤٤
مراحل الذكر الحقيقي ٤٤٨
خصوصيات الذكر ٤٥٠
علامات المحبة ٤٥٧
الحبُ والاتباع ٤٦١
﴿وَبَعْدَ صِدْقِ اعْتِرافي وَدُعائي خاضِعاً لِرُبُوبِيَّتِكَ﴾ ٤٦٧
صدق العبد والعبودية ٤٦٩
مراتب الصدق ٤٧١
﴿هَيْهاتَ أَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ تُضَيِّعَ مَنْ رَبَّيْتَهُ، أَوْ تُبْعِدَ (تُبَعِّدَ) مَنْ أَدْنَيْتَهُ، أَوْ تُشَرِّدَ مَنْ آوَيْتَهُ، أَوْ تُسَلِّمَ إِلَى الْبَلاءِ مَنْ كَفَيْتَهُ وَرَحِمْتَهُ﴾ ٤٧٥
حسن الظن بالله ٤٧٧
الفهرس ٤٨٥

فهرس الجزء الثالث

﴿وَلَيْتَ شِعْري يا سَيِّدي وَإِلـهي وَمَوْلايَ أَتُسَلِّطُ النّارَ عَلى وُجُوه خَرَّتْ لِعَظَمَتِكَ ساجِدَةً﴾.. ١٣
مراتب السجود وآثاره ١٥
طرق الخلاص من النار ١٧
﴿وَعَلى أَلْسُن نَطَقَتْ بِتَوْحيدِكَ صادِقَةً، وَبِشُكْرِكَ مادِحَةً، وَعَلى قُلُوب اعْتَرَفَتْ بِإِلهِيَّتِكَ مُحَقِّقَةً﴾ ٢١
عبودية الجوارح والجوانح.. ٢٣
﴿وَعَلى ضَمائِرَ حَوَتْ مِنَ الْعِلْمِ بِكَ حَتّى صارَتْ خاشِعَةً﴾.. ٢٩
العلماء الربانيّون وخشوع القلب.. ٣١
﴿وَعَلى جَوارِحَ سَعَتْ إِلى أَوْطانِ تَعَبُّدِكَ طائِعَةً﴾.. ٤١
طاعة الجوارح ومقوّمات السلوك ٤٣
﴿وَأَشارَتْ بِاسْتِغْفارِكَ مُذْعِنَةً، ما هكَذَا الظَّنُّ بِكَ، وَلا أُخْبِرْنا بِفَضْلِكَ عَنْكَ يا كَريمُ﴾.. ٤٩
مقام العليّين ٥١
﴿يا رَبِّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفي عَنْ قَليلٍ مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا وَعُقُوباتِها﴾........ ٥٧
الأسماء والصفات.. ٥٩
﴿وما يَجْري فيها مِنَ الْمَكارِهِ عَلى أَهْلِها، عَلى أَنَّ ذلِكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ، قَليلٌ مَكْثُهُ، يَسيرٌ بَقاؤُهُ، قَصيرٌ مُدَّتُهُ، فَكَيْفَ احْتِمالي لِبَلاءِ الآخِرَةِ وَجَليلِ

(حُلُولِ) وُقُوعِ المَكارِهِ فيها، وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ، وَيَدُومُ مَقامُهُ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْ أَهْلِهِ﴾ ٧١
خصوصيّات مكاره الدنيا والآخرة ٧٣
﴿لِأَنَّهُ لا يَكُونُ إِلّا عَنْ غَضَبِكَ وَانتِقامِكَ وَسَخَطِكَ، وَهذا ما لا تَقُومُ لَهُ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ﴾ ٨٩
سبب خلود العذاب ٩١
﴿يا سَيِّدي فَكَيْفَ لي (بي) وَأَنَا عَبْدُكَ الضَّعيفُ الذَّليلُ الْحَقيرُ الْمِسْكينُ الْمُسْتَكينُ؟﴾ ٩٥
حالات العبد وسمات العبودية ٩٧
﴿يا إلهي وَرَبِّي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ لِأَيِّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَشْكُو وَلِما مِنْها أَضِجُّ وَأَبْكي، لِأَلِيمِ الْعَذابِ وَشِدَّتِهِ، أَمْ لِطُولِ الْبَلاءِ وَمُدَّتِهِ﴾ ١٠٣
درجات الشكوى والبكاء ١٠٥
﴿فَلَئِنْ صَيَّرْتَنى لِلْعُقُوباتِ مَعَ أَعْدائِكَ، وَجَمَعْتَ بَيْني وَبَيْنَ أَهْلِ بَلائِكَ، وَفَرَّقْتَ بَيْني وَبَيْنَ أَحِبّائِكَ وَأَوْلِيائِكَ﴾ ١١١
مراتب العقوبة ١١٣
﴿فَهَبْني يا إلهى وَسَيِّدي وَمَوْلايَ وَرَبِّي صَبَرْتُ عَلى عَذابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلى فِراقِكَ ؟﴾ ١١٥
أشد ما يؤلم العبد ١١٧
﴿وَهَبْني (يا إلهي) صَبَرْتُ عَلى حَرِّ نارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلى كَرامَتِكَ﴾ ١٣٥

الحرمان من كرامة الله سبحانه........................ ١٣٧
﴿أمْ كَيْفَ أسْكُنُ فِي النّارِ وَرَجائي عَفْوُكَ﴾........................ ١٤١
بين الرجاء والعزة........................ ١٤٣
﴿فَبِعِزَّتِكَ يا سَيِّدى وَمَوْلايَ أُقْسِمُ صادِقاً لَئِنْ تَرَكْتَني ناطِقاً لأَضِجَّنَّ إِلَيْكَ بَيْنَ أَهْلِها ضَجيجَ الآمِلينَ، وَلأَصْرُخَنَّ إِلَيْكَ صُراخَ الْمُسْتَصْرِخينَ، وَلأَبْكِيَنَّ عَلَيْكَ بُكاءَ الْفاقِدينَ﴾........................ ١٤٥
أحوال أهل النار........................ ١٤٧
﴿وَلأُنادِيَنَّكَ أَيْنَ كُنْتَ يا وَلِيَّ الْمُؤْمِنينَ﴾........................ ١٥١
معنى الإيمان ومراتبه........................ ١٥٣
﴿يا غايَةَ آمالِ الْعارِفينَ، يا غِياثَ الْمُسْتَغيثينَ، يا حَبيبَ قُلُوبِ الصّادِقينَ، وَيا إلهَ الْعالَمينَ﴾........................ ١٥٧
المعرفة وأوصاف العارفين........................ ١٥٩
خصوصيات العارفين........................ ١٦٠
الأول: في معنى المعرفة........................ ١٦٠
الثاني: صفات العارف........................ ١٦٥
الثالث: في فرق العارف عن الزاهد والعابد........................ ١٦٧
﴿أَفَتُراكَ سُبْحانَكَ يا إلهى وَبِحَمْدِكَ تَسْمَعُ فيها صَوْتَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ سُجِنَ (يُسْجَنُ) فيها بِمُخالَفَتِهِ، وَذاقَ طَعْمَ عَذابِها بِمَعْصِيَتِهِ، وَحُبِسَ بَيْنَ أَطْباقِها بِجُرْمِهِ وَجَريرَتِه﴾........................ ١٧١
مراتب العصاة وعذابهم........................ ١٧٣
﴿وَهُوَ يَضِجُّ إِلَيْكَ ضَجيجَ مُؤَمِّلٍ لِرَحْمَتِكَ، وَيُناديكَ بِلِسانِ أَهْلِ تَوْحيدِكَ،

وَيَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِرُبُوبِيَّتِكَ﴾........................ ١٨١
دعاء أهل التوحيد........................ ١٨٣
﴿(يا مَوْلايَ) فَكَيْفَ يَبْقى فِي الْعَذابِ وَهُوَ يَرْجُو ما سَلَفَ مِنْ حِلْمِكَ، أَمْ كَيْفَ تُؤْلِمُهُ النّارُ وَهُوَ يَأْمُلُ فَضْلَكَ وَرَحْمَتَكَ، أَمْ كَيْفَ يُحْرِقُهُ لَهيبُها وَأَنْتَ تَسْمَعُ صَوْتَهُ وَتَرى مَكانَه﴾........................ ١٨٥
كيف يعذّبه الحليم؟........................ ١٨٧
هل النار حارقة أم مؤلمة؟........................ ١٨٨
﴿أَمْ كَيْفَ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ زَفيرُها وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفَهُ﴾........................ ١٩١
زفير جهنم وعذابها........................ ١٩٣
﴿أَمْ كَيْفَ يَتَقَلْقَلُ (يتغلغل) بَيْنَ أَطْباقِها وَأَنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ﴾........................ ١٩٧
التغلغل في طبقات النار........................ ١٩٩
﴿أَمْ كَيْفَ تَزْجُرُهُ زَبانِيَتُها وَهُوَ يُناديكَ يا رَبَّهُ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُو فَضْلَكَ في عِتْقِهِ مِنْها فَتَتْرُكُهُ فيها؟﴾........................ ٢٠١
زبانية جهنم........................ ٢٠٣
﴿هَيْهاتَ ما ذلِكَ الظَّنُ بِكَ وَلاَ الْمَعْرُوفُ مِنْ فَضْلِكَ، وَلا مُشْبِهٌ لِما عامَلْتَ بِهِ الْمُوَحِّدينَ مِنْ بِرِّكَ وَإِحْسانِكَ﴾........................ ٢٠٩
حسن الظن بالله سبحانه........................ ٢١١
﴿فَبالْيَقينِ أَقْطَعُ لَوْ لا ما حَكَمْتَ بِهِ مِنْ تَعْذيبِ جاحِديكَ، وَقَضَيْتَ بِهِ مِنْ إِخْلادِ مُعانِديكَ لَجَعَلْتَ النّارَ كُلَّها بَرْداً وَسَلاماً، وَما كانَ لِأَحَد فيها مَقَرّاً وَلا مُقاماً﴾........................ ٢١٣

تبدل النار إلى سلام ٢١٥

معنى الناصبي ٢٢٠

هل الموت كبش؟ ٢٢٤

كيف تكون النار سلاماً؟ ٢٢٨

﴿لكِنَّكَ تَقَدَّسَتْ أَسماؤُكَ أَقْسَمْتَ أنْ تَمْلأها مِنَ الْكافِرينَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعينَ وَأنْ تُخَلِّدَ فيهَا الْمُعانِدينَ﴾ ٢٣١

قدسيّة الأسماء (الشرك الخفي والجلي) ٢٣٣

مراتب الكفر ٢٣٣

كيف يُعذّب الجن بالنار ؟ ٢٤١

سبب خلود المعاند في النار ٢٤٣

﴿وَأنْتَ جَلَّ ثَناؤُكَ قُلْتَ مُبْتَدِئاً، وَتَطَوَّلْتَ بِالإنعامِ مُتَكَرِّماً، أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾ ٢٤٥

مزايا المؤمنين ٢٤٧

﴿إلهي وَسَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِالْقُدْرَةِ الَّتي قَدَّرْتَها، وَبِالْقَضِيَّةِ الَّتي حَتَمْتَها وَحَكَمْتَها، وَغَلَبْتَ مَنْ عَلَيْهِ أجْرَيْتَها أنْ تَهَبَ لي في هذِهِ اللَّيْلَةِ وَفي هذِهِ السّاعَةِ كُلَّ جُرْم أجْرَمْتُهُ، وَكُلَّ ذَنْب أذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ قَبيح أسْرَرْتُهُ﴾ ٢٥٣

آل محمد عليهم السلام قدرة الله تعالى ومشيئته ٢٥٥

﴿وَكُلَّ جَهْل عَمِلْتُهُ، كَتَمْتُهُ أَوْ أَعْلَنْتُهُ، أَخْفَيْتُهُ أَوْ أَظْهَرْتُهُ﴾ ٢٦٥

مراتب الجهل ٢٦٧

﴿وَكُلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتَ بِإثْباتِهَا الْكِرامَ الْكاتِبينَ الَّذينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ ما يَكُونُ مِنّي﴾ ٢٦٩

بين يدي الكرام الكاتبين ٢٧١
﴿وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوارِحي﴾ ٢٧٥
شهادة الملائكة والجوارح ٢٧٧
﴿وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرائِهِمْ، وَالشّاهِدَ لِما خَفِيَ عَنْهُمْ﴾ ٢٨٣
الذنوب المخفية ٢٨٥
﴿وَبِرَحْمَتِكَ أَخْفَيْتَهُ، وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ، وَأَنْ تُوَفِّرَ حَظّي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ أَنْزَلْتَهُ (تُنَزِّلُهُ) أَوْ إِحْسانٍ فَضَّلْتَهُ، أَوْ بِرٍّ نَشَرْتَهُ (تَنْشُرُهُ) أَوْ رِزْقٍ بَسَطْتَهُ (تَبْسُطُهُ) أَوْ ذَنْبٍ تَغْفِرُهُ، أَوْ خَطَأٍ تَسْتُرُهُ﴾ ٢٨٩
العطاء التفضّلي ٢٩١
﴿يا رَبِّ.. يا رَبِّ.. يا رَبِّ﴾ ٢٩٩
ما السر في تكرار يا ربّ؟ ٣٠١
﴿يا إِلهي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ وَمالِكَ رِقّي، يا مَنْ بِيَدِهِ ناصِيَتي، يا عَليماً بِضُرّي (بِفَقْري) وَمَسْكَنَتي، يا خَبيراً بِفَقْري وَفاقَتي﴾ ٣٠٣
عبودية العبد وخضوعه ٣٠٥
﴿يا رَبِّ.. يا رَبِّ.. يا رَبِّ.. أَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ وَقُدْسِكَ وَأَعْظَمِ صِفاتِكَ وَأَسْمائِكَ أَنْ تَجْعَلَ أَوْقاتي مِنَ (فِي) اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بِذِكْرِكَ مَعْمُورَةً، وَبِخِدْمَتِكَ مَوْصُولَةً، وَأَعْمالي عِنْدَكَ مَقْبُولَةً حَتّى تَكُونَ أَعْمالي وَأَوْرادي (وَإِرادَتي) كُلُّها وِرْداً واحِداً، وَحالي في خِدْمَتِكَ سَرْمَداً﴾ ٣١٣
مقامات الربوبية والعبودية ٣١٥
ما يحتاجه العبد العارف ٣١٨

﴿يا سَيِّدي يا مَنْ عَلَيْهِ مُعَوَّلي، يا مَنْ إِلَيْهِ شَكَوْتُ أحْوالي، يا رَبِّ.. يا رَبِّ.. يا رَبِّ..﴾ ٣٢٩
أهم ما يسأله العبد ٣٣١
﴿قَوِّ عَلى خِدْمَتِكَ جوارِحي، وَاشْدُدْ عَلَى الْعَزيمَةِ جَوانِحي﴾ ٣٣٣
خدمة الجوارح والجوانح ٣٣٥
﴿وَهَبْ لِيَ الْجِدَّ في خَشْيَتِكَ، وَالدَّوامَ فِي الإتِّصالِ بِخِدْمَتِكَ﴾ ٣٤١
خشية الله على قدر معرفته ٣٤٣
﴿حَتّى أَسْرَحَ إِلَيْكَ في مَيادينِ السّابِقينَ، وَأُسْرِعَ إِلَيْكَ فِي الْبارِزينَ (الْمُبادِرينَ) وَأَشْتاقَ إلى قُرْبِكَ فِي الْمُشْتاقينَ، وَأَدْنُوَ مِنْكَ دُنُوَّ المخْلِصينَ، وَأخافَكَ مَخافَةَ الْموقِنينَ، وَأجْتَمِعَ في جِوارِكَ مَعَ الْمُؤْمِنينَ﴾ ٣٥١
منازل العبودية ٣٥٣
﴿اللّهُمَّ وَمَنْ أرادَني بِسُوءٍ فَأرِدْهُ، وَمَنْ كادَني فَكِدْهُ، وَاجْعَلْني مِنْ أحْسَنِ عَبيدِكَ نَصيباً عِنْدَكَ، وَأقْرَبِهِمْ مَنْزِلَةً مِنْكَ، وَأخَصِّهِمْ زُلْفَةً لَدَيْكَ، فَإِنَّهُ لا يُنالُ ذلِكَ إلّا بِفَضْلِكَ﴾ ٣٥٩
لذّة المناجاة ٣٦١
مراتب السلوك ٣٦٦
اطلبوا الأحسن واتركوا الإيثار ٣٧٠
﴿وَجُدْ لي بِجُودِكَ، وَاعْطِفْ عَلَيَّ بِمَجْدِكَ، وَاحْفَظْني بِرَحْمَتِكَ، وَاجْعَلْ لِساني بِذِكْرِكَ لَهِجاً، وَقَلْبي بِحُبِّكَ مُتَيَّماً﴾ ٣٧٣
أهم صفات الأولياء ٣٧٥
﴿وَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْنِ إجابَتِكَ﴾ ٣٨١

أدب الدعاء وحسن الإجابة والمن ٣٨٣
أنواع إجابة الدعاء ٣٨٣
﴿وَأَقِلْني عَثْرَتي، وَاغْفِرْ زَلَّتي، فَإِنَّكَ قَضَيْتَ عَلى عِبادِكَ بِعِبادَتِك، وَأَمَرْتَهُمْ بِدُعائِكَ، وَضَمِنْتَ لَهُمُ الإجابَةَ﴾ ٣٨٩
معرفة الإمام عليه السلام ٣٩١
﴿فَإِلَيْكَ يا رَبِّ نَصَبْتُ وَجْهي، وَإِلَيْكَ يا رَبِّ مَدَدْتُ يَدي﴾ ٣٩٧
توجيه القصد والنية ٣٩٩
﴿فَبِعِزَّتِكَ اسْتَجِبْ لي دُعائي، وَبَلِّغْني مُنايَ، وَلا تَقْطَعْ مِنْ فَضْلِكَ رَجائي، وَاكْفِني شَرَّ الْجِنِّ وَالإنْسِ مِنْ أَعْدائي﴾ ٤٠١
أهم ما يطلبه العبد ٤٠٣
﴿يا سَريعَ الرِّضا اغْفِرْ لِمَنْ لا يَمْلِكُ إلّا الدُّعاءَ، فَإِنَّكَ فَعّالٌ لِما تَشاءُ﴾ ٤٠٩
سرعة الرضا وضمان الإجابة ٤١١
﴿يا مَنِ اسْمُهُ دَواءٌ، وَذِكْرُهُ شِفاءٌ، وَطاعَتُهُ غِنىً﴾ ٤١٥
بركة الأسماء والأذكار ٤١٧
﴿ارْحَمْ مَنْ رَأْسُ مالِهِ الرَّجاءُ، وَسِلاحُهُ الْبُكاءُ﴾ ٤٢٥
الرجاء والبكاء سلاح الموحّدين ٤٢٧
لماذا الرجاء؟ ٤٢٧
سلاح البكاء ٤٣٠
﴿يا سابِغَ النِّعَمِ، يا دافِعَ النِّقَمِ، يانُورَ الْمُسْتَوْحِشينَ فِي الظُّلَمِ، ياعالِماً لا يُعَلَّمُ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَافْعَلْ بي ما أَنْتَ أَهْلُهُ﴾ ٤٣٣

الاتكال على فضل الله لا عدله.......................... ٤٣٥
﴿يا نور المستوحشين في الظلم﴾......................... ٤٣٨
﴿وافعل بي ما أنت أهله﴾............................... ٤٤١
﴿وَصَلَّى اللهُ عَلى رَسُولِهِ وَالأَئِمَّةِ المَيامينَ مِنْ آلِهِ (أَهْلِهِ) وَسَلَّمَ تَسْليماً كَثيراً﴾
.... ٤٤٣
الصلاة على النبي وآله مبدأ الوجود.................... ٤٤٥
فوائد الصلاة على محمد وآله.......................... ٤٤٥
وجوب ختم الدعاء بالصلوات ٤٥٠
المصادر.. ٤٥٥
الفهرس.. ٤٩١
فهرس الكتاب... ٥٠١
فهرس الجزء الأول ٥٠١
فهرس الجزء الثاني...................................... ٥٠٧
فهرس الجزء الثالث...................................... ٥١٥